

الدكتور القصبى محمود زلط

القرطبي

ومنهجه في التفسير



القرطبي

ومنهجه في النفس

تأليف

الدكتور القسبي محمد زكريا

الأستاذ المساعد

بجامعة الأزهر وقطر



حقوق الطبع محفوظة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار القلم - الكويت - شارع السور - عمارة السور
ص.ب. ٢٠١٤٦ - هاتف ٤٢٥١٦٠ - برقية توزيعكو

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله سيد الخلق أجمعين.

« وبعد » .

فلئن القرآن مادة^(١) لا يشبع منها القراء والدارسون بها تناولوا منها وأطالوا الجلوس حولها . بل كلما تناولوا واقتطفوا من ثمارها تفتحت شهيتهم وتجددت هندم الرغبة في الاستزادة . ولا عجب فالقرآن مادة الله وكلامه الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد . ومن هنا كثرت الدراسات حول كتاب الله وتشعبت على مر العصور فظهر من العلماء من تناول إعرابه وظهر منهم تناول أحكامه وظهر منهم من تناول أسباب نزوله ، وظهر منهم من تناول تفسيره .

وفي القرن السابع الهجري نبغ في التفسير عدد من المفسرين كان من بينهم « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي » ولقد اخبرته رسالتي لأنني أهجيت بالقرطبي منذ كنت طالبا : أهجيت في أنه لا يتناول في تفسيره مسألة علمية . ولا يطرق بحثا ولا يقدم مناقشة إلا أجاد في كل ذلك ووفى . وأهجيت في أن مسأله وبحوته ومناقشاته — في كثير من الأحيان —

(١) مادة با.. م: الصنيع يهضمه الانسان فيدعو إليه الناس فكان القرآن صنيع

يهضمه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع .

انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٥ وما بعدها .

لا يخرج بتفسيره إلى حد الاستطراد الملل ، بل تنير الطريق لمن يريد أن يستكشف ألفاظ القرآن ويعرف معانيها . وكنت كلما تقدمت في السن أأس هذه الحقيقة وأحس أن الكتاب موسوعة علمية رائعة . فلما وفقني الله في الدراسات العليا ، وآن لي أن أكتب بحثاً قفز إلى ذهني ذلك الإلهجاب الذي شب معي « بالقرطبي » فلم أتردد أن يكون موضوع هذه الرسالة « القرطبي ومنهجه في التفسير » وبما قوى ذلك في نفسي أتى وجدت هذا الموضوع يسكرا لم يتناوله أحد ولم يكتب عنه باحث .

ولقد قسمت هذه الرسالة إلى ثلاثة أبواب وخاتمة . أما الباب الأول فقد جعلته لدراسة « القرطبي وبيئته » ويتكون هذا الباب من خمسة فصول . ترجمت في الفصل الأول « للقرطبي » وشيوخه ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن أخلاق القرطبي وثقافته ، وفي الفصل الثالث تحدثت عن عقيدته ، وفي الفصل الرابع تناولت الحركة العلمية في عصر « القرطبي » ثم تناولت في الفصل الخامس الأحوال السياسية في عصره أيضاً .

وأما الباب الثاني : فقد عقدته لبيان المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره ، ولدراسة منهجه ، والأسس التي قام عليها ذلك المنهج ، ثم لبيان القيمة العلمية لتفسيره وتأثر المفسرين به ، وجاء هذا الباب في « أحد عشر فصلاً » .

تحدثت في الفصل الأول عن مصادر ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن موقف « القرطبي » من قضية التفسير المأثور والتفسير بالرأى ، ثم تحدثت عن منهجه في التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين .

وفي الفصل الثالث بينت موقف القرطبي من القراءات الشاذة والنوارة وطريقته في كل منهما ، وفي الفصل الرابع تناولت بعض المباحث اللغوية التي استخدمها القرطبي في تفسيره وبينت أنه أبرز كثيرًا من مسائل النحويين وآرائهم ، واعتمد عليها في توضيح الآيات ، ثم تحدثت عن استشاده بالشعر في مجال النحو والألفاظ الغريبة ، وبينت موقفه من الشعر المصنوع والمجهول الذي لا يعرف قائله. وأخيرًا تحدثت عن استشاده بالحديث في هذا المجال وموقفه من هذه القضية .

وفي الفصل الخامس تناولت موقف القرطبي من البلاغة وبينت أنه كان لا يتوسع في الأسرار البلاغية.

وفي الفصل السادس تحدثت عن التفسير الرمزي ، وموقفه من التفسير الرمزي الذي استعملته الصوفية ، وموقفه من التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية ، ثم تحدثت عن أشهر مصادره من التفسير الصوفي .

وفي الفصل السابع تناولت الأحكام في تفسير القرطبي - فتحدثت عن موقف القرطبي من الفقه المالكي ، ومن الفقه المقارن ، ثم من الفقه المبني على أحاديث الخلاف - وبينت أن القرطبي لم يتمصب لمذهب ولم يلتزم بأداة الخصم . بل كان ينصر ما يراه حقًا ، وفي الفصل الثامن بينت أن القرطبي أبرز في تفسيره كثيرًا من قواعد الأصول ولكن لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل عرض لها في صورة تساعد على فهم الأحكام وتوضيحها .

وفي الفصل التاسع تحدثت عن منهج القرطبي في الحديث ، فتناولت موقفه من تخرج الأحاديث ، وموقفه من تصحيح الأحاديث وتضمينها ، وموقفه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

وفي الفصل الماشر تحدث عن موقف القرطبي من الاسرائيليات .
وفي الفصل الحادى عشر تناولت القيمة العلمية لتفسير القرطبي وتأثر
المفسرين به .

أما الباب الثالث والأخير : فقد عقدته لبيان مدى تأثير القرطبي بالقاضى
أبى محمد عبد الحق بن عطية ، وناقشت ما أثير حول هذه القضية .
وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج ، وما ناقشته من
آراء وأثرته من احتمالات .

ولعل أكون قد قدمت بهذا البحث المتواضع للكتبة الإسلامية شيئاً
جديداً .. وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به ، وأن يغفر لى خطئى وتقصيرى
إنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

د . القصبي محمود زلف

الباب الأول

الفرطى ويته

المصطلحات

نشأة القرطبي وشيوخه

لم نشر للراجع التاريخية إلى السنة التي ولد فيها « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح » (١) .. الأنصاري انظر جى القرطبي ، ولكنها تتفق جميعا على السنة التي مات فيها ، بل وتحديد يوم وفاته وأنه كان ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ ، ولقد بحثت كثيرا في كتب التراجم والعلقات على أكثر من مترجم مفصلة حتى أكون منها حلقة كاملة عن حياته ولكنني وجدت لا تشير إلى أسرته ولا تترجم لأبيه ولا تتبع صاحبنا في مراحل حياته بل لم تلق إلا بصيصا من ضوء على حياته كلها لا يمكن أن أفقد من خلاله إلى تكوين هذه الحلقة .

وكنت أسائل نفسي : هل نشأ القرطبي في بيت هز ونعمة أم في بيت فقر ومغربة ؟ وهل نشأ في كنف أبويه أم تربى يتيما أشرف عليه في ينه بهض أقرابه ؟

وعلى فرض أن القرطبي نشأ في كنف أبويه . فهل كان أبوه من العلماء فأشرف بنفسه على تربيته في السنين الأولى من حياته وسقاه من معينه ووجهه هذه الوجهة العلمية أم كان من العامة فأسله إلى الأساتذة والمعلمين ؟ ؟

كنت أسائل نفسي كل هذه التساؤلات فأتابع البحث ولكني أعود بمخني حين . وبينما أنا أقرأ في تفسيره وقع لي فيه همد قوله تعالى « ولا تهسين

(١) فرح بفتح الفاء وسكون الراء وحاء مهملة .

الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(١) » أنه قال في المسألة الخامسة :

« العدو إذا أصبح قوما في منازلهم ولم يملوا به فقتل منهم ، فهل يكون حكمه حكم قتيل للمترك أو حكم ضائر للوتى . وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أدامها الله . أغار العدو — قصه الله — صبيحة الثالث من رمضان للمظلم سنة سبع وعشرين وستائة والناس في أجراتهم على غفلة فقتل وأسروا وكان من جملة من قتل والذي رحمه الله . فسألت شيخنا للقرى الأستاذ أبا جعفر أحمد المروفي بأبي حجة فقال : غسله وصل عليه فإن أباك لم يقتل في المتترك بين الصنفين . ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبي فقال : إن حكمه حكم القتل في المتترك . ثم سألت قاضي الجاهة أبا الحسن على بن قطارال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسله وكفنه وصل عليه ، ففعلت . ثم بعد ذلك وثقت على المسألة في « التبصرة لأبي الحسن النخعي » وغيرها ولو كان ذلك قبل ذلك ما فعلته وكنت دفنته بدسه في ثياب^(٢) .

وأقوى ما يؤخذ من هذا النص أن « القرطبي » نشأ في كنف أبيه ورعايته وأن أباه كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر حصاد أحد المحاصيل يوم قتل مع غيره من المسلمين على يد النصارى بقرطبة سنة ٦٢٧ هـ .

ولقد كانت « قرطبة » في ذلك الوقت تدين بالطاعة لزهيمها « محمد بن يوسف بن هود » « ت سنة ٦٣٥ هـ » الذي استطاع أن يخضع طاعة الموحدين

(١) آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) تهذيب القرطبي ج ٤ ص ٢٧٢ دار الكتاب العربي .

وأن يدهو لنفسه مُنذسنة ٦٢٥ هـ فبايعته « مرسية وماردة وبطايوس وقرطبة » ورأى النصرارى في « ابن هود » عندما توالى طاعة القواهد الأندلسية له خطرا يهددم فأكثروا من الغزوات على أملاكه حتى يحطموا قوته قبل أن تستفحل ، فاستولى ألفونسو التاسع ملك « ليون » على « ماردة وبطايوس » سنة ٦٢٧ هـ وخيرج ابنه فرناندو الثالث في نفس السنة من « قشتالة » بقواته وأتجه جنوبا حتى « فحص غرناطة » وهو أينما صار يخرب القرى وينسف الزروع ويسبي القرية . فلعل النارة التي أشار إليها القرطبي كانت على يد الفشتاليين عندما أتجهوا إلى الجنوب فإن قرطبة تناخم حدودهم وتقع في طريقهم ^(١) .

وأن هذا النص رغم أنه أعطانا شيئا فإن الغموض لا يزال يكتنف حياة « القرطبي » ، ولكنني أستطيع أن أقول أن القرطبي — ولد في عصر الموحدين فإذا فرضنا أنه ولد في الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل ، فإنه يكون قد ولد في عهد الخليفة « يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن » ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ .

وعندما بلغ القرطبي من العمر حدا يسمح له بتلقي التعليم تعلم العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن . وهذه طريقة في التعليم افتردهم — أهل

(١) راجع (الاحاطة في أخبار غرناطة) لسان الدين بن الخطيب ج ٢ ص ٩٢ . وانظر هصر للرايطين والوحيدين في الغرب والاندلس الاستاذ محمد عبد الله هنان ص ٣٩٩ وما بعدها . وانظر خريطة تبين تفكك الدولة للوحدة والدول التي قامت مكانها في نفس المرجع ص ٦٩ . وخريطة تبين انهيار الاندلس وماكسبته للممالك الاسبانية النصرانية ص ٤٩١ . وأن القرطبي بموقفه المربيع — من أن قتيلا الكفار الذي أخذ على عاتقه لا يغفل — يتفق مع كثير من الفقهاء والائمة .

الأندلس وهم في هذا يخالفون سائر الأمصار الإسلامية الأخرى حيث يتعلم الصبيان القرآن وحده أولاً دون سائر العلوم .

ولقد انتقد طريقة الأندلسيين القاضي « أبو بكر بن العربي » « ت ٥٤٣ هـ » ودعا إلى تعليم الصبيان اللغة والشعر أولاً ثم القرآن الكريم لأنه بهذا يسهل عليهم القرآن .

وامتدح « ابن خلدون » طريقة « ابن العربي » ولكنه عاد فبين أن الصبي إذا أقصر على اللغة والشعر حتى يكبر قد يحول بينه وبين تعلم القرآن حائل أو تكثر عليه مشاغل الحياة فيقطع عن المصالح وهنا يفوته تعلم القرآن (١) .

ثم واصل « القرطبي » تعليمه وترقى فيه فتتقل بين حلقات العلم في قرطبة إلى أن غادرها ، ولقد كانت حلقات العلم منتشرة بجميع المدن الأندلسية وكانت المساجد أما كن هذه الحلقات وتماثلنا « كتب التراجم » بمجموعة من الأساتذة تصدروا للتدريس في المساجد وعلى سبيل المثال في ترجمة « عبد الله ابن باديس بن عبد الله بن باديس البصري » فبين ابن « الأبار » أنه نشأ في بلنسية (٢) . وكانت له رحلات علمية إلى « إشبيلية (٣) » وإلى « فاس (٤) » ، التقى فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ثم عاد إلى بلنسية وتصدر للتدريس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٨ .

(٢) بلنسية : بفتح الباء واللام وسكون النون وكسر السين وفتح الياء .
مدينة مشهورة بالأندلس تقع شرق قرطبة .

(٣) إشبيلية : بكسر الهاء وسكون الشين وكسر الباء للوحدة وباء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة عظيمة بالأندلس هربى قرطبة .

(٤) فاس : بالسين للهامة مدينة مشهورة من مدن المغرب .

بالمسجد الجامع وكانت وفاته في شبان سنة ٦٣٢ هـ (١).

ويبدو أنه إلى جانب هذه الحلقات كان يوجد بعض المعاهد العلمية وكلاما يشبه التعليم الجامعي، ولذلك لم يظهر في المدن. أما القرى فكان يقصر فيها على المدارس التي تشبه التعليم الابتدائي والثانوي في عصرنا، وكان هذا أيضا إلى جانب الحلقات والمعاهد في مدن الأندلس: يقول صاحب «الإسلام والحضارة العربية» .

« أنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس وخزائن الكتب وأقاموا في العواصم الجامعات التي كانت وحدها مواطن العلم في أوروبا زمانا طويلا » (٢).

ويؤيد الدكتور «جودت الركابي» ذلك فيقول : « وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالغرب والأندلس وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ومقصد الطلاب من كل فج » (٣).

ويشير القرطبي إلى بعض شيوخه الذين تلقى عليهم قرطبة في حادثة مقتل أبيه ويبدو أنه في هذا الوقت لم يكن قد استكمل دراسته فانه أخذ يسأل ويستفتي . ولكنه أخذ السير وتابعه في هذا الطريق . فقد كانت للأندلسيين هزيمة وثابة تحازم على ذلك في صبر وجلد ، فقد سئل أحد الأندلسيين عن كلمة لغوية فعجز عن معناها أمام من يحفل بمحضته فأقسم أن يقيد رجله

(١) انظر (التكملة) لابي عبد الله محمد بن أبي بكر النضاعي الشهير بابن الأبرح

٢٤ ص ١٣٠

(٢) الإسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد كورد على ص ٢٦٠ ح ١

(٣) في الادب الاندلسي للدكتور جودت الركابي ص ٥٧

بقيد حديد ولا يترعه حق يحفظ (الغريب المصنف) (١) فاتفق أن دخات عليه
أمة في تلك الحال فارتاحت فقال :

ريعت عجوزى أن رأيتى لابسا حلق الحديد ومثل ذلك يروع
قالت جنت فقلت بل هى ممة هى هنصر العلياء والينبوع
سن الفرزدق سنة قبتمتها إلى لما من الكرام تبوع (٢)

وقريب من هذا ما حكى عن (ابن حزم) فإنه لم ينصرف إلى الفقه
انصرافا كلياً في صدر حياته بل كان يدرس الحديث والأدب والأخبار وبعض
العلوم العقلية والفلسفية ومع ذلك كان يناظر فيه ويجادل ولقد قل «الذهبي»
في « تذكرة الحفاظ » عن بعض معاصريه أنه قال : بينما نحن ببلسية ندرس
المذهب — أى مذهب مالك — إذا بأبى حزم يسمعننا ويتعجب ، ثم سأل
الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عنه فاعترض فيه . فقال له بعض
الحاضرين : هذا ليس من متعلاتك . فتأثر ودخل منزله فاعتكف فيه فترة .
وما كان بعد أشهر حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر فيه أحسن مناظرة . قال
فيها : أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب (٣) .

وبهذه المزجة القوية أخذ القرطبي يشق طريق العلم ويسير في دوابه ، ومن
هنا وقعت له المسألة التي استنقى فيها شيوخه ، في كتاب « التبصرة » وغيره .
والنص السابق يوضح لنا أن من جملة شيوخه الذين تنفذ عليهم بقربطية :

(١) كتاب لغوى « لايى هيد القاسم بن سلام » للتولى سنة ٢٢٢ هـ

(٢) نفع الدبيب « للقرى » ج ٢ ص ٢٨٦ . والفرزدق هو الذى من ذلك حيث

قيد وجليه وأقسم ألا يترعها حتى يحفظ القرآن الكريم .

(٣) « ابن حزم » لاستاذنا الشيخ عبد أبوزهرة ص ٣٥

« أبو جعفر أحمد ، المعروف بأبي حجة » ، « وربيح بن عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع بن أبي » أما الأول فهو : أحمد بن محمد بن القيس ويعرف بابن أبي حجة لا بأبي حجة . — فلعل التحريف وقع من النسخ — وهو من أهل قرطبة امتدحه ابن الأبار بأنه كان عالما بالعربية وعلوم القرآن ، ثم ذكر له عدة مؤلفات وبين أن له اختصارا على الصحيحين . ولما سقطت « قرطبة » في أيدي النصارى سنة ٦٣٣ هـ غادرها إلى « إشبيلية » وسكن بها حينئذ اتجه إلى مبرة (١) فأمرته الروم وامتنع بالمذنب وتوفي على أثر ذلك بمبرة سنة ٦٤٣ هـ (٢) .

ولقد تها لهذا الشيخ جملة من الاساتذة الاجلاء منهم : « أبو القاسم خلف ابن بشكوال » (٢) المتوفى سنة ٥٧٨ هـ والقي ألف خمسين تأليفا في أنواع مختلفة . ومنهم « ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء » المتوفى سنة ٥٩٢ هـ كل من أهل قرطبة وكان بارعا في القراءات والحديث عارفا بالفقه والأصول متقدما في علم الكلام والعربية وصفه « صاحب الديباج » (٤) « فقال : « كان كريم الأخلاق حسن القاء جميل المشرة لم ينطو قط على إحنة لمسلم عفيف ، اللسان صادق اللمحة نزيه المهمة كامل المروعة حسن المشاركة في العلوم على تفاريسها » .

(١) مبرة : بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء جزيرة ، في شرق الاندلس .
أبهر مجيب البلدان .

(٢) صهر الرابطين والوحيد في الغرب والاندلس ، القسم الثاني من ٦٧٥ فلا من التكملة لابن الأبار وانظر ابن الجوزي المحدث . رسالة دكتوراه لازميل « أبو العلا علي أبو العلا » نسخة خطية بكتيبة أصول الدين .

(٣) ضبط هذه الكلمة بعض المؤرخين بضم الباء والكاف وضبطها بعضهم بفتح الباء وضم الكاف وادعى « ابن فرحون » أن « ابن خلكان » ضبطها بضم الباء والكاف ولكن « ابن خلكان » ضبطها بفتح الباء وضم الكاف . انظر الديباج للذهب لابن فرحون ص ١١٤ وانظر التكملة لابن الأبار « ص ٥٣ ح ١ وانظر « وفيات لامهان » لابن خلكان ح ٢ ص ١٤ .

(٤) الديباج للذهب ص ٤٧ وما بعدها .

أما الشيخ الثاني فهو : « ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعري » من أهل قرطبة وقاضيها يكنى أبا سليمان يقول عنه « ابن الأبار » « وكان رجلا صالحا هاديا في أحكامه نبيه القدر والبيت » ثم بين أنه كانت له مشاركة في علم الحديث وتحدث بعد ذلك عن خروجه من قرطبة فقال « وخرج من وطنه لما استولى الروم عليه يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال سنة ٦٣٣ هـ فنزل إشبيلية وبها توفي فيها يلقبني أهل إشبيلية » (١).

ولقد توفرت لهذا الشيخ أيضا جملة من الاسانيد الممدودين في العلم والفضل منهم : « أبو محمد بن حوط الله » وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر حوط الله الأنصاري « برز في الحديث والفقه والقراءات والنحو والأدب والشعر . وكان من العلماء العاملين سنيا مجانبيا لأهل البدع والأهواء وتوفي سنة ٦١٢ هـ بفرناطة وأصله من بلنسية ثم نقل إلى « مالقة » ودفن بها . (٢)

ولم تنشر المراجع التي ترجمت لقرطبي إلى هذين الشيخين .

وفي قوله تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » ذكر « القرطبي » أقوال بعض الصحابة بسند أحد شيوخه فقال في المسألة الأولى :

ولما نزلت هذه الآية باذر أبو الحجاج إلى التصدق بماله ابتغاء ثواب ربه، ثم قال :

(١) الشبكة لابن الأبار ج ١ ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٠٦ . وما بعدها وانظر الديباج ص ١٤٢ ومصر

للاباطين واللوحدين القسم الثاني ص ٦٥٧

« أخبرنا الشيخ الفقيه الامام الحديث القاضى أبو طاهر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعري نسباً ومذهباً بقرطبة أعادها الله في ربيع الآخر عام ثمانية وثمانين وستائة قراءة منى عليه قال : أخبرنا أبي بإجازة قال قرأت على أبي بكر عبد العزيز بن خلف ابن مدين الأزدي عن أبي عبد الله بن سعد بن سماه عليه قال حدثنا أبو الحسن على بن مهران قال حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابورى سنة ست وستين وثلاثمائة قال أنبأنا يحيى أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدثنا محمد بن معاوية بن صالح قال حدثنا خلف ابن خليفة عن حميد الأهرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال :

لما نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » قال « أبو الدحداح » يا رسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك . قال : فتأوله . قال : فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستائة نخلة ، ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وهياله فتأادها : يا أم الدحداح قالت : ليبيك ، قال : أخرجى فقد أقرضت ربى عز وجل حائطاً فيه ستائة نخلة (١) .

في هذا النص يذكر القرطبي أحد شيوخه ويذكر أنه أخبره — قراءة منه عليه — بسبب نزول الآية . والقراءة طريق من طرق الرواية ولا خلاف أنها رواية صحيحة سواء كنت أنت القارىء أو غيرك وأنت تسمع أو قرأت في كتاب أو من حفظ أو كان الشيخ يحفظها يقرأ عليه أو يمسك أصله . وأكثر المحدثين يسمون القراءة « هرصاً » لأن القارىء يمرض ما يقرؤه على الشيخ كما يمرض القرآن على إمامه .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٧ آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

واختلف العلماء في القراءة والسباع أيما أقوى؟ فنذهب فريق إلى النسوية بينهما وذهب فريق آخر إلى ترجيح السباع على القراءة وهذا مذهب الجمهور. أما المنهج الثالث فهو ترجيح القراءة على السباع.

وشرط بعض المحدثين وبعض الظاهرية في صحة الرواية بالقراءة بإقرار الشيخ عند تمام السماع بأنه كما قرأه عليه ، والصحيح أن هذا شرط غير لازم كما قال جمهور المحدثين والفتاوى ، ولقد أنكروا ما لك رضى الله عنه على من طلب منه التصريح بالإقرار ولم يجبه إلى طلبه.

قال يحيى بن عبد الله بن بكير : لما عرضنا الموطأ على مالك بن أنس رحمه الله قال له رجل من المغرب : يا أبا عبد الله أحدث به هناك ؟ قال : نعم ، قال : حدثنا مالك ؟ قال : نعم أما رأيته فرغت نفسي لكم وسمعت عرضكم وأقت سقطت وزلة ، فن حدثكم غيري ؟ نعم حدثوا به عني وقولوا حدثنا مالك.

ومن صيغ القراءة : « أخبرنا » ولكن هذا اللفظ إذا استعمل مطلقا فهو من صيغ السماع فإذا استعمل في الرواية بالقراءة فالأحوط أن يستعمل مقيدا . كأن يقول الراوى : أخبرنا بقراءة أو قراءة عليه وأنا أسمع^(١) وهذا يتفق مع ما ذكره القرطبي ، أما الشيخ الذى ذكر أنه قرأ عليه فإن المراجع لم تذكره في جملة شيوخه ، ولم أهنر على ترجمة بهذا الاسم وإنما وقع لى في كتاب « الديباج المنهـب » ترجمة لشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحيم بن أحمد بن

(١) راجع « الاماع للقاضى عياض » بتحقيق الاستاذ سيد حنتر من ٧٠ وما بعدها ومعرفة السنن والآثار للبيهقي بتحقيق الاستاذ سيد حنتر من ٥٨ وتدريب الراوى للسيوطى من ١٣١ وفهرست ابن خير من ١٣ .

ربيع الأشعري ، ويكنى « أباً عامر » قال : « ابن فرحون » في ترجمته : العالم الجليل المحدث الحافظ واحد عصره وفريد دهره ، كان رحمه الله تعالى عالماً من أعلام الأندلس ناصراً لسنّة رادى لأهل الأهواء متكاملاً دقيق النظر صديد البحث سهل للنّاظر شديد التّواضع ، ثم ذكر صاحب الديباج « أنه ولى قضاء الجماعة بقرطبة وخرناتبة » وذكر جملة من شيوخه ، وأنه حدث عن والده العالم المحدث أبى الحسين عبد الرحيم بن ربيع ، وثك في وفاته فقال « وتوفى سنة سبع أو ثمان وثلاثين وستائة » .

ووقع لى في « التّسكيلة » « لابن الأبار » ترجمة الشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعري القرطبي » ويكنى أيضاً « بأبى عامر » قال ابن الأبار وهو يتحدث عنه « سمع من أبيه أبى الحسين » وكان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه نواظر عليه في كتب أبى المالى الجوينى : « الشامل والارشاد » وغير ذلك ثم قال ٠٠ وولى قضاء بلده إلى أن أخذها الروم في سنة ثلاث وثلاثين وستائة فخرج منها فولى قضاء غرناطة وتوفى بمالقة مصروفاً بمال الج أصابه وأفضده سنة ٦٤٠ هـ وقيل توفى في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستائة وولد سنة ٥٥٣ هـ .

ونقل صاحب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » عن ابن الأبار أ كثر ما ذكره في ترجمة هذا الشيخ (١)

ويبدو أن « ابن فرحون » « صاحب الديباج » قد ذكر مسوا أن والده هذا الشيخ يسمى « عبد الرحيم » والأصح أن والده يسمى « عبد الرحمن » (٢)

(١) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، على هامش الديباج المذهب ص ٢٥٥

(٢) انظر في ترجمة والد هذا الشيخ « التّسكيلة » ج ٢ ص ٥٧٦

وهل كل فلان بين ترجمة هذا الشيخ وبين ما ذكره « القرطبي » تشابها كبيرا
فقد قال القرطبي :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي أبو هاجر يحيى بن هاجر بن
أحمد بن منيع الأشمري « فملل الشيخ الذي ترجمت له هو ما هناء القرطبي
وأنه « يحيى بن عبد الرحمن » لا « يحيى بن هاجر » وأن التحريف وقع من
النساج كما وقع في لفظ « منيع » فالأصح أنه « ربيع » فلقد ذكر محقق تفسير
القرطبي أن كثيرا من النسخ الخطية يوجد بها « ربيع » بالراء لا بالميم ، ويبدو
أن هذا الشيخ شقيق شيخ القرطبي السابق ذكره وهو « ربيع بن عبد الرحمن
ابن أحمد بن ربيع بن أبي » فلقد قال « ابن الأبار » في ترجمة « عبد الرحمن بن
أحمد بن ربيع » « من أهل قرطبة ويعرف بأبن أبي » ونرى القرطبي ينسب
شيخه « ربيع ابن عبد الرحمن » إلى هذه الشهرة كما تقدم . وهذا يجعلنا أدرج
أن هذا الشيخ الذي ترجمت له : هو ما هناء القرطبي ، وأن والده يسمى
« عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع » وأن عبد الرحمن هذا هو الشجرة التي تفرع
منها ربيع ، ويحيى فتتولد عليهما القرطبي .

ومن الواضح أنه تتولد على كل هؤلاء الشيوخ قرطبة ، وإلى جانب ذلك
تتولد القرطبي على ما أنتجت قرائع العلماء من مؤلفات في العلوم الدينية ، وعلوم
اللغة والنحو والتاريخ والأدب . ونحن إذا تصفحنا « فهرسة ابن خير » وشيوخ
ابن حنبل ورسالة ابن حزم وتذييلها « طالعنا عدد هائل من هذه المؤلفات ،
واستعطينا أيضاً أن نضع أيدينا على نوهية الثقافة التي كانت شائعة بالاندلس ،
لا في ذلك العصر وحده بل وفي أكثر عصور المسلمين هناك . وأن هذه
الثقافة كانت تنبج إلى العلوم الدينية ، وعلوم اللغة والنحو والتاريخ والأدب .

واستمر القرطبي يدرس ويدرس إلى أن قدم إلى مصر وهو على درجة كبيرة من الثقافة والعلم . يقول الدكتور « أحمد أحد بدوي » في مجلة الرسالة في مقال له عن القرطبي : « ولد بقرطبة من بلاد الأندلس ، وتلقى بها ثقافة واسعة في الفقه ، والنحو ، والقراءات ... ودرس البلاغة وعلوم القرآن واللغة ... ثم قدم إلى مصر » .

ومن حقا أن نتساءل : متى قدم القرطبي إلى مصر ؟

لم تشر كتب التراجم والعلقات أدنى إشارة يمكن على ضوءها أن نجيب على هذا السؤال . ولقد قال الدكتور « أحمد بدوي » في مقاله الذي أشرت إليه سابقا : « ثم قدم — أي القرطبي — إلى مصر ، ولست أدري متى قدم إلى مصر » (١) .

ولكن قد وقع لي في تفسير القرطبي عند قوله تعالى « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججا مستورا » وقع لي أن القرطبي يقول في تفسير هذه الآية : « عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « نبت يدا أبي لهب » أقبلت العمراء أم جميل بنت حرب ولها ولوة وفي يدها فهر — أي حجر — وهي تقول :

مذمما عصينا • وأمره أيننا • ودينه قلينا

والذي تفسيره تأخذ في المسجد معه أبو بكر رضي الله عنه ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، قال رسول الله

ﷺ. «إنها لن تراني» وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال، وقرأ: «وإذا قرأت القرآن جهرنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا» فوقفت على أبي بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أخبرني أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فقلت وعي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. ثم أخذ القرطبي يذكر بعض الآيات التي اعتصم بها رسول الله ﷺ من المشركين ثم قال:

«قلت ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بمحصن منشور من أقال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام المدو وانحزت إلى ناحية منه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض فاهد ليس يبتري عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، ففبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول الآخر: هذا ديبه (١) يعنون شيطانا. وأمر الله عز وجل أبصارهم فلم يروني واحمد الله حمدا كثيرا على ذلك (٢)».

وهذا النص يوضح لنا أن القرطبي هرب أمام المدو ونجاء الله. ولم يحدد لنا القرطبي تاريخ هذه الحادثة. وحاولت كثيرا أن أنف على حصن يسمى «منشور» ومتى وقع في يد الأعداء. وفي أي سنة أغار المدو عليه؟ فلم أهنر على شيء من ذلك. وأخيرا وجدت دائرة المعارف البريطانية تتحدث عن حصن يقع شمال شرق مدينة قرطبة يسمى Montoro «مونتورو» ولكنها لم تقدم لنا شيئا تاريخيا عنه (٣).

(١) لفظة فرنسية معناها جني، وله كذلك في لغة اللاتين.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٩ وما بعدها.

(3) Encyclopaedia Britannica vol. 25, Atlas, map No 47. (Andalusia)

وكذلك قال القاموس الجغرافي العالمي إلا أنه يتحدث عن هدد السكان
وهن الفواكه التي تزرع بهذا البلاد ولم يقدم لنا أيضا شيئا تاريخيا عنه (١).

ولعل هذا الحصن هو ما هناك القرطبي غير أنه يبقى أماننا كثير من
التساؤلات . متى سقط هذا الحصن ، ومتى أغار المدوعلية ، ولماذا ذهب إليه
القرطبي ؟ كل هذه التساؤلات لا نستطيع أن أفصل القول في الإجابة عنها .
وكل ما أستطيع أن أقوله أن أغلب الحصون التي تقع حول قرطبة استولى
الانصارى الأسبانيون عليها ، وذلك ليسهل عليهم اسقاط قرطبة . فلعل هذا
الحصن قد سقط مع هذه الحصون في سنة ٦٣٢ هـ . أو قبل ذلك بقليل (٢).

ولقد كان القرطبي داخل هذا الحصن أثناء حصار الانصارى له لأمر ما .
للقابلة بعض الشيوخ والتقى عنهم ، أو لقضاء حاجة ، أو لزيارة قريب . أو نحو
ذلك . ولما أراد أن يخرج أثناء الحصار تمقبه بعض الأعداء ، فدعاه الله
وعاد إلى قرطبة سالما . وعندما سقطت قرطبة في يوم الأحد الثالث والعشرين
من شهر شوال سنة ٦٣٣ هـ ، غادر أهلها مدينتهم العزيزة بقلوب تفيض حزنا
ولمنا ، وغادروها معهم باحبتنا «أبو عبد الله القرطبي» لكن إلى أين توجه القرطبي
بعد أن غادر قرطبة ؟ هل قدم إلى الديار المصرية مباشرة أم ذهب إلى إشبيلية
واستقر بها إلى أن سقطت هي الأخرى في سنة ٦٤٦ هـ ؟ أم ذهب إلى بلنسية
أو غيرها من القواعد الأندلسية ؟ لا نستطيع أن نحدد ذلك ، وكل ما نستطيع
أن نقوله هو أن القرطبي قدم إلى الاسكندرية بعد خروجه من الأندلس تامة ،
وأقام بها فترة من الزمن قبل أن يستقر بالعبيد .

(١) Grand dictionnaire de Géographie universelle ancienne
et moderne . Paris . vol . 3- P- 860 .

(٢) انظر «سقوط قرطبة» في كتاب «عصر المرابطين والموحدين» القسم الثاني من ٤١١ .

وذلك لأن الاسكندرية تقع في طريق من يقصد صعيد مصر أو يقصد
القاهرة من الأندلسيين . سواء جاءوا عن طريق البر أو عن طريق
البحر . (١)

ولقد تميع أيضاً نقول إن القرطبي جاء إلى الاسكندرية قبل سنة
٦٤٨ هـ . وذلك لأن المراجع التاريخية تبين أنه تلمذ على الأمام المحدث
أبو محمد عبد الوهاب بن رواج ، وكانت وفاة هذا الشيخ في ٩٨ ذى القعدة
سنة ٦٤٨ هـ .

ولقد تلقى القرطبي أثناء مقامه بالاسكندرية ألوانا من الثقافة الإسلامية
بعض الشيوخ الذين تخرجوا في مدرسة الطرطوشي وابن عوف والحافظ السليبي .
فإن المراجع التاريخية تضع أيدينا على أنه في أواخر القرن الخامس الهجري
وحوالى سنة ٥٩٥ هـ قدم الاسكندرية عالم علماء الأندلس وقيه من أكبر
فقهائ المالكية ذلك هو « أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد المذوفي سنة
٥٢٠ هـ » ولقد وصفه صاحب الديباج بقوله « وكان إماما عالم عادلا زاهدا
ورعا دينيا متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها وتقدم في الفقه
مذهبنا وخلافه » .

وكانت الإسكندرية عند قدوم « الطرطوشي » تعيش في حالة رهب
وخوف ، والشعائر الدينية معطلة ، وهذا ما مضطهدون لا يستطيعون الجهر
بالعلم ، لأن التلبية المظلمة منهم يتبعون المذهب المالكي ، والمذهب الشيعي

(١) الطريق من الأندلس إلى الاسكندرية بمرأ . عن طريق البحر الأبيض
وبرا بمقناة الساحل الشالى إلى الاسكندرية ثم يسير المسافر في النيل إلى القاهرة
ثم إلى الصعيد الأعلى حتى مدينة قوص ومن أراد الحج يسير في الصحراء الشرقية
منحيا شرقا صوب هيناب على شاطئ البحر الأحمر ومن هيناب يركب
المراكب إلى جدة ثم إلى مكة فالمدينة .

هو المذهب الرسمي للدولة في ذلك الوقت . ولكن الطرطوشى لم يخف من الفاطميين ، ولم يهرب جانبهم فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك (١) .

ومن تلامذة الطرطوشى : « الطاهر بن هوف اسماعيل بن مسكى للتوفى سنة ٥٨٩ هـ » . قال السيوطى « إنه تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه وتخرج به الأصحاب » وبين صاحب الديباج أنه جمع مع العلم الورع والزهد وكثرة العبادة والتواضع وزراعة النفس .

وابن هوف أول أستاذ لأول مدرسة مرقها الإسكندرية نسبت إليه فهيت بالمدرسة العوفية . وكانت علوم الشريعة مواد الدراسة بها .

كذلك من تلامذة الطرطوشى : « الحافظ السلى وهو أبو الطاهر أحمد ابن محمد بن ابراهيم سلفه الأصبهانى الشافعى للتوفى سنة ٥٧٦ هـ » . أصله من أصبهان ورحل كثيراً فى طلب العلم ثم قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ فتلقه على الطرطوشى تسع سنوات ، وكان السلى من أئمة الحديث والفقه والفتنة ، درس بمسجد الاسكندرية أكثر من عشرين سنة ، قصده العلماء من المشرق والمغرب وزاحم عليه الناس ، فابتنى له « أبو الحسن على بن السلا » مدرسة فى سنة ٥٤٦ هـ هرفت هذه المدرسة باسم للمدرسة السلفية ، وظل يدرس بها حتى آخر لحظة من حياته . قال السبكى « ولم يزل يقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو يرد على القارىء العن الخفى » وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار الفجر وتوفى عتيبه فجأة . ووافق هذا اليوم الخامس من شهر ربيع الأول

(١) انظر الديباج للذهب ص ٢٧٦ طبع الـ امة وانظر اعلام الاسكندرية للشيخ عبد الوهاب بن جلال الدين الشهاب ص ٧٠ .

وبقدم لنا السلفي في معجمه أنه كان إلى جانب تدريس الحديث يقوم بتدريس الفقه والتفسير والتاريخ . ولقد وصفه «ابن خلكان» بكلمة جامعة فقال بعد أن تحدث عن قدومه إلى الاسكندرية « وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسموا عليه وانتفعوا به ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله (١) » .

في هذا الجو العلمي وفي تلك البيئة الثقافية تخرج أكثر شيوخ القروبي الذين تقلد عليهم عصره فكان لذلك أثره في حياته العلمية، ومن هؤلاء الشيوخ الذين تخرجوا في مدرسة الاسكندرية :

« ابن رواج » كان من أئمة الحديث والفقه . قال الذهبي في مفتتح ترجمته « الشيخ الإمام المحدث مسند الاسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن رواج واسمه ظافر بن علي ابن فتوح الأزدي الإسكندراني المالكي . ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة » ثم بين الذهبي أنه من خريجي مدرسة السلفي وابن هوف فقال « كتب لنفسه فأكثر عن السلفي وسمع من أبي الطاهر بن هوف » ثم عاد فامتدحه بقوله « وكان فقيها فطنا دينا متواضعا صحيح السماع أقطع بمرئته شيء كثير » وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين وسبعمائة في الثامن عشر من ذي القعدة (٢) .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ وأعلام الاسكندرية . ويلاحظ أن الدكتور النبال قد ذكر ابن « ابن السلاو » قد بنى له مدرسته سنة ٥٤٤ هـ ، ولكن « ابن خلكان » حدد تلك السنة بأنها سنة ٥٤٦ هـ وسلفه نسبة إلى جده إبراهيم سلفه . بكسر السين وفتح اللام والقاف وفي آخره الهاء وهو لفظ عجمي منناه بالمرى ثلاث شفا لال شته الواحدة كانت مشتوقة فصارت مثل شيتين غير الاخرى الاسمية .

(٢) سير أعلام النبلاء .

ومنهم « ابن الجيزى » (١) وهو العلامة بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله ابن سلامة ابن السلم بن أحمد بن على القضى للمصرى الشافى . كان من أعلام الحديث والفقه والقراءات . وكانت له رحلات هلمية التقي فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ، فسمع بدمشق من أبى القاسم بن هساكر (٢) صحيح البخارى ، وقرأ القراءات المشر على ابن حصرون (٣) كما درس عليه للفقه وأخذ عنه الوسيط والوجيز للواحدى ، وكان ذلك بالشام ، وسمع الحديث ببغداد من شهدة الكتانية (٤) ثم عاد إلى وطنه فتملذ بالاسكندرية على السلفى وابن هوف ، وبمصر على ابن برى النحوى .

ولقد امتدح الذهبي مشيخته فى الحديث . وبين أنه تلقى الحديث على أكبر الحديثين وفضلهم

ولقد امتدحه المؤرخون وأثنوا على أخلاقه وهذه فقال السبكى « وكان الفقيه بهاء الدين خطيب الجامع بالقاهرة ومدرس الديار المصرية وشيخها ورئيس العلماء بهاء درس وأقضى دهره ، وكان كبير القدر رفيع الجاه وافر الحرمة . مظلما عند الخالص والعام » .

ووصفه الذهبي بأنه شيخ الديار المصرية وأنه كان مسدد الفتاوى وافر الجلالة مستند زمانه . وأثنى عليه أستاذه ابن أبى حصرون وألبسه العليسان

(١) الجيزى نسبة إلى الجيز وهو الشجر والاروف بهنم الجيم وفتح اليم الشددة وسكون الياء .

(٢) هو أبو القاسم على بن أحمد بن هبة الله بن عبد الله للتوفى سنة ٥٧١ هـ

(٣) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن أبى حصرون للتوفى سنة ٥٨٥ هـ .

(٤) هي شهدة بنت أبى نصر بن عمر الأبرى نسبة إلى الابرة توفيت سنة ٥٧٠ هـ

تشریفاً له على أقرانه، حدث بذلك ابن الجبزی فقال «ألبسني شيخی ابن أبي
عصرون الطليسان وشرفني على الأفران، وكتب لي بخطه : لما ثبت هندي
علم الولد الفقيه الإمام بهاء الدين أبي الحسن على ابن أبي الفضل وفقه الله
تعالى، ودينه وعدالته رأيت تمييزه من بين أبناء جنسه وتشریفه بالطليسان
والله برزقه الفياض بحقه». وكانت وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة
سنة تسع وأربعين وستائة. ووصف بعض العلماء جنازته فقال : حضرت دفنه
وكان مشهداً عظيماً قل أن يشهد مثله. وكان هناك قارىء يعرف بابن أبي البركات
حسن الصوت جيد القراءة فقرأ هند قبر الفقيه بهاء الدين بعد تسوية التراب
عليه «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه» الآيات التي في سورة الزخرف. وقرأ
بالتأذ في قوله «وإنه لعلم الساعة» بفتح الميم واللام، والله لكان الآيات
نزلت فيه لما مثله الناس من أن موت العلماء من أهلام الساعة وأشرافها فيكي
الناس كثيراً وكثيراً^(١).

وإذا كان ابن الجبزی من أهلام الحديث والفقه والقراءات وكانت له
مشاركة في التفسير كما يؤخذ من كلام المؤرخين. فإن القرطبي قد أخذ منه
ونهل من علمه، لكن هل تتلمذ القرطبي عليه في الفقه.

إن ابن الجبزی كان شافئ المذهب، وكان القرطبي مالكيًا، ومع هذا
فن الجائز أن القرطبي تتلمذ عليه في فقه الشافعية، فالطرطوشى وهو الفقيه
المالكي عندما دخل بغداد تتلمذ على كثير من فقهاء الشافعية^(٢).

(١) راجع في ترجمة ابن الجبزی سير أهلام النبلاء للذهبي ج ١٣ ب لوحة ٢٨٤.
طبقات السبكي ج ٥ ص ١٢٧، شذرات الذهب لابن العماد ح ٥ ص ٧٤٦، ويلاحظ أن
السبكي جبل وفاته في الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٦٤٩ هـ مع أن كل المؤرخين جعلوا
وفاته في الرابع والعشرين من هذا الشهر.

(٢) انظر أهلام الاسكندرية ص ٦٠.

وبين المقرئ أن خواص الفقهاء بالأندلس لم يقتصروا على دراسة مذهب مالك بل كانوا يدرسون سائر المذاهب (١) وعلى هذا فلا يستبعد تلمذة القرطبي لابن الجيزي في الفقه الشافعي .

ومنهم : « أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم المالكي القرطبي » ، ولد بتربة وسمع الكثير هناك ، ثم قدم الاسكندرية فأقام بها وتلمذ على شيوخها . وبعد أن استوى هوده تولى تدريس الحديث والفقه ، فطار صيته واتفق الناس به . وهو وإن لم يتلمذ على السلفي وابن عوف . فإنه هاش في تلك البيئة الثقافية التي أوجدتها مدرسة ابن عوف والسلفي بالاسكندرية . قال صاحب الشنرات في ترجمته : « وكان من كبار الأئمة » . وقال صاحب التلغج عنه « وكان بارعا في الفقه والمرية ، عارفا بالحديث » ووصفه تلميذه شرف الدين الديلملي فقال : « وكان إماما عالما جامعاً لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها » . أما صاحب الديباج فقد قال في حقه « كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث ، وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب » . ومن مؤلفاته : المفهم في شرح مسلم . ولقد امتدح المقرئ هذا الكتاب فقال : « وهو من أجل الكتب ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي رحمه الله في كثير من المواضع ، وفيه أشياء حسنة مفيدة » .

وأخيراً صاحب معجم المؤلفين هندما نسب إليه كتاب « التذكرة » . فإن « التذكرة » ليست من مؤلفاته وإنما هي من مؤلفات صاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » . وتوفي أبو العباس القرطبي في رابع ذى القعدة سنة

(١) انظر نفع الطيب ج ١ ص ١٠٧ ، والى « ابن الجيزي » هو صاحب مخطوط التبصرة .

٦٥٦هـ (١)، وكانت ولادته سنة ٥٧٨ هـ كذلك كان من شيوخ القرطبي :
 « الحسن البكري » — ٥٧٤ — ٦٥٦ هـ وهو الحسن ابن محمد بن محمد بن
 عمروك النيسابوري ثم الدمشقي أبو علي صدر الدين البكري . ولد
 بدمشق وكان كثير الرحلات في طلب العلم حتى أطلق عليه المؤرخون «الرحال» .
 فقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ، وفي « تذكرة الحفاظ » في صدر ترجمته
 الشيخ الإمام المحدث المفيد الرحال « وكذلك قال السيوطي في : طبقات
 الحفاظ » كما بين للمؤرخون أن «البكري» كان له اشتغال بالتاريخ وأنه شرع
 في عمل ذيل لتاريخ ابن صاكر ، ولقد اتهم البكري بالمجون والتخليط . قال
 الذهبي في حقه : « وليس هو بالقوى ، ضعفه عمر بن الحاجب فقال : كان إماما
 عالما لسنا فصيحا ، مليح الشكل ، أحد الرحالين ، إلا أنه كان كثير الخطاوى »
 ههنا مبداهة ومجون . داخل الأمراء وجدد مظالم . سألت الحفاظ ابن هبذ
 الواحد عنه فقال : بلغني أنه كان يقرأ على الشيوخ فإذا أتى على كلمة مشككة ،
 تركها ولم يبينها . وسألت الزكي البرزالي عنه فقال : كان كثير التخليط . ثم
 أصيب هذا الشيخ بالغالج في أخريات حياته ، وكان قد صلح حاله ، فتحول إلى
 مصر ومات بها في ذي الحجة سنة ٦٥٦هـ (٢) .

وإنني لا أدري هل صلحت أحواله ، من الناحية الأخلاقية والعملية أم من
 الناحية الأخلاقية فقط ؟ إن تعليق الذهبي على وصفه «البكري» ، ووصف ابن

(١) راجع في ترجمة أبي السباس القرطبي الديباج للذهب ص ٦٨ ، ونفع الطيب ح ٢
 ص ٥ ومرة الجنان لياضي ج ٤ ص ١٣٨ والبداية والنهاية لابن كثير ح ١٣ ص ٢١٣
 وشذرات الذهب ح ٥ ص ٢٧٣ ومجموع المؤلفين ح ٢ ص ٢٧ والاعلام ح ١ ص ١٧٨ .
 وحسن المحاضرة ح ١ ص ١٩٤ - شجرة النور الزكية .

(٢) راجع في ترجمة البكري : سير أعلام النبلاء ١٣ ب ، تذكرة الحفاظ ح ٤
 ص ١٤٤ ودول الاسلام للذهبي ح ٢ ص ١٢٢ ، الاعلام ح ٢ ص ٢٣٢ .

الحاجب له يدلنا على أنه قد صلح حاله من الناحيتين الأخلاقية والعلمية فإنه قد عقب بقوله « قلت ثم في الآخر صلح حاله وابتلى بالفالج قبل موته بسنوات ثم تحول في آخر عمره إلى مصر فأت بها في ذى الحجة سنة ست وخمسين وسبعمائة » كما يدلنا أيضا على أنه لم يقدم إلى مصر إلا بعد أن صلح حاله . ولعل عبارة السيوطي توضح لنا ذلك أكثر، فإنه قد قال : « وكان إماما عالما أحد الرجالين ، وجدد ، ظالم ثم في الآخر صلح حاله وحصل له فالج فتحول إلى مصر فأت بها في آخر ذى الحجة سنة ٦٦٥ هـ » .

فتلذذ القراطي عليه كانت إذ ذل بعد صلاح أحواله من الناحيتين ، وأغلب ظنى أن القراطي قد تلمذ على شيخه أبي العباس القراطي ، وابن رواج بالإسكندرية . وإن كان هذا الظن يتبدد أمام عبارة شرف الدين الدهيلى فإنه قد قال في حق شيخه أبي العباس القراطي « أخذت عنه وأجاز لي مصنفاته رحمه الله تعالى ، وحدث بالإسكندرية وغيرها » ويتبدد أيضا أمام ما دونه الذهبي من تراجم في كتابه « تاريخ الإسلام » لتلاميذ ابن رواج ، فإن فيها عبارات كثيرة تدلنا على أن ابن رواج حدث بنير الإسكندرية . فتلا في ترجمة « إبراهيم بن يحيى بن يوسف بن طرخان الفقيه برهان الدين السكناوى الصقلانى الحنبلى المعروف فى مصر بالغازى ، ٦٢٣ — ٦٩٩ هـ » .

يقول الذهبي في ترجمته « ولد بقرية . . واشتغل بالقاهرة وسمع بها من عبد الوهاب بن رواج ^(١) » ولكننى رغم هذا أقول لعل القراطي لم ينتقل من الإسكندرية من وقت أن نزل بها إلى أن هاجر منها متجها إلى الصعيد ، وفى تلك المدة التقى بشيخيه وأخذ عنهما ، وإذا كان لهذين الشيخين رحلات داخل

الديار المصرية بقصد التدريس ونشر العلم ، فلما كانت رحلات قصيرة يعودان بعدها إلى الإسكندرية مقامهما ومستقرهما . فإن للراجع كلها يمين أن أبا «أبوالعباس القرطبي» كان نزيل الإسكندرية ، وأن «ابن رواج» كان اسكندريا والله أعلم . كما أن أغلب الظن هندی أن القرطبي تنفذ إلى «ابن الجوزي والبكري» بالقاهرة قبل أن يذهب إلى الصعيد ، فإن القاهرة تقع في طريق من يريد السفر إلى الصعيد من الإسكندرية ، فلعل القرطبي بعد خروجه من الإسكندرية وبعد وصوله إلى القاهرة مكث بها فترة ليلتي بشيوخها وعلمائها ، فالنقي «ابن الجوزي والبكري» ، ويقوى هذا الظن هندی أن «ابن الجوزي» كما يقول «السبكي» كان خطيب الجامع بالقاهرة ، وأن «البكري» قدم في أخريات حياته إلى القاهرة واستوطنها بعد طول تيمول ، وما كان لشيوخ بعض بالفالج أن ينتقل بعد أن حط رحاله واستقر ، والله أعلم .



هؤلاء هم شيوخ القرطبي الذين التقى بهم وأخذ عنهم ، شيوخ برزوا في نواح متعددة من فقه وحديث وتفسير وقراءات ولغة وأدب ، فانكس ذلك على القرطبي وكان له أثر كبير في نضجه وتكوينه ، ولقد أشارت كتب الطبقات إلى هؤلاء الشيوخ وهي ترجم للقرطبي فقال الداودي «سمع من ابن رواج ومن ابن الجوزي ، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شارح مسلم بعضه وأبي علي الحسن بن محمد البكري الحافظ» وقال ابن فرحون مختصرا هذا العدد «سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي مؤلف للفهم في شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن بن محمد بن محمد البكري» أما صاحب النفع ، فإنه وإن اختصر هذا العدد لكنه أتى بشيخ لم يذكره غيره فقال «سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي

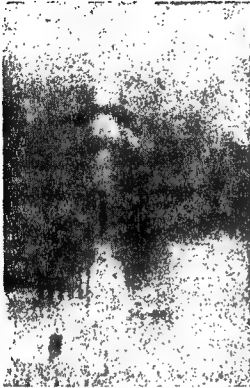
صاحب للفهم في شرح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن على ابن محمد بن علي بن حفص اليحصبي وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما ، ولم أعتز على ترجمة لأبي الحسن اليحصبي .

وبعد هذا ، وبعد أن استقر القرطبي بالإسكندرية فترة من الزمان ، وبعد أن استقر بمصر أيضا فترة لا ندري مقدارها بعد هذا خرج القرطبي من مصر القاهرة ، واتجه إلى (منية بني نخصيب) (١) — للنيا — واستقر بها إلى أن توفي سنة ٦٧٩ هـ في ليلة الاثنين التاسع من شوال . ولا أدري لماذا اختار القرطبي للنيا مكانه ومستقرا (٢) .

والقرطبي قبر بزار ويتبرك به « بالنيا » بشرق النيل . وقد تم في سنة ١٩٧٩ م بناء مسجد كبير يحمل اسم القرطبي بمكان يسمى « أرض سلطان بالنيا » ويضم هذا المسجد ضريحاً نقلت رفات القرطبي إليه من الضريح القديم ، ولقد قمت بتصوير قبره القديم ، وتصوير مسجده وضريحه الجديدين .

(١) منية بضم الميم وسكول النون وباء مفتوحة وهاء مدنية مشهورة بالصعيد الأدنى تقع في شمال أسبوط . وهي نسبة لرجل يسمى « الحصب » أو « بن الحصب » وكان حاكماً لها من قبل بعض الخلفاء الباسيين ، ولهذا قيل في تسميتها منية بني الحصب و منية أبي الحصب . المخطط التوطينية ح ١٦ ص ٥١ .

(٢) راجع في ترجمة القرطبي « طبقات الداودي » ص ٢١٣ ، تاريخ الاسلام . رادث سنة ٦٧١ ميلادية ، وطبقات للفسرين ترجمة رقم ٨٨ لسيوطي ، شذرات الذهب ح ٥ ص ٣٢٥ الديباج المذهب ص ٣١٧ ، ونفع اللبيب ح ٢ ص ٤٧٨ . والاعلام ح ٦ ص ٢١٧ ، معجم المؤلفين ح ٨ ص ٢٤٥ ، وهدية المارفين ح ٢ ص ٢٢٩ . شجرة البور الزكية .



مسجد القرمطي وبيواره ضريحه الجديد



القبر القديم

الفصل الثاني

اخلاقه وثقافته

لقد أثنى المؤرخون على القرطبي وامتدحوه من الناحية الاخلاقية . فوصفه الادودي بقوله : « كان من عباد الله الصالحين والعلماء المارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما ينبتهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة ، وتصنيف » ثم هبر الادودي عن عدم تكلفه فقال : « وكان طارح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية » وأجمع كل من كتب عنه على ذلك .

وإني أحب أن أقف هنا قليلا لأقول . . إن زهد القرطبي ليس مناه . أنه قد حرم الطيبات على نفسه وطاش كما يعيش بعض المتصوفين . لا ، لم يكن زهد القرطبي من هذا النوع . وإنما كان بمعنى أنه لم يجعل تحصيل الطيبات واللذات هدفا وغاية له في حياته . فالشيخ قد انحصر تفكيره في الآخرة فلم يجعل الدنيا سلطانا عليه ، وفرق بين من يأكل ليعيش وبين من يعيش ليأكل .

وإذا كان بعض المتصوفة قد فهم أن التمتع بالطيبات ينافي الزهد فإن القرطبي قد حاجهم في تفسيره ولم يرتض هذا المسلك فقال في قوله تعالى « يأبأ الذين آمنوا لا يهرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب للمتدين » (١) .

(١) آ٢٧ من سورة المائدة .

قال هلاؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها ، ردا على غلاة التزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه . قال الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم وللألباس وللنكاح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنف والمشقة . ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على ابن مظعون (١) . فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندى به الله عليه وعمل به رسول الله ﷺ وسنة لأئمة وأتباعه على منهاج الأئمة الراشدين . إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله . وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حنوا من طارض الحاجة إلى النساء . قال الطبري : فإن ظن أن الخير في غير الذي أقمنا لها في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ وذلك أن الأولى بالإنسان إصلاح نفسه وهو نه لها على طاعة ربها ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لقله ومضعفة لأحواله التي جعلها الله سبيلاً إلى طاعته (٢)

وفي قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

(١) أخرجه البخاري عن سعد بن أبي هاشم ج ١ ص ١٥٥ كتاب النكاح باب « ما مكروه من التبتل والحصاء » — انظر البخاري ج ٣ ص ١٥٥ حاشية السدي طبع الصنانية .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٦٢ .

بين أن الآية تدل على لباس الرفيع من الثياب والتجمل بها عند لقاء الناس، وزاورة الإخوان . ثم قال بعد أن استدلل ببعض الأحاديث على ذلك « فأين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من السكتان والعرف من الثياب ويقول : ولباس التقوى ذلك خير . هيئات أخرى من ذكرنا — يقصده رسول الله ﷺ والصحابة — تركوا لباس التقوى . لا والله بل هم أهل التقوى ، وأولو المعرفة والنهي وغيرهم أهل دهوى وقلوبهم خالية من التقوى . . . ثم استعرض القرطبي موقف ابن الجوزي ، ممن يؤثر لباس الخشن والمركبات . ثم هتب في النهاية بقوله :

قلت وقد كرم بعض الصوفية أكل الطيبات واحتج بقول عمر رضي الله عنه « إياكم والحم فإن له ضراوة (١) كضراوة الحر » والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشى منه إشار التنعم في الدنيا والمداومة على الشهوات وشقاء النفس من اللذات ونسيان الآخرة والاقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله « إياكم والتنعم وزى أهل المعجم وأخشو شنوا » ولم يردضى الله عنه تحريم شيء أحله الله ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه وقول الله عز وجل « أولى ما امثل وأحمد عليه » (٢).

وبهذا كله ينضح ما أردت أن أقوله من زهد القرطبي لكن هل ماذكره القرطبي من أن التجمل بالثياب عند لقاء الناس لا ينافي الزهد وأن لباس المركبات إنما هو ملة للزهادين . هل هذا يتفق مع ما ذكره المؤرخون عنه

(١) أى أنه قد يهيب الإنسان من أسكله شره وشهوة إلى لا يستطيع التخلص منها كما فعل الحر بشاربها .
(٢) تصنيف القرطبي ج ٧ ص ١٩٦ وما بعدها آية ٣٢ من سورة الاحراف .

من أنه كان طارح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية ؟؟ وماذا تعنى
هذه العبارة وهل عدم نهاية الرجل بمظهره عمل يسمح عليه ؟؟

لقد حيرتني هذه العبارة مع ما فهمته من موقف القرطبي في الآيتين السابقتين.
ولكنني وقفت على نص يزيل هذا الغموض والخيطة . يقول « المقرئ » : « وأهل
الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما
يتعلق بهم ، ومنهم من لا يكون عنده ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويتعاش صابوناً
ينسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساحة على حالة تنبو العين عنها » . (١)

فهذا النص يصور لنا الأنديلس رجلاً يبالغ في العناية بمظهره مبالغة تجعله
يطوى النهار صائماً وعارياً في بيته ولا يخرج على الناس بهيئة مستقبحة .

أما القرطبي فقد ملكت عليه الآخرة أقطار نفسه فكان يعنى بمظهره
ولكنه لم يكن يبالغ في ذلك على هذه الصورة كما هي عادة الأنديلسيين ومن هنا
قال المؤرخون عنه « وكان طارح التكلف » فهذه العبارة — في أغلب
ظنى — لا تعنى سوى ذلك ولا تعنى أبداً أنه كان يربث الهيئة مهمل للثياب ،
فإن هذا ليس من الدين في شيء كما تقدم .

وإن موقف القرطبي من الزهد لا يخالف موقف علماء المتصوفة بل يتفق
معه فقد قل عن « أيوب السخيتاني » وهو من هو في منزلته ومكانته علماء
وزهداً — أنه قال لتلاميذه : « الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء أحبها إلى الله
وأعلاها عند الله وأعظمها ثواباً عند الله تعالى ، الزهد في عبادة من هب من
دون الله من كل ملك وصنم وجبر ووثن . ثم الزهد فيما حرم الله تعالى —

ثم يقبل هل أصحابه ويقول أما زهدكم هذا يا معشر القراء فهو والله أخسه
هنا الله الزهد في حلال الله عز وجل ، (١) .

وإذا كان للزخرف قد وصفوا القرطبي بالورع فقد يقول قائل : كيف يتفق
هذا مع ما نقل عنه من أنه أباح أكل جوائز للوك والأمراء وأن الورع يقتضى
ترك ذلك ؟؟

إن الإفتاء بجواز قبول هدايا للوك والأمراء شيء آخر غير ما نحن بصدده
هل أن « ابن عبد البر القرطبي » الذى نقل القرطبي — صاحبنا —
عنه هذه الفتوى قد بين أن قبول الهدايا نفسه لا ينافى الورع وإذا كان القرطبي
قد ارتضى هذه الفتوى فلا حرج عليه . يقول للقرى في كتابه « فتح العيب »
نقلًا عن القرطبي في كتابه « قمع الحرص بالزهد والقناعة » « روي أن الإمام
أبا عمر بن عبد البر بلغه وهو « بشاطبة » أن أقوامًا عابوه بأكل طعام السلطان
، وقبول جوائزه فقال :

قل لمن ينكر أكل طعام الأمراء

أنت من جهلك هذا في عمل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين
من السلف للأخى هو ملاك الدين . فقد كان زيد بن ثابت — وكان من الراسخين
في العلم — يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل
هدايا صهره المختارين عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه . وقال عبد الله بن مسعود
وكان قد ملأه علمًا لرجل سأله : إن لي جارا يعمل بالرا ولا يجنب في مكسبه الحرام

(١) الفهر الرازي ومنهجه في التفسير الشيخ المبارى ص ٨٨ .

يدهونى إلى طعامه أفأجيبه ؟ قال : نعم لك المهنأ وعليه اللآثم ما لم تعلم الشيء بعينه
حرأما . وكان الشيبى ، وهو من كبار التابعين وعلماهم ، يؤدب بنى عبد الملك
ابن مروان ويقبل جوائزهم ويأكل طعامه .

وكان إبراهيم النخعى وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى مع زهده
وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والقطاء
السبعة بالمدينة (١) حاشا معبد بن المسيب يقولون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب
يقبلها ويتقلب فى جوائزهم وكانت أكثر كسبه وكان مالك وأبو يوسف
والشافى وغيرهم من فقهاء الحجاز والمراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء
وكان سفيان الثورى مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلاطين أحب لى من صلة
الإخوان لأن الإخوان بمنون والسلطان لا يمن . ومثل هذا من العلماء والفضلاء
كثير ثم يقول : وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورع عن جوائز
السلطان إلا معبد بن المسيب بالمدينة ومحمد بن سيرين بالبصرة وما قد ذهب
مثلا فى التورع ويبالغ ابن عبد البر فى فتواه — التى ارتضاها القراطى —
فى ذم من طاب عليه فيقول : والزهد فى الدنيا من أفضل الفضائل ولا يحمل لمن
وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها والمعجب من أهل زماننا
يميبون للشبهات وهم يستحلون ، الحرمات ومثلهم هندى كالذين سألوا عبد الله
ابن عمر رضى الله عنهما عن المحرم يقتل القراء فقال لسانين له : من أنتم ؟
فقالوا : من أهل الكوفة . فقال : تسألونى عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى
الله تعالى عنهما .

(١) القطاء السبعة هم : معبد بن المسيب للتوى سنة ٩٣ هـ ، عمرو بن الزبير بن العوام
للتوى سنة ٩٤ هـ ، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث للتوى سنة ٩٤ هـ ، القاسم بن محمد
ابن أبى بكر للتوى سنة ١٠٨ هـ ، هبيل الله بن عبد الله بن هبة بن مسعود للتوى سنة
٩٨ هـ ، سليمان بن يسار للتوى سنة ١٠٠ هـ ، خزيمة بن زيد بن ثابت للتوى سنة ١٠٠ هـ .

وكما أثني المؤرخون على أخلاقه أثنوا على ثقافته الواسعة ، فقال عنه الذهبي
« إمام متقن متبحر في العلم تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله »
وبعد أن ذكر بعض مؤلفاته قال : « وله أشياء أخرى تدل على إمامته وذكائه » .
وقال عنه ابن الهيثم : « كان إماماً حلماً من الفواصين على مائتي الحديث
حسن التصنيف جيد النقل » .

وقتل صاحب النفع عن ابن شاكر الكتبي أنه قال في حق « كان شيخنا
فاضلاً وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفرة علمه » .
وخصب بعض تلامذته من ترجمة « الكتبي » له وعلق عليها بقوله :
« قد أجحف المصنف في ترجمته جداً وكان متقناً متبحراً في العلم » .

وحاول بعض التلامذة أن يدافع عن الكتبي بأن الذهبي قد واهى حقه في
تاريخ الإسلام وأنه لا داعي لمهاجمة الكتبي فقال « مشاحه شيخنا للمصنف في
هذه العبارة ما لها فائدة فإن « الذهبي » قال في تاريخ الإسلام « الملامه أبو عبد الله
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، الامام القرطبي إمام متقن متبحر في العلم له
تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله » .

ولكن ذلك الدافع لم يسبب تديناً ثالثاً فانتقد الذهبي والكتبي وما ورد
ذلك الدافع قال : « إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك
فكيف تقول أن مشاحه شيخك لا فائدة فيها وتسمي الأدب به وتقول أن
كلامه لا فائدة فيه والله يستر عليك » .

ويبدو أن هذا التمليق الثبت في أحد مؤلفات « الكتبي » ^(١) على

(١) لعل هذا الكتاب هو : « هيول التواريخ » ويوجد منه الجزء الثاني عشر
والجزء العشرون في مجلدين خطين برقم ١٣٧٦ تاريخ بيروت . ولقد بحثت عنها كثيراً
فقبل لي لهما بصوران :

هاسن ترجمته لقرطبي كان لتلامذة أخذوا عن القرطبي ولمسوا عقله وفضله
وذكاءه ومكانته العلمية فكانت شهادة رؤية ومعاينة دلت على ثقافة القرطبي
الواسعة .

وأخرب ظني أن هؤلاء التلامذة لم يوقعوا أثر ما كتبوه فكثيراً ما شاهدت
في الكتب المخطوطة زيادات وتهميشات خالية من التوقيع والإمضاء . ولا شك
أن القرطبي تتلمذ عليه أضعاف هذا العدد ولكن المؤرخين سكتوا فلم يتكلم
هناهم أحد . وبهذا بقيت التلمذة عليه سجلاً مطوياً لا يعلمه إلا الله .

فهم قد أشار كلهم إلى أنه أجاز لولده « شهاب الدين أبي العباس أحمد » .

ووقعت لي ترجمة لشيخ يسمى : « أبا العباس أحمد بن فرح الأشبيلي » قال
صاحب طبقات الشافعية عنه : « ولد سنة خمس وثمانين وسبعمائة وأسر المدو
ونجاه الله تعالى » .

ولم يبين لنا كيف ولا متى أسره؟ ولقد أوضح « ابن شاكر الكوفي » بعض
ذلك فقال : « وأسره المدو سنة ست وأربعين وسبعمائة » .

وهذا التاريخ هو التاريخ الذي سقطت فيه إشبيلية في يد النصارى
للقشتاليين عندما حاصروها بقيادة « فرناندو الثالث » ملك قشتالة^(١) .
ولكننا نقسمال: هل وقع الشيخ في الأسر بعد أن سقطت المدينة؟ هذا ما لا
يمكن أن يحدث . وإذا كانت إشبيلية قد قنعت أبوابها للمحاصرين فأى وجه
لاستئصال الصف والثروة مع أهلها الذين رفضوا راية الأمان؟

(١) قشتالة بالفتح إقاييم عظيم بالأندلس .

وفوق هذا فإن المراجع التاريخية قد أثبتت أن آلافا كثيرة من سكان
أشيبيلة خرجوا بعد سقوطها في أمن وطمأنينة بل أثبتت المراجع :
أن ملك قشتالة كان يسرح سرعات من فرسانه لتأمين المهاجرين حتى
لا يتعرضوا لأي اعتداء . إذن فتح وقع « ابن فرح » في الأسر ؟
يبدو أنه وقع في الأسر أثناء حصار النصارى لأشيبيلة قبل أن تسقط ولقد
بدأ هذا الحصار في جاد الأولى سنة ٦٤٥ هـ أغسطس سنة ١٢٤٧ م . واستمر
خمس عشرة شهرا ولما طال الحصار وهضمت الأقوات وبدأ شبح الجوع يخيم على
المدينة اضطر الأشيبيليون إلى التسليم في ٥ شعبان سنة ٦٤٦ هـ ٢٣ نوفمبر سنة
١٢٤٨ م (١) .

فلعل أبا العباس أراد أن يخرج من أشيبيلة أثناء حصارها فوق أسيراً في
يد الأعداء ثم نجاه الله ، ويقوى هذا أن بعض المراجع أثبتت : « أن وقع في
الأسر بتاريخ ٢٦ أبريل سنة ١٢٤٨ م (٢) » فإذا كانت المدينة قد سقطت في
٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م . فإن هذا لا يدع مجالاً للشك في أنه : وقع في الأسر
قبل أن تسقط المدينة وقبل أن يسلمها الأشيبيليون ، وبعد أن نجاه الله تعالى من
أيدي الأعداء ذهب إلى مصر فتلطف على كبار شيوخها . ثم ذهب إلى دمشق
واستقر بها . ونبع في الحديث ، يقول المؤرخون : « وأخذ يدرس بالجامع الأموي
لما كانت له من المكانة في هذا العلم ولقد عرضت عليه مشيخة دار الحديث
النورية (٣) فأبها . وكانت وفاة في التاسع من جمادى الآخرة سنة ٦٩٩ هـ »

(١) راجع سقوط « أشيبيلة » في مصر للرابطين وللوحيد للشم الثاني ص ٤٦٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) نسبة إلى مؤسسها « نور الدين عمود » للتوفيق سنة ٥٦٩ هـ . وراجع في ترجمة
ابن فرح « طبقات السبكي » ج ٥ ص ١٢ وفوات الوفيات لابن شاسكر الكتبي ج ٢
وتذكرة الحفاظ ترجمة رقم ٤٦٧ الجزء الرابع طبعة ٢١ .

ولقد استلقت نظري هذه الترجمة فوقفت عندها وقت في نفسي : ألا يكون صاحبها هو د. « القرطبي المفسر » وتابعت البحث هائي أعثر على خيط يزيل هذا الشك فوجدت ، دائرة « المعارف الإسلامية » تبين : ان مثل ما وقع في نفسي قاله « السيوطي » في كتابه « طبقات المفسرين » ثم وجدت « دائرة المعارف » تحفل بـ « السيوطي » في ذلك ، تقول الدائرة : « وذكر السيوطي خطأ في كتابه طبقات المفسرين رقم ٨٨ (١) : ان ابن فرح هو ابن مصنف الكتاب المشهور « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » وكتاب التفسير الكبير المسمى « جامع أحكام القرآن » محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح المالكي القرطبي المتوفى في التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ ٢٩ أبريل ١٢٧٣ م » ورجعت إلى كتاب « طبقات المفسرين » « للسيوطي » فلم أجد أثراً لهذا القول . بل وجدت السيوطي في الترجمة رقم ٨٨ يتحدث عن القرطبي صاحب « التذكرة » و « جامع أحكام القرآن » ولم يذكر ما نقلته دائرة المعارف عنه فقلت لعل هذا القول في غير « طبقات المفسرين » من مؤلفات السيوطي فبحثت في « طبقات الحفاظ » وفي « ذيل تذكرة الحفاظ » وفي « حسن المحاضرة » فلم أر « للسيوطي » هذا القول .

وعلى كل فإن تخطئة دائرة المعارف « للسيوطي » دعوى بلا دليل . ومن هنا فإن هذا الاحتمال الذي وقع في نفسي والذي لهبته دائرة المعارف للسيوطي — على فرض أنه قاله — لا يزال قائماً . وقد يقول قائل : كيف يتفق ذلك مع أن « ابن فرح » هذا « إشبيل » أما أبوه فهو « قرطبي » ؟

الأمر في ذلك سهل . فلعل « القرطبي » عندما خرج من قرطبة استقر بأشبيلية إلى أن سقطت فلتاً وله في أشبيلية فنسب إليها . ويقوى ذلك أن عمره يوم انتقل مع أبيه من قرطبة إلى أشبيلية - إذا صح أنه أبوه وأنهما انتقلا معاً إليها - كان : ثمانية أهوام . فقد حدد « السبكي » في طبقاته سنة ميلاده فقال : « ولد سنة خمس وعشرين وسبعمائة » ومن المعلوم أن قرطبة سقطت في سنة ٦٢٣ هـ .

وقد يقول قائل آخر : كيف يتفق ذلك مع أن « القرطبي » المفسر أنصاري خنزرجي أي أنه : ينتسب إلى الخنزارجة^(١) الذين سكنوا الأندلس أما ابن فرح فيقال له : « الأحمي »^(٢) أي أنه : ينتسب إلى « علي بن هدي » وشتان بين النسبتين ؟

هذا كلام قوي . ولكن لم يرد على ذلك : بأن كثيراً من سكان أشبيلية ينتسب إلى علي بن هدي . فلعل « ابن فرح » نسب إلى هذه النسبة خطأ .

وعلى كل أيضاً : فإنني لا أجزم بأن « ابن فرح » ولد « القرطبي » المفسر وإنما أثرت احتمالاً وقع في نفسي وجدهته مفسوفاً إلى أحد العلماء ولعل بعض الباحثين ممن يأتون بمدنا يكشف حقيقة ذلك .

وإذا كانت التلمذة على « القرطبي » رمزاً لثقافته وهله فإن ما أنتجته من

(١) بلعب الخروج إلى سعد بن عباد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الخروج الذين سكنوا الأندلس « أبو عباد بن عبد الله بن ماء الساء » صاحب اللوحات انظر : فتح العالجب ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) الأحمي يفتح اللام وسكون الحاء للجمة ويدها ميم نسبة إلى « علي بن هدي » واسمه مالك وهو أخو جدام واسم جدام عمرو بن هدي وكانا قد قتلانرا فلطم عمر مالك أي لطمه ففرب مالك عمرا ببدي للطم يده ، أي قطعها فسمى مالك لحا وسمى عمرو جداما لهذا السبب « انظر وفيات الأعيان » ج ١ ترجمة رقم ٦٥ .

مؤلفات دلى على هذا بصورة أقوى وأحق . فقلد ألف القرطبي كتابا كبيرا في التفسير وضع له اسما بنفسه وبين المصنف الذي حدا به إلى تأليفه فقال في مقدمته : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رأيت أن أشتغل به مدى عمرى وأستفرغ فيه منى^(١) بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتنا من التفسير واللغات والإهراء والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعا بين مسانئها ومبين ما أشكل منها . بأقويل السلف ومن تبعهم من الخلف . وعلمته تذكرة لنفسى وذخيرة ليوم رمسى . وعلا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى « نبأ الإنسان يومئذ^(٢) بما قسم وأخر » . وقال رسول الله صلى عليه وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له^(٣) » ثم قال « » « يحسبته » بالجامع لأحكام القرآن وللبين لما تضمنته من السنة وآى الفرقان » جعله الله خالصا لوجهه وأن ينفعنى به ووالدى ومن أرادته عنه إنه سمح الدعاء .

ولكن متى بدأ القرطبي في تأليف هذا التفسير ؟ ؟

إننى استبعد أن « القرطبي » بدأ تأليف تفسيره بقرطبة فإن حادثة مقتل أبيه توضح أنه لم يكن قد استوى هو بعد . ولعله بدأ في تأليفه بعد ذلك عندما خرج من قرطبة ثم أكمله عندما استقر بالعصيد ، ويقوى ذلك أنه قال

(١) اللنة هى القوة ، وهى من الاخذاد إذ تطلق على الضمف أيضا .

(٢) آية ١٤ من سورة القيامة .

(٣) الحديث أخرجه مسلم « فى كتاب الوصية » من أبى هريرة باب « ما يحسن الإنسان من التواب بعد وفاته » ح ٥ ص ٨٧ طبع التحرير .

في حادثة مقتل أبيه: « وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله » فهو يحكى هذه الحادثة بعيداً عن قرطبة ويطلب من الله أن يعيدها .

وقد ذكر المؤرخون « القرطبي » غير كتابه « الجامع لأحكام القرآن » عدة مؤلفات منها : « التذكرة في أحوال اللواتى وأمور الآخرة » وهو كتاب مطبوع متداول تناول فيه « القرطبي » الموت وأحوال المواتى والقيامة والجنة والنار . ونقل كل ذلك كما يقول : « من كتب الأئمة وثقات أهل هذه الأمة » وعقب « القرطبي » على كل باب فصل أو فصول ذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب أو فقه في حديث أو إيضاح مشكل لشكل فائدته^(١) .

ولقد اختصر هذا الكتاب « الإمام عبد الله الشمراني » للنفوس سنة ٩٧٣ هـ واختصاره مطبوع متداول ولقد شكك بعض العلماء في نسبة هذا المختصر إلى الإمام الشمراني ويبدو أنه كذلك . فإن صاحب « كشف الظنون » عندما تحدث عن « تذكرة القرطبي » قال « وهي مختصرة لبعض العلماء^(٢) » وعندما تحدث عن الكتب التي تحمل اسم « مختصر » لم يذكر للإمام الشمراني شيئاً منها . ومنها كتاب « التذكار في أفضل الأذكار » وهو كتاب مطبوع متداول .

بين القرطبي في مقدمته : أن قراءة القرآن أفضل الأعمال وأسمى المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال . وهذا هو السبب الذي دفعه

(١) راجع هذه الحادثة في تفسير القرطبي ص ٢٧٢ وفي فصل « نشأة القرطبي » من الرسالة .

(٢) مقدمة كتاب التذكرة في أحوال اللواتى وأمور الآخرة مطابع مذكور وأولاده سببه وهلال هاليه أحمد مرسى .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٥

إلى تأليف هذا الكتاب . يوضح « القرطبي » ذلك ويسرد بعض أبواب الكتاب باختصار فيقول : « فرأيت أن أكتب في ذلك كتابا وجيزا يمتنى على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والمائل به وحرمة القرآن وكيفية تلاوته والبكاء عنده . . . » ، وضم من قرأه رياء وهجبا ، إلى غير ذلك مما يضمنه الكتاب .

ثم يوضح « القرطبي » أن مقصده الأول كان : في تخريج أربعين حديثا نبوية ولكنه لما وجد كثيرا من العلماء قد سبقوه إلى ذلك أتجه إلى وضع هذا الكتاب وجعله في أربعين بابا . يقول القرطبي :

« وكان المقصد الأول تخريج أربعين حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم لما رواه يحيى بن عبد الله بن بكير قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حفظ على أمتي أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة » قال أبو عمر : هذا أحسن إسناد جاء به هذا الحديث . ولكنه غير محفوظ ولا يعرف من حديث مالك (١) . وقال أبو هلى بن السكن وليس يروى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت . ثم هتب القرطبي بقوله :

قلت : ولكنه من أجلها (٢) بأخر طلاب الخير الراغبون في اكتساب

(١) وما رواه عن مالك فقد أخطأ عليه وأضاف ما ليس من روايته إليه . وتام كلام ابن عبد البر « في جامع بيان العلم » ولم يبين هلته ولا سبب ضعفه . وهله : أنه من رواية « يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم السعدي » وهو كذاب اتهمه « الذهبي » في اللباز « والحافظ هلى لسانه » يوضح أحاديث . منها : هذا الحديث انظر تعليق « العلامة البيهقي » في عمدة بن عمدة بن الصديق العمري « ص ٣ في كتابه » « التذكار في أفضل الأذكار » .

(٢) أي من أجل تخريج الأربعين حديثا . وما وود في فضلها وهم ضعفه .

الأجر إلى تخريجها فرأيت من سبق من أئمتنا العلماء والسادة الفضلاء رضوان الله عليهم قد خرجوا من ذلك كثيراً في المباديات وفضل الجهاد وقضايا الحاجات وفضل الصلاة هي "بي ربي ﷺ"، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب، والأحاديث للسبلات. فاستخرت الله سبحانه في ذلك وسألته التيسير على في ذلك. فيسر لي تخريج أربعين باباً في فضل كتابه العزيز وقارئه ومستمعه والعمل به وبسميته: كتاب «التذكار في أفضل الأذكار» (١).

ومنها: الأسى في شرح أسماء الله الحسنى (٢).

ومنها: شرح التقوى (٣) ولم أعتز على هذين الكتابين.

ومنها: الاحلام بما في دين النصارى من المماس والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام. ولقد أشار «الهمداني» إلى هذا الكتاب، «في هدية العارفين»

(١) انظر مقدمة «التذكار» طبع الخانجي.

(٢) قال صاحب «كشف الظنون» عن هذا الكتاب بعد أن نسبته إلى القرطبي ذكر في أوله واحداً وأربعين فصلاً في ذكر ما يتعلق بها من الأحكام وذكر بعد تمام شرح أسماء الله الحسنى أربعة أجزاء ود على المسألة وأصحاب التشبيه... وهذا الشرح كبير ومفيد - كشف الظنون ج ٢ ص ١٥

(٣) شرح التقوى لابن عبد البر القرطبي كتاب يسمى «المهيد لما في الموطأ من لمعانى والأسانيد» ولقد اختصره ابن عبد الله في كتاب سماه «التقى في الحديث النبوي».

وذكر كارل بروكلمان: أن القرطبي قد اختصر كتاب القعيد. فقلقه أيضاً عند شرح كتاب التقوى لابن عبد البر وسماه شرح التقوى.

انظر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج ٣ ص ٢٧٦ داو الماروف.

وحدد كارل بروكلمان مكان هذا الكتاب فذكر في كتابه « تاريخ الأدب العربي » أنه يوجد منه نسختان خطيتان بمكتبة « كوبرلي » بتركيا تحت رقم ٧٩٤ — ٨١٤ .

ومنها : « قمع الحرص بالزهد والفقاهة » ولقد ذكر « كارل بروكلمان » أنه يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية « بيرلين » تحت رقم ٨٧٨٧ ونسخة بمكتبة « القناح » باستنبول برقم ٢٧٣٧ .
وذكر كارول بروكلمان للقرطبي عدة مؤلفات أخرى :

ومنها : رسالة في ألقاب الحديث . وبين أنها توجد بمكتبة « الجزائر » برقم ٢٧٧ .

ومنها : الأقضية . وقال « كارل بروكلمان » عند ذكر هذا الكتاب : انظر فهرس مكتبة « آسيفيا » ح ١ ص ٦٥٨ . وهذه للمكتبة « بيهار آباد بالهند » .

ومنها : المصباح « في الجمع بين الأفعال والصحاح » وهو كتاب لغوي . اختصر فيه القرطبي كتاب « الأفعال » لأبي القاسم علي ابن جعفر بن القعناع المتوفى سنة ٥١٥ هـ . وكتاب « الصحاح » للجوهري ويوجد « بمكتبة بريل بليدين » بهولندا برقم ٢٨٣ (١) .

ولقد أشار القرطبي في تفسيره إلى مؤلفات لم أذكر عليها ولم أرها منصوبة إليه عند أحد من المؤرخين . ومن هذه المؤلفات :

« المتنبس في شرح موطأ مالك بن أنس » ولقد أشار « القرطبي » إلى هذا الكتاب في قوله تعالى : « فمن تسجل في يومين فلا إثم عليه » في المسألة الثامنة (١) ، وقوله تعالى « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » يقول القرطبي : وسئل سفيان عن عبيد بن ابتلى أحدهما فصبر ، وأنتم على الآخر فشكر فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أتى على عبيد ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا ، فقال في وصف أيوب : « نعم العبد إنه أواب » وقال في وصف سليمان : « نعم العبد إنه أواب » وناقش القرطبي بعض العلماء الذين لا يرضون هذا القول ، وأشار إلى بعض تأليفه فقال :

قلت : وقد رد هذا الكلام صاحب « القوت » واستدل بقصة أيوب في تفصيل التفسير على النفي وذكر كلاما كثيرا أسند به كلامه ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحبة السالكين والزهاد » وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأتقياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما ابتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الهاء في جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وقتنوا . فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة فخرج منه كما دخل فيه وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع (٢) مع أيوب في المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الاعتبار يكون النفي الشاكر والفقير الصابر سواء وهو كما قال سفيان (٣) .

وفي قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » وإن من

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٩ ٢٨٠ من سورة البقرة .

(٢) الضمير يعود على سليمان عليه السلام .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٥ وما بعدها آية ٤٤ من سورة « من »

شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم» بين أن هذا التسبيح على الحقيقة. ثم تعرض لمجرات رسول الله ﷺ الحسية، فذكر بعضاً منها ثم قال وقد أتينا على جملة منها في «اللمع الأولوية في شرح المشرينات النبوية» (١) ولعلنا بهذا نكون قد كشفنا شيئاً من أخلاق القرطبي وثقافته، ذلكم الرجل الذي قال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام: «إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله» (٢).

(١) تصحيح القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٨ إلى ٢١٤ - سورة الأعراف.

(٢) راجع في ترجمة القرطبي: طبقات القسرين «للدودي» نسخة خطية، مدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ، طبقات القسرين «ترجمة رقم ٨٨» تاريخ الاسام الذهبي، نسخة خطية، حوادث سنة ٦٧١ ص ١٦٦. «آثار الذهب» لابن الدواد «ج ٥ ص ٣٣٥، مجمع المؤلفين» إكمال «ج ٨ ص ٢٤٠، هدية البارفين» «بن دادي» ج ٢ ص ١٢٩، الديباج للذهب «لابن مريش» ص ٣١٧، «فتح الطبيب» «للمري» ج ٢ ص ٤٢٨، «الاعلام» «لزركل» ج ٦ ص ٢١٧.

الفصل الثالث

عقيدة القرطبي

ذهب بعض المؤرخين إلى « إن أن عقيدة أهل المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي سلفية » وأن الأمر استمر على ذلك إلى أن جاء « محمد بن تومرت » مؤسس دولة الموحدين فنقلهم إلى الأشعرية حيث رحل إلى المشرق وأخذ عن هداية مذهب الشيخ « أبي الحسن » وتأخرى أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة ، وتخرجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق هاية النقل والشرع ويسلمه العقل والطبع . وعندما دادعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتفضيل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه « الموحدين » تعريضاً بأن من خالف طريقته ليس بموحد ، وجعل ذلك ذريعة إلى الانزواء على ملك المغرب لكنه ما أتى بطريقة الأشعرية خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعة حسب ما يعلم ذلك بإيمان النظر في أقواله وأحوال خلفائه من بعده (١) وتابعه على ذلك بعض الباحثين الحديثين (٢) .

ومع هذا فإن كتب التراجم والطبقات قد ترجمت لعدد كبير من هداية

(١٩٦٢) الاستمساك في أخبار دول المغرب الأقصى لابن الأثير ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها . والله يقصد من هداية الأشعرية أن ابن تومرت أدهى عصاة الأئمة في مذهبه الأئمة كما ادعاه الشيعة من قبل وأنه يحتفل بمخالفته لما كفرهم الخوارج أيضاً . راجع تاريخ الأئمة للإمام الأندلسي . وكذلك ج ١ ص ١٩٦ ، والدعوة للوحدة ص ٣٠ وما بعدها . الدكتور عبد الله هلال . وانظر (المأثرة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) لأدم هنري سرب أبو ريانة ج ١ ص ٢٤٠ .

الأندلس والمغرب اعتنقوا المذهب الأشعري قبل دولة الموحدين التي قامت في أوائل القرن السادس تقريبا .

و هـ هؤلاء « ابن أبي زيد القيرواني » المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . فقد توفى قبل أن يخرج « ابن تومرت » إلى الحياة بنحو قرن من الزمان وكان أشعريا يدافع عن مذهب الأشاعرة ضد المعتزلة بصدق وإيمان وله رسالة في الرد عليهم ، فقد ذكر ابن عساكر أن « ابن أبي زيد » كتب هذه الرسالة جوابا « لعل ابن أحمد بن إسحاق البغدادي المعتزلي » حين ذكر « أبا الحسن الأشعري » رضي الله عنه ونسبه إلى ما هو يرى منه مما جرت عادة المعتزلة باستعمال مثله في حقه . فقال « ابن أبي زيد » في حق « أبي الحسن » « هو رجل مشهور أنه يرد على أهل البدع وعلى القدرية والجهمية متمسك بالسنن » (١) .

وممنهم القاضي « أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي الباجي » : وأشعريته لا يستطيع أن ينكرها أحد ، وقد توفى سنة ٤٩٦ هـ وقبل أن يقوم « ابن تومرت » بدعوته . وذكر « ابن خبير » في فهرسة شيوخه مجموعة من كتب الأشاعرة كانت متداولة في الأندلس قبل ظهور « ابن تومرت » وتلقاها « ابن خبير » من شيوخه وكذلك فعل « ابن عطية » (٢) .

وقد ترجم « ابن الفرضي » في كتابه « علماء الأندلس » لعهد من العلماء اعتنقوا مذهب المعتزلة ومن هؤلاء :

(١) رسالة « منهج ابن عطية للفسر » لأبي عبد الوهاب فايد ص ٢٠٢ والجهية : فرقة تقول بالجبر وتنسب إلى الجهم بن صفوان للتوفى سنة ١٢٨ هـ .

(٢) راجع فهرسة ابن خبير ص ٢٥٥ وشيوخ ابن عطية ، نسخة مصرية : بدارالكتاب رقم ٢٦١٩١ لوحة ٢٥ ترجمة أبو محمد عبد الوهاب ابن أبي غالب القيرواني .

« محمد بن عبد الله بن مسرة بن فحيح » (ت سنة ٣١٩ هـ) كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى بلده، يقول ابن الفرضي : فأظهر نسكا وورعا واغتر الناس بظاهره فاختلّفوا إليه وسمّوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده وفتح مذهبه فانقبض من كان له إدراك وعلم وتمادى في صحته آخرون غلب عليهم الجهل فدأبوا بنحلته .

ومنهم « يحيى بن يحيى » المعروف « بابن السمينة » من أهل قرطبة ، يقول ابن الفرضي « رحل إلى المشرق فمال إلى الاعتزال وكان يعلن بالاعتصاف ، وتوفي سنة ٣١٥ هـ » .

ومنهم « منذر بن سعيد » (ت سنة ٣٥٥ هـ) (١) ولقد هاجمه القرطبي في قوله تعالى « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أهنت للكافرين » حيث استدل بقوله « أهنت الكافرين » على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة خلافاً للمبتدعة في قولهم : أنها لم تخلق حتى الآن ، ثم قال : وهو القول الذي سقط فيه « منسفين ، سعيد البواطى » الأندلسي . ثم قوى القرطبي مذهب أهل السنة ببعض ما روى في هذا من أحاديث .

ويؤيد ذلك « ابن حزم » الظاهري فيقول في رسالته وهو يتحدث عن علم الكلام : وأما علم الكلام فان بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها المصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك نصرهم في هذا الباب ، فحس على كل حال غير هرية عنه ، وقد كان فيهم قوم ينجسون إلى الاعتزال نظار على أصول ولم

(١) علماء الاندلس ج ٢ ص ٢٩

فيه تأليف. ثم ذكر ابن حزم بعض من اختلفوا هذا المبدأ أو منهم « من الذين « عبيد ، يحيى بن السمينة ، ومحمد بن نجيج » (١) .

ويقرب أسنفاذا الشيخ « محمد أبو زهرة » على كلام « ابن حزم » فيقول : « وتبين من هذا أن الأندلس كان فيها المذهب المعتزلى وقد كان أهل الأندلس كأهل المشرق يأخذون بمذهب « أبي الحسن » الأشعرى فى مناهجه وفى آرائه فى المقائده ، وقد انتهى ابن حزم إلى مخالفة للأشعرىين » (٢) . ولو قورن ذلك بما قاله « السلاوى » ومن تابعه فإن التناقض يبدو واضحاً جلياً ، ولكن أهل المقصد « السلاوى » أن هامة الأندلسيين كانوا يدينون بمذهب السلف لأنه أقرب لمعتزلهم إلى أن جاء « ابن تومرت » فنقلهم إلى الأشعرية . أما الفقهاء والعلماء فقد اختلفوا بمذهب الأشعرى ودافعوا عنه وضيقوا الخناق على للمعتزلة حتى تواروا عن أعين الناس باعتزالهم . فدهوة « ابن تومرت » لم تؤثر . على ما أعتقد . فى عقيدة العلماء والفقهاء وإنما أفسحت المجال للأشعرية فى نفوس غيرهم من السكان . فلو لم تظهر دهوة « ابن تومرت » ولو لم ينشأ القرطبى بعد استقرار دولة الموحدين لنشأ أشعرىاً ينتصر لمذهب « أبى الحسن الأشعرى » وعقيدته ضد المعتزلة وغيرهم ، ولسنافى حاجة إلى سرد كثير من الأدلة لبيان عقيدة القرطبى وأنه كان يدين بمذهب الأشعرى ويمتنقه ويدافع عنه ، ونسكتفى بمرض بعض المخالف من تفسيره توضيح أشعريته :

فى قوله تعالى « قال فبا أقرىتنى لأعبدن لهم صراطك المستقيم » بين أن الهداية والاضلال من خلق الله وهاجم مذهب المعتزلة ودعواهم فى أن الفواية ليست من الله لأن ذلك يقتضى مع عدله . فقال :

(١) انظر رسالة ابن حزم فى فتح الطيب ج ٢ ص ١٢٦

(٢) ابن حزم ص ١١٧

« منذهب أهل السنة أن الله أضله وخلق فيه الكفر ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له صادر عن إرادته تعالى . ثم قال : « وخالف الإمامية (١) والتدرية (٢) وغيرهما شيخهم إبليس الذي طأوه في كل ما زينه لهم ولم يطأوه في هذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس وهو أهل للخطأ حيث نسب للفؤاية إلى ربه — تعالى الله عن ذلك — فيقال لهم : « وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » (٣) »

وقد روى أن طأوساً جاءه رجل في المسجد الحرام وكان متهماً بالقدر وكان من الفقهاء السكبار فجلس إليه فقال طأوس : تقوم أو تقام ؟ فقيل لطأوس تقول هذا الرجل فقيه ؟ فقال : إبليس كان أفقه ، يقول إبليس : فيما أغويتني وهذا يقول أنا أغرى نفسي (٤) .

وفي قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » (٥) دافع القرطبي عن منذهب أهل السنة وهاجم المعتزلة فبين أن معنى الإضلال للفؤاية واستدل بالآية على مذهبه فقال :

(١) الإمامية فرقة من فرق الشيعة ، نسبة إلى الإمام علي ، لانهم زكروا كبرياء من تاليفهم حوله وكانت لهم آراء تغريب من آراء المعتزلة .

(٢) تلقب المعتزلة بالتدرية ، لانهم ينسبون أعمال الأبياد إلى قدرتهم .

(٣) آية ٣٤ من سورة هود .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٧٥ آية ١٦ من سورة الأعراف .

(٥) آية ١٢٥ من سورة الأنعام .

« وهذا رد على القدرية . ونظير هذه الآية من السنة قوله عليه السلام « من يرد الله به خيرا يقهه في الدين »^(١) . أخرجه الصحيحان ، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدين العبادات كما قال : « إن الدين عند الله الاسلام » ودليل خطابه أن من لم يرد الله به خيرا ضيق صدره وأبعد فهمه فلم يقهه ، والله أعلم . وروى أن عبد الله ابن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل يشرح الصدر ؟ فقال « نعم يدخل القلب نور » فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « التجافي من دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت »^(٢) قبل نزول الموت^(٣) .

ولقد بنى المعتزلة مذهبيهم في أن الله لا يخلق أفعال العباد ولا يريد الماصي على قاعدة العدل . وهي إحدى قواعدهم أو أصولهم التي نادوا بها . ولقد أشار إلى هذه الأصول أبو الحسن الخياط في كتابه « الانتصار » فقال : « وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد والعدل والوحد والوحد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا كملت في الانسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي »^(٤)

(١) الحديث أخرجه البخاري عن معاوية في باب العلم . ح ١ ص ١٦ انظر متن البخاري بمحاكية السندى وفتح الهمدى بشرح مختصر الزبيدي ح ١ ص ٩٢

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود . انظر الذي من حل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار على هامش إحياء علوم الدين للغزالي ح ١ ص ٧٧

(٣) تفسير القرطبي ح ٧ ص ٨١

(٤) نقل هذا النص الزميل عبد الوهاب فايد من كتاب الانتصار ص ١٢٦ في رسالته ص ٢٠ وانظر « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام » الدكتور « حل سمي النشر » ح ١ ص ٤٨٤ وما بعدها .

ونرى أن القرطبي من خلال تفسيره يحاول أن يبطل ما تمسك به للمعتزة من حجج في تقرير قاعدة العدل . فإذا قالت للمعتزة : إن الله تبارك وتعالى قد وصف نفسه بالعدل فقال : « وما ربك بظلام للعبيد »^(١) وقال : « إن الله لا يظلم الناس شيئا »^(٢) وكيف يتحقق العدل مع أن الله سبحانه — في منهج أهل السنة — يعاقب على ما أُراده وفعله ؟ نرى القرطبي يبطل أدلتهم ويهاجم ويتضح ذلك :

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يهدي بين المرء وقلبه » فإن تدبير أن الآية تقتضي النص على خلق الله تعالى الكفر والإيمان . حيث لا يحول بين المرء والكافر وبين الإيمان الذي أمر به فلا يكتسبه إذا لم يره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر . أما المؤمن فإنه يحول بينه وبين الكفر ثم يقول : « فبان بهذا النص أن الله تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها » ويظهر القرطبي عدل الله سبحانه فيقول : « وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله إذ لم يمنهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل وإنما منحهم ما كان له أن يفضل به عليهم لا ما وجب لهم عليه »^(٣) .

وإذا قالت المعتزة كيف يناط بالمبدئ تكليف وهو لا يخلق أفعاله ؟؟

بين القرطبي من خلال تفسيره أن مناط التكليف هو السكيب .

ففي قوله تعالى « تلك أمة قد دخلت لما ما كبت ولكم ما كبتن »

(١) آية ٤٦ من سورة الشورى .

(٢) آية ٤٤ من سورة يونس .

(٣) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٩٠ آية ٣٤ من سورة الانفال

الآية . قال : « في هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب وإن كان الله تعالى أقبره على ذلك ، إن كان خيراً بفضله ، وإن كان شراً فبعده ، وهذا مذهب أهل السنة . والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة ، فالعبد مكتسب لأفضاله على معنى أنه خلقت له قدرة مقارئة للعمل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعدة مثلاً وذلك الممكن هو مناط التكليف (١) » .

وإن قالت كيف يأمر الله بما لا يريد وكيف ينهى عما يريد . ترى القرطبي يتعرض للفرق بين الإرادة والأمر كما هو مذهب أهل السنة . ففي قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء » يقول : قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء » دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقول أهل السنة فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين ، حرمة وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراد فوائده . ولكن أمر إبليس بالسجود ولم يرد . فامتنع منه ، وعنه وقعت الإشارة بقوله « ولكن كره الله انبعاثهم فنبههم (٢) » .

وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ، ولكنه خلق السكسل والأسياب الفاعلة من المسير ففعلوا (٣) .

وبنى المتزلة على قاعدة الوعد والوعيد — بمعنى أن وعد الله ووعيده لا يختلفان — أموراً : منها أن مرتكب الكبيرة لا تناله شفاعة الرسول ﷺ إذا مات ولم يتب : وأبرز القرطبي مذهب أهل السنة في الشفاعة وانتصر له وهاجم المتزلة . وبين أن الخلود في النار ليس مصير مرتكب الكبيرة إذا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٣٩ آية ١٣٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٦ من سورة التوبة

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٩ آية ١٤٠ من سورة آل عمران .

مات ولم ينقب ، فقال في قوله تعالى « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » الآية . :

« مذهب أهل الحق : الشفاعة حق وأنكرها المعتزلة وخطبوا المؤمنين للمذنبين الذين دخلوا النار في العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين ، هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين » وقد تمسك القاضي - « أبو بكر الطيب » - عليهم في الرد بشيئين أحدهما : الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى . والثاني : الإجماع من السلف على تلقي هذه الأخبار بالقبول ، ولم يبد من أحد منهم في عصر من الأصار تكبر . فظهر رواها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة مقيدة أهل الحق وفي دين المعتزلة فان قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله تعالى « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (١) قالوا وأصحاب الكبار ظالمون وقال « من يعمل سوءاً يجز به » (٢) « ولا يقبل منها شفاعة » قلنا ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم ، والعموم لا صيغة له فلا تم هذه الآيات كل من يعمل سوءاً وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضاً فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاهاهن أقوام فقال في صفة الكافرين « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » (٣) وقال : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٤) وقال « ولا تنفع الشفاعة هذه إلا لمن أذن

(١) آية ١٨ من سورة هافر

(٢) آية ٤٨ من سورة الدحر .

(٣) آية ٢٨ من سورة الانبياء .

(٤) آية ٢٣ من سورة سبأ .

له « فدلنا بهذه الجلالة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة » — النفس الكافرة لا كل نفس ، ونحن وإن قلنا بمعوم العذاب لكل ظالم خاص فلا نقول إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها ، وبدليل قوله « ويقتصر ما دون ذلك لمن يشاء » ^(١) وقوله « أنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ^(٢) .

فإن قالوا فقد قال تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » والفساق غير مرتضى قلنا : لم يقل لمن لا يرتضى . وإنما قال : لمن ارتضى . ومن ارتضاه الله للشفاعة الموحدون بدليل قوله « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » ^(٣) وقيل للنبي ﷺ : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئاً » ^(٤) وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله . فإن قالوا : المرتضى هو النائب الذي اتخذ عند الله عهداً بالإجابة إليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم وقالوا « فاعفُ للذين تابوا واتبعوا سبيلك » وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة فإذا قبل الله توبة للذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار .

وأجمع أهل التفسير على المراد بقوله « فاعفُ للذين تابوا » أي عن الشرك

(١) آية ٤٨ من سورة النساء

(٢) آية ٨٧ من سورة يوسف

(٣) آية ٨٧ من سورة مريم

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل مع اختلاف في الرويتين انظر صحيح

مسلم بفتح النون ج ١ ص ٢٢٠

« واتبعوا سبيلك » أى سبيل المؤمنين . سألو الله تعالى أن يصر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم كما قال تعالى « ويفر ما دون ذلك لمن يشاء »

فان قالوا: يبع الأمة يرغبون في شفاعته النبي ﷺ . هو كانت لأهل السكابر خاصة بطل سؤلهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعته الرسول ويرغب إلى الله تعالى في أن تناله لاعتقاده أنه خير سالم من الذنوب ولا تأثم لله سبحانه بكل ما افترض عليه ، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة ، وقال ﷺ « لا ينجو (١) أحد إلا برحمة الله تعالى . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتفدى الله برحمته » (٢) .

وهاجم القرطبي كثيراً من الفرق غير المعتزلة . فهاجم « الكرامية » (٣) في تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فقال : « في هذه الآية رد على الكرامية حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يتقيد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى « فأنا بهم الله بما قالوا » ولم يقل بما قالوا وأصمروا ويقول عليه السلام « أشرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها حصصوا مني دماهم وأموالهم » (٤) وهذا منهم قصور وجود وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل من القول والاعتقاد . وقد قال رسول الله ﷺ « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان »

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة مع اختلاف بسيط . باب لمن يدخل أحد اللجنة بعده ح ١٧ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ٢٨٨ آية ٤٨ من سورة البقرة

(٣) الكرامية فرقة من المجسمة كما يقول الشهرستاني « تنسب إلى مؤسسها » محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة في باب بيان الايمان الذي يدخل الجنة ح ١ ص ٢٠٦ انظر صحيح مسلم بشرح النووي .

أخرجه ابن ماجة في سننه، فما ذهب إليه « محمد بن كرام السجستاني » وأصحابه هو الاتفاق وعين الشقاق . ونعوذ بالله من الخذلان (١) .

وهاجم الإمامية والرافضة في قوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلقني في قومي وأصلح » فقد قال : « المعنى وقال موسى حين أراد المغي للنجاة والمغيب فيها ، لأخيه هارون : كن خليفتي ، فدل على النياية » وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لمي (حين خلفه) في بعض مغازيه « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » (٢) فاستدل بهذا الروافض (٣) والإمامية وسائر فرق الشيعة على أن النبي ﷺ استخلف عليا على جميع الأمة حتى كفروا الصحابة — فبهم الله — لأنهم هتدم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف علي واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كفر عليا إذ لم يقر بطلب حقّه ، وهؤلاء لا شك في كفرهم وكفر من تبعهم على مقاتلتهم ، ولم يعلموا أن هـ . هذا استخلاف في حياة ، كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو بوفاته لا يقتضي أنه يتبادر بعده وفاته فينحل على هذا ما يتعلق به الإمامية وغيرهم ، وقد استخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وغيره ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق ، على أنه قد كان هارون شرك مع موسى في أصل الرسالة فلا يكون لهم فيه على ما راموه دلالة والله الموفق لهديّة (٤) .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٣ آية ٨ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب المناقب ج ١ ص ١٥٥ والنور على مختلف ج ١ على « هي فزوة بيوك » .

(٣) الرافض فرقة من الشيعة ، هموا بذلك لأنهم دسّوا خلافة علي .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٧٧٧ آية ١٤٢ من سورة الاعراف .

وفي الآيات التي يوم ظاهرها مشابهة الله تعالى للحوادث - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - عرض القرطبي آراء أهل السنة (١) وهاجم المشبهة والجسمة في قوله تعالى « والله المشرق والمغرب فأيتنا تولوا فثم وجه الله » يقول :

« اختلف الناس في تأويل الوجه للضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة . فقال الخناني : ذلك راجع إلى الوجود والمبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً . وقال ابن فورك : قد تذكر صفة الشيء وللمراد بها للوصف توسعاً كما يقول القائل : رأيت هلم فلان اليوم ونظرت إلى علمه ، وإنما يريد بذلك رأيت العلم ، ونظرت إلى العالم . كذلك إذا ذكر الوجه هنا ، والمراد من له الوجه أي الوجود . وعلى هذا يتناول قوله تعالى : « إنما نعظمكم لوجه الله (٢) » لأن للراد به : الله الذي له الوجه ، وكذلك قوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » أي اقربى له الوجه . قال ابن عباس : الوجه هبة من عز وجل كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقال بعض الأئمة تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية وضعت أبو المعالي هذا القول . وهو كذلك ضعيف . وإنما المراد وجوده . وقيل المراد بالوجه هنا : الجهة التي وجهنا إليها أي القبلة . وقيل الوجه المقصد كما قال الشاعر .

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : المعنى فتم رضا الله وثوابه كما قال : « إنما نعظمكم لوجه الله » أي

(١) لقد اختلف أهل السنة في مثل هذه الآيات فقال بعضهم بالتفويض ، وقال بعضهم بتأويل الأنبياء على ذواتهم المفعلة لا بنية . وقال أبو بكر بن الطيب وجهاً من تلك التكاليف أن الوجه والوجه واليد وغير ذلك صفات زائدة على الذات ثابتة لله تعالى .

(٢) آية من سورة الانسان .

لرضائه وطلب ثوابه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (١) « من بنى مسجدا يفتنى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة. »

وبيلو أن القرطبي كان يميل إلى التأويل؛ فإنه كثيراً ما تعرض له ووجه الآيات على ضوءه، كما وصفه بأنه مذهب الخذاق في مفتتح كلامه.

وتستطيع أن تلح ذلك ببساطة من خلال تفسيره، وترى القرطبي يهاجم الزنادقة والقرامطة الذين يتبعون المتشابه بقصد التشكيك في القرآن وإخلال العوام، وقال عنهم « لا شك في كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استئابة » وهاجم المجسمة الذين يعتقدون أن الباري تعالى جسم مجسم وصورة ذات وجه ويد وهين وجنب ورجل وأصبح — تعالى الله عن ذلك — وحكم بكفرهم إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، لكنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفضل عن ارتد (٢).

من هذا العرض تبين لنا أن القرطبي كان سنيا أشعريا، ينتصر لمذهب أهل السنة ويدافع عنه. وإن كان في تفسير الآيات التي يوم طاهرها مشابهة الله للحوادث يميل إلى التأويل، وأنه لم يقتصر على مهاجمة المعتزلة، بل تعرض للهجوم على كثير من الفرق السياسية والفيلية.

(١) الحديث أخرجه مسلم عن عثمان بن عفان ج ٥ ص ١٤ باب فضل بناء المساجد.
انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٨٣ وما بعدها.

(٢) أنظر تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٤ والقرامطة فرقة من الزنادقة ثلاثية المذاهب.
الفلاسفة من الفرق الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وبائي (كانوا ...).
المهرمات.

الفصل الرابع

الحركة العلمية في عصر القرطبي

لقد نشطت الحياة العلمية بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين (٥٩٤ - ٦٦٨ هـ) - وهو العصر الذي عاش فيه القرطبي فترة من حياته أيام أن كان بالأندلس -

وبما ساعد على ازدهار هذه الحياة ورواج هذه الحركة : أن « محمد ابن تومرت » مؤسس الدولة الموحدية كان من أقطاب علماء عصره . وقد أفسح في دعوته للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحجاسة حتى أنه لما ألف كتاباً لاتباعه بدأه بهذه الكلمة التي عرف الكتاب بها فقال :

« أهرز ما يطلب وأفضل ما يكسب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أهرز المطالب وأفضل للكاسب وأنفس للخائر وأحسن الأعمال » (١) .

وتتابع بعده الخلفاء والأمراء فكانت لهم قدم راسخة في العلم والأدب ومشاركة لشعراء في شعرهم (٢)

ورغم الاضطرابات التي حدثت في أواخر الدولة للوحيدية والتي كان من

(١) عصر الرايعين والموحدين القسم الثاني الأستاذ محمد هيثان ص ٦٤٥ .

(٢) راجع للجب في لميس أخبار المغرب - لعمرا كشي فانه يتحدث عن عبد المؤمن ابن علي « ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ » ص ٢٦٦ . ويتحدث عن يوسف بن عبد المؤمن « ٥٥٨ — ٥٥٨ هـ » ص ٢٥٦ ويتحدث عن : توب بن يوسف « ٥٦٠ — ٥٩٥ هـ » ص ٢٥٦ .

جرائها أن تداهت أركانها وأخذت تسرع نحو السقوط والانهيار، فإننا نرى أن خلفاءها كانت لهم ميول ونزعات علمية وأدبية، نلقد وصف «ابن الخطيب» انخيلفة «الأمون» — أبا العلاء إدريس «٦٢٤ — ٦٢٩ هـ» بقوله :

« كان رحمه الله شهبا شجاعا جريئا بعيد الهمة نافذ المزيمة قوى الشكيمة
ليبيا كاتبا أدبيا فصيحاً بليفاً أبيا جواداً حازماً » (١) .

وهذا هو «المرتضى بالله» — أبو حفص عمر «٦٤٦ — ٦٦٥ هـ»
الذي تفككت على يديه الدولة الموحدية ، يصفه للؤرخون بأنه كان فقيها
أديباً شامراً . وأنه كان شغوفاً بجميع الكتب والتصانيف .

ومن تعبيدة له نظمها في شهر ربيع :

وإني ربيع قد تضرع فحبه أذكر من المسك العتيق سبياً
بولاية المختار أحمد قد بدا يزهر به فخراً وحاز عظيماً

كذلك ساعد على نمو الحركة العلمية وازدهارها كثرة الكتب والمؤلفات
التي كانت بالأندلس، فلقد هوى كثير من الحكام جمع الكتب واقتناءها .
يمحدثنا «المقرئ» عن «الحكم المستنصر بالله» ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ « فيقول :
« كان محبا للعلوم مكرماً لأهلها جاعلاً للكتب في أنواعها بما لم يمجسه أحد من
الملوك قبله » ثم يقول عنه أيضاً « وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي
بأذلا فيها ما أسكن من الأموال ، حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها ،
قد آثر ذلك على لثام الملوك فاستوسع عليه ودق نظره وجمعت استفادته ،

(١) هجر الراهطين والوحيدين النعم التي من ٣٨٥ ، وانظر في ترجمة المرتضى نفس
المصدر من ٥٩٥ .

وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيا نعيم وحده وكان ثقة فيما ينقله (١).

وفي عهد أبي « يعقوب يوسف بن عبد المؤمن » (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) تكونت مكتبة تضارع مكتبة « الحكم المستنصر بالله ». يقول « المراكشي » وهو يتحدث عنه : « ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لك قبله عن ملك المغرب » (٢).

ولم تقتصر هذه الموازية على حكام الأندلس بل كانت متصلة في نفس الشعب الأندلسي وخاصة أهل « قرطبة ». يقول « المقرئ » :

« وهي — أي قرطبة — أكثر بلاد الأندلس كتباً وأشداً للناس اعتناءً بخزائن الكتب صار عندهم ذلك من آلات التمييز والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . »

قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي يطلبه اعتناءً إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح فحصلت أزيد في ثمنه ، فارجع إلى المنادي بالزيادة على إلى أن بلغ فوق حده فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوي . قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة قد نوت منه وقلت له :

أكرم الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست ببقية ولا أخرى ما فيه ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت بها لأعجل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها ما يسمع هذا الكتاب فلما رأته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير (١) .

هذه النزعات العلمية التي اتسم بها خلعاء اللوحدين وتلك المؤلفات التي غمرت بلاد الأندلس شجعت العلماء وروجت سوق العلم ، فتعددت الهيئات العلمية في ربوع الأندلس وبين جوانبها : ونهضت العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات، كما نهضت علوم اللغة : النحو والتاريخ والأدب والشعر ، ولقد كان لهذا كله أثر كبير في التكوين العلمي لصاحبنا « أبو هب الله القرطبي » .

وفي الحديث نبع كثير من العلماء في مقدمتهم « أبو الربيع بن سالم وهو سليمان بن موسى بن سالم الحيرى » ٥٦٥ — ٦٣٤ هـ من أهل بلنسية وصفه ابن « الأبار » بقوله : « كان إماماً في صناعة الحديث بصيراً حافظاً حافلاً حاراً بالجرح والتعديل ذا كرا للمواليد والوفيات يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة فرداً في إنشاء الرسائل مجيداً في النظم خطيباً فصيحاً مزمناً » (٢) .

ويقول الأستاذ محمد هنان : وكان فوق عمله التزير مجاهداً من أولى الإقدام والبسالة وثبات الجأش، يحضر الفزوات والوقائع ويشترك بنفسه في

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥

(٢) الشبكة ج ٢ ص ٧٠٨

القتال وببلى البلاء الحسن، وذكر أنه توفي وهو يخوض إحدى للمارك إلى دارت بين المسلمين والنصارى في ظاهر بلنسية سنة ٦٣٤ هـ (١).

وكان « يعقوب المنصور ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ » يشجع علم الحديث ويحتضن طلبته، يقول المراكشي: « ونال عنده طلبه العلم — أعنى علم الحديث — ما لم ينالوا في أيام أبيه أو جده، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوما بمحضرة كافة للوحدين يسعهم وقد بلغه حديم الطلبة على موضعهم منه وتقريره إياهم. يا معشر للوحدين، أتم قبائل، فن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء — يعنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا فهما ناهم أمر فأنا ملجؤهم وإلى فزعهم وإلى ينسبون. فمعلم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ للوحدون في إكرامهم » (٢).

ولقد كان هذا الخليفة يستقدم كثيرا من الحديثين إلى حاضرة ملكه « إشبيلية » بالأندلس أو « مراكش » بالمغرب، ليسمع عليهم، وكذلك كان يفضل أبوه الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ » في ترجمة « محمد بن إبراهيم بن خلف بن أحمد الأنصارى ٥١١ — ٥٩٠ هـ » يقول ابن « الأبار » بعد أن تحدث عن إمامته في علم الحديث « واستدعى من مألقة في أواخر حياته من الخليفة يعقوب للمنصور إلى مراكش ليسمع عليه بها فقصده إليها ولسكنه توفي بها بعد قليل في شعبان سنة ٥٩٠ هـ » (٣).

ومن أعلام الحديث في عصر الموحدين:

داود بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصارى « ٥٥٣ — ٥٦٢ هـ »

(١) عصر الرابطين والموحدين، القسم الثاني ص ٦٥٨

(٢) للجب ص ٣٥٦

(٣) عصر الرابطين والموحدين، القسم الثاني ص ٦٥٣ تنالا من لشكة وانظر الفكة

ترجمة رقم ٥٩٦، ٢٠٨٠

«سكن مائقة وأصله من بلنسية . وكانت له رحلات هلمية داخل الأندلس وخارجها .
ومن شيوخه « الطاهر بن هوف ، وأبو القاسم بن بشكوال » وكان هو وأخوه
أبو محمد من أوسع أهل الأندلس رواية في وقتها لا ينزاعان في ذلك ولا يدايمان
مع الجذالة » (١)

ومهم : محمد بن محمد بن سعيد البجلي « ٥٦١ — ٦٣١ هـ » من أهل
جيان ، يقول ابن الأبار بعد أن تحدث عن شيوخه ورحلاته « ثم انتقل إلى
قرطبة فتولى الخطبة والإمامة بمجامعها الأعظم وأسمع الناس الحديث وأخذ عنه
جماعة وتوفي بها على تلك الحال عصر يوم الأربعاء الحادى والعشرين من
رمضان سنة ٦٣١ هـ وقتل عن بعض اللوذين : إن هذا الشيخ دعا الله أن
يعينه وهو ملازم الصلوات بجامع قرطبة فأجبت دعوته (٢) .

وفي التفسير ظهر عدد من المفسرين منهم « محمد بن عبد الله بن ميسون
المبدرى ت ٥٦٧ هـ » كان عالما في التفسير والقراءات والفقه واقتنه وله مؤلفات
في كثير من الفنون كما كان ينظم الشعر ويقولها ، ومن شعره :

توسلت بآبى مؤمن وما قلت لى سامع ومطيع
أبصلى بحر النار حاص موحد وأنت كريم والرسول شفيح

ومن أكابر شيوخه وأجلهم « عبد الرحمن بن هتاف » تفرط في سنة
٥٢٠ هـ وصفه صاحب الديباج بأنه كان آخر المشيخ إلى الأكارب بالأندلس
في علو الأسناد وسعة الرواية ، وأنه كان عالما بالقراءات المسموعة والائمة ملما بالتفسير (٣) .

(١) التذكرة ص ٦٢ وما بعده ح ١

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠ ح ١ وانظر الديباج ص ١٥٠ ، ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق .

ومن المفسرين في عصر الموحدين « أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي جرة »
ت سنة ٥٩٩ هـ . قال ابن « الأبار » عنه « إنه سمع من القاضي أبي بكر بن
أسود » ت سنة ٥٣٩ هـ « وناوله تأليفه في تفسير القرآن » (١) .

وأوجب المصنف مجموعة من القراء الأكابر . منهم « أحمد بن حلي بن يحيى
ابن هون الله الأنصارى المعروف بالحصار » سكن « بلنسية » وأصله من
« دانية » درس القراءات وبرع فيها وتبوأ رياستها في عصره ولم يكن أحد
يدانيه في صناعته في الضبط والتجويد والإتقان وكان يقصده الطلاب من كل
صوب للأخذ عنه . ويصفه تلميذه « ابن الأبار » الذى نقل عنه هذه الترجمة
بأنه كان « آخر المقرئين بشرق الأندلس » وكانت وفاته ببلنسية في الثالث
من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ قبيل كارثة المقاب بأيام قلائل وقد قارب الثمانين
من عمره » (٢) .

ومنهم « محمد بن حسن بن محمد بن هيد الله بن خاف الأنصارى من أهل
مالقة » يرف ب« ابن الحاج » كان من أئمة القراءات والحديث أخذ عنه الناس
وانتفعوا به واستمر ينشر العلم إلى أن أكرمه الله بالشهادة في وقعة العلاب
سنة ٦٠٩ هـ (٣) .

أما الفقه فقد حاول مجرعة من أقطاب العلماء ؛ منهم زياد بن هيد الرحمن
الغنى « ت سنة ٥٢٠ هـ » وهيد الملك بن حبيب « ت سنة ٥٣٨ هـ » ،
ويحيى بن يحيى « ت سنة ٥٣٤ هـ » .

(١) رسالة مهجع ابن هذبة المفسر للزميل هيد الوهاب فايد . ص ٢٤ .
(٢) عصر الرابطين ، الموحدين ، القسم الثانى ص ٦٥٦ وانظر الشكله ترجع رقم ٢٦١ .
(٣) الديباج ص ٣٠١ .

حاولوا نشر مذهب الإمام « مالك » بالأندلس وبذلوا في سبيل ذلك جهودا صادقة وشجع أمراء الدولة الأموية هذه الجهود التي تبذل لأقرار المذهب المالكي وكانهم يريدون مخالفة خصومهم المباسيين الذين يستنقون المذهب الحنفي بأوراق ، فاستقر المذهب المالكي وزحزح غيره من المذاهب (١) .

وظل الأمر على ذلك إلى أن ظهر « محمد بن تومرت » مهدي الموحدين . وكان يكره فقهاء الدولة المرابطية ويتهممهم بالنمصب والجليل ، وكان هؤلاء الفقهاء نفوذ وسطوة سجلها كثير من المؤرخين وانتقدوها بعض الشعراء بقوله :

أهل الربا يستمونا بيسمكم كالذئب أدليج في الظلام العاتم
فملكتهم الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال باين القاسم
وركبتهموشهب الدواب بأشهب (٢) وبأصبع صيفت لكم في العالم (٣)

فزاد ذلك من كراهية « ابن تومرت » لهم — ورغم أنه كان يحب المذهب المالكي — إلا أن هذه الكراهية دفنته إلى أن يضع لأتباعه دروسا فقهية حتى لا يعتمد على فقه هؤلاء ، وهذه الدروس وإن كانت مأخوذة من الفقه المالكي إلا أنه لم ينسبها للإمام « مالك » بل نسبها لنفسه وضمنها كتابه « أهرز ما يطلب » .

(١) راجع ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٩ للاستاذ أمين — خريطة في التاريخ الاسلامي ص ٩٦ دكتور جودة هلال — خطط الأندلس ج ٤ ص ١٤١ — مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٢ — في فلسفة ابن رشد دكتور بيمار ص ١٠٠ — نتائج الطائيف ج ٣ ص ١٠٨
(٢) أشهب هو أشعب بن عبد العزيز الفقيه المالكي المصري المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وهو الذي تولى موت الشافعي فقال الشافعي: « تبنى وصال »
وأصبع هو أصبغ بن الفرج الفقيه المالكي المصري توفى سنة ٢٢٥ هـ وقيل غير ذلك وابن القاسم فقيه مالكي مصري يسمى هبة رجع بن القاسم المتوفى سنة ١١١
(٣) راجع المحجب ص ٣٣٥

وجاء بعده « يوسف بن عبد المؤمن » فكملة التشفقات والآراء الكثيرة التي توقع المقلدين في حيرة واضطراب فرغب في حمل الناس على المذهب الظاهري وكذلك رغب أبوه « عبد المؤمن بن علي » « ٥٢٤ — ٥٥٨ » ولكنهم لم يضر ذلك، يؤكد « المراكشي » هذه الحقيقة فيقول : « يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجسد » أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس^(١) فقال لي : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المشتملة التي أحدثت في دين الله . أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق وأياها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فاقبنتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك . فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، وهذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان جن يمينه ، أو السيف^(٢) ورغم ما في هذه العبارة من تهديد ووعيد لمن اشتغل بالفروع وترك ظاهر الكتاب والسنة إلا أن التاريخ لم يسجل له أنه نفذ وعيده وتهديده ، كما سجله لولده « يعقوب المنصور » . فقد كان شديد الإحجاب بأبن حزم ، يعتبره منارة من منارات الإسلام ، وبلغ من إعجابه أنه قال بعد أن وقف على قبره ذات يوم : عجبا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم .. ثم قال : كل العلماء هيال على ابن حزم ولهمنا حاول حمل الناس على مذهبه وإزالة مذهب مالك من المغرب والأندلس^(٣) ويصف « المراكشي » الخطوات الإيجابية التي اتخذها

(١) لمبدأه بن يونس التوفي في حدود سنة ٥٢٢ هـ شرح للدولة يبدو أنه هو . ويوجد منه نسخة خطية بمكتبة الفرويين بناس برقم ٨١ ونسخة أخرى برقم ٨٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥

(٣) الدعوة الموحدة ص ٣٠٤

« يعقوب » لاعادة المنهج الظاهري إلى الأندلس فيبين : أنه أحرق الكتب المالكية وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي^(١) والخوض في شيء منه، وتوجه على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان هنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات المشتركة : الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة . فكان يحيل لمن حفظه الجمل السني من الكساء والأموال . ثم يقول المراكشي : وكان قصده في الجملته نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنها لم يظفروا وأظهره يعقوب هنا « (٢) .

وهذه المحاولات، وإن أوجبت بعض الفقهاء الذين اهتمقوا بمنهج الظاهرية أو نفست عن الفقهاء القدامى الذين كانوا يدينون بهذا المنهج ، فإن ذلك لم يمت المنهج المالكي بالأندلس ، بل لعل الوضع تغير بوقاة « المنصور سنة ٥٩٥هـ . فماد الناس إلى الفقه المالكي وعاد الفقهاء إلى دراسة المروءة الفقهية.

(١) علم الرأي : انقسم المتكلمون في الفقه إلى قسيتين : أهل الحديث وأهل الرأي . صرف الأولون ببناء الأحكام على الأحاديث النبوية والعلل بها بخير إعمال الرأي من أمور الدين والفرجة .

وهرف الآخرون بأعمال الرأي في الأحكام وقياس منها على بعض والتوقف عن قبول الحديث إلا إذا كان متواترا ، وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع وأطاعى هي المدرسة الثانية اسم مدرسة الرأي وسمى أصحابها أهل الرأي .

(٢) المسجب من ٣٥٤ وانظر الدهوة الموحدة من ٣٠٤ .

ويؤيد هذا أن كتب التراجم والطبقات قد ترجمت لك . من الفقهاء المالكية في هذا العصر . خذ مثلا :

(اسحاق بن إبراهيم بن يعمر الجابري) من مدينة فاس درس بها ودرس كذلك بسبته . ثم رحل إلى الأندلس ودرس الفقه بمصرية وولى قضاء فاس وسبته ، وكان متبحرا في الفقه المالكي حائظا متقنا ، ويقال أنه كان يستظهر المدونة وولى قضاء بلنسية في أواخر حياته سنة ست وستمائة ثم ولى قضاء « جيان » وفقد في موقعة العقاب في شهر سفر سنة ٦٠٩ هـ (١) .

بل لعل هذا الاضطهاد الذي نال الفقهاء بسبب الحزمية أو الظاهرية . أحدث رد فعل في كراهية المذهب الظاهري وتقدمه . ومن الأمثلة التي تؤيد ذلك : أن الفقيه المالكي « محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الأصبلي المعروف بابن زرقون » قد ترجم له المؤرخون فوصفوه : بأنه كان قديما متبحرا في المذهب وأنه كان يشارك في الأدب مشاركة طيبة ثم ذكروا من مؤلفاته : « الكتاب المجل في الرد على المحلى لابن حزم » . ويوضح صاحب « الديباج » السبب الدافع له إلى تأليف هذا الكتاب فيقول : « كان من كبار المنصبين للمذهب فأودى من جانب أبي عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالآثر والظاهر صنف كتاب المحلى في الرد على المحلى لابن حزم . وتوفي في شوال سنة ٦٤٩ هـ (٢) .

(١) عمر المرابطيين والموحدين القسم الثاني ص ٦٥٦ ، وانظر ترجمته في التكملة

رقم ٥١٧ .

(٢) عمر المرابطيين والموحدين القسم الثاني ص ٦٥٦ والديباج ص ٢٨٦ . وبلاحظ

أن ابن فرحون ذكر وفاته سنة ٧٢١ وهو خطأ .

أما علوم اللغة والنحو فقد خرج المصنف طائفة ممتازة من القنويين، والنحاة من أشهرهم : « محمد بن هلى بن خروف » من أهل أشبيلية، قال صاحب الوفيات فى ترجمته : « كان فاضلا فى علم العربية وله فيها مصنفات شهدت بفضله وسعة علمه » (١) . ويبين ابن شاكر أنه أهدى نسخة من شرحه على كتاب سيويوه للخليفة الناصر — « ٥٩٥ — ٦١٠ هـ » — فوصله الخليفة للوحدى بألف دينار من الذهب . وأله لم يتصدر لتدريس النحو بأشبيلية وحدها بل طوف كثيرا من بلاد الأندلس لهذا الغرض . فانتفع الناس به ، وكانت وفاته سنة ٦٠٩ هـ (٢) . ومنهم أبو هلى عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي المعروف بالشلوين (٣) « درس القراءات والآداب واللغات ، وأخذ بقسط من رواية الحديث ثم تعمق فى دراسة العربية حتى نبغ فيها وهدى إمامها الذى لا يبارى . وتصدر لإفراشها بأشبيلية دهرا وكانت تشد إليه الرحال من سائر الأقاليم للاحذ عنه، وتوفى بأشبيلية فى أواخر صفر سنة ٦٤٥ هـ . ومنهم « عبد الله بن محمد ابن عبد العزيز بن سمعون الأزدي » من أهل بلنسية برع فى اللغة والأدب وتفوق فيها فأفاد الناس كثيرا وكانت وفاته فى سنة ٦٧٣ هـ (٤) .

كذلك ظهر فى علم التاريخ مجموعة من المؤرخين أرخ بعضهم للأندلس ورحم آخرون لعلمائها ومفكرها ومنهم :

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٢

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٠

(٣) ضبط ابن خلكان هذا الكلمة بفتح الشين واللام وسكون الواو وسكر الاء للوحدة وسكون الباء وبعدها نون نسبة إلى الشلوين وهو لغة الأندلس الأبيض اللون أنظر الوفيات ج ٢ ص ١٢٤ وأنظر هجر الرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٨٦

(٤) أنظر ترجمته فى التكملة ج ٢ وع ٢١٦٠

« أبو عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن هنادى » ص ١٠٠ . « البيان للغرب فى تاريخ الأندلس والغرب » . وحياته هذا للورخ مجهولة ، يشير إلى ذلك الأستاذ « محمد هنان » فيقول : أما عن حياة ابن هنادى وأصله ونشأته فلما نعرف عنها شيئا ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل القرن الثامن وكان حيا فى سنة ٧١٢ هـ حسبما يذكر لنا ذلك فى مؤلفه ، وربما توفى بعد ذلك بقليل (١) .

ومنهم ابن الأبار « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى » ولم يكن « ابن الأبار » مؤرخا فقط بل كان فقيها وكاتبا وشاهرا إلى جانب كونه مؤرخا (٢) ولقد وضع مصحفا فى تاريخ هذه الأندلس سماه « التكملة » ليم به كتاب العلة لأبى القاسم خلف بن بشكوال للتوفى سنة ٥٧٨ هـ .

وله فى هذا المجال كتاب « الحلة السيرة » هو أيضا مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب تبدأ من السنة الأولى للهجرة حتى أوائل للامنة السابعة ، وقد توفى ابن الأبار مقتولا بتونس على يد حاكمها المستنصر بالله سنة ٦٥٨ هـ . لأنه تخيل منه الخروج وشق عصا الطاعة (٣) .

وجاء بعده العلامة المغربى « أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الانصارى المراكشى » وكان فقيها جليلا ومؤرخا ثقة فوضع موسوعة من أجل موضوعات التراجم لرجال المغرب والأندلس وسماها « القليل

(١) عصر الرباطين وللوحدى ، القسم الثانى من ٧٠٩ تولا من البيان للغرب ، القسم الثالث من ٤٥٤ .

(٢) واجم الفوات لابن خاسكر الكتفى ح من ٧٨٣

(٣) عصر الرباطين وللوحدى ، القسم الثانى من ٧٠٥ ، ٧٠٧ .

والنكته لكتابي الموصول والصلة^(١) استذكر فيها ما فات ابن بشكوال ، وابن الأبار ، ويشير الأستاذ عنان إلى القموض الذي يكتنف حياة هذا المؤرخ صاحب هذه الموسوعة فيقول : أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ولا سرف إلا أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وتوفي في أواخر هذا القرن وربما في أوائل القرن الثامن^(٢) .

ثم جاء من بعده « ابن عبد الملك » راوية ومؤرخ أندلسي ولد في أواخر العصر الموحدى وتوفي بفرنطة سنة ٧٠٨ هـ . وهو : أحمد بن إبراهيم بن الزبير ابن الحسن بن الحسين بن الزبير الشهير بابن الزبير . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها « صلة الصلة » مديلاها على صلة ابن بشكوال . وفيها كثير من التراجم لرجال المصريين المرابطين والموحدين^(٣) .

ولقد بلغ الشعر في عهد الموحدين حدا كبيرا من الازدهار والقوة فقد كان خلفاء الدولة الموحدية يتذوقون الشعر ويفرقون بين جيده ورويته قد نسج الشعراء قصائدهم وتباروا في مدح هؤلاء الخلفاء طعما في عطاياهم . ولم تنطق جنة الشعر أيام اضطراب الأندلس بالثورات والفتن وأيام محنتها بسقوط قواعدها في أيدي النصارى بل أذكى ذلك قرائحهم : فصدرت عنهم القصائد فرائد القواعد وفي إشمال الحماسة لاستردادها ، ومن شعراء هذا العصر « محمد بن أحمد الصابوني الصديقي » من أهل أشبيلية ، يقول ابن الأبار عنه : « ذهب

(١) يوجد من هذه النسخة خمسة مجلدات متناثرة بالمتحف البريطاني والمكتبة الوطنية بباريس ودار الكتب المصرية .

(٢) مصر للرا بطين والموحدين ، القسم الثاني ص ٧١٠

(٣) المصدر السابق ، القسم الثاني ص ٧٠٩

الآداب ينهائه وختمت الأندلس شعراها به « ولقد رحل ابن الصايوني إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية وهو يقصد مصر سنة ٦٤٠ هـ (١) ».

أما الأئمة العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام . فإننا نرى أنها نشطت ولقيت رواجا في مبدأ عصر الموحدين لأن « محمد بن تومرت » كان كأوصفه « ابن الأثير » فاضلا عالما بالشريعة . حافظا للحديث عارفا بأصول الدين والفقه متحققا بعلم العربية (٢) وقد قدمنا أنه لى على علماء المرابطين تمصيحهم وجعلهم ووقوفهم عند الفروع كما فعل الإمام قبله أمان الغزالي . ولهذا حلوا على المهدي كما حلوا على كتب الغزالي (٣) فاستصدروا أمرها بإحراقها يقول « المرأ كشى »: وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين على بن يوسف — تمصيح علم الكلام وكراهة السلف له وعجزهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين . وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد . إلى أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بنقض علم الكلام وأهله . فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالشديد في نبد انطوض في شيء منه . وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقديم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك (٤) ولم تقتصر مطاردة الفقهاء

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٩

(٢) ابن الأثير، الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٢

(٣) ومنها مخطوط (الاحياء) فيه حجة على الفقهاء ووسطهم بالجود، ومنها (الجامع الروام في علم الكلام) ومنها (الاقتصاد في الاعتقاد)

(٤) السج ص ٢٤٦ وما بعدها .

على علم الكلام وحده بل تمدته إلى بقية العلوم الفلسفية : وفوق ما كان عليه « ابن تومرت » من تحقق في أصول الفقه وعلم الكلام ، فإن كراهيته أيضاً لعلماء المرابطين جعلته لا يحجر على القول ولا يخلق أمامها أبواب البحث ، ولم يسجل التاريخ له ولا خليفته « عبد المؤمن بن علي » اضطهاداً للعلوم العقلية أو للشكائين بها . أما الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » فكان محبا للعلوم العقلية شغوا فحبا ، فشجعا وقرب المشتكئين بها ، يصفه « المرأكشي » بقوله : « وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أحزائها وبدأ من ذلك يعلم الطب » . ثم بين « المرأكشي » أنه أمر بجمع كتب الفلسفة فاجتمع لها منها قريب مما اجتمع « للحكم المستنصر بالله الأيوبي (١) » ، ولقد نال عنده « أبو بكر بن طفيل » المتوفى سنة ٥٨١ هـ « وأبو الوليد بن رشد » « ت سنة ٥٩٤ هـ » مكانة مرموقة وميزة عالية رفيعة وفي عهد ولده « يعقوب المنصور » تألق ابن رشد وسطع نجمه فقربه إليه الخليفة الجديد أكثر من أبيه حتى أن ابن رشد ليصحب ويقول لمن يهتبه بمنزلته ومكانته : والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء به . فإن أمير المؤمنين قد قربني دفعة إلى آخر مما كنت أؤمله أو يصل رجائي إليه (٢) .

وإذا كانت الفلسفة قد ازدهرت فترة في عهد الموحدين فإنها قد ازدهرت أيضاً في عهد « الحكم المستنصر بالله » ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ وكانت تقام لها حلقات في مساجد قرطبة (٣) .

(١) للمجب ص ٣٠٩

(٢) بين الدين والفلسفة ص ٣٣

(٣) بين الدين والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٩

أما فيما عدا هاتين الفترتين فقد حورت الفلسفة واضطهدت ، طارها
الأمراء وطارها الفقهاء والعامة . ولعل محاربة الأمراء لها كانت ترضية لفترتين
فيعد أن انتهى عهد الحكم وخلفه ولده « هشام المؤيد » وكان حدثا لا يتجاوز
العاشرة من عمره استقل « المنصور محمد بن أبي عامر » سنة ٣٩٣ هـ
بالسلطة وانفرد بالحكم ، ثم أراد أن يتقرب إلى الناس وأن يحو شعور السخط
والاستياء عليه من نفوسهم فأعدم كتب الفلسفة . يقول صاحب « طبقات
الأمم » « فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصور وهيل عليها التراب والحجارة
وغيرت بضروب من التغاير ، فل ذلك نهيبا إلى هوام الأندلس وتبجيها
لمذهب الحكم هندم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مسمومة
بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهما هندم بالخروج عن الله ومظنوننا
به الإلحاد في الشريعة (١) .

ويؤيد « المقرئ » ذلك فيقول هند استمراض حال العلوم بالأندلس
« وكل العلوم لها هندم حظ واهتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظا هند
خواصهم ، ولا يتظاهرها خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو
يشتغل بالتنجيم أطلفت عليه العامة اسم زنديق . فقيدت عليه أنفاسه ، فإن
زل في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو
يقتله السلطان تقريبا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب
هذا الشخص إذا وجدت . ثم يقدم لنا المقرئ دليلا قويا على أن « المنصور ابن
أبي عامر » فعل ما فعل تقريبا إلى الناس رغم أنه كان يشتغل بهذه العلوم في
الباطن فيقول « وبهذا تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان

(١) بين الدين والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٠ وانظر الادب والأندلس

غير خال من الاشتغال بهذه العلوم في الباطن» (١) .

فهل كانت محنة ابن رشد على يد الخليفة الذي قرب به وأدناهم من هذا التقبيل ؟ أرجع بعض اللورخين سبب هذه المحنة إلى كفر ابن رشد وزندقته . فقد نقل عنه ألفاظ لا تصدر إلا من اللارقين من الدين . وذلك أنه حين شاع في الأندلس أن ربحا عاتية تهب في يوم كذا تهاك الناس ، وشاور والى قرطبة العلماء ومهم ابن رشد وكان يومئذ قاضيا « قال أحد العلماء : إن صبح أمر هذه الريح فوى ثانية الريح التي أهلك الله بها قوم عاد . إذ لم تلم ربح بعدها يعم هلاكها . فانبرى له ابن رشد ولم يتالك أن قال : والله وجود قوم عاد ما كان حفا فكيف سبب هلاكهم ، فسقط في أيدي الحاضرين وأكبروا هذه الزلة التي لاتعبر إلا من صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن » (٢) ووصل ذلك إلى الخليفة فخا كه وأبده من بلاطه .

ويشكك بعض الباحثين في هذا الكلام فيقول : لم لاتكون هذه إشاعة أطاقتها أهداء ابن رشد . من الفلاسفة أو من الفقهاء . كان من وراثها أن أغلق للنصور الباب خوفا من شغب الناس فخا كه وطرده من قرطبة مهايا (٣) .

ولا سمنا ذلك كثيرا ، وكل ما سمنا أن الخليفة للنصور قد نجاب مع الروح البائدة في ههه ضد الفلسفة . ولم تقتصر مطاردة الخليفة للنصور لفلسفة وحدها ، وإنما تمدتها إلى سائر العلوم العقلية فأصدر منشورا يقضى

(١) فتح الطايب للقرى ص ١٠٢

(٢) في فلسفة ابن رشد للدكتور بيسار ص ٤٣ .

(٣) انظر « في فلسفة ابن رشد » ص ٤٤

بتحريم الاشتغال بهاء وإذا كان علم الكلام قد طورد أيام الرباطين فلماذا طورد في أيام الموحدين وزعيمهم « محمد بن تومرت » كان جل ما يدهو عليه كما يقول « اللرا كشي » « علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية » ؟ لعل العامة أيضاً كانوا يكرهون هذا المذهب كما كانوا يكرهون مذهب المعتزلة ولم يستنقوا إلا مذهب السلف .

يوضح ذلك ما قاله اللرا كشي بعد أن تحدث عن عقيدة ابن تومرت وأنها أشعرية قال : « وكان أهل المغرب ينافرون هذه الماوم ويمادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك » (١) . ومن هنا أفاق المنصور للباب بتحريم الاشتغال بعلم الكلام أيضاً .

وإذا كان الفقهاء والعامة قد حاربوا الفلسفة فإن لا أتصور أن الفقهاء قد حاربوا مذهب الأشاعرة . فإن الأشعرية قد عرفت طريقها إلى المغرب قبل عصر الموحدين . واتى هذا المذهب قبولا في نفوس الفقهاء ولم يقض عليه بتلك المشورات . بل ظل بالأندلس ، وانتشر بهاء وبالمغرب .

وقدم القرطبي إلى مصر أيام الأيوبيين وحاصر الفترة الأخيرة من حكمهم ثم شاهد اغتصاب الماليك للسلطة واستمر في مصر إلى أن توفي في خلافة « الظاهر بيبرس البندقدارى » الذى حكم من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٦هـ . ولم تكن الحياة العلمية في مصر أيام الأيوبيين بأقل منها في الأندلس أيام الموحدين ، ولعل الأسباب التى أدت إلى نشاط الحركة العلمية في الأندلس تقرب أو تنفق مع الأسباب التى أدت إلى نشاطها في مصر .. فلهذا وصف

المؤرخون أمراء البيت الأيوبي بالذكاء والميول العلمية والأدبية وهذه حقيقة، فإن الباحث إننا تتبع سير هؤلاء الملوك فإنه لا يجد ملسكا أو أميراً خائلاً أو جاهلاً، ويبين « صاحب الروضتين » « أن الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبي » كان يحب العلوم الدينية وكان يصطحب أولاده وينذهب لجماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين وينتقل بهم في البلاد لهذا الغرض » (١).

وقد قدمنا أنه تلمذ على « الطرطوشي وابن هوف » وجاء من بعده على مصر ابنه « العزيز عثمان ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ » — فسمع الحديث بالإسكندرية من الجافظ السلفي « والفقيه عن ابن هوف » وسمع بمصر النحو من « ابن برى » (٢).

وتحدثنا المراجع التاريخية بأن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ٦١٥ — ٦٣٥ — كان يحب العلماء ويعلمهم وكثيراً ما يسألهم أسئلة عميقة يدل على ذكائه وعلمه.

يبين صاحب « البداية والنهاية » أنه اجتمع مرة بمسلم من العلماء الأجلاء يسمى « أباهيد الله بن أبي الحسن اليوناني المتوفى سنة ٦٥٨ هـ » عند أخيه « الأثرى موميت ٦٣٥ هـ » وتذاكر معه شيئاً من العلم فحرت مسألة القتل بالمثل وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودى فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فقال الكامل: لأنه لم يعترف. فقال الشيخ الفقيه: في صحيح مسلم ما عترف. فقال الكامل: أنا اختلفت

(١) الروضتين لأبي شامة ج ٢ ص ٢١٩ بتصرف. وانظر المحرقة الفكرية في مصر في عهد الأيوبيين والبابايك الدكتور عبد الطيف حرة ص ١٤٩ وانظر مرجع السكروب ج ٣ فقد ذكر صاحبه كثيراً من أخبار أمراء البيت الأيوبي.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢٢٨ وانظر الحركة الفكرية بفتح اللوازم قد ترجم لأمير البيت الأيوبي وبين الميول العلمية لهم.

صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصاره لمسلم.
ثم بين ابن كثير أن الشيخ أخذ مجلداً ، وأخذ بعض الحاضرين مجلداً
آخر ، وأن الكامل أخذ مجلداً ، فنناول الشيخ مجلده وافتتحه
فوجد الحديث كما قال فأراه للكامل فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة
كشفه وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعاً إلى
« بمليك » وقال للكامل : إنه لا يؤثر بمليك شيئاً فأرسل له الكامل ذهباً
كثيراً^(١) . فهذه القصة لا ندلنا على علم « الكامل » وذكائه فقط بل تدلنا
على حبه للمعلم وأنه لم ينفرد بهما الحب وحده بل شاركه فيه أخوه فلقد تنازع
الأخوان هالما من العلماء كل واحد منهما يريد أن يستأثر به وأن يضمه إلى
بلاطه لولا أن تغلب « الأشرف » على رغبة الكامل فأنفذه إلى « بمليك »
ولقد أطلق بعض الباحثين على الملك « المعظم هيسى بن الملك المادل »
ملك دمشق والشام (ت سنة ٦٢٤ هـ) مأمون بن أيوب لأنه كان يقرب العلماء
ويحترمهم ويدارهم ومع شغفه بالملك كان يحويها فقيها لنويا^(٢) .

كذلك كان من العوامل التي ساعدت على رواج الحركة العلمية في عهد
الأيوبيين ، كثرة المدارس وانتشارها بين أرجاء مصر والشام . فلقد أكثر
الأيوبيون من بناء المدارس للقضاء على التشيع ومحاربة آثاره وإعادة الحرية
للعلماء المدارسين الذين كانوا يحاربون على أيدي الفاطميين . وكانت هذه

(١) المرجع السابق ٥ وتعليقه .

(٢) انظر الأبدية والنهاية ج ١٢ ص ١٣٤ ، والأدب في مصر الأيوبي قدكتور

محمد زهلول سلام ص ٨٠ والحركة الفكرية ص ١٥٣ وقدكتور أحمد بدوي تأليف هين
للك المعظم هيسى بنشوان « مأمون بن أيوب » مسكنة الانجليز . وحديث الجارية الخريجة
البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والبيهقي . انظر التاج ج ٣ ص ٧ .

للمدارس موزعة على ثلاث : الإسكندرية ، والقاهرة ، وقوص .

أما الاسكندرية فقد قدمنا أنه كان بها مدرستان للحديث والفقه وكان للمذهب السني سائدا بها قبل قدوم « صلاح الدين » وقبل قيام الدولة الأيوبية ، وقد تقدم أيضاً كفاح « أبي بكر الطرطوش » وجهاده في سبيل إعادة للمذهب السني ، بالإسكندرية ، فالاسكندرية إذن : لم تكن كفرها من البيئات بمحاجة إلى مجهود تبذلها الدولة الأيوبية حتى تتخلص من تشيعها ، ومع هذا فإن « صلاح الدين » أسس بها بعض المدارس إن لم تكن لمحو المذهب الشيعي فمساهمة منه في إضعاف الحركة العلمية .

أما القاهرة : فقد كانت مقر الدعوة الفاطمية وعاصمة خلافتها ، ومن ثم احتاجت إلى جهد كبير من رجال الدولة الأيوبية الجديدة لكي يتم لهم الرجوع بهذه البيئة العظيمة من المذهب الشيعي إلى المذهب السني ، فابتنى مؤسسا « صلاح الدين » مدرستين على عهد الخليفة « العاضد » الفاطمي نفسه (ت ٥٦٧ هـ) أولهما مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق وهرفت بأسماء كثيرة منها للمدرسة الناصرية والمدرسة الشريفة ومدرسة ابن زين التجار (١) والثانية مدرسة للمالكية هرفت باسم دار الفزل ثم هرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه هذه المدرسة من ضيعة وقفها عليها « صلاح الدين » بالفيوم . ثم مات « العاضد » الفاطمي ومضى « صلاح الدين » في ابتناء المدارس فبنى بها مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها المدرسة السيوفية .

(١) الحركة الفكرية س ١٥٦ وراجع كتاب الانتصار لابن دقاق ح ٤ ص ٩٣ فانه قد بين أن هذه المدرسة سميت بمدرسة ابن زين التجار نسبة إلى عالم من علماء الشافعية تسمى بهذا الاسم و دوس بها .

وإلى جانب المدارس الثلاث السابقة الشافعية والمالكية والحنفية بنى « صلاح الدين » مدرستين أخريين لتهذيب المذهب الشافعي خاصة وهو المذهب الذي كان عليه أكثر أمراء البيت الأيوبي نفسه . إحداهما وهي المدرسة الرابعة بجوار الإمام الشافعي والأخرى وهي المدرسة الخامسة بجوار المشهد الحسيني (١) كما بنى صلاح الدين أيضاً مدرسة في دمشق ومدرسة بالقدس . ولقد تحدث « ابن خلكان » عن هذه المدارس وهو يترجم لصلاح الدين ثم عقب بقوله « ولقد فكرت في نفسي في أمر هذا الرجل وقلت إنه سيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأعمال المشكورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف المظيمة — يقصد الأوقاف التي حبسها صلاح الدين على هذه المدارس — وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر فإن المدرسة التي بالفرافة مايسمونها إلا بالشافعي والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا المشهد والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا مدرسة السبوعية والتي بمصر — يريد القسطنطينية — لا يقولون إلا مدرسة زين التجار . . . وهذه صدقة الصر على الحقيقة (٢) » .

وبعد أن انتهى عهد « صلاح الدين » لم تفرحمة خلفائه . ولم تنقاصر من بلوغ المجد وخدمة الدين فتوالى إنشاء المدارس في أيامهم وراجت سوق العلم والملاء ويكفي أن نشير إلى بعض هذه المدارس التي أحدثها خلفاء صلاح الدين أو التي أسست في العهد الأيوبي .

المدرسة السكلمية : وهي أول دار علمت للحديث بالقاهرة وقد كانت

(١) للمصدر السابق ووفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٠٠

(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٠٦ يقتصر

الأولى في دمشق على عهد الملك « السادل نور الدين محمود » . أسس هذه المدرسة الملك « السكامل » وفرغ من عمارتها في سنة ٦٢١ هـ ودرس فيها جماعة من الفضلاء وتولى مشيختها أكابر العلماء (١) .

المدرسة الصالحية بناها الملك « الصالح نجم الدين أيوب » وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة وتحدث، « المقرئ » من هذه المدرسة فقال : « إنها من أجل مدارس القاهرة إلا أنه قد تقدم عهدها فرئت » ولما مات الصالح أيوب دفن بناحية من مدرسته تخصص بالمسكية فقال في ذلك بعض الشعراء :

بليت لأرباب العلوم مدارس لننجوها من هول يوم الهالك
وضاقت عليك الأرض لم تنل منزلا تحمل به إلا بجناح مالك (٢)

وأما بيثة قرص فلقد قال الدكتور « عبد اللطيف حمزة » وهو يتحدث عن هذه البيثة : « ومعلوماتنا عن هذه البيثة في القرنين السادس والسابع أي في العهد الأيوبي نفسه قليلة الفناء غير أنه جاء في القرن الثامن الهجري من وصف لنا هذه البيثة بشيء من الإسماعيلية والإفاضة وهذا الذي وصفها هو « كمال الدين الأذفوي المتوفى عام ٧٤٨ هـ » وكتابه الذي نشر إلى هذه العصور هو « الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » غير أنه من العسير علينا أن نعلمين كثيرا إلى ماورد بهذا الكتاب لأن صاحبه كان مدفوعا إليه بدافع من تعصب لهذا الإقليم ، ومع هذا فكتابنا لا يمكن أن نحيط من بعض الحقائق ومنها : أن هذا الإقليم كان كثير الخيرات وقد اشتهرت فيه مدن كثيرة من أهمها : أذفو مدينة الفقه والعلم واسنا مدينة الثرف والشعر ،

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) المصدر السابق .

قنا مدينة الزهد والتصوف . ثم منها — أى من هذه الحقائق الهامة أن التشيع كان منتشرًا في هذه البيئة فاحتاج الفقهاء والمعلماء في الدولة الأيوبية إلى مجهودات كبيرة حتى يخفف بها مذهب الشيعة . ثم أحصى الأذوقى مدارس قوص في القرن الثامن الهجرى فإذا هي ستة عشر مكانًا للتدريس ، ولا ندري كم من هذا العدد شهد القرنان السادس والسابع . ومن الجائز أن تكون هذه الفترة التاريخية التى تشير إليها قد شهدت أكثر من هذا العدد (١) .

ويبدو أن هذه المدارس لم تسكن في هذه البيئات وحدها كما يقول الدكتور عبد العليق حمزة وإنما هرقتها كثير من المدن في العصر الأيوبي . ولا يهمننا أن نستقصى ذلك ، فلقد قال الدكتور سلام : كان يوجد بأسبوط مدرسة بليت في عهد الفاطميين وتسمى العائزية وكان يدرس بها في القرن السابع العالم المغربي نجم الدين المغربي الأكنم وكان يدرس بها الفقه على مذهب الشافعى والأصول والنحو وغلل بها إلى أن توفى سنة ٦٢٣ هـ .

ولقد كانت لهذه المدارس أوقاف تضمن لها البقاء وتبنيء لطلابها منبيل المعبشة الراضية ، وكان يلحق بها مكتبة تعينهم على البحث والدرس والنزود من مختلف العلوم بخير زاد (٢) (ويسمى « على بن يوسف » وقطع بكسر الفاف بلدة بالصعيد قرب قوص) واعتقد أنه فوق هذا كان لكل عالم أو أديب مكتبة الخاصة فالفاضى « الففلى » المتوفى سنة ٦٤٦ هـ كانت له مكتبة ضخمة قدرت بخمسين ألف دينار ، وكان لا يجب من الدنيا سواها . وما يثبت شغف العلماء بجمع الكتب واقتنائها ما يروى أن « ابن حمدون »

(١) الحركة الفكرية ص ١٦٧ .

(٢) ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٦ .

الكاتب عندما تقاعد به الدهر وبطل من العمل أخرج كتبه ليبيعها وحينما
نذرغان الدمع كالنفارق لأهل الأهزاء وللتمجوع بأحبابه الأوداء . وكان معه
« ياقوت » صاحب « معجم الأدياء » فواساه فرد عليه قائلا : حسبك يا بني
هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقت في تحصيلها ، وهب أن المال ييسر
والأجل يتأخر وهيئات . فحينئذ لا أحصل من جمها بمد ذلك إلا هلى الفراق
الذى ليس بعده تلاق ، وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه وأعتب بالحسنى وفك من الأمر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما قد صرف البوس من عمرى (١)

وقد يفهم البعض من كلام المؤرخين عن المدارس أنه لم يكن يدرس بها
الفقه على أحد المذاهب أو المذاهب الأربعة ، ولكن يبدو أن هذه المدارس
لم تكن تقتصر على دراسة الفقه بل كانت تضم إلى جانب ذلك بعض العلوم
الأخرى . فعندما تحدث المؤرخون عن المدرسة المنصورية التى بناها هى والقبة
التي تيجها الملك « المنصور قلاوون الأتقى المتوفى سنة ٦٨٩ » قالوا إنه رتب
بها دروسا أربعة لأصحاب المذاهب الأربعة المعروفة ودرسا للعلم كما جميل
بالقبة درسا للحديث ودرسا للتصنيف (٢) .

وكانت المساجد تقوم بدورها فى إنعاش الحركة العلمية وتضم كثيرا من
حلقات العلم ، وورث الماليك عن سادتهم الأيوبيين حب العلم وتشجيع
المشتغلين به واحترامهم فتألفت الحركة العلمية وازدادت نشاطا وقوة ، وإن

(١) الأديب لى النصر الأيوبي ص ٨٦ نقلا عن معجم الأدياء ج ٣ ص ٢١٠ وتاريخ
العرب مطول للعياب حتى ج ٢ ص ١٧٠ .
(٢) الحركة الفكرية ص ٢٢٢ .

لم يحفظ التاريخ للماليك مشاركة فعلية في الحركة العلمية كما حفظ لبنى أيوب ، فإنه قد حفظ لهم هذا التشجيع والاحترام والإكثار من بناء المدارس حتى أوافد على بلادهم ، سواء في مصر أو في الشام ، عدد كبير من العلماء (١) . وسقطت بغداد وقتل « هولاء » كثيراً من علمائها وأتلف مكتباتها فانتقلت الخلافة إلى مصر فزاد إقبال العلماء وتوافد عليهم وفتحت مصر أبوابها لكل طارق ، ورحب بماليكها بالقاديين الفرياء وهياًوا لهم سبل الراحة فزادت الحركة العلمية تألقاً ، ولم تقتصر هجرة العلماء بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على مصر بل تمتدتها إلى الشام أيضاً (٢) .

ويحاول السيوطي في كلام طويل أن يجعل انتقال الخلافة إلى القاهرة السبب الوحيد في رواج الحركة العلمية بها ، ولا يرتضى أن يكون للماليك دخل في هذا ويعمل رأيه بأن العلم والإيمان يدوران مع الخلافة حيثما دارت . يقول السيوطي « وأعلم أن مصر من حين صارت داراً للخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة وعلت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء . وهذا سر من أصرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيثما كانت يكون معها الإيمان والمسلم » . . . ثم يقول « ولا يظن أن ذلك بسبب الملوك فقد كانت ملوك بني أيوب أجل قدراً وأهظم خطراً من ملوك جاءت بكثير ولم تكن مصر في زمنهم كبغداد » . ثم يؤكد وجهة نظره بأن الخلفاء لم يكن لهم صولجان في مصر فلقد استمر التنوكل

(١) راجع طبقات الأئمة في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) راجع مصر سلاطين المالكيه لذكاتور محمد رزق سليم ، ج ٣ ص ١٨ وابن تيمية للذكاتور محمد يوسف موسى ص ٥٢ .

(المتوفى بعد سنة ٨٠٢ ويسمى محمد المتوكل على الله) في الخلافة إلى أن هزله
الظاهر برفوق^(١) المتوفى سنة ٨٠٦ هـ.

فالسقوطى يتناسى تشجيع المماليك للعلم والعلماء وما بذلوا في سبيل ذلك .
ويعصور لنا أن الديار كانت خاملة على عهد الأيوبيين ، ولا يسلم ذلك للسقوطى
فإن الحركة العلمية لم تكن خاملة أو راكدة أيام الأيوبيين . ونستطيع أن
نقول إن انتقال الخلافة كان مملأ قويا ولم يكن سببا وحيدا . أما ما ذكره
من ناحية الإيمان وموت البدعة وظهور السنة فإنه يرجع إلى غيرة المماليك
على الدين فلزمهم قد اعتبروا أنفسهم بعد زوال الأيوبيين حماة لهذا الدين
وفادة عن بلاد المسلمين فنموا الفساد ودافعوا التنازل والصليبيين ، من الأمة
الإسلامية . ويتساءل بعض الباحثين هل كانت هذه الغيرة من صدق وإيمان
أم من دهاء وتقرب إلى الناس ثم يقول لا يهمنا أن نبحث عن هذا (٢) .

ويكشف باحث آخر النقاب عن حقيقة هذه الغيرة فيقول « شهدت
مصر في عهد المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير ، وقد يسكون السر في هذا
النشاط الدينى الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد
وأهلها مفتصون للحكم والعرض من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن
يتغلبوا من الدين ورجاله ستارا يخفى هذه الحقائق عن أعين الحكوميين
ويقربهم إلى قلوب الشعب . ومادام المماليك مسلمين يؤمنون بالله ورسوله
ويحرصون على إقامة شأئ الدين وإحياء سنن الأولين ويعبدون مساجد يذكر
فيها اسم الله كثيرا . فهم إذن حكام صالحون ، ولا داعى للتفكير كثيرا في

١ : (١) بحثن المفاضرة ج ٢ ص ٨٦

(٢) عصر سلاطين المماليك .

أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم^(١) » ومن هنا فإننا نستطيع أن نستشف مواد الدراسة في هذا العصر وأنها كانت تدور حول العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات ، ثم علوم اللغة والأدب والتاريخ ، ولم تكن العلوم الدينية تصدر الحركة العلمية أيام المماليك وحدهم بل كانت كذلك أيام الأيوبيين ثم تليها العلوم الأخرى . فإن الصليبيين كانوا يهددون البلاد ويقتطعون من الدولة الإسلامية خير أراضيها ، فكان لابد من تعبئة الناس تعبئة روحية لمواجهة خطر الصليبية الزاحف ولا يتم ذلك إلا بالعودة إلى الأصول الأولى للدين « القرآن والسنة » ودراسة ما كان لأسلافنا الأوائل من بطولات وأمجاد^(٢) .

أمام هذا راجت العلوم الدينية وكثر في المصريين الأيوبي والمملوك العلماء في الفقه والحديث والتفسير والقراءات ثم في النحو واللغة والأدب والتاريخ .

أما الفقه فقد اجتهد الأيوبيون — كما سبق — في إزالة المذهب الشيعي وافتتحوا المدارس لهذا الغرض ، وجاء المماليك وكان لا يزال في مصر بقية من آثاره لمحاولوا القضاء عليها فأكثروا أيضاً من بناء المدارس « وقد لجأوا إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماء بالتشيع فتصادر أملاكه ونهال عليه العقوبات والإهانات . حتى يظهر التوبة من الرنض . وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر . فأمر

(١) العصر اللاليكي في مصر والشام للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٣٣٦

(٢) انظر أعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ١٣١ .

السلطان « الظاهر بيبرس » بإتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ما عداها . كما أمر بالآيولى قاض ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لاحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلدا لأحد هذه للمذاهب « (١) » وقد ضمت البلاد مجموعة كبيرة من فقهاء للمذاهب الأربعة يستطيع من يتصفح طبقات الفقهاء فى حسن المحاضرة أن يقف على كثير منهم بسهولة وبساطة . ومن أشهر علماء الحديث فى هذا العصر « ابن دحية اللتوفى سنة ٦٣٣ هـ » وهو : أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى . كان إماما حائظا بصيرا بالحديث متقنيا به . استوطن مصر وتولى مشيخة دار الحديث الشافعية فترة من الزمان . ولقد وصفه « ابن خلكان » بقوله : « كان أبو الخطاب من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لم الحديث النبوى وما يتعلق به عارفا بالنحو والفقه وأيام العرب وأشمارها » ثم بين « ابن خلكان » أنه : أقام بمصر إلى أن توفى بها سنة ٦٣٣ هـ ودفن بسفح المقطم (٢) .

ومهم « الحافظ للندرى » وهو : الإمام العلامة زكى الدين هبى المقلم ابن عبد القوى بن هبى الله بن سلامة بن سعد للندرى المصرى الشافعى قال السبكى فى ترجمته : « كان رحمه الله قد أوتى بالسكياك الأوفى من الورع والتقوى والنصيب الأوفر من الفقه . وأما الحديث فلا وراء فى أنه كان أحفظ أهل زمانه ومارس أقرانه له القدم الراسخة فى معرفة صحيح الحديث . من سقيه » . ثم نقل عن الذهبي أنه قال فى حقا « وما كان فى زمانه أحفظ منه » وبعد أن تحدث عن شيوخه بين « أنه تولى التدريس بدار الحديث الشافعية وأنه كان لا يخرج منها إلا الصلاة الجملة حتى أنه كان له ولد نجيب محدث فاضل توفاه

(١) القدر السكينة ح ٢ ص ٤٦ وانظر مصر سلاطين المماليك ح ٢ ص ٧٥

(٢) وفیات الاعيان ح ٣ ص ١٢١

الله تعالى في حياته ليضاهف له في حسناته فعلى عليه الشيخ داخل المدرسة وشيخه إلى ، بأبائهم دامت هيناه وقال أودعنا الله ياوله ي و غرقه . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ (١) .

ومن أشهر المفسرين في المصريين الايروي والميلوي :

ابن المنير « أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير ٦٢٠-٦٨٣ هـ » الاسكندري المالكي كان من أئمة التفسير والفقه واللغة والقراءات، وكان كما يقول « الداودي » : علامة الاسكندرية وفاضلها وله مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن العظيم الذي سماه « البحر الكبير في محب التفسير » ولقد اعترض بعض العلماء عليه في هذه التسمية وقال له إن البحر الكبير مالم غير مستساغ . فأجاب : لكننا حمل المجائب والدرر . ومنها الانتصاف من الكشف وكان الشيخ هز الدين بن عبد السلام يثنى عليه ويمدحه (٢) .

ومنهم « ابن النقيب » محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين جمال الدين أبو عبد الله المقدسي الحنفي « ٦١١ - ٦٩٨ هـ » استوطن القاهرة ودرس بها فانتفع الناس به . وكان فوق علمه زاهدا متواضعا ، وكان الاكابر يأتونه ويسألوه الدعاء . ويقول « ابن شاكر » أنه صنف تفسيراً كبيراً وقع في خمسين مجلدة ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والاهراب والفتا : وأنه لا تنسك إمامته ولا ينكر فضله (٣) وبين صاحب كشف الظنون أن هذا التفسير يسمى : التحرير والتحجير .

(١) طبقات السبكي ج ٥ ص ١٠٨

(٢) طبقات المفسرين للداودي ورقة ٢٨

(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٩ وانظر كشف الظنون

كذلك كان من أعلام المفسرين في هذا العصر صاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » .

ومن النحاة والفقهاء « ابن الحاجب » أبو عمر همام بن عمر بن أبي بكر المحمدي المالكي . كان من أئمة العربية والقراءات والتفسير . أعلام يدمشق فترة طويلة وتصدر هناك لإقراء العربية والقراءات فانتفع الناس به . ثم عاد إلى القاهرة فتوافد الناس عليه وتسابقوا في الأخذ عنه . ثم انتقل إلى الإسكندرية ولم تطل حياته بها فتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، ولقد امتدحه صاحب الروضتين بقوله « كان من أذكي الأئمة قريحة وكان ثقة حجة متواضعا كثير الجلاء منصفاً محباً للعلم وأهله . ناشراً له محتملاً للأذى صبوراً على البلى » (١) .

ومنهم « ابن برى » أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المسمى المصري ، كان عالماً في اللغة والنحو مبرزاً فيهما حتى وصفه ابن خلدون بقوله : « كان علامة عصره ونادرة دهره » وبين السيوطي في ترجمته : أنه انتهى إليه علم العربية واللغة في زمانه وأن كثيراً من الناس صحبوه وانغموا به ونخرجوا عليه . ولقد دفعته عنايته باللغة إلى تصحيح أغلاط الفقهاء ، فوضع حاشيتين على الصحاح للجوهري . استدرك فيهما كثيراً مما فات الجوهري هذا من صحيح اللغة ، وصوب كثيراً مما وقع فيه من أخطاء . وكانت هاتان الحاشيتان أحد المنابع التي اعتمد عليها « ابن منظور » في تأليف معجمه المعروف بلسان العرب » وكانت وفاته سنة ٥٨٢ هـ (٢) .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٧٦ وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤١٣

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٢ والمحكمة الفكرية ص ٢١٧ وحسن الحاضر :

ومنهم « ابن مالك » إمام العربية الملامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجبائي الشافعي النحوي القنوي صاحب الألفية . وقد يجيان (١) إحدى مدن الأندلس وطوف كثيراً وقدم إلى مصر واستقر بدمشق وتلذذ عليه خلق كثير في المغرب والشرق . ولقد امتدحه « ابن العاد » بقوله : « وأما اللغة فكان إليه للنهي في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشها . وأما النحو والتصريف فكان فيه بمرآ لا يجارى وحيراً لا يسارى ، ولقد رزق ابن مالك حظوة في التأليف فلقبت ، ولغاته قبولاً في نفوس الناس وكانت ولاته سنة ٩٧٢ هـ .

ومن أبرز علماء القراءات « الشاطبي » أبو محمد القاسم بن فيره (٢) بن خلف ابن أحمد الأندلسي الشاطبي الضريز . قال الذهبي في مسندل ترجمته : « الشيخ الإمام العالم العاقل القدوة سيد القراء » ثم بين أنه استوطن مصر وتصدر الإقراء فمظ شأته وطار صيته ، ونقل عن السخاوي أنه قال في حقه : أقطع بأنه كان مكاشفاً وأنه سأل الله كشفه . وقال السيوطي في حقه : كان إماماً هامة كثير الفنون منقطع القرن رأساً في القراءات حافظاً الحديث بصيراً بالعربية واسع العلم وكانت ولاته سنة ٥٩٠ هـ .

ومنهم « السخاوي » علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين أبو الحسن السخاوي . كان من أئمة التفسير والفقه والقراءات والنحو . أتقن كل هذه العلوم إتقاناً بليغاً ولم يكن في عصره من يلحقه فيها . خرج من مصر ورحل إلى دمشق :

(١) جيان بالفتح ثم التشديد وآخره نون

(٢) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بكسر الفاء وسكون الياء للثناة من تحتها وتشديد الزاء وضبطها ومناها بالعربية الجديد . راجع في ترجمة هذا الإمام الوفيات ج ٣ ص ٢٣٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٢ وسير أعلام النبلاء ج ١٣ أ لوجه ٦٠ .

فأقرأ الناس بمجامع دمشق مدة طويلة تجاوزت أربعين عاماً وتخرج عليه خلق كثير قال الذهبي : « ولا أعلم أحداً من القراء في الدنيا أكثر أمجاً منه » وتوفي سنة ٦٤٣ هـ (١) .

ومن المؤرخين « ابن الأثير » أبو الحسن هلى بن محمد بن محمد الشيبانى ويعرف بابن الأثير، سكن الموصل وتلذذ هلى أكابر العلماء ، وكانت له رحلات هلمية إلى الشام والقدس . رجم بعدها إلى الموصل واستقر بها . وكان إماماً فى حفظ الحديث ومعرفة وما يتعلق به وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وله كتاب السكائل ابتداءً فيه من أول الزمان وانتهى إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ . وهو من خيار التواريخ كما يقول ابن خلكان . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ (٢) .

ومنهم « أبو شامة » عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم بن همام . الامام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو شامة المقدسي الأصل الدمشقي الشافى المقرئ النحوى المؤرخ . ولد بدمشق سنة ٥٩٦ هـ وتوفى سنة ٦٦٥ هـ وله كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » — الايوبية واللولكية — (٣) .

ومن الأدباء والشعراء : « ابن المنجم » هلى بن المنعم أبو الحسن المصرى كان أشعر أهل زمانه وأفضل أقرانه ، وكان من أعلام أدباء عصر المشهورين مدح الملوك والوزراء وكان مولده سنة ٥٤٩ هـ وتوفى سنة ٦١٦ هـ (٤) .

ومنهم « البهاء زهير » بن محمد بن هلى بن الحسن الأزدي المصرى الشاعر

(١) أنظر وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧ ومفتاح السادة لطاش كبرى زادة ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) للصدر السابق ج ١ ص ٢٤٣ .

الكتاب ولد بمكة ونشأ بقوص وقدم القاهرة وخدم الملك الصالح . مات بمصر في ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (١) .

وإذا كان الأدب قد ازدهر في هذا العصر وظهرت فيه فنون جديدة كما يقول الدكتور « محمد زغلول سلام » ويؤيد ذلك الدكتور « عبد الطيف حمزة » ، ويوضح عوامل نهوض الأدب في العصرين الأيوبي والملوكي فيذكر منها : الحماسة الشديدة من أجل الدين ومن أجل مصر وذلك في محن الحروب الصليبية والحرب المغولية . والتشجيع الذي لقيه الإدياء من جانب الدولتين الأيوبية والملوكية (٢) .

فإننا نرى أن العلوم الدينية مع ما ألف فيها من موضوعات علمية ضخمة لم تكن تجديداً أو ابتكاراً . وفي ذلك يقول الدكتور « محمد يوسف موسى » في كتابه « ابن تيمية » « إن هذا العصر يعتبر بحق عصر المؤلفات الطويلة والمجهرات الجامة في علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية المختلفة . ولكنه لم يكن فيه من أصالة الفكر والتجديد والابتكار في الآراء حظ كبير يتميز به ويتفان به ، ولو إلى حد ما مع كثرة ما جمع فيه من معارف وعلوم (٣) .

أما العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق فلم تلاق دواجا ولم تصادف قبولا في مصر أو في الشام في ذلك العصر . ولقد جعل السيوطي انتقال الخلافة إلى مصر

(١) حسن المحاضرة ج ١ صفحة ٢٤٣ .

(٢) المراجعة العسكرية صفحة ٣٧٢ .

(٣) ابن تيمية صفحة ٦١ بتصرف قليل . وانظر ابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة

سبباً في موت الفلاسفة بها . ولكننا نتساءل : لماذا حوربت الفلاسفة في الأندلس في وقت لم يكن للخلافة الباسية بها أثر ؟ ولماذا حوربت في الشام أيام كانت هذه الخلافة قائمة ببغداد — كما سترى — ؟

الخفيفة أن هذه الدراسات كانت محقونة من الناس ومن أكثر الحكام ، فتعاون الجميع على مطاردتها ومعاقبة من يشتغل بها .

حدث أن صادق « السهروردي » الفيلسوف « الظاهر غازی » ملك حلب ولد السلطان « صلاح الدين » فانتن به وقر به وأحبه وخالف فيه حملة الشرع . فكتب أهل حلب إلى السلطان « صلاح الدين » أن أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته . فكتب إليه أبوه بإيماده فلم يعمده . فكتب بمنافرتة فناظره الملاء فظفر عليهم بشارته فقالوا : إنك قلت في بعض تصانيفك : إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل فقال : ما وجه استحالة ذلك هو الذي لا يمنع عليه شيء . فتعصبوا عليه فأمر السلطان ولده بقتله فصلبه هن أمر والده . وكان ذلك في سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وفي عهد الأشرف موسى صاحب دمشق كان بعض الناس يشتغل بعلم الأوائل فنأدى الملك الأشرف بالبلدان ألا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والفقه : وكان « سيف الدين الأمدی » أحد الفلاسفة مدرساً « بالمرزية » فزله عنها وبقي ملازماً منزله حتى مات في سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٢) .

(١) الحركة الفكرية صفحة ٣٣٣ ، وخطط الشام للاستاذ محمد كرد علي ح ٤ صفحة ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ح ١٢٤ ولقد ملك الظاهر غازی حلب من سنة ٥٨٢ هـ إلى سنة ٦١٣ هـ .

هكذا كانت الدولة الأيوبية تامل الفلسفة والمشتغلين بها لا تأخذ حكامها
رحمة بهم أو شفقة عليهم حتى انتقد بعض الباحثين هذا الملك فقال : « وعلى
كثرة ما أحسن « صلاح الدين » للبلاد في سياستها أساء إلى الفلسفة
بمجاراة أولئك المتعصبين الذين حملوه على قتل « السهروردي » . وربما كانت
هذه الغلظة العظيمة التي هدت على « صلاح الدين » ، لأنه يقتله قتل الحكمة
وهي صناعة الصنائع في هذه الديار حتى أن سيف الدين الأمدى الفيلسوف
النظار الكبير في القرن الثالث لم يجرؤ أن يقرئه أحداً شيئاً من العلوم الحكيمية
وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها » (١)

ولقد ألقى « عثمان بن الصلاح » المحدث المشهور المتوفى سنة ٦٤٣ هـ
بتحريم هذه الدراسات . وصدر فتواه بتساؤلات عديدة فقال : هل الشارع قد
أباح الاشتغال بالمنطق تعلماً وتعلماً ؟ وهل يجوز أن نستعمل المصطلحات المنطقية
في إثبات الأحكام الشرعية ؟ وماذا يجب على ولي الأمر فعله بإزاء شخص من
أهل الفلسفة معروف بتعليمه فيها وهو مدرس بمدرسة من المدارس العامة ؟ ثم
أجاب بقرله : إن الفلسفة أصل السفس والانهلال ومادة الخيرة والضلال ومشار
الزيف والزندقة ومن تفلسف همت بهيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة
بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة .

وأما المطلق فهو مدخل إلى الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال
بتعليمه أو تعلمه مما أباحه الشارع ولا أحد من الصحابة والتابعين والأئمة
المجتهدين .

وأما استعمال المصطلحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن

(١) خطط الشام ج ٤ صفحة ٤٧ .

للسكرات المستبشمة والقطاعات المستحدثة . وليس بالأحكام الشرعية — والحمد لله — افتقار إلى للنطق أصلاً ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم من المدارس ويعدم ويعاقب على الاشتغال بقتلهم وأن يعرض من أظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام . ومن أوجب هذا الواجب هزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وإلزامه منزله .

ويسلق « جولد زيور » على هذا النص فيقول :

« وليست فتوى ابن الصلاح هذا إلا تعبيراً عن الرأي السائد في البيئات السنية في مناطق واسعة من العالم الإسلامي في ذلك العصر (١) .

وبقي هذا السكره للفلسفة من جانب المسلمين في عهد بني أيوب إلى مجيء دولة المماليك ، وظهرت آثاره واضحة في كتاب « الطالع السعيد للأدقوى » فقد عرض الأدقوى لترجمة رجل من أقربائه اسمه « عبد القادر بن مهذب ابن جعفر » فوصفه بالذكاء والجلود والتواضع ، ثم بين أنه : كان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة ويحفظ كثيراً من كتبها ، وأنه عندما مرض لم يعبه ، وعندما مات لم يصل عليه وكانت وفاته سنة ٧٢٥ أو ٧٢٦ هـ .

ووصف الأدقوى في كتابه هذا إقليم « قوص » واختص مدينة « قنا » بالكلام في محاسنها فقال : « ولا يكاد يوجد بها أجنبى ولا أبرص إلا نادراً وفي حكم المدم . ولا شيء من الأمراض التي تعاف . ولا جسم ولا معتزلى ولا فيلسوف ولا مجوسى ولا وثنى وليس بالأقليم من اليهود إلا نحو عشرة أنفس أو أقل » فانظر إلى هذا المؤلف السنى كيف يتبر الفيلسوف والمعتزلى كالجسم

والوثني والمجوسى ؟ وكيف يقيس هؤلاء جميعاً بذوى المعاهات للزينة كالأجذم والأبرص ومن به أذى من جسده أو مرض تعافه النفس (١) .

وأخيراً أحب أن أقول : إن علم الكلام لم يضطهد بالشرق في هذا العصر فإن مذهب الأشعرى كان قد استقر بالشام والعراق في أواخر القرن الرابع الهجرى على يد صفوة ممتازة من الأئمة وبمعاونة كثير من الملوك . ونشأ صلاح الدين الأيوبي « على هذا المذهب واهتفه في صباه . أيام كان في خدمة الملك « العادل نور الدين محمود بن زنكى » (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) بدمشق ثم أنشأ أولاده عليه فلما حكم مصر وتوالى من بعده الملوك والأمراء من أهل بيتنا انتصروا جميعاً للمذهب الأشعرى ودافعوا عنه . وكذلك فعل المالكي من بعدهم . يقول للقرينى بعد أن تحدث عن نشأة صلاح الدين في خدمة نور الدين وتفتشة أولاده على هذا المذهب « فذلك هتدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعرى وحلوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتأدى الحال إلى ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ثم في أيام موالبهم الملوك من الأتراك » (٢) .

(١) للصدر السابق . وانظر الطالع السعيد صفحة ٩٦ وما بعدها .

(٢) خطط القرينى ج ٤ صفحة ١٨٠ تحت عنوان (عتائد أهل الاسلام) .

الفضل الخامس

الأحوال السياسية في عصر الموحدين والايوبيين

أسس هذه الدولة (أحمد بن عبد الله بن تومرت) (١) ولقد اختلف للتؤرخون في تاريخ ميلاده، وأطال الأستاذ محمد حنان في سرد أقوالهم فن قائل: أنه ولد سنة ٤٧٣ هـ ومن قائل أنه ولد سنة ٤٨٥ هـ ولا يهتنا ذلك كثيراً .

وابن تومرت بربري الجنس نشأ في جبل السوس في أقصى بلاد المغرب . وطوف كثيراً في طلب العلم . فذهب إلى الأندلس والاسكندرية ، والعراق . وبغداد ومكة ، ومن أئدنه الطرطوشي وأبو بكر الشاشي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ . وقيل أنه التقى بالإمام الغزالي ونفى ذلك ابن الأثير (٢) ، ثم عاد إلى المغرب . وحاول تغيير المنكر بقوة في كل بلد نزل فيه ، ولحق في سبيل ذلك ألواناً من الأذى لم تكنه من عزمه ولم تعرفه عما نواه . وأخيراً استقر به اللقام في موضع يعرف بتيتمل (٣) من جبل السوس ولعله قد اختاره موطناً لدهوته التي كان

(١) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بضم التاء وسكون الواو وفتح اليم وسكون الزاء بعدها ناء مثناة وقال : هو اسم بربري وقيل : إن مناه الضياء الذي يوقد بالمسجد وزم هذا القرب والده لانه كان يوقد للساجد فقل : محمد بن تومرت ونسب اسم أبيه وهو عبدالله .

(٢) راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤١ وهصر الرابطين والموحدين القسم الاول ص ٢٥٦ .

(٣) في مصم البلدان « بين ملل » اليم مفتوحة واللام الاولى مشددة مفتوحة جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أولها ومراكش نحو من ثلاثة فراسخ بها كان أول خروج محمد بن تومرت للسمي بالهدى الذي أقام الدولة للوحدة ومات فصار الأمر لبند المؤمن ثم لولده .

يعتزم إظهارها لمناعته ووقوعه في أحضان الربى والتلال . ومن هذا المكان شرع « ابن تومرت » في تدريس العلم والثناء إلى الخير . ولما نكثرت أتباعه وتوافد الناس عليه ، من البلاد المجاورة أعلن إمامته ومهدويته سنة ٥١٤ هـ أو سنة ٥١٥ هـ . ثم دعا إلى الخروج على المرابطين وخلق طاهتهم . ووضع لأتباعه عقيدة في التوحيد تقرب من مذهب الأشعرى ومماهم بالموحدين تعريضاً بالمرابطين الذين يعدلون عن التأويل . وحاول الأمير للرابطي « هلى بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ » القبض عليه وإخضاع حركته ولكنه لم يفلح في ذلك . بل على العكس نرى ابن تومرت أخذ يهدد أملاك المرابطين ويحاول اقتطاعها . ولما مات ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ استطاع هبب المؤمن بن على أن يحقق أهدافه استأذنه فواصل انتصاراته الحربية حتى أسقط دولة المرابطين واحتل عاصمتهم « مراکش » سنة ٥٤١ هـ . وزحف بعد ذلك على الأندلس حيث ورث للرابطين هناك كما ورثهم في الشمال الإفريقي (١) .

ولقد أشبكت للموحدين بعد أن توطد سلطاتهم في كثير من المعارك الحربية مع ملوك ليون وقشتالة والبرتغال حيث كانت هذه الممالك مجاور الأندلس . وكان ملوكها يحاولون انتقاص الملكية الموحدية من أطرافها . ومن أشهر المعارك التي دارت بين الموحديين والنصارى : « معركة الأرك » (٢) وذلك هتدماخرج

(١) التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للدكتور أحمد شاي ح ٤ ص ١٤١ ، والمرابطون قوم من المغاربة من أصل بربرى ، وحكوا الأندلس والمغرب من سنة ٤٤٨ — ٥٤١ هـ وسما بالمرابطين لانهم ألزمو أنفسهم بالرباط في سبيل الله وسما بالثنتين لانهم كانوا يفتطون وجوههم بالثنام واجع ابن خلدون ح ص ١٨٣ وتاريخ الشعوب الاسلامية لسكارل بروكلمان ح ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ضبطها بعض الباحثين بكون الراء وفتح الهزة وبضمهم بفتح الهزة والراء وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح شمال قرطبة .

ألفونس الثامن ملك قشتالة من بلاده . وأخذ يعيش في البلاد الأندلسية فتجهز أمير المؤمنين « يعقوب المنصور » وأعد قواته وسار بهم للقضاء الطاغية . فالتقى الطرفان عند مكان يسمى الأرك شمال قرطبة ودارت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى في شعبان سنة ٥٩١ . ويصف المراكشي نتيجة هذه المعركة فيقول : « فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم ، وكانت الدائرة على الأذغتش لعنه الله — ألفونس الثامن — وأصحابه ولم ينبج إلا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده . واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم » (١) .

ورجع المنصور إلى أشبيلية حاضرة ملك الموحدين بالأندلس ففساق الشعراء يهنتونه فكان بما قيل :

حيثك معطرة النفس	فحات الفتح بأندلس
فخر الكفار ومآثمهم	إن الإسلام لفي عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفت مساو الدين على	عهد شم وهى أسس (٢)

وفي عهد الخليفة محمد الناصر ولد الخليفة يعقوب المنصور وقت بين المسلمين والنصارى معركة كانت سبباً في انهيار ملك الموحدين وتقويض أركانه . فلقد كان ألفونس الثامن شريد موقعة الأرك يتوق إلى الانتقام ويحاول أن يفسل

(١) المجلد ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٠ . وراجع ابن الأثير في الكامل ج ١٢ ص ٥٣ .

العار والخزي الذي لحق به وبجنوده . ولكنه في نفس الوقت يعلم أنه لن يستطيع مجابهة الموحدين بقوات قشتالة وحدها فتضرع إلى البابا في روما أن يؤلب جموع النصارى على هدم . وأرسل الأحبار والرهبان إلى فرنسا وإلى الأمم المجاورة لها للدعوة إلى قضيته واستثارة حاسة النصارى للعبور إلى أسبانيا ومؤازرة الجيوش النصرانية في قتالها ضد المسلمين ونجحت هذه السفارات . فأهان البابا أنه يمنح غفرانه لكل من يشترك في محاربة المسلمين . ولبت فرنسا والأمم المجاورة لها دعوة الأحبار والرهبان . فتوافد على قشتالة جموع كثيرة من هذه البلاد كما توافد عليها جموع وجموع من أنحاء أوروبا احتراماً للبابا وتقديساً له . ولم تكن قشتالة وحدها هي التي ستخوض الحرب ضد المسلمين بل كانت هناك أعداد كبيرة من البرتغال ومن أراجون وليون . وهذه البلاد تمثل أغلبية الممالك الأسبانية في ذلك الوقت . واختارت هذه الجموع العظيمة بلاداً لاندلس لخروج قائمها الموحدون من أشبيلية بجيوش عظيمة والتقى الطرفان في يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ بموضع يعرف بالمقاب . وكانت الدائرة فيها على المسلمين فقتل منهم خلق كثير وتمزقت الجيوش الموحدية ولم تبق لها قاعدة بعد ذلك . وتعرف هذه الموقعة بموقعة المقاب : ولم يلبث الخليفة أن مات غماً وحزناً من آثار نكبته في هذه الموقعة في شبان سنة ٦١٠ هـ .

ولقد كان لهذه الهزيمة أثر كبير في الإسراع بالدولة الموحدية إلى السقوط والانهيار^(١) كما كان لها وقع عميق في نفوس المسلمين فاعتبروا ذلك عقاباً من الله نزل بهم وأفصح عن ذلك بعض الشعراء فقال :

(١) راجع المحب ص ٤٠١ وهجر للراغبين والموحدين القسم الثاني ص ٢٨٢ فإنه يتحدث بإسهاب وتفصيل كبيرين عن هذه الموقعة ، وراجع نفع الطيب . والمقاب مكان يقع في جبال الشارات وهي جبال كانت تفصل بين اللاندلس وأسبانيا .

وقائلة أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غدا سييئاً للمركة العقاب
فا في أرض أندلس مقام وقد دخل البلاد من كل باب (١)

وكان يمكن لأمرء الموحدين أن يلوا شملهم وأن يتداركوا هذه المزية
وأن يتحدوا في مواجهة العدو المتربص . ولكنهم تطاحنوا وتنافسوا على
احتلاء العروش — فاشتت البلاد في فوضى واضطراب ، فبعد أن مات الخليفة
الناصر خلفه على الحكم ولده يوسف المنتصر ٦١٠ — ٦٢٠ هـ وكان فق لم
يبلغ الحلم وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر بل إن الدول القوية
المنظمة كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أحوام قليلة فما بالك بدولة قد أخذت
منذ حين تنمزق ويبتثر شملها (٢) .

ومات المنتصر بلا عقب فقام بالأمر من بعده في مرا كش . هم أبيه
« هيد الواحد بن يوسف بن هيد المؤمن » وقام بالأندلس ابن أخيه « هيد الله
ابن يعقوب للنصور » وتلقب بالعدل ودانت له ممالك الأندلس . فأوهز إلى
أنصاره وأصدقائه بالثورة على منازعه وخصمه فخلع في سنة ٦٢١ هـ . ولهذا يطلق
عليه المؤرخون لقب الخلويع . ثم قتل بعد ذلك ولم يستمر حكمه أكثر من ثمانية
أشهر . وأراد العادل أن يعيد للسلطان هيئته فحكم البلاد بقوة وشدة . ولم يوح
قبضته لأشياخ الموحدين وأقربه الذين كانوا ولاية على أكثر المدن الأندلسية .
بل حد من سيطرة هؤلاء وأولئك . فوقع الانفجار ورفع أقطره علم الثورة
وانتهت الثورة حقبة سنة ٦٣٤ هـ .

(١) همر الموحدين والمرابطين القسم الثاني ص ٣٢٠ .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين ، يوسف أشياخ ص ٤٠١ .

وتولى بعده زعيم الثورة ومدير الاقلاب أخوه « أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون ٦٢٤ - ٦٢٩ » وكان والياً من قبل العادل على أشبيلية ، وقرطبة . ولكنه لم يقرب بحكم أهدأ من حكم أخيه (١) ففي هذه قامت ثورات التحرير تحاول أن تخلع حكم الموحدين فقام في مرسية محمد بن يوسف الشهير بابن هود وقاد الثورة ودعا لنفسه فبايعه أهلها سنة ٦٢٥ ثم بايعته قرطبة وأشبيلية بمد ذلك . وفي بلنسية قام « أبو جميل زيان » بشورته على الموحدين سنة ٦٢٦ هـ وطردها إليها ودخلت في طاعته بعض القواهد الاندلسية الاخرى .

ويتحدث المؤرخون عن مصير أمير بلنسية في ذلك الوقت السيد « أبو زيد عبد الرحمن » الذى يقتل إلى أسرة بنى عبد المؤمن فيذكرون أنه التجأ إلى النصارى واحتسبهم واستقر في أراجون (٢) وكانت بعض ابن الابار أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاة ولقد أهرب ابن الابار أسفه لمغادرة بلنسية فقال :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا مسلماً إلى أمد فمادحرباً لنا لما انقضى الأمد

وهاد ابن الابار إلى بلنسية عندما ارتد الأمير الحارب عن الإسلام واهتد النصارى (٣) كذلك استقل محمد بن الأحمر بحكم بعض المدن الاندلسية واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية « بفرناطة » (٤) استمرت نحو قرن ونصف من الزمان .

(١) راجع تاريخ الرابطين والموحدين لاشباح ص ٤٠١ وما بعدها
(٢) في مجامع البلدان أرجونته بالفتح ثم السكون وجيم معشومة وواو ساكنة بالاندلس .

(٣) راجع هجر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٣٩٦ .
(٤) فرناطة بفتح أوله وسكون ثانية ثم تون ويسد الألف طاء مبهمة .

و نستطيع أن نقول أنه في عهد العادل الموحدى تقلص سلطان الموحدىين
تقريباً من الأندلس . وفي عهد المأمون أيضاً تقلص حكم الموحدىين من شمال
أفريقيا حيث استقل بنو حفص (١) بتونس « سنة ٦٢٧ هـ » .

وتقدمت الدولة في عهد خلفاء إلى السقوط والانهيار فاستقل « بنو زيان » (٢)
بالمغرب الأوسط واتخذوا « تلمسان » (٣) عاصمة لهم سنة ٦٣٣ هـ .

ولما ظهر بنو مرين وقوى أمرهم في المغرب الأقصى أخذوا ينتقصون ما تبقى
من أطراف الدولة الموحدية . فأسقطوا مكناسة (٤) سنة ٦٤٣ هـ وطلس سنة
٦٤٦ هـ وأخيراً وفي سنة ٦٦٨ هـ أسقطوا مراکش (٥) فضاء بذلك حكم
الموحدىين نهائياً وزالت بذلك دولتهم من المغرب والأندلس وأفريقية (٦) .
وتقسمتها هذه الدويلات .

(١) كان بنو حفص ولاية من قبل الموحدىين هل تونس فلما ضعف أمر الموحدىين
استقلوا بتونس وتبدأ دولتهم من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٩٤١ هـ .

(٢) كان بنو زيان ولاية للجزائر من قبل الموحدىين فلما ضعف الموحدون أعلن بنو
زيان أيضاً استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وتبدأ دولتهم من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٧٩٦ هـ
وتلمسان ضبطها صاحب المسجم بكمريين وسكون الميم وسين مهلة .

(٣) مدينة تقع في القسم الغربي من الجزائر بالقرب من الحدود المراكشية .

(٤) مدينة تقع في جبال الاطلس بالقرب من مدينة طاس .

(٥) مدينة تقع في أقصى الغرب من بلاد المغرب وتنتج نحو المحيط الاطلسي وتسم جبال
الاطلس البلاد إلى قسمين أحدهما سهول ونجود مراكش الاطلسية في الغرب والثاني هضاب
شبه صحراوية في الشرق .

(٦) أفريقية — اسم أطلقه العرب على بلاد البربر الشرقية — أما الغربية فسميت
بالمغرب وقد اختلف جغرافيو العرب في وضع حدودها وقد أسماها بعضهم إلى إفريقيا إلى المغرب
الأقصى وليبيا — شمال إفريقية — تونس .

إفريقية الغربية تتكون من : سنغال ، موريتانيا ، ساحل العاج ، نيجيريا ، غينيا ،
داهومى .

إذا كان هنا قد حدث الهوة الموحدة من جراء تفرق أمرائها وتنافسهم على الحكم فإن الثوار لم تنفق كلمتهم ولم تتماكك جبهتهم أمام العدو وقامت بينهم حروب أهلية عديدة ، واتهمز العدو فرصة الحرب الدائرة بين الثوار من ناحية وبين الموحدين من ناحية أخرى . فبدأ حملة الاسترداد وأكثر من غزواته وحروبه حتى تساقطت في يده المدن الاندلسية تباهاً .

سقطت قرطبة في يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة

٥٦٣٣ هـ .

وسقطت بلنسية في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٥٦٣٦ هـ .

وهاشت مرسية تدين بالطاعة والجزية لنصارى من شوال سنة ٥٦٤٠ هـ

إلى أن سقطت في أيديهم سنة ٥٦٦٤ هـ ، وهي في هذه الفترة تلتقل من ثائر إلى ثائر .

وسقطت أشبيلية في الخامس من شعبان سنة ٥٦٤٦ هـ .

هذه هي الخطوط العريضة للأحوال السياسية في الاندلس في عصر الموحدين

وهو العصر الذي هاش فيه القرطبي الفترة الاولى من حياته ، وقدم القرطبي إلى

مصر في عهد الايوبيين ، وكانت الأحوال السياسية فيها لا تختلف عنها في

الاندلس فما أكثر الحروب التي دارت في مصر والشام والتي شنها الصليبيون

على المسلمين .

== للمغرب اسم أطلقه الجغرافيون على بلاد البربر أو إفريقيا الصغرى الشاملة ببلاد المغرب وتونس والجزائر ومراكش وكانوا يقسمونه إلى المغرب الأقصى غرباً والمتوسط بين تونس شرقاً وساحل الاطلس غرباً وسبتة شمالاً ومراكش جنوباً .

والمغرب الاوسط المنحصر بين وهران غرباً وحدود مقاطعة بجاية شرقاً وهو

القطر الجزائري .

وما أكثر الأيام التي عاشتها البلاد في فوضى واضطراب من جراء تنافس الأمراء وتنازعهم على السلطة .

أما عن الحروب فإن صلاح الدين الأيوبي « ٥٦٨ - ٥٨٩ » مؤسس الدولة الأيوبية . كان قد حمل راية الكفاح ضد الصليبية التي اقتطعت بعض الإمارات من الدولة الإسلامية واستقرت بها في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . وساموا المسلمين الخسف والموان . وتنازع بعده الملوك والأمراء من البيت الأيوبي فقادوا حلات الجهاد ضد الصليبية في مصر والشام ونجحوا في صد هجماتهم وإيقاف زحفهم .

وقادها من بعدهم المماليك . بل إن المماليك حلوا راية الجهاد ضد الصليبية والتنازع مآء ، ورغم كثرة الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين طوال قزنين من الزمان فإنه لم يقض على الصليبية نهائياً إلا في عهد الأشرف خليل ابن المنصور قلاوون سنة ٦٩٠ هـ (١) . وفي هذا يقول ابن كثير « وفيها فتحت هكنا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد والله الجند » (٢) .

ومن أبرز الأمثلة على نجاح الأيوبيين في صد الصليبية عن مصر ما يحدثنا به ابن الأثير عن حصار دمياط فإنه قال في حوادث سنة ٦٩٥ هـ :

وأحاط الفرنج بدمياط وقفلوها براً وبحراً . وعملوا عليها خندقاً بمنهم ممن يريد من المسلمين . وأداموا القتال . واشتد الأمر على أهلها وتمنعت عليهم

(١) حكم الأشرف مصر من سنة ٦٨٩ إلى ٦٩٢ وفيها مات .

(٢) نقل هذا النص الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه ابن تيمية ص ٢١ .

الأقوات وشتموا القتال وملازمته . لأن الافرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم
لكثرتهم ، وليس يدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوية . ومع
هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض
ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست هـ شرة وسماعة
فعبز من بقي من أهلها عن الحفظ بقلتهم . وتسدر القوت هندم . فسطوا البلد
إلى الفرنج في هذا التاريخ بالأمان . ولما سمع الافرنج في بلادهم بفتح دمياط على
أصحابهم أقبلوا يبرهون من كل فج عبق وأصبحت دار هجرتهم ، وفي سنة
٦١٨ هـ استطاع الملك الكامل ابن الملك العادل ٦١٥ - ٦٣٥ بمعاونة أخويه
الملك للمعظم هدى (صاحب دمشق) والأشرف موسى (صاحب حلب) محاصرة
الفرنج في دمياط ، ودار بين الفريقين قتال عنيف فلما تيقن الصليبيون أنه قد
أحيط بهم ، وأن المنايا كشرت لهم عن أنيابها . ذلت نفوسهم وتنكست
صلبانهم وذل عنهم شيطانهم وطلبوا الصلح بغير هوض وخرجوا من دمياط (١) .

ولقد تجددت الحملة على دمياط مرة أخرى . على يد لويس التاسع ملك
فرنسا في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٩ - ٦٤٧ هـ . فادرت
هذه الحملة باريس وتوجهت إلى قبرص وتوافدت الجيوش الصليبية إلى قبرص
لمساعدة ملك فرنسا ضد المسلمين ، ولما تسكامل عقد هذه الجيوش تقرر أن
تكون مصر هي الهدف الذي يقصدونه لما اشتهرت به من الثروة ، ولركزها
الحربي ، ولما لسلطانها من أهمية ومكانة في الشرق الأوسط (٢) .

وسارت الحملة إلى مصر فتزلت على دمياط واستولت عليها . وكان ذلك
في سنة ٦٤٧ هـ وخرج الملك الصالح رغم مرضه وآلامه . بعد أن أعد عدته وجيز

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٥٠ بتصرف قليل .

(٢) مصر في عصر الايوبيين للدكتور السيد الباز العريفي ص ١٣١

جيشه وعسكر بالمنصورة . ليوقف زحف الأعداء على مصر ، ولكنه مات ؛ قليل . فتولى مكانه ابنه لللك المعظم « توران شاه » بعد أن استقدمته شجرة الدر زوجة أبيه من حصن « كيفا » وأراد لويس أن يحطم القوة المصرية المثلثة في هذا الجيش الرابض عند المنصورة . حتى يسهل الاستيلاء على مصر كلها . فسار بجيشه إلى المنصورة بعد أن ترك حامية على دمياط . ودخل المنصورة فلم يلق مقاومة . ثم فوجئ بهجوم عنيف من الجيش الإسلامي . فدارت معركة رهيبة في دروب المنصورة وشوارعها رفع ما بقى من الصليبيين في نهايتها أيديهم بالتسليم . فشد المسلمون وثاقهم وأخذوهم أسرى . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا الفداء ووقع في الأسر لويس التاسع وسجن في دار ابن لقمان . ولم يطلق سراحه إلا بعد أن اقتدى نفسه بخمسة مائة ألف دينار^(١) . ويتحدث ابن كثير عن هذه الحملة بإيجاز فيقول : « وفي ثالث الحزم من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه لفرنج على ثغر دمياط فقتل منهم ثلاثين وقيل مائة ألف وخنقوا شيناً كثيراً والله الحمد ، وكان فيمن أسر ملك الفرنجيين وأخوه » (٢) .

ولما انتهر « توران شاه » في معركة المنصورة لم يحسن قيادة الممالك ولم يسترض زوجة أبيه « شجرة الدر » فعاملها بقسوة وظلمة فتأصرت عليه مع بعض الممالك وصادف ذلك هوى في نفوسهم . فانه كان يقول المؤرخون « كان إذا سكر صف الشموع أمامه ، وتناول السيف بيده وضرب تلك الشموع المعصوفة ، ويقول : هكذا أفل بالممالك البحرية^(٣) » وتم تنفيذ المؤامرة واغتيل

(١) انظر المصدر السابق ص ١٤٦

(٢) ابن كثير ج ١٣ ص ١٧٨

(٣) تاريخ ابن أبي رياس ج ١ ص ٨٨

في التاسع من الحرم سنة ٦٤٨ هـ . وموته انتهت الدولة الأيوبية في مصر وخلفتها دولة المماليك البحرية . ولقد ابتليت الأمة الإسلامية في هدم إلى جانب الصليبيين بالتتار « والتتار أمم وثنية جاهلة كانت تعيش على البداءة في بلاد الصين إلى أن نجم فيهم رجل منهم قوى الشكيلة شديد البأس استطاع أن يملك عليهم وأن يفوز بحكم العرش فيهم ، ودانت له أمم التتار جميعها ، وأخذ يقدّم من نصر إلى نصر حتى خضع لحكمهم كثير من الأمم المجاورة لهم . ذلك الرجل هو « جنكيز خان » ثم ما لبث « جنكيز خان » حتى زحف بهم كالجراد على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦ هـ ، فملكوا كثيراً من البلاد ، وقتلوا ما لا يحصى من أهلها حتى بلغوا خراسان فأفزعوها من ملكها خوارزم شاه محمد بن تكش عام ٦١٧ هـ .

« وكانت الدولة الخوارزمية تقوم بدافعة التتار وحجزهم عن بلاد الإسلام فلما طويت مملكتها أثر هجرات التتار الغنيمة المتوالية الساوا كالفيضات المدمر على بلاد العراق ثم على بلاد الشام . وسقطت حاضرة الخلافة بغداد في أيديهم عام ٦٥٦ هـ (١) .

وشاء الله أن توقف مصر زحف التتار وأن تحطم الأسطورة التي رهبها الناس زمناً طويلاً . فإنه بعد أن امتلك التتار العراق وخراسان ، وغيرها من بلاد الشرق أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم إلى الشام . فبادروا إليها وعبروا الفرات وما لبثوا أن ملوكوا حلب ثم دمشق ، وجلسوا خلال الديار . ثم أرسل « هولاكو » سلطان التتار رسلاً إلى مصر بكتاب يفرض ضروراً ووهيداً

(١) مصر سلاطين المماليك ح ٣ وانظر وصف ابن الاثير لما كان يرتكبه هؤلاء الناس ح ١٢ و ١٦٤ وانظر البداية والنهاية ح ١ - ٨٢ فإنه يتحدث عن ظهور التتار وتبجح ذواتهم بتفصيل ثم يتحدث عما ارتكبه هذ تولم ببغداد ص ٧٠٠ .

ومما جاء فيه « من ملك الملوك شرفاً وغرباً » وفيه يقول : « فنليك بالهرب
وعلينا الطلب فأى أرض تأويكم وأى طريق ينجيكم وأى بلاد تحميكم فالكم
من سيوفنا خلاص » (١) . وكانت مصر في ذلك الوقت أعنى سنة ٦٥٨ هـ
تحت حكم الملك المظفر « سيف الدين قطز » فلم ينخلع قلبه من هذه الرسالة
وأهدد للأمر عدته وسار بجيشه إلى الشام . فبادرهم قبل أن يبادروه ثم انتهى
الجمعان بالشام إلى « عين جالوت » وكان قتال شديد انتهى بنصر الإسلام
وأهله انتصاراً مبيناً . وبهزيمة التتار هزيمة شنيعة وبفرارهم . فلحق بهم الجيش
الإسلامي يقتلونهم في كل موقع ومكان . ويذكر المقرئ « أن الملك المظفر
وقد عاين أن المسلمين زلزلوا زلزالا شديدا ألقى خوذته على الأرض وصرخ بأعلى
صوته « وإسلاماه » ثلاث مرات يا الله أنصر عبدك قطز على التتار، وحل بنفسه
وبمن معه حملة صادقة كان بعدها نصر الله المبين » (٢) .

ورغم كثرة الحروب التي كان يقودها الصليبيون ضد المسلمين في مصر
والشام فإن التنازع بين أمراء البيت الأيوبي على الحكم كان يشتد ويتفاقم ويبرز
البلاد هذا عنيفا . فعندما مات صلاح الدين الأيوبي (٣) . وقع الخلاف بين

(١) ابن تيمية ، الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٦

(٢) المصدر السابق بصرف ، ابن كثير ص ٧١٨ ح ١٣ ، ٢٢٠

(٣) بعض الخلافات التي دارت بين أمراء البيت الأيوبي :

عندما مات صلاح الدين دارت منازعات بين الأفضل على بن صلاح الدين ملك
دمشق وبين المزيغ عثمان ملك مصر ، ولكن الملك العادل تمكن من إقصاء
الأفضل عن دمشق وولاه بعض الولايات الشمالية ، واستقر الأمر للمزيغ عثمان على
مصر وتولى بعد ابنه الملك المنصور وكان طفلا . فاستطاع الكامل أن يتولى حكم
مصر في سنة ٥٩٦ هـ . وبهذا ملك العادل مصر والشام . فولى ابنه الكامل على

أبنائه حتى وثب بعضهم على بعض . ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم
من الفتن والحروب ما يطول شرحه فكانوا على حد قول القائل :

أملتهم ثم تأملستهم فلاح لي أن ليس منهم فلاح
طال وقوفى بفنا ريسهم بشير نفع فالرواح الرواح^(١)

وكنذك عندما مات الكامل محمد بن اللالك العادل سنة ٦٣٥ هـ نشب
خلاف بين أولاده وجرت بينهم حروب أهلية يطول بنا الحديث لو تتبعناها .
ولما ابتدأت دولة للماليك البحرية تجمد الخلاف والتنافس على الحكم .
ويصف الأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » « حكم الماليك » وما كان يحدث
خلاله من فتن ومؤامرات فيقول :

« إن الحكم في هذه الدولة كان بلا ريب حكماً مطلقاً ، الحاكم فيه مستبد .
لا يصل إلى الحكم إلا بقوته وقد يحوله بعد أن يستمكن في هرشه إلى ورائته
لذريته وقد يستقر الأمر لمن آلى إليه الملك ورائته . ولكن سرعان ما ينقض
عليه قريب أو قائم من قواده ليأخذ منه الحكم بالطريقة التي أخذ بها أبوه أو

== مصر . وولى ابنه المعظم عيسى على دمشق . وولى الأشرف موسى على حلب .
وكان يتنقل بينهم .

وبعد أن مات الملك الكامل حدثت خلافات بين أبنائه وأحفاده وإخوته وبين
أبناء إخوته . ومن أبرزها ما حدث بين الملك العادل الثاني ابن الكامل أيوب ،
وبين الصالح نجم الدين أيوب من أحداث ووقائع للاستيلاء على ملك مصر انتهت
بتأمر الصالح بنجم الدين علي ابن أخيه العادل والإساز بخنقه سرّاً والاستيلاء على
صغير الملك بالدير المصرية .

(١) تاريخ مصر لابن إيس ح ١ ص ٧٣ بتصرف وراجع خطط الشام ح ٢ ص ٧٣

جده . ولذلك كان بينهم تنازع مستمر على تلك يخفى أحيانا ويظهر أحيانا . فإذا كان هدو غالب من التنازع أو غيرها اختفى النزاع في بعض الأحوال أو سكن . وإن كان أمن من الخارج ظهر النزاع قوياً غالباً . وقد يستعين بعضهم بمدو الفريقين في سبيل الاستمكان من خصمه لينال منه مأرباً (١) .

وهناك أمثلة عديدة ، تؤيد ما ذهب إليه أستاذنا الشيخ « أبو زهرة » : فلقد كان أول من تولى حكم الماليك « عز الدين أبيك التريكي » تنازلت له زوجته « شجرة الدر » عن الحكم سنة ٦٤٨ هـ فابتدأ يتخلص من الخارجين عليه . ويوطد سلطانه بمصر . ولم تمض سنوات قليلة حتى تأمرت عليه . فأوعزت إلى بعض خدامها بقتله واغتياله . وتم ذلك سنة ٦٥٥ هـ .

وتولى بعده ولده الملك المنصور « نور الدين علي » وبعد سنة من حكمه خلمه « سيف الدين قطز » وكان من ممالك أبيه واستولى على العرش سنة ٦٥٧ هـ . ولكنه لم ينعم بحكم هادئ فقامر عليه « الظاهر بيبرس البندقداري » . وكان من ممالكه . وقتله بعد انتصاره على التتار سنة ٦٥٨ هـ . وقد هرب الفرطبي عما يسود البلاد من فوضى نتيجة هذه الخلافات . وأبدى أسفه وألمه لذلك في عبارات موجزة .

ففي قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » الآية تبين أن الله تبارك وتعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسرقه ولا يدهه يسرق... إلى غير ذلك من الطاعات . ثم

(١) ابن تيمية ص ١٤١

(٢) تفسير الفرطبي ج ٢ ص ١٩ آية ٨٤ ، ص ٢٢ آية ٨٥ من سورة البقرة

بين أن هذا محرم على المسلمين فقال : وهذا كله محرم على المسلمين وقد وثق ذلك كله بالفتن فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبعد أن انتهى من تفسير قوله « أفنؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » عقب بقوله : « قلت : ولعمري لقد أهرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ليت بالمسلمين بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم للشركيين فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

الباب الثاني

المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره ، ودراسة منهجه والأسس التي قام عليها ذلك المنهج ، وبيان القيمة العلمية لتفسيره وتأثير المفسرين به . ويتكون هذا الباب من أحد عشر فصلاً .

الفصل الأول	: المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره
الفصل الثاني	: منهج القرطبي في التفسير المأثور
الفصل الثالث	: موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة
الفصل الرابع	: بعض المباحث اللغوية في تفسير القرطبي
	الإعراب والنحو في تفسير القرطبي
	استشهاده بالشعر في مجال النحو والغريب
	استشهاده بالحديث في هذا المجال
الفصل الخامس	: موقف القرطبي من البلاغة
الفصل السادس	: موقفه من التفسير الرمزي
الفصل السابع	: منهجه في عرض الأحكام الفقهية وهدم تعصبه
الفصل الثامن	: القرطبي يعرض في تفسيره كثيراً من قواعد الأصول
الفصل التاسع	: منهج القرطبي في الحديث
الفصل العاشر	: موقف القرطبي من الإسرائيليات
الفصل الحادي عشر	: القيمة العلمية في تفسير القرطبي وتأثير المفسرين به

المختصر الأول

مصادر القرطبي

هندما يطالع القارئ تفسير القرطبي . بل هندما يطالع تفسير بعض آيات من كتابه « الجامع لأحكام القرآن » يحس أنه أمام موسوعة عظيمة حوت كثيراً من العلوم . ولا شك أن لقرطبي روافد كثيرة أمده وأعطته على أن يخرج كتابه على هذه الصورة . ولا يستطيع الباحث أن يتقضى كل هذه الروافد والمصادر . فدون ذلك هقيات وهقيات . ولكن سأحاول في هذا الفصل أن أكتشف من بعض مصادره التي تأثر بها . سواء من كتب التفسير أو من كتب القراءات ، أو من كتب الحديث ، أو من كتب اللغة والنحو ، أو من كتب الفقه أو من كتب التاريخ .

مصادر القرطبي من كتب التفسير:

لقد أخذ القرطبي من مؤلفات كثير من المفسرين . وكان موقفه من هؤلاء المفسرين أن يمرض آراءهم . وأحياناً يكتب بهذا الغرض . وأحياناً أخرى يتممها ويناقشها ويرد بعضها . ومن هنا ظهرت شخصيته في تفسيره ، ومن هذه المؤلفات : إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس . للتوفى سنة ٣٣٨ هـ . لقد تأثر القرطبي بالنحاس في إعراب القرآن ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره في قوله تعالى « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (١) فقد قال : وكسرت « إن » لأنها مبتدأ قاله النحاس وقال علي بن سليمان : يجوز فتحها

(١) آية ١٢ من سورة البقرة .

كما أجاز سيبيويه « أما أنك منطلق » على معنى حقا وأما بمعنى « ألا »
« وهم » يجوز أن يكون مبتدأ « والمفسدون » خبره وللبتداء وخبره خبر « إن »
ويجوز أن تكون « هم » توكيدا للهاء والميم في « إنهم » ويجوز أن تكون
فاسدة ، والكوفيون يقولون عمادا . « والمفسدون » خبر « إن » . والتقدير
« ألا أنهم للمفسدون » (١) .

وفي قوله تعالى « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون »
يقول : « الكتاب : التوراة باجماع من للتأولين . واختلف في الفرقان .
فقال الفراء وقطرب المني : آتينا موسى التوراة . ومحمدا عليه السلام للفرقان .
قال النحاس هذا خطأ في الإعراب والمني . أما الإعراب فان للمعطوف على
الشيء مثله . وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافا وأما للمني فقد
قال تعالى « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق الزجاج : يكون
الفرقان هو الكتاب أعيده ذكره باسمه تأكيذاً ، وحكى عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

وقد مت الأديم لراعيه وألقى قولها كذباً ومينا (٢)

وقال آخر :

ألا حينما هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها التأي والبعيد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٠٤ وانظر اعراب القرآن للنحاس نسخة خطية بدار
الكتب رقم ٤٨ تفسير ورقة ٣ وفي العبارة غموض ولعل المني المراد . يجوز فتحها
أجاز سيبيويه « أما أنك منطلق » على معنى حقا أنك منطلق « وأما » بمعنى « ألا »
فإذا فتحت « إن » يندم كأننا بمعنى حقا أنك ، وإذا كسرت كأننا أدنى استفتاح . راجع
كتاب سيبيويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

(٢) الرواية المشهورة في البيت فقدت الأديم ، ولقد للقطع والأديم الجلب والراعيان
فرقان في باطن القراع .

ففسق البعد على الثناى ، والمين على الكذب ، لاختلاف اللفظين تأكيدياً
ومنه قول هنترة :

حيث من ملل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الحينم

قال النحاس : وهذا إنما يجيىء في الشعر وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد
فرقانا بين الحق والباطل (١).

وهذه عبارة النحاس في كتاب « إهراب القرآن » . يقول النحاس :
« والفرقان عطف على الكتاب . قال الفراء وقطرب : يكون - أى المعنى -
وإذا آتينا موسى الكتاب « أى التوراة ومحمد الفرقان . قال أبو جعفر : هذا
خطأ في الإهراب والمعنى . أما الإهراب : فإن المعطوف على الشيء مثله . وعلى
هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافة ، فأما المعنى : فقد قال فيه جل
وعز « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق : ويكون الفرقان
هو الكتاب أعيد ذكره وهذا أيضا بعيد . إنما يجيىء في الشعر كما قال :

وألنى قولها كذبا ومينا

وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد فرقانا بين الحق والباطل الذى هله
إياه (٢) .

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل عن النحاس : ولا يشير إليه . وكان
هذا النقل بلا تصرف أحيانا أخرى . ففي قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه
يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) إهراب القرآن ورقة ٧ .

يقول القرطبي : « يا قوم » .. منادى مضاف وحذفت الياء في يا قوم لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها . وهي بمنزلة التنوين فحذفها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة . فنقول : « يا قومي » لأنها اسم وهي في موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء ، فقلت « يا قومي » وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف فقلت يا قوما وإن شئت قلت « يا قوم » بمعنى يا أيها القوم . وإن جعلتهم بكسرة نصبت ونونت (١) .

وفي ذلك يقول النحاس في « إعراب القرآن » فحذفت الياء لأن النداء موضع حذف والكسرة تدل عليها ، وهي بمنزلة التنوين فحذفها كما تحذف التنوين من المفرد . إلى آخر ما ذكره القرطبي بلا تغيير ولا تبديل (٢) .

وفي قوله تعالى : « نفجر لكم خطاياكم » (٣) يقول القرطبي :

« واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة . فقال الخليل : الأصل في « خطايا » أن يقال : خطائي ثم قلب فقييل : خطائي . . . بهمزة بعدها ياء . ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فنقول : خطاء ، فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث أواخر فأبدلت من الهمزة ياء فقلت خطايا . وأما سيبويه فذهب أن مثل الأول خطائي ثم وجب به أنه أن تهز الياء كما همزتها في مدائن . فنقول خطائي ، ولا تجتمع همزتان في كلمة فأبدلت من الثانية ياء . فقلت خطائي ثم حملت كما حملت

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠٠

(٢) انظر إعراب القرآن ووقفة ٧

(٣) آية ٥٨ من سورة البقرة .

في الأول . وقال الفراء خطأيا جمع خطية بلا همزة كما تقول : هدية وهدايا . قال الفراء ولو جمعت خطية مهبوزة لقلت خطأيا . وقال السكاكني : لو جمعها مهبوزة أدغمت الهمزة في الهمزة كما قلت جواب^(١) وهذه هبارة النحاس بلا تغيير ، ومع هذا فلم يشر القرطبي إليه ولم يبين أنه أخذ عنه^(٢) .

معاني القرآن لأبي جعفر النحاس

أفاد القرطبي من « كتاب معاني القرآن » لأبي جعفر النحاس . ونقل عنه . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » فقد نقل القرطبي عن بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « ويفتر ما دون ذلك لمن يشاء » ولم يرتض القرطبي هذا الرأي فرفضه . ثم قال : وقال النحاس في « معاني القرآن » : القول فيه عند العلماء أهل النظر . أنه محكم وأنه يجازيه إذا لم ينسب . فان تاب فقد بين أمره بقوله « وإني لفتار^(٣) لمن تاب » فهذا لا يفرج عنه . واخْلُود لا يقتضى الدوام ، قال الله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد^(٤) » الآية ، وقال تعالى « يحسب أن ماله أخلده^(٥) » الآية وقال زهير :

ولا خالد إلا الجبال الرواسيا

وهذا كله يدل على أن الخلد ، يطلق على غير معنى التأييد ، فإن هذا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٤

(٢) اهراب القرآن ورقة ٨

(٣) آية ٨٢ من سورة طه .

(٤) آية ٢٤ من سورة الانبياء .

(٥) آية ٣ من سورة الممتزة .

يزول بزوال الدنيا . وكذلك العرب تقول : لا تخزن فلانا في السجن . والسجن
ينقطع ويفنى . وكذلك المسجون ، ومثله قولهم في الدعاء : خلد الله ملكه
وأبد أيامه (١) .

ويوجد من (معاني القرآن) نسخة خطية بدار الكتب برقم ٣٨٥ تفسير .
التحصيل لغوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل . لأبي العباس
أحمد ابن عمار للمهدى المنوفى بعد سنة ٤٣٠ هـ .

لقد أفاد القرطبي من هذا التفسير وعناثر به . ومن الأمثلة الدالة على ذلك
ما ذكره في قوله تعالى : « ويسفك الدماء » فقد قال « السفك : الصب سفتك
الدم أسفك سفا صببته . وكذلك الدمع ، حكاه ابن فارس والجوهري .
والسفاك الصفايح وهو القادر على الكلام قال المهدوي : ولا يستعمل السفك إلا
في الدم وقد يستعمل في نشر الكلام . يقال سفك الكلام إذا نشره وواحد
للدماء دم مخنوف اللام وقيل : أصله دمي ، وقيل : دني ولا يكون اسم على
حرفين إلا وقد حذف منه . والمخنوف منه ياء وقد لحق به على الأصل
قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين (٢)

وفي قوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » نقل عن المهاوي
وتعنه فقال :

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٣٥ آية ٩٣ من سورة النساء

(٢) تصحيف القرطبي ج ١ ص ٢٧٥ آية ٣٠ من سورة البقرة وانظر التحصيل نسخة
خطية بدار الكتب رقم ٧٨ تصحيف ورقة ٣

الظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : « إني ظننت أني ملاق حسابية » وقوله « فظنوا أنهم مواصوها » قال دريد بن الصمة .

فقلت لهم ظنوا بالني مدحج سراتهم في الفارسي المسرد (١)

وقال أبو دؤاد :

رب م فرجته بفرم وغيوب كشفها بظنون

وقد قيل أن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر في الكلام بذنوبهم . فكأنهم يتوقعون لقاءه مذبذبين أي ولا أمل عندكم في التوبة ، ذكره المهدوي والماوردي . ثم قال في تضعيف هذا الرأي قال ابن عطية : وهذا تصف (٢)

وفي قوله تعالى « ومن الناس من يمجيك قوله في الحياة الدنيا » (٣) يقول : قال السدي وغيره من المفسرين نزلت في « الأخنس بن شريق » واسمه إني . والأخنس لقب لقب به لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زهرة من قتال رسول الله ﷺ . . . وكان رجلا حلو القول والمنظر ، فجاء بعد ذلك إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام وقال : الله يعلم أني صادق ، ثم هرب بعد ذلك فبر بزرع لقوم من المسلمين ويحمر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر . قال المهدوي : وفيه نزلت « لا تطع كل حلاف مهين هازم شاء بنميم » ، « ويل

(١) للبرهجي : الفارسي الذي ليس سلاحه مكانه تغطي به ، والسرعة جمع سرى وهم خيار القوم من فرسانهم ، والفارسي المسرد : هي الفروع الفارسية والمرد : الهبوط النسيج المتداخل الخلق . يلدو أخاء وقومه أنهم سوف يلقون عدوا من ذوي البأس قد استكمل أداة قتاله .

(٢) التفسير القرطبي ج ١ من ٣٧٥ وأخذ للتحصيل ورقة ١٠

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة .

لكل حمزة لمزة» ثم قال : قال ابن عطية : « ما ثبت قط أن الأخنس أسلم » .

وهذه عبارة المهدوى فى التحصيل ، يقول المهدوى فى الآية السابقة : « ذكر السدى وهديره من المفسرين أنها نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان حليفا لبني زهرة وكان قد أتى بهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ فأشار عليهم حين وصلوا الجحفة « موضع قرب مكة » بالرجوع وترك القتال فأطاعوه ، فخنس بهم من المشركين أى رجع فسمى الأخنس لذلك . وأتى بعد ذلك إلى النبي ﷺ وحلف أنه لم يأبأ إلا رغبة فى الإسلام ثم خرج من عنده فأحرق زروا للمسلمين وهقر حمراء فنزلت الآية وفيه نزل « ولا تطع كل حلاف مهين ، هازم شاة بنميم » و « ويل لكل حمزة لمزة » (١)

تفسير « الماوردى » وهو أبو الحسن على بن محمد الماوردى المتوفى سنة

: ٤٥٠ هـ

ولقد أفاض القرطبي من تفسير الماوردى ، ونقل عنه . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أئتناخذنا هزوا قال أهو ذبا لله أن أكون من الجاهلين (٢) » فقد قال القرطبي فى المسألة الثالثة : « قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح البقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهيئون عندهم ما كان يروونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة وليس بعله فى جواب السائل ، ولكن المعنى فيه أن

(١) تفسير المهدوى نسخة خطية رقم ٧٩ غير مرقومة .

(٢) آية ٦٧ من سورة البقرة ،

يحبيا القتل بقتل حي . فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أعبادها . (١)
وفى قوله تعالى « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول
القرطبي : « قال الماوردي : واختلف في بقاء تكليف من أعيده بعد موته
ومماينة الاحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين ، أحدهما : بقاء تكليفهم لئلا
يخلو عاقل من تعبد . الثاني : سقوط تكليفهم ليكون « التكليف » (٢) معتبرا
بالاستدلال دون الاضطراب . ثم قال القرطبي ، قلت : والقول الأول أصح
فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطاً عليهم ، والنار محيطاً بهم
وذلك مما اضطهرم إلى الإيمان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم
يوسى ومحال أن يكونوا غير مكلفين » . (٣)

ومن الأمثلة التي توضح تأثير القرطبي بالماوردي . ما جاء في قوله تعالى :
« لا تفرحوا ولا يفرحوا بين ذلك » فقد قال القرطبي : الفارض المسنة .
وقد فرضت تفرض فروضاً أي أسنت ويقال لشيء التقديم : فارض .
قال الراجز :

شيب أصداعي فرأى أبيض محال فيها رجال فرض

يعنى هرمي . وقال آخر :

لمبرك قد أعطيت جارك فارضاً تساق إليه ما تقوم على رجل

... وقيل الفارض التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسمج جوفا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٤٥ وانظر تفسير الماوردي نسخة خطية بدار الكتب
رقم ١٩٦٩٣ . ورقة ٩
(٢) زيادة في تفسير الماوردي ورقة ٥٥
(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠٥ آية ٥٦ من سورة البقرة .

كذلك لأن معنى الفارض في اللغة الواسع، قال بعض المتأخرين : والبكر الصغيرة التي لم تحمل . والبكر الأول من الأولاد . والبكر أيضاً إناث البهائم وبني آدم ، مالم يفتحله الفحل ويفتحها الفتي من الإبل ، والموان النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين وهي أقوى ما تكون من البكر وأحسنه بخلاف الخليل قال الشاعر يصف فرساً :

كبيت بهيم اللون ليس بفارض ولا بموان ذات لون مخصف
يعنى أن الفرس أسود ليس كبيراً ولا بموان ولد بطناً أو بطنين ، وإنما هو صغير والصغير في الخليل هو القوي .

فرس أخصف إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه ٠٠ ٠٠ (١)
وهذه عبارة الماوردي ، يقول الماوردي : في الفارض تأويلان ، أحدهما الكبيرة الهرمة وهو قول الجمهور قال الزجاج :

شيب أصداغى فرأى أبيض محامل فيها رجال فرض
يعنى هرم قال الشاعر

لمعرك قد أعطيت جارك فارضاً تساق إليه ما تقام على رجل

يعنى بقوله « فارضاً » أى قديماً . الثانى : أن الفارض التي ولدت بطونا كثيرة فيتنسج جوفها لذلك لأن معنى الفارض في اللغة الواسع وهذا قول بعض المتأخرين ٠٠ ٠٠ . والبكر الصغيرة التي لم تحمل والبكر من إناث البهائم وبني آدم ، مالم يفتحله الفحل وهي مكسورة الباء فأما البكر يفتح الباء فهو الفتي من الإبل . والموان النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين ٠٠ . بن ذلك . يعنى بين الصغيرة والكبيرة وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه . (٢)

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٤٩

(٢) تفسير الماوردي ورقة ٩ .

وفى قوله تعالى « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي في المسألة السادسة: واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة ثم هلق فقال: قلت وهذا ليس مختصا بالركوع وحده فقد جعل الشريع القراءة عبارة عن الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكاملها فقال « وقرآن الفجر » أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل إنما خص الركوع بالذكر ، لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع (١) . ويقول الماوردى : وفى قوله « واركعوا مع الراكعين » قولان : أحدهما أنه أراد جملة الصلاة . الثانى أنه أراد الركوع الذى فى الصلاة لأنه لم يكن فى صلاة أهل الكتاب ركوع فأمرهم بما لا يفعلونه فى صلاتهم » (٢) .

ففى قوله تعالى « لا تأخذنه سنة ولا نوم » يقول القرطبي والسنة الثمناس فى قول الجليح . والثمناس ما كان فى العين فإذا صار فى القلب صار نوما . قال عدى بن الرقاع يصف امرأة بغتور للنظر :

وسنان أفعده الثمناس فرقت فى حينه سنة وليس بنائم (٣)

وفرق « المفضل » بينها فقال : السنة فى الرأس . والثمناس فى العين ، والنوم فى القلب . وقال ابن زيد : اوسنان الذى يقوم من النوم وهو لا يعقل

(١) تفسير القرطبي . ج ١ ص ٣٤٥

(٢) تفسير الماوردى ورقة ٧ .

(٣) رنى النوم فى هيلية خالطها والوسنان الذى ليس يستغرقى فى النوم ومنى أقصده أسابة ولقد فرق الشاعر هنا بين السنة والنوم .

حتى ربما جرد السيف على أهله، قال ابن عطية : وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب وقال السدي السنة ربيع النوم الذي يأخذ في الوجه فينمى الإنسان ، وعلق القرطبي فقال : « قالت وبالجملة فهو فتور يعتري الانسان ولا يفقد معه عقله » (١) .

وهذه عبارة الماوردي . يقول الماوردي « والسنة النعاس في قول الجميع والنعاس ما كان في العين فإذا صار في القلب صار نومًا ، وفرق المفضل فقال : السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب وماهليه الجمهور من التدوية بين السنة والنعاس أشبه قال هدي بن الرقاع .

وسنان أقصده للنعاس فرقت في عينه سنة وليس بنائم (٢)

تفسير النقاش : ويسمى شفاء الصدور لأبي بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلى المعروف بالنقاش المتوفى سنة ٣٥١ هـ

لقد أفاد القرطبي من هذا التفسير وتعقب صاحبه كثيرًا . سواء كان ذلك بالنقل من ابن عطية أو برأيه واجتهاده . ففي قوله تعالى « أهدنا الصراط المستقيم » يقول القرطبي أصل الصراط في كلام العرب الطريق .

قال طاهر بن الطفيل :

شحنا أرضهم بالليل - حتى تركناهم أذل من الصراط (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٢

(٢) تفسير الماوردي

(٣) يقول الأستاذ محمود شاكر في فقه الطبري : سببه القرطبي إلى طاهر بن الطفيل وأيس في ديوانه .

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا هوج الموارد مستقيم (١)

وقال آخر :

فصد من نهج الصراط الواضح

ثم قال : وحكى النقاش الصراط • الطويق بلفظ الروم • قال ابن عطية :
وهذا ضيف جنأ . (٢)

وفى قوله تعالى : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » يقول فى المسألة الخامسة
قال النقاش فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ، لأنه تعالى لو ذكر الأيام
لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل . فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام
أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . ثم قوى القرطبى ذلك بما ذكره
عن ابن عطية فقال : قال ابن عطية : سمعت أبى يقول سمعت الشيخ الزاهد
الإمام الواهظ أبا الفضل الجهرى رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والهدو
منه فى الصلاة ونحوه وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول ، أين حال
موسى فى القرب من الله وواصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى المخضر
لفناء فى بعض يوم « آتنا غداها » . ثم عقب القرطبى فقال : « قلت وبهذا
استدل علماء الصوفية على اواصل وأن أفضله أربعون يوما » (٣) .

(١) البيت لجرير يمدح هشام بن عبد الملك . والموارد جمع مودة . وهى الطرق
إلى الماء • يريد الطرق التى تسلكها الناس إلى أمراضهم وحلبتهم كما يسلكون الموارد
إلى الماء •

(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ٤٤٧

(٣) تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٩٦

وفي قوله تعالى : « إنما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (١) »
بين القرطبي أن بعض العلماء ذهب إلى أن سبب نزول الآية أن رجلا من
الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينا وقيما وأسيرا . وأن بعضهم ذهب إلى
أن الآية نزلت في هلي وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة . وذكر
القرطبي غير هذا من الآراء . ثم عقب بقوله : قلت والصحيح أنها نزلت في
جميع الأبرار ومن فعل فلا حسنا . ففى عامة .

ثم انتقد القرطبي مفالة النقاش وغيره من المفسرين « في قصة هلي
وفاطمة » والقصة طويلة ومشهورة ولاداعي لمرضاها . ولستحق بذكر موقف
القرطبي منها وتقدم لها .

بين القرطبي أن الحديث الذى روى في هذه القصة لا يصح ولا يثبت .
ونقل عن بعض العلماء أنه قال في تقدمه ، هذا الحديث مزوق مزيف قد تعارف
فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين . فالجاهل بهذا الحديث يفسد شفتيه تلها
ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله
تعالى في تنزيهه « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (٢) » . . . « وهو الفضل
الذى بفضل من نفسك وهيا لك ، وجرت الأخبار عن رسول الله متواترة » بأن
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول (٣) ... « ،
وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم وقال رسول الله ﷺ
« كفى بالمرء إنما أن يضئع من يقوت (٤) » أفيحسب أن هليا جيل هذا

(١) آية ٩ من سورة الانسال

(٢) آية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة في كتاب الزكاة ح ٧ ص ١٢٥

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر بلفظ كفى بالمرء إنما أن يجبس عن

بملك قوته .

الأمر حتى أجهد صبيانا صفاراً من أبناء خمس أوست ، على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ، حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم بخلاء أجوافهم . حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد ؟ هب أنه أثر على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ . هب أن أهله سمحت بذلك لعل . فهل جازله أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال . وأبى الله لتغلب متنبهة أن تظن بعل مثل هذا . ولبت شعري ، من حفظ هذه الآيات — يقصد الآيات الشعرية في القصة — كل آيلة من على واطمة واجابة كل واحد منهما صاحبه حتى أداما إلى هؤلاء الرواة فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى . بلغت أن قوماً يتخلدون في السجون فيبتغون بلا حيلة فيكتبون أحاديث في السر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مغتمة فإذا صارت إلى الجاهلانة وأغر مواهبها وزيفوها . وما من شيء إلا له آفة ومكيدة ، وآفة الدين وكيدته أكثر . (١)

أحكام القرآن « لكيا الطبري » وهو أبو الحسن علي بن محمد بن هلي الطبري المروفي « بالكيا » للنفوف سنة ٥٥٤ هـ

لقد أفاد القرطبي من أحكام القرآن لكيا الطبري ، ومن أمثله ذلك :
ما ذكره في قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » (٢) فقد قال في المسألة الثانية والثلاثين :

(١) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ١٣٤ وانظر القصة ص ١٣٠ . ويوجد من تفسير النقاش مجلدان خطيان بدار السكتب تحت رقم ١٤٠ . ٦٣٤ تفسير .

(٢) « الكيا » يقول ابن خلكان : ولا أعلم لائى من قبل له : الكيا . وهو بكسر الكاف وفتح الياء المنناة من تحتها وبدها ألف . والكيا في اللغة النجاسة هو الكبير القدر للقدم بين الناس . انظر وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٥١ .

« واختلف العلماء إذا اقترن بضرورته مصيبة بقطع طريق وإخافة سبيل
 فحظرها عليه مالك والشافعي في أحد قوله ، لأجل مصيبته لأن الله سبحانه
 أباح ذلك عونا والمعاصي لا يحمل أن يمان . فإن أراد الأكل فليتب وليأكل .
 وأباحها له أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر له . وسويا في إستباحته بين
 طاعته ومصيبته ، قال ابن العربي : وعجبا ممن يبيح له ذلك مع التناهي على المصيبة
 وما أغن أحدا يقوله فإن قاله فهو مخطيء قطعاً . ورد القرطبي على ابن العربي
 وانتصر بما قاله أبو الحسن الطبري ، فقال : قلت : الصحيح خلاف هذا .
 فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المصيبة أشد مصيبة مما هو فيه . قال تعالى :
 « ولا تقتلوا أنفسكم » وهذا عام ولعله يتوب في ثالي حال فتسبحو التوبة عنه ما كان
 وقد قال مسروق . من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى
 مات دخل النار إلا أن يغفو الله عنه ، قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكنيا
 وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة . بل هو هزيمة واجبة ، ولو امتنع من
 أكل الميتة كان حاصبا ، وليس تناول الميتة من رخص السفر ، أو متملقاً بالسفر
 بل هو من نتائج الضرورة ، سقراً كان أو حضراً ، وهو كالإفطار للمعاصي المقيم
 إذا كان مريضاً وكالتيمم للمعاصي المسافر عند عدم الماء . قال وهو الصحيح
 هندا . (١)

وفي قوله تعالى : « ثم آتوا الصيام إلى الليل » يقول في المسألة الثانية
 والعشرين : « فإن أفطر وهو شاك في غروبها — أى الشمس — كفر مع
 القضاء ، قاله مالك ، إلا أن يكون الأغاب عليه غروبها ، ومن شك عنه في
 طلوع الفجر لزمه التكف من الأكل مع شكه فعملية القضاء كالناس لم يختلف

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢ وانظر أحكام القرآن نسخة خطية بمكتبة الأزهر
 رقم ٩٨ ورقة ٢٢ ،

في ذلك قوله ، ومن أهل العلم بالمدينة وغيرها من لا يرى عليه شيئاً حتى يبين له مالوع الفجر ، وبه قال ابن المنذر ، وقال السكا الطبري : وقد ظن قوم أنه إذا أبيض له الفطر إلى أول الفجر فإذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع في وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه ، كذلك قال مجاهد وجابر ابن زيد ، ولا خلاف في وجوب القضاء إذا هم عليه الهلال في أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان ، والذي نحن فيه مثله ، وكذلك الأسير في دار الحرب إذا أكل ظناً أنه من شعبان ثم بان خلافه (١).

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل من « السكا الطبري » ولا يشير إلى ذلك ، فقد قال في قوله تعالى « وقالوا لن نمسنا النار إلى أياما معدودة » في هذه الآية ، رد على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام « دعي الصلاة أيام أقرائك » (٢) في أن مدة الحيض ما يسي أيام الحيض وأنتلها ثلاثة وأكثرها عشرة ، قالوا لأن مادون الثلاثة يسمى يوماً ويومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوماً ، ولا يقال فيه أيام ، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ، قال الله تعالى ، « فصيام ثلاثة أيام في الحج » تمتعوا في داركم ثلاثة أيام « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » فيقال لهم ، فقد قال الله تعالى في الصوم « أياما معدودات » يعنى جميع الشهر « وقالوا لن نمسنا النار إلا أياما معدودات » يعنى أربعين يوماً وأيضاً فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يرد به تحديد العدد بل يقال أيام مشيك وسفر وكذا إقامتك ، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ، ولعله أراد ما كان يعتاد لها والعادة ست تخرج الكلام عليه والله أعلم (٣).

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٨ وانظر أحكام القرآن ورقة ٤

(٢) أخرجه الترمذي باختلاف يسير عن هدى بن ثابت عن أبيه عن جده . في أبواب الاستحاضة - انظر صحيح الترمذي يشرح ابن العربي ج ١ ص ٢٠٠ -

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٠ وما بعدها .

وهذا النص بعينه مذكور في أحكام القرآن « لكيا الطبري »^(١) .
 وفي قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى »^(٢) .
 يقول القرطبي في المسألة الثالثة : « قوله تعالى » من البينات والهدى
 « يعم للمصوص عليه والمستنبط لشمول اسم الهدى للجميع ، وفيه دليل على
 وجوب العمل بقول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله
 وقال « إلا الذين تابوا وأصلحو »^(٣) وبينوا « فحكم بوقوع البيان بفهمهم . فان
 قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منبها عن الكتان ، وأمورا بالبيان
 ليكثر الخبرون ، ويتواتر بهم الخبر ، قلنا : هذا غلط لأنهم لم ينهوا عن الكتان
 إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتان
 فلا يكون خبرهم موجبا للعلم والله أعلم . »^(٤) وهذا النص أيضاً مذكور في أحكام
 القرآن . وليس فيه تصرف مطلقا لهم إلا أن صاحب أحكام القرآن قال :
 يدل « يعم » بالمضارع « وعم ذلك المصوص عليه والمستنبط » بصيغة
 الماضي »^(٥) .

أحكام القرآن القاضي « أبي بكر بن العربي » للتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

لقد أغاد القرطبي من أحكام القرآن لابن العربي . وناقشه ورد هجومه
 على الفقهاء والعلماء .

ففي قوله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » الآية « يقول

(١) انظر أحكام القرآن ورواه ٦ .

(٢) آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٣) يبنى أن الله أمر في هذه الآية كل عالم ببيان العلم وتوعد من يكتنه .
 واشترط في قبول توحيته البيان .

(٤) تصحيح القرطبي ج ٢ ص ١٨٥ وما بعدها .

(٥) انظر أحكام القرآن ورواه ١٣ .

القرطبي : « قال ابن العربي : قال لي كثير من أشيائي . إن الكافر الممين لا يجوز لعنه . لأن حاله عند الوفاة لا تعلم . وقد شرط الله تعالى في هذه الآية . في إطلاق لعنة ، الموافقة على الكفر . وأما ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لمن أقواما بأهينهم من الكفار فأما كان ذلك لعنه بما لهم . قال ابن العربي : والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله ، ولجواز قتله وقتاله . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وقد علم أني لست بشاهر فآلعه وأهجه عدد ما هجاني » فلعنه . وإن كان الإيمان والدين والاسلام آله . وانصف بقوله « عدد ما هجاني » ولم يزد ليعلم العدل والانصاف .

وأضاف المجهول إلى الله تعالى في باب الجزاء ، دون الابتداء بالوصف بذلك . كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وعقب القرطبي فقال : قلت أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف في ذلك . لما رواه مالك عن داود بن الحصين . أنه سمع الأهرج يقول ما أدركت الناس الا وهم يأمنون الكفرة في رمضان . قال علماؤنا وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ولكنه مباح لمن فعله لمجدهم الحق وهداوتهم للدين وأهله . وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشراب الخمر وأكله الربا ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه (١) . ومع أن للقرطبي نص على نقله عن ابن العربي الا أنه تصرف ببعض التصرف في هذا النص (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٥٠ طبع هبي الحاي .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » (١) يفو في المسألة العاشرة : « قال ابن العربي : ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : « يقتل الحر بمهد نفسه . ورووا في ذلك حديثا عن الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل عبده قتلناه » وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعالى « ومن قتل ظلوما فقد جعلنا لوليهِ سلطانا فلا يسرف في القتل » والمولى هاهنا السيد . فكيف يجعل له سلطان على نفسه . وهقب القرطبي فقال : قلت هذا الحديث الذي ضعفه ابن العربي وهو صحيح . أخرجه النسائي وأبو داود وتصح منه « ومن جده جدهناه ومن أخصاه أخصيناه » وقال البخاري عن علي بن المديني . سمع الحسن من سمرة صحيح وأخذ بهذا الحديث وقال البخاري : وأنا أذهب إليه . فلو لم يثبت الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان وحسبك بهما . ويقتل الحر بمهد نفسه (٢) . »

وفي قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » يقول في المسألة العشرين ..

« هذه الوفا تلزم الحرة والأمة ، والصغيرة والكبيرة ، واللق لم تبلغ الحيض ، واللق حاض ، واليايسة من الحيض ، والكثائية . دخل بها أو لم يدخل بها . إذا كانت غير حامل . وهذه جميعهن إلا الأمة أربعة أشهر وعشرا . أيام ، لموم الآية في قوله تعالى : « يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » وهذه الأمة المتوفى عنها زوجها شهران وخمس ليال . قال ابن

(١) آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٨ وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٦٣ . وحديث من قتل عبده قتلناه ، أخرجه أبو داود الطيالسي عن سمرة . انظر منحة لا بدود ج ١ ص ٢٩٣ .

العربي : نصف عدة الحرة لإجماع . الا ما يحكى عن الأصم ، فإنه سوى فيها بين الحرة والأمة . وقد سبقه الإجماع . لكن لصممه لم يسمع قال الباجي « ولا نعلم في ذلك خلافا إلا ما يروى عن ابن سيرين . وليس الثابت عنه . أنه قال عدتها عدة الحرة » وناقش القرطبي ابن العربي ورد ما ذهب إليه فقال قلت : قوله الأصم صحيح من حيث النظر فإن الآيات الواردة في عدة ألوفاة والطلاق ، بالأشهر والأقراء ، عامة في حق الأمة والحرة . فعدة الحرة والأمة سواء على هذا النظر . فإن العموما لا تفصل فيها بين الحرة والأمة وكما استوت الأمة والحرة في النكاح فكذلك استوى معها في المدة والله أعلم (١) »

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل عن ابن العربي ولا يشير إليه : ففي قوله تعالى « فن خاف من موص جنتا أو إثمنا » الآية : يقول القرطبي : « اخطأ بقوله » فن خاف « لجلبع المسلمين . قيل لهم أن خفتم من موص ميلا في الوصية . وعدولا عن الحق . ووقرها في إثم . ولم يخرجها بالمعروف . وذلك بأن يوصى بالمال إلى زوج ابنته أو أوصى لمعيد وتركه القريب . فبادروا إلى السعي في الإصلاح بينهم فإذا وقع الصلح سقط الأثم عن المصلح والإصلاح فرض على السكفاية . فإذا قام أحدهم به ، سقط عن الباقي . وأن لم يفعلوا أثم الكل . ثم قال : في هذه الآية : دليل على الحكم بالظن . لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعي في الإصلاح وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إثمنا يكون حكما بالدفع وإبطالا للفساد وحسما له (٢) » .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٤ آية ٢٣٤ من سورة البقرة وانظر أحكام الترائ لابن العربي ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها آية ١٨٢ من سورة البقرة وانظر أحكام الترائ لابن العربي ج ١ ص ٧٣ .

ولقد تصرف القرطبي في هذا النص قليلا ، فلم له هذا التصرف ، لم
يشر إلى ابن العربي وإن كنت لا أعتبر بعض العبارات التي زادها تصرفا
يحيى له ذلك .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا » يقول القرطبي في
للسألة الثانية : « في هذه الآية دليلان أحدهما : هل تجنب الألفاظ المحتملة
التي فيها التعريض للتنقيص والنقص ، ويخرج من هذا فهم ^(١) القذف بالتمريض ،
وذلك يوجب الحد عندنا خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا :
التمريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة » ^(٢)

وتكلم القرطبي على سد الدرائع في الدليل الثاني وهذه عبارة ابن العربي
يقول ابن العربي ، بعد أن بين أن اليهود كانوا يستعملون هذا اللفظ
ويقصدون به سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، « وهذا دليل على تجنب الألفاظ
المحتملة ، التي فيها التعريض للتنقيص والنقص ، ويخرج منه فهم التمريض
بالقذف وغيره »

وقال همامنا : إنه ملزم للحد خلافاً للشافعي وأبي حنيفة ، حيث قالوا :
أنه قول محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة . ^(٣)

تفسير « مكي بن أبي طالب »

لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ تفسير يسمى :
« الهداية إلى باوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه » :

(١) على الإنسان أن يتعد عن الألفاظ التي تحتمل التعريض بالسبب أما الإلفاظ
التي يلهم منها التعريض بالقذف فليست داخلية هنا .. وقيل إنها داخلية ولا حدمها .

(٢) تفسير البوطي ج ٢ ص ٥٧ آية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٣٢

أشار إليه ابن خيري في فهرسته فقال عنه : « وهو كتاب كبير يقع في سبعين جزءاً (١) » ولقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه :

ففي قوله تعالى : « واذكروا الله في أيام معدودات » يقول القرطبي في المسألة الأولى « ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية : هي أيام منى . وهي أيام التشريق . وأن هذه الثلاثة أسماء واقعة عليها ، وهي أيام رمي الجمار وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتمجل الحاج منها في يومين بعد يوم النحر قفف على ذلك . وقال الثعلبي : وقال إبراهيم : الأيام المعدودات أيام عشر من ذى الحجة والمعلومات أيام النحر . ثم قال القرطبي : وكذا حكى مكى والمهدي أن الأيام المعدودات هي أيام العشر . ولا يصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله ابو عمر بن عبد البر وغيره (٢) » .

مشكل إعراب القرآن :

كذلك أفاد القرطبي من كتاب « مشكل إعراب القرآن » لمكى ابن أبى طالب . ولقد أشار القرطبي إليه ، وناقش صاحبه كما ناقشه في المثال السابق . ففي قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله » الآية يقول القرطبي : « ابتغاء » مفعول من أجله « وتبتئنا من أنفسهم » عطף عليه ، وقال مكى في للشكل : كلاماً مفعول من أجله . قاله ابن عطية وهو مردود

(١) انظر فهرسة ابن خيري ص ٤٤ طبع مرقسطة . ولقد قال الدكتور عبد الوهاب فايد عن هذا الكتاب : وهذا الكتاب مفقود الآن ذبا أهم . انظر منهج ابن عطية ص ٨٧ . ونقل المقرئ عن ابن سبيد القذى ذيل رسالة ابن حزم أنه قال « من أجل ما صنف في التفسير : كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية » ثم بين أنه يقع في عشر مجلدات انظر رسالة ابن حزم وتذييلها في نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١ آية ٢٠٢ من سورة البقرة .

ولا يصح في « تئينا » أنه مفعول من أجله . لأن الإفساد ليس من أجل التئينيت . « وابتقاء » نصب على المصدر في موضع الحال . وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو « تئينا » عليه (١) .

جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٢٠ هـ :

أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه وقائمه والأثلة على ذلك كثيرة ونكتفي هنا ببعض منها .

في قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب . ويشترون به ثمنا قليلا » الآية . يقول القرطبي : قوله تعالى « ولا يكلمهم الله » عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم . يقال : فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه . وقال الطبري : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفي التنزيل « اخسأوا فيها ولا تكلمون » وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية « (٢) .

وفي قوله تعالى « ... واذكر ربك كثيراً وسميح بالعشى والإبطار » يقول القرطبي : أمره ألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه . . . وقال محمد ابن كعب القرطبي : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لأركيا يقول الله عز وجل « ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً » ولرخص

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣١٤ آية ٢٦٥ من سورة البقرة ، ويوجد من هذا التفسير أممي (مشكل إهراب القرآن) نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٢٢٢ . ونسخة أخرى خطية بمكتبة الأزهر تحت رقم ٢٧٧ علوم قرآن .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٥ آية ١٧٤ من سورة البقرة .

للرجل يكون في الحرب . يقول الله عز وجل « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً » وذكره الطبري (١) .

ولقد أفاد القرطبي من الطبري أكثر من التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « أو كصيب من السماء » فقد قال القرطبي : قال الطبري « أو » بمعنى الواو وقاله الفراء وأشد :

وقد زعمت ليل باني فاجر لنفسي تقاها أو هلبها فجورها

وقال آخر :

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

أى وكانت . وقيل « أو » لتخيير أى مثولهم بهذا أو بسببها . لا هلى الاقتصار على أحد الأمرين . والمعنى : أو كأصحاب صيب . والصيب المطر . واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل ، قال علقمة :

فلا تعدلى بينى وبين مغمر (٢) سقتك روايا المزن حيث تصوب (٣)

مصادر القرطبي من كتب القراءات :

لقد أفاد القرطبي من كثير من كتب القراءات . ومنها :

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨١ آية ٤١ من آل عمران .

(٢) المغسر : الجاهل الذى لم يجرب الامور . سكان الجبل غمره وطفى عليه . وفى الشطر الثانى يدهو الشاعر لصاحبه بالخصب والتمية . والروايا جمع رواية وهى الدابة التى تحمل مراد للاء ، وللزن : السحاب الأبيض ، شبه بالروايا حملات للاء .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٥ . وانظر تفسير الطبري ج ١ ص ٢٣٤ طبع

« الحجة في حلل القراءات السبع » لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي
المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

وهذا الكتاب لا يعتبر كتاب قراءات فقط . وإنما يعتبر كتاب
تفسير فلقد كان منهج « أبي علي » أنه لا يعمد إلى اللفظ القرآني الذي وقع
فيه الاختلاف بين القراء فيتحدث عنه . محتجاً به ، بل يتناول الآية التي وقع
فيها ذلك . فيتحدث عن تفسيرها ويتقصى ما تحمله كلماتها من معان ثم يذكر
ما يتصل بذلك من مسائل النحو . فيذكر آراء النحاة . من أمثال « الخليل
وسيبويه والأخفش والمازني » وغيرهم ثم يعود إلى إهراب الآية . وبعد هذا
يسود فيجتمعت للقراءات .

ومن هنا أفاد منه المفسرون في التفسير ، والقراءات ، والنحو والإهراب .
يقول بعض الباحثين : ومن أجل ما تعرض أبو علي في كتابه الحجة إلى تفسير
كتاب الله ، ومن أجل تبحره في المواد التي بها يكون التفسير . اعتمد كثير
من المفسرين عليه . وأوردوا أقواله معتدين بها . وقد رأيت هذا مثلاً في البحر
الحيط لأبي حيان ، في مواضع متقاربات . كما اعتمد عليه « ابن القيم » في كتابه
« البيان في أقسام القرآن » وغيره (١) .

ولقد أفاد القرطبي من كتاب الحجة ، فوق القراءات ، في مجال التفسير
والإهراب ، والشواهد وغير ذلك . ففي قوله تعالى « قال فلئذا محرمة عليهم
أربعين سنة » (٢) يقول القرطبي :

(١) أبو علي الفارسي . للمكتوب عبد الفتاح اسماعيل ص ١٧٨ ، ١٩٩ بتصرف .

(٢) آية ٢٦ من سورة المائدة .

« ومعنى محرمة أى أنهم ممنوعون من دخولها كمال يقال حرم الله وجهك على النار . وحرمت عليك دخول النار . فهو تحريم شرع عند أكثر أهل التفسير كما قال الشاهر :

جالت لتصرهى فقلت لها اقصرى أنى امرؤ صرهى عليك حرام

أى أنا فارس فلا يمكنك صرهى . وقال « أبو هلى » : يجوز أن يكون تحريم تعبد . ويقال كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسيروا فى فراسخ يسيرة فلا يبتدوا للخروج منها . فاجواب — قال أبو هلى : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التى هم عليها إذا ناموا . فيردم إلى المكان الذى ابتدوا منه ، وقد يكون بنير ذلك من الأشياء ، والأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن المادة » (١) .

وقوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » (٢) يقول . « والذين أى الرجال الذين يموتون منكم » ويذرون أزواجا ، أى يتركون أزواجا أى ولم زوجات فإزواج يتر بصن . قال معناه الزوجات واختاره النحاس . وحذف المبتدأ فى الكلام كثير كقوله تعالى « قل أغانيتكم بشر من ذلك النار » أى هو النار . وقال أبو على الفارسي : تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتر بصن بدم . وهو كقولك . السمن منوان بدم . أى منوان منه بدم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتر بصن . فجاءت للمباواة فى غاية الإيجاز » (٣) .

(١) تفسير التروطى ج ٦ ص ١٣٠

(٢) آية ٧٣٤ من سورة البقرة .

(٣) تفسير التروطى ج ٧ ص ١٧٤

فلنبدأ محذوف في هذا التقدير أيضاً ، كما في قوله تعالى : « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار » .

في هذا النص أفاد القرطبي من أبي علي الفارسي وجها إعرابياً ، وأنه يصح في تقدير الكلام أن يكون المتعلق هو المحذوف .

وكذلك ما ذكره في قوله « ولقد صدقكم الله وهذه إذا تمصونهم بإذنه حتى إذا فuschتم وتنازعتم في الأمر » (١) فقد قال : « وجواب » حتى محذوف أى حتى إذا فشلم امتنعتم ومثل هذا جائز كقوله : « فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء » فافعل وقل الفراء : وجواب « حتى » « وتنازعتم » والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وثله للجبين وناديناه » أى ناديناه ، وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى واتسعى ، أى اتسعى .

وقال أبو حلى : يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم وثم زائدة . والتقدير حتى إذا فشلم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم ، وقد أشد بعض التحويين في زيادتها قول الشاعر :

أرأنى إذا ما بتت حلى هوى فتم إذا أصبحت أصبحت ناديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة كما في قوله تعالى « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » وقيل « حتى » بمعنى « إلى » وحينئذ لا جواب له أى صدقكم الله وهذه إلى أن فشلم . أى كان ذلك الوعد شرط الثبات » (٢) . ومن لفظة « القرطبي » من « أبى حلى » في مجال القراءات ما جاء في قوله

(١) آية ١٥٢ من سورة آل عمران .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٣٦ .

مالى : « مالك يوم الدين » فقد نقل « القرطبي » عن « أبي على الفارسي » رجحانه لقراءة « مالك » وردته لحجة من رجحان قراءة « ملك » وقال أبو على : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بملك أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء . بقوله : « رب العالمين » فلا فائدة في قراءة بن قرأ « مالك » لأنها تكرر . قال أبو على ولا حجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدم المام ثم ذكر الخاص كقوله « هو الله الخالق لبارئ المصور » فالخالق يعم ، وذكر للمصور لما فيه من التنبيه على الصنعة بوجود الحكمة . وكذا قال تعالى « وبالأخرة هم يوقنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يعم الآخرة ، وغيرها ولكن ذكرها لمعناها والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال « الرحمن الرحيم » فذكر الرحمن الذي هو عام ، وذكر الرحيم بصفة ، لتخصيص المؤمنين به في قوله « وكان بالمؤمنين رحيماً » (١) .

وإذا كان « أبو على الفارسي » . يتوسع في توجيهه للقراءات ويستطرد في كتابه « الحجة » فإن القرطبي مع أنه قد نص على نقله منه فإنه كان يتصرف . في نقله بالخلف والاختصار ، وكان ينقل بحوى توجيهه ومعناه غالباً . وللقرطبي حق في ذلك ، فشاهد « الحجة » وأدلة « أبي على » كثيرة واستطراذه طویل مل وتستطيع أن تقارن بين هذا النص في الكتابين .

وفي قوله تعالى : « غير المنضوب عليهم ولا الضالين » يقول القرطبي : قرأ عمر بن الخطاب وأبي بن كعب « غير المنضوب عليهم وغير الضالين »

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وانظر النص في كتاب الحجة ، تحقيق على النجدي نايف وآخرون ج ١ ص ١٢ وما بعدها ،

وروى ههما في الزاء . والنصب والخفض في الحرفين ، فالخفض على البدل من « الذين » أو من الماء والميم في « عليهم » أوصاف « الذين » . « والذين » مرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ، ولا النكرات بالمعارف . إلا أن « الذين » ليس بمقصود قصدهم ، فهو عام . فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمر بمثلك فأكرمه . أو لأن « غير » تعرفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما كما قوله : الحى غير الميت والمساكن غير المتحرك . والقائم غير القاعد . قولان الأول لفارسي والثاني . المزخشرى . والنصب في الزاء على وجوبه ، على الحال من « الذين » ، أو من الماء والميم في « عليهم » كأنك قلت : أنمت عليهم لا مفضوياً عليهم . أو على الاستثناء كأنك قلت : إلا المفضوب عليهم . ويجوز النصب بأهـى وحكى عن الخليل (١) .

كتاب : « المحتسب في تعيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لأبي الفتح همام بن جنى المتوفى سنة ٣١٤ هـ .

لقد أفاد « القرطبي » من كتاب « المحتسب » ، وتقل عنه كثيراً من التوجيهات للقراءات الشاذة . وسنشهد ذلك في فصل القراءات ، ونكتفي الآن بذكر هذا المثال ، في قوله تعالى « غير المفضوب عليهم ولا الضالين » . يقول في المسألة السادسة والثلاثين : « الأصل في الضالين » الضالين ، حذف حركة اللام الأولى ثم ادغمت اللام في اللام فاجتمع ساكنان مدة الألف واللام المدغمة . ثم قال « وقرأ أيوب السخيتاني ولا الضالين بهمزة غير ممدودة . كأنه فر من انتقاء الساكنين . وهي لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها . وانظر الحجة ج ١ ص ١٠٦ .

يقرأ « فيومئذ لا يسأل من ذنبه إنس ولا جان » فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كثير :
إذا ما الموالى بالمبيط احمازت (١) .

وهذه عبارة « ابن جني » في كتاب « المختص » . يقول « ابن جني » :
ذكر بعض أصحابنا أن أيوب مثل من هذه الهمزة فقال : هي يدل من المدة
لالتقاء الساكنين . وأعلم أن أصل هذه ونحوه ، الضالين . وم الفاعلون من
ضل يضل . فكره اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد على غير الصور
المحتملة في ذلك . فأسكنت اللام الأولى وأدغمت في الآخرة . فالتقى ساكنان
الألف واللام الأولى المدغمة . فزيدت في مادة الألف ، واعتمدت وطأة المد
فكان ذلك نحواً من تميم الألف . وذلك أن الحرف يزيد صوتاً بحركاته كما
يزيد صوت الالة : سبع مدته — وحكى أبو العباس محمد بن يزيد عن أبي هنيان
عن أبي زيد قال : سمعت عمرو بن هبيد يقرأ « فيومئذ لا يسأل من ذنبه إنس
ولا جان » (٢) ، قال أبو زيد فظننته قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة
ومادة ودأبة وعليه قول كثير :

إذا ما الموالى بالمبيط احمازت

وقال :

وللأرض أما سودها فتجلت بياضاً وأما بيضها ظدهامت (٣)

(١) تفسر القرطبي ح ١ والموالي أسنة الرماح واحدها طاية . والمبيط الدم الطرى
واحار واحريص واحد .

(٢) آية ٣٩ من سورة الرحمن .

(٣) رسالة ابن عطية للزميل عبد الوهاب فايد نقلها عن المختص ح ١ ص ٤٦ ، ٤٧
وادهام اشتد سواده .

وسنرى كثيراً من توجهات القرطبي للقراءات الشاذة . فقلنا من ابن جني ونكتفي بذلك الآن .

كتب « أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ » :
« لأبي عمرو الداني » مؤلفات كثيرة في القراءات منها : « جامع البيان في القراءات السبع » و « كتاب التيسير » و « كتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار » .

ولقد أفاد القرطبي من أبي عمرو الداني ونقل عنه ، ونكتفي هنا بهذا المثال : في قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » يقول القرطبي : وقال أبو عمرو الداني : وقرأ بعضهم مائة « بالنصب على تقدير أنبتت مائة حبة » . ثم هتب القرطبي بقوله : قلت : وقال يعقوب الحضرمي : وقرأ بعضهم « في كل سنبلة مائة حبة » على أنبتت مائة حبة وكذلك قرأ بعضهم « ولذين كفروا بربهم عذاب جهنم » على « وأهتدنا لهم عذاب السمير » « وأهتدنا للذين كفروا عذاب جهنم » (١) .

مصادر القرطبي من كتب الحديث :

ذكر القرطبي في تفسيره ثروة ضخمة من الأحاديث النبوية الشريفة ، واستشهد بها لأغراض مختلفة . وكان القرطبي يشتمل في ذلك على كثير من المصنفات الحديثية ومن هذه المصنفات : « الجامع الصحيح » للإمام « أبي عبد الله

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٤ آية ٢٦١ من سورة البقرة ،
والآيات الأخيرة من سورة طه آية ٥ ، ٦ . ويوجد من جامع البيان نسخة
ميكروفيلم بدار الكتب برقم ٤٦٧٦ . أما الكتابان الآخران فخطوط بالناصرة

محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

« المسند الصحيح » للإمام « أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى
المتوفى سنة ٢٦١ هـ .

« سنن الإمام أبى داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني
المتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

« سنن الإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى . المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (١) »

« سنن الإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى . المتوفى سنة
٣٠٣ هـ .

« سنن الإمام أبى الحسن على بن عمر الفارقطى . المتوفى سنة ٣٨٥ هـ »

« سنن الإمام محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى . المتوفى سنة ٢٧٣ هـ »

« مسند الإمام أحمد بن حنبل . المتوفى سنة ٢٤١ هـ »

« مسند الإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفارصى . المتوفى سنة
٢٥٥ هـ »

« مسند الإمام هبان بن أبى شيبه المتوفى سنة ٢٣٩ هـ »

« مسند الإمام أبى بكر أحمد بن عمر البصرى البزاز . المتوفى سنة
٢٩٢ هـ »

« صحيح الإمام أبى حاتم محمد بن حبان النخعى البسى . المتوفى سنة
٣٥٤ هـ .

(١) اشتهر هذا الكتاب باسم جامع الترمذى . ويقال له السنن أيضاً . ولكن الاول هو الاكثر على ما ذكره صاحب كشف الظنون ١ — ٢٨٨ . انظر الحديث والمحدثون لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ٤١٠ .

وفوق هذا أفاد القرطبي من للمصنفات الحديثية التي جمعت بين الكتب
الصحيح أو بين بعضها . فنقل عن كتاب : «التجريد في الجمع بين
الصحيح (١) للإمام أبي الحسن أحمد بن رزين العبدري . المتوفى سنة ٥٣٥هـ .
ونقل عن كتاب : «الجمع بين الصحيحين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي نصر
الحيدري الأندلسي . المتوفى سنة ٤٨٨هـ . ونقل عن كتاب : «الجمع بين
الصحيحين للإمام محمد بن عبد الحق الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٢هـ (٢) .

ولاداعي أن نستطرد في ذكر الأمثلة والشواهد التي توضح إفادته من
كل هذه المصادر . فسرى كل هذا وأكثر منه في فصول الرسالة .

مصادر القرطبي من كتب الفقه :

أفاد القرطبي من كثير من المؤلفات الفقهية في مذهب الإمام مالك
ومن هذه المؤلفات : «موطأ الإمام مالك بن أنس» . إمام دار الهجرة المتوفى
سنة ١٧٩هـ (٣) . كتاب «اللمعة» «لسحنون بن سعيد» للتوفى
سنة ٢٤٠هـ . كتاب «الواضحة لميل للالك بن حبيب الأندلسي» للتوفى
سنة ٢٣٨هـ . كتاب «العنبيّة» لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العنبي
المتوفى سنة ٢٥٤هـ . وتسمى أيضاً «المتخرجة» لأن مؤلفها قد استخرجها

(١) الراد بالصحيح صحيح البخاري ومسلم . وموطأ مالك وسنن أبي داود والسائ
والترمذي . انظر الحديث والتحدثون ص ٤٣٠

(٢) يوجد من كتاب «الحيدري» أربعة أجزاء في أربعة مجلدات خطية بدار
الكتب رقم ٦٠٨ حديث . ويوجد من كتاب ابن عبد الحق نسخة في مجلدين رقم
٧١٣ حديث .

(٣) ليس للموطأ كتاباً حديثاً فقط وإنما هو كتاب فقه وحديث وأخطأ من تصره
على أحداً .

من « الواضحة » . ولقد طمن في نقل « المستخرجة » لفقه المالكي كثيرون
حاصروا مؤلفها . فقد قال « محمد بن هبيل الحكم » : رأيت جُلها كذباً
ومسائل لا أصول لها . وقال « ابن لبابة » : كثرت فيها الروايات المطروحة
والمسائل الشاذة . وقال غيره : في المستخرجة خطأ كثير (١) .

كتاب « الموازنة » لـ محمد بن إبراهيم بن زياد المعروف بابن المراز
المتوفى سنة ٢٦٩ هـ . وهو كتاب جليل رجحه كثير من العلماء على سائر
الأمهات . لا من حيث النقل والرواية « فالمدونة » لا ينازعها كتاب في ذلك
وإنما من حيث ما تحويه من رد للفروع إلى أصولها التي بنيت عليها (٢) .

كتاب « التفرع في مسائل الفقه » « لأبي قاسم بن جلاب » المتوفى
سنة ٣٧٨ هـ . كتاب « الإشراف على مذاهب أهل العلم في الاجتماع
والاختلاف » لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى
سنة ٣٠٩ هـ (٣) .

ولاداعي أن نستطرد أيضاً في ذكر الأمثلة والشواهد التي توضح إحداه
من هذه المصادر . فنرى كل هذا وأكثر منه فيما يأتي .

كنك أفاذ القرطبي في عرضه لفقه ومذاهب الفقهاء من كتب أحاديث
الأحكام وشروح « الموطأ » ومنه « كتاب الاستذكار » . لحافظ أبي عمر

(١) مالك . لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٥٧ . وانظر الديباج للذهب

ص ٢٣٩

(٢) أنظر مالك ص ٢٦٢ .

(٣) يوجد من كتاب « التفرع » نسخة خطية بدار الكتب برقم ٢٩٥ هـ
مالك . ويوجد منه كتاب الصلاة ببلدية الاسكندرية برقم ٩٥ هـ مالك . ويوجد من
كتاب « الإشراف » الجزء الثالث برقم ٢٠ هـ مالك بدار الكتب .

ابن هبـد البر القرطبي « المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . فقد قال القرطبي في قوله تعالى :
 « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاهتزوا النساء في المحيض » الآية :
 « واختلفوا في الذي يأتي امرأته وهي حائض فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة :
 يستغفر الله ولا شيء عليه . وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد . وبه قال
 داود . وروى عن محمد بن الحسن : يتصدق بنصف دينار . وقال أحمد :
 ما أحسن حديث عبد الحميد عن مفسم عن ابن عباس عن النبي
 صلى الله عليه وسلم « يتصدق بدینار أو بنصف دينار ^(١) » أخرجه أبو داود
 وقال : هكذا الرواية الصحيحة قال : دينار أو نصف دينار .

واستحبَّ الطبري فإن لم يفضل فلا شيء عليه . وهو قول الشافعي ببغداد .
 وقالت فرقة من أهل الحديث : إن وطئ في الدم فعليه دينار . وإن وطئ
 في انقطاعه فعليه نصف دينار . وقال الأوزاعي : من وطئ امرأته وهي
 حائض تصدق بخمس دينار . والطرق لهذا كله في سنن أبي داود ، والدارقطني
 وغيرهما . وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : « إذا كان دماً أحمر فدينار وإن كان دماً أصغر فنصف دينار » ^(٢)
 ثم قال القرطبي : قال أبو عمر حجة من لم يوجب عليه كفارة إلا الاستغفار
 والثبوت هي اضطراب هذا الحديث عن ابن عباس ، وأن مثله لا تقوم به حجة .
 وأن القدم على البراءة . ولا يجب أن يثبت فيها شيء لمسكين ولا غيره
 إلا بدليل لا مدفع فيه ولا مطن عليه وذلك معصوم في هذه المسألة ^(٣) .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده عن ابن عباس ح ٣ من ١٣٢ وأخرجه
 أبو داود عنه أيضاً ح ١ من ٧٠ .

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس في باب ما جاء في صحفارة إيمان الحائض ح ١

من ٢١٨

(٣) تفسير القرطبي ح ٣ من ٨٧ آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

ولقد نقل القرطبي هذا النص كله عن «ابن عبد البر» . ولكنه لم يحدد لنا من أى كتاب نقله عن «ابن عبد البر» . فقولنا «ابن عبد البر» كثيرة ولكننى لم ارجعت إلى كتاب «الاستذكار» وجدت هذا النص بعينه مع تصرف بسيط^(١) .

وفي المسألة الرابعة من الآية السابقة يقول القرطبي : «واختلف العلماء في مقدار الحيض . فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجائز أن يكون خمسة عشر يوماً فإدون . وما زاد على خمسة عشر يوماً لا يكون حيضاً . وإنما هو استحاضة . هذا مذهب مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك أنه قال : لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء . فإنه في القول الأول ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوماً . وهو اختيار أكثر البغداديين من المالكيين ، وهو قول الشافعي ، وأبى حنيفة ، وأصحابهما والثوري . وهو الصحيح في الباب . لأن الله تعالى قد جعل هذه ذوات الأقراء ثلاث حيض وجعل هذه من لا حيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر . فكان كل قرء هوذاً من شهر . والشهر يجمع الطهر والحيض . فإذا قل الحيض أكثر الطهر . وإذا أكثر الحيض قل الطهر . فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوماً ، وجب أن يكون بإزائه أقل الطهر خمسة عشر يوماً . ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف في الأهل من خلفه النساء وجبلتهن مع دلائل القرآن والسنة . وقال الشافعي أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً . وقد روى عنه مثل قول

(١) راجع كتاب الاستذكار نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٤ حديث ح ١

مالك إن ذلك مردود إلى حُرْف النساء . وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقل الحيض ثلاثة أيام . وأكثره عشرة . قال « ابن عبد البر » ما نقص عنده هؤلاء من ثلاثة أيام فهو استحاضة . لا يمنع من الصلاة إلا عند أول ظهوره . لأنه لا يعلم مبلغ مدته . ثم على المرأة قضاء صلاة تلك الأوقات وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين . وعند الحجازيين ما زاد على خمسة عشر يوماً فهو استحاضة . وما كان أقل من يوم وليلة عند الشافعي فهو استحاضة وهو قول الأوزاعي والعلبري (١) .

وهذه عبارة « ابن عبد البر » في كتاب « الاستذكار » يقول في باب المستحاضة : « وقد اختلف العلماء في ذلك — أى في مقدار الحيض — فأما فقهاء أهل المدينة فيقولون : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجائز عندهم أن يكون خمسة عشر يوماً فادون . فما زاد على خمسة عشر يوماً . فلا يكون حيضاً وإنما هو استحاضة وهو دم الميرق المنقطع . وهذا مذهب مالك وأصحابه في الجملة . وقد روى عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء . وأكثر ما يلفه أنه وجد في النساء خمسة عشر يوماً . والدقة عنده من الدم حيض تمنع من الصلاة . ولكن الدقة وما كان مثلاً لا تحسب قرءاً في المدة . هذه رواية ابن القاسم وأكثر المصريين والمدينين عنه . وقال ابن الماجشون عنه : أقل الحيض خمسة أيام وأقل الطهر خمسة أيام وهو قول عبد الملك بن الماجشون . قال أبو عمر : أما أقل الطهر فقد اضطرب فيه قول مالك وأصحابه . فروى ابن القاسم عنه عشرة أيام وروى عنه أيضاً أقل الطهر ثمانية أيام . وهو قول سمعون . وقال

عبد الملك بن الماجشون : أقل الطهر خمسة أيام ورواه عن مالك . وإلى هذه الرواية مال بعض البغداديين من المالكيين . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوما وهو اختيار أكثر^(١) البغداديين من المالكيين وهو قول للشافعي ، وأبي حنيفة ، وأصحابهما ، والثوري وهو الصحيح . لأن الله تعالى جعل عدة من لا تحيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر فكان كل قرء عوضا عن شهر ، والشهر يجمع الطهر والحيض . فإذا قل الحيض كثر الطهر ، وإذا كثر الطهر قل الحيض . فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوما وجب أن يكون الطهر خمسة عشر يوما . ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف في الأغلب من خلقه النساء . وجبت من^(٢) مع دلائل القرآن والسنة على ما ذكرنا .

وقال محمد بن مسلمة : أكثره خمسة عشر يوما وأقله ثلاثة أيام وقال الشافعي : أقل الحيض يوم وليلة وأكثره^(٣) خمسة عشر يوما ، وقد روى عنه مثل قول مالك : إن ذلك مردود إلى عرف النساء ... وقال الثوري وأبو حنيفة — أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره^(٤) — عشرة أيام ثم قال ابن عبد البر قال أبو عمر : ما نرى عند هؤلاء من ثلاثة أيام فهو استحاضة . لا يمنع من الصلاة — إلا عند أول^(٥) — ظهوره لأنه لا يعلم مبلغ مدته ثم على المرأة قضاء تلك الأوقات — وكذلك ما زاد على^(٦) عشرة

-
- (١) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي
 (٢) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٣) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٤) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٥) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٦) بيان بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .

أيام هند الكوفيين . وهند الحجازيين مازاد على خمسة عشر يوما فهو استحاضة . وأما الشافعي والأوزاعي فما كان أقل من يوم وليته فهو استحاضة وهو قول الطبري (١) .

وكان القرطبي ينقل عن كتاب « الاستذكار » بدون إشارة إلى الكتاب أو المؤلف . ففي المسألة الماثرة في الآية السابقة يقول : قوله تعالى « فإذا تطهرن » يعنى بالماء . وإليه ذهب مالك وجهور العلماء . وأن الطهر الذي يحل به جماع الحائض التي يذهب منها الدم هو تطهرها بالماء كطهر الجنب ولا يجزئ من ذلك تيمم ولا غيره . وبه قال مالك ، والشافعي ، والطبري ، ومحمد بن مسلمة ، وأهل المدينة وغيرهم ، وقال يحيى بن بكير ومحمد بن كعب القرظي . إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لاماء . حلت لزوجها وإن لم تغتسل ، وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تنوضأ ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ، ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جازله أن يطأها قبل الغسل . وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل . أو يدخل عيها وقت الصلاة : وهذا تحكم لا وجه له وقد حكموا للحائض بعد انقطاع دمها بحكم الحبس في المدة وقالوا لزوجها عليها الرجعة ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة فعلى قياس قولهم هذا لا يجب أن توطأ حتى تغتسل مع موافقة أهل المدينة (٢)

فلقد تأثر « القرطبي » في هذا النص بكتاب « الاستذكار » ونقل عنه

(١) الاستذكار ح ١ ورقة ٥٥

(٢) تفسير القرطبي ح ٣٨٨ وما بعدها . ولعل صحة العبارة لا يجوز أن توطأ حتى تغتسل . فإن الخلاف في جواز الوطء قبل الغسل لا في وجوبه .

ولم يشر إليه ولا إلى صاحب هذه عبارة «الاستنكار» . يقول «ابن عبد البر» بعد كلامه السابق: واختاف ... العلماء في وطء الحائض - (١) بعد الطهر من الحيض وقبل الاغتسال فقال مالك وأثر أهل المدينة : إذا انقطع دمها لا تحل لزوجها ما لم (٢) تغتسل وبه قال الشافعي ، والطبري ، ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة ، وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى (٣) عشرة أيام كان له أن يطأها قبل الغسل وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجوز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة (٤) .

وقال أبو عمر .. وهذا تحكم لوجهه وقد حكموا للحائض بعد - انقطاع دمها بحكم الحبس في العدة وقالوا - (٥) لزوجها عليها الرجعة ما لم تغتسل فلي قياس قولهم هذا - لا يجب أن توطأ حتى تغتسل (٦) - مع موافقة أهل الحديث .

وفي قوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً» (٧) يقول في المسألة السابعة عشرة «ذهب مالك والشافعي : إلى أن لا إحداد هل مطلقه رجعية كانت أو بائية . وأحسنه أو أكثر . وهو قول ربيعة وعطاء . وذهب الكوفيون أبو حنيفة وأصحابه والثوري ، والحسن بن حي وأبو ثور ، وأبو حنيفة - إلى أن المطلقة ثلاثاً

(١) بياض وهذه الزيادة يقتضيها السياق

(٢) » » » » » (٢)

(٣) بياض وهذه الزيادة من تفسير القرطبي

(٤) بياض وهذه الزيادة من تفسير القرطبي

(٥) » » » » » (٥)

(٦) » » » » » (٦)

(٧) آية ٢٢٤ من سورة البقرة

عليها الإحداد . وهو قول سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة قال الحكم : هو عليها أوكد . وأشد منه على المتوفى عنها زوجها . ومن جهة المعنى أنها جميعاً في عدة يحفظ بها النسب وقال الشافعي وأحمد وإسحاق : الاحتياط أن تنق المعلقة الزينة : قال ابن المنذر وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا يهل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تصعد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » (١) . دليل على أن المعلقة ثلاثاً والمطلق حتى لا إحداث عليها (٢)

في هذا النص تأثر القرطبي « بابن عبد البر » ونقل عنه عبارته . فقد قال ابن عبد البر تحت عنوان « باب ما جاء في الإحداد »

أجمع مالك وأصحابه أن لا إحداث على المعلقة . وهو قول ربيعة وهمام والحجة لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يهل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تصعد على ميت إلا على زوج » فأخبر أن الإحداد هو على المتوفى ، والمطلق حتى فلا إحداث على امرأته . وقال أبو حنيفة ، وأصحابه ، والثوري والحسن بن حي : الإحداد على المعلقة واجب . وهي والمتوفى عنها في ذلك سواء . لأنها جميعاً في عدة يحفظ فيها النسب . وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة ، وقال الحكم : هو عليها أوكد وأشد منه على المتوفى عنها زوجها .

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أم حبيبة . باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة . ج ١ ص ١١١ . والإحداد والإحداد مشتق من الحد . وهو المنع لأنها تنزع الزينة والطيب يقال أحدث المرأة تحد إحداثاً وحلت تحد يضم الحاء وتحده بكمزها حدا .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٢

وبهذا قال أبو ثور وأبو هيب . وقال الشافعي : أحب للمطلة المبتوتة
الإحداد ولايين لي أن أوجب عليها (١)

كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » . لابن عبد البر

القرطبي :

لقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب وتأثر به . ففي قوله تعالى
« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي في
المسألة الثانية عشرة :

وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين : فالذي عليه الجمهور
أن ذلك من السنن المؤكدة . ويجب على من أدام التخلّف عنها من غير
عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية : قال ابن
عبد البر . وهذا قول صحيح . لاجتماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل
للساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة في المسجد . فصلاة المنفرد
في بيته جائزة . يقول عليه السلام « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد (٢)
بسبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر (٣) . ولقد نقل
القرطبي هذا النص من كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد »
« لابن عبد البر القرطبي » ببعض تصرف وهذه عبارة التمهيد . يقول
ابن عبد البر :

(١) الاستذكار ج ١ ص ١٠٣

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي « باب فضل صلاة الجماعة » ج ٥ ص ١٥٢
ولقد جمع العلماء بين رواية سبع وعشرين ورواية « خمس وعشرين » بأن ذلك
الاختلاف مرجعه إلى قرب للسجد ويده . وقالوا غير هذا انظر « المنتح الرباني »

ج ٥ ص ١٦٢

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٤٨ .

« وقد أوجها جماعة من أهل العلم . فرضاً على المسكين . وهو قول حسن صحيح لاجتماعهم على أنه لا يجوز تعطيل للمسجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة للنفرد في بيته جائزة لقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة » (١)

ففي هذا الحديث جواز صلاة للنفرد ، وإظهار بأن صلاة الجماعة أفضل . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا وجد أحدكم الغائط فليبدأ به قبل الصلاة » (٢) وقال « إذا حضرت الصلاة والمساء فابدأوا بالمساء » (٣) وقال « ألا صلوا في الرحال في المطر » (٤) وهذه الآثار كلها تدل على أن الجماعة ليست فريضة وإنما هي فضيلة . (٥)

وفي قوله تعالى « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » (٦) .

يقول القرطبي في المسألة السابعة :

« ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : إلى أنه لا يجوز الانتفاع

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة باختلاف يسير « باب فضل صلاة الجماعة » ح ٥ ص ١٥٦ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم بمناه عن عائشة ح ٥ ص ٤٦ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن « أنس بن مالك » « باب ذكر هذه الصلاة بمحضرة الطعام الذي يريد أكله » ح ٥ ص ٤٥ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن ابن عمر « باب الصلاة في الرحال في المطر » ح ٥ ص ٢٠٥ والرحال : المنازل أي كانت . واحدها رحل .

(٥) التمهيد نسخة خطية رقم ٣١٥ ح ٢ ورقة ٩٥ .

(٦) آية ٨٠ من سورة النحل .

يجلود الميتة في شيء . وإن ديفت . لأنها ك لحم للميتة ، والأخبار بالانتفاع بعد
الديباغ ترد قوله . واحتج بحديث عبد الله بن حكيم — رواه أبو داود —
قال قرىء هابينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام
شاب « ألا تستمتوا من الميتة بإهاب ولا عصب » وفي رواية . قبل موته
بشهر . رواه القاسم بن مخيمر عن عبد الله بن حكيم قال : حدثنا مشيخة لنا
أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم : قال داود بن علي : سألت يحيى
بن معين عن هذا الحديث فضمته . وقال ليس بشيء . إنما يقول حديثي
الاشياخ ثم قال : قال أبو عمرو ولو كان ثابتا لاحتمل أن يكون مخالفاً للأحاديث
المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن الحبيب وغيرهم (١) لأنه جائز أن
يكون معنى حديث ابن حكيم « ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب قبل الديباغ وإذا

(١) حديث ابن عباس هو ما روى عن عبد الرحمن بن وهبة عن ابن
عباس رضي الله عنهما قال : قلت له إنما نفزو فيؤتى بالاهاب والأسقية ،
قال : ما أدري ما أقول لك إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول « أيما إهاب دبت فنهط طهر » وهذا الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود
والنسائي وابن ماجه .

وحديث عائشة . هو ما روى عنها أنها قالت . سئل رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن جلود الميتة ؟ فقال : « دباغها طهرها » وهذا الحديث أخرجه
مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني في معجمه
والبيهقي في سننه وحديث سلمة بن الحبيب . هو ما روى عن سلمة بن الحبيب
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر ببית بفناءه —
بسكر الغاء وهو المذبح أمام الدار — قرية معلقة فاستسقى : فقيل : إنما ميتة =

احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجعله مخالفاً . وهائنا أن نستعمل الخبرين ما أمكن . وحديث عبد الله بن حكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر . فيمكن أن تكون قصة ميمونة . وسامع ابن عباس منه « أيما إهاب دبح فقد طهر » قبل موته بحجة ، والله أعلم (١) .

ولقد نقل القرطبي هذا النص عن كتاب التمهيد أيضاً (٢) .

== فقال: « ذكاة الأديم دباخه » . وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي في السنن . وابن حبان .

وحديث ميمونة المشار إليه في آخر كلام القرطبي . هو ما روى عن ابن عباس عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة لمولاة ميمونة ميتة فقال . « ألا خذوا إهابها فادفئوه فأنثفخوا به » ؟ فقالوا : يا رسول الله إنها ميتة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنما حرم أكلها » وهذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وسأتمت في الباب الثالث من هذه الرسالة عن حديث « عبد الله بن حكيم »

انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد ابن حنبل الشافعي .
للاستاذ الساعاتي ح ١ ص ٢٣٠

(١) تفسير القرطبي ح ١٠ ص ١٥٧

(٢) راجع كتاب التمهيد ح ورقة ٢٧ وما بعدها

ولقد اُتِل «القرطبي» من ابن «عبد البر». من كتاب «التهديد». ولم يشر إليه ونستطيع أن نلح ذلك إذا قارنا بين ما ذكره القرطبي في قوله تعالى «يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة» الآية في المسألة الثانية حشرة وبين ما ذكره ابن عبد البر. (١)

«كتاب الأحكام الصغرى»

وأفاد القرطبي من كتاب «الأحكام الصغرى» لأبي محمد عبد الحق الاشبيلي المعروف بابن الخراط «والتوفى سنة ٥٥٨٢هـ.

ففي قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» يقول القرطبي وهو يتحدث عن صلاة الجماعة وآراء العلماء فيها. وقال الشافعي لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر. حكاه ابن المنذر، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعشى فقال يا رسول الله: إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد. فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته. فرخص له. فلما ولى دعاه فقال «هل سمع النداء بالصلاة» قال نعم، قال «فأجب» (٢) وقال أبو داود في هذا الحديث «لا أجد لك رخصة» أخرجه من حديث ابن أم مكتوم وذكر أنه كان هو السائل. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر قالوا وما العذر؟ قال من «خوف أو مرض لم يقبل منه الصلاة التي صلى» (٣) ثم قال القرطبي:

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٩٠ وما بعدها وانظر التهديد ج ٢ ورقة ٣.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب فضل صلاة الجماعة والتشديد في التخلف عنها ج ٥ ص ١٥٥.

(٣) قال الترمذي في باب فضل صلاة الجماعة: وقد روى عن غير واحد من أصحابي النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا: من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له. ثم قال: وقال بعض أهل العلم هذا على التغليب والتشديد ولا رخصة لأحد في ترك الجماعة إلا من عذر. انظر صحيح الترمذي بفتح ابن العربي ج ٢ ص ١٧ وما بعده.

« قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مفراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس » من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له « على أن قاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضى قال : حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سميد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من هجر » وحسبك بهذا الإسناد صحة ، ومفراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق » وقال عليه السلام « بينا وبين المنافقين شهود المنة والصبح ^(١) ولا يستطيعونهما » ^(٢)

« ولأبى محمد عبد الحق الأشيبلى « ثلاثة كتب ، تناول فى كل كتاب مجموعة من أحاديث الأحكام . وهذه الكتب هى :

« الأحكام الكبرى » ويوجد منها الجزء الثانى فى مجلد خطى تحت رقم ٧١٣ « حديث الأحكام الوسطى » ويوجد منها الجزء الثانى فى مجلد خطى تحت رقم ٣٦ حديث ، بالدار ، « الأحكام الصغرى » ويوجد منها نسخة خطية بدار الكتب وتقع فى مجلدين تحت رقم ١٣١٤ حديث . ولقد بحثت عن هذا النص كثيراً وأخيراً عثرت عليه فى كتاب الأحكام الصغرى .

كتاب « المنتقى » : « لأبى الوليد الباجى » :

لقد أفاد القرطبى من كتاب المنتقى وتأثر به . فى قوله تعالى « العلاق .

(١) أخرجه مسلم بمعناه عن أبى هريرة باب نفل صلاة الجاهة والتشديد فى التخلف
هنا ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) انظر الأحكام الصغرى نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٣١٤ حديث وهى نسخة
غير مرقومة .

مرتان ، ذكر في المسألة الخامسة حكم الطلاق الثلاث وآراء العلماء فيه . وأن الجمهور على أنه يقع ثلاثاً . وأن بعض العلماء خالف ذلك وقالوا : إنه لا يلزم مطلقاً . وقال فريق آخر أنه يقع واحدة ثم قال : « وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاستدل بأحاديث ثلاثة . أحدها حديث ابن عباس من رواية طاوس وأبي الصبها وعكرمة ، وثانيها حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلق امرأته ثلاثاً وأنه عليه السلام أمره برجعتها واحتسبت له واحدة . وثالثها : أن ركعة طلق امرأته ثلاثاً : فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجعتها (١) والرجعة تقتضي وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوي أن سعيد بن جبيرة ومجاهد وعطاء وعمر بن دينار ومالك بن الحويرث ومحمد بن إياس بن البكير والنعمان بن أبي عباس رويوا عن ابن عباس فيمن طلق امرأته ثلاثاً أنه قد عصى ربه . وبانت منه امرأته . ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيما رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس مما يوافق الجماعة ما يدل على وهدن رواية طاوس وغيره . وما كان ابن عباس ليخالف الصحابة إلى رأى نفسه . قال

(١) حديث ابن عباس هو ما روى عنه أنه قال : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وسياً في هذا النص .

وهذا الحديث أخرجه مسلم ببسائه في باب طلاق الثلاث ح ١٠ ص ٧١ حديث ركعة . أخرجه أبو داود والدارقطني وقال أبو داود : هذا حديث حسن صحيح . وفي الترمذي : أن ركعة . طلق امرأته ألبتة . وقال عنه لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال المنذرى في إسناده الزهير بن سعيد الهامشي وقد ضحقه غير واحد . وذكر الترمذي أيضاً عن البيهقي أنه يضرب : تارة قيل فيه ثلاثاً وتارة قيل فيه مرة واحدة . وأصح أنه طلقها ألبتة .

حديث ابن عمر : أخرجه مسلم عن ابن سيرين . ورغم أن الراوى مكة هجرين سنة يمتد أن ابن عمر طلق امرأته ثلاثاً . فإنه نفي ذلك وأكد أن ابن عمر طلق امرأته تطليقة واحدة وهي حائض .

انظر صحيح مسلم بفتح اللوى ح ١٠ ص ٦٢

وانظر فيما تقدم « الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني » .
كتاب الطلاق ح ١٧

ابن عبد البر : ورواية طاوس وم وغلط لم يمرج هليها أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق والمشرق والمغرب . وقد قيل إن أبا الصهباء لا يعرف في موالى ابن عباس . ثم قال : قال القاضي أبو الوليد الباجي . وهندي أن الرواية عن ابن طاوس بذلك صحيحة . فقد روى عنه الأئمة معمر وابن جريج وغيرهما . وابن طاوس إمام الحديث الذي يشيرون إليه هو ماروام ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر رضى الله عنه : إن الناس قد استمجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه هليهم ، فأمضاه هليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلقة واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات ، ويدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد استمجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فأنكر هليهم أن أحدثوا في الطلاق استمجالاً . أمر كانت لهم فيه أناة فلو كان حالهم ذلك في أول الإسلام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ماقاله ، ولا عاب هليهم أنهم استمجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة . ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابن عباس من غير طريق أنه أقي بلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها بجمعة . فان كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذي قلناه . وإن حل حديث ابن عباس على ما يتأول فيه من لا يبعأ بقوله . فقد رجع ابن عباس إلى قول الجماعة وأنتد به الاجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا الطلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه أصل ذلك إذا أوقعه مفرداً . (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٩ آية ٢٢٩ من سورة البقرة .
كالتد طبع كتاب « المنتقى » بالناصرة .

وفي قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية ، يقول القرطبي في المسألة الثالثة عشرة مينا حكم من قبل في الصوم فأُزيل . هل تجب عليه الكفارة مع القضاء أم لا ؟ يقول : لا يخلو أن يكون قبل قبلة واحدة فأُزيل . أو قبل فالتد فساود فأُزيل . فإن كان قبل قبلة واحدة أو بأشهر أو لمس مرة فقال أشهب وسحنون لا كفارة عليه حتى يكرر . وقال ابن القاسم يكفر في ذلك كله إلا في النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر . ومن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو بأشهر أو لاهب امرأته أو جامع دون الفرج فأُمي . الحسن البصري وهما وابن المبارك وأبو ثور وإسحاق . وهو قول مالك في المدونة وحجة قول أشهب أن اللبس والقبلة والمباشرة ليست تقطر في نفسها . وإنما يبقى أن نزول إلى الأمر الذي يقع به الفطر . فإذا فعل مرة واحدة لم يقصد الإنزال وإفساد الصوم فلا كفارة عليه ، كالنظرة اليها . وإذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر قال اللخمي :

« وافق جميعهم في الإنزال من النظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع . »
وعتب القرطبي حل هذا القول بما نقله عن الباجي فقال :

« قلت : ما حكمه من الاتفاق في النظر وجهه أصلا ليس كذلك . فقد حكى الباجي في المنتقى : فإن نظر نظرة واحدة يقصد بها اللذة فأُزيل . فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال الباجي وهو الصحيح هندی ، لأنه إذا قصد بها الاستمتاع كانت كالقبلة وغير ذلك من أنواع الاستمتاع والله أعلم . (١) »

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٤ آية ١٨٧ من سورة البقرة .

مصادر القرطبي من كتب اللغة والنحو :

أفاد القرطبي في تفسيره من كثير من المصادر اللغوية والنحوية . ومن المصادر اللغوية التي أفاد منها :

« كتاب المجمل لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ »

وكتاب مقاييس اللغة له أيضاً .

ففي قوله تعالى « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » (١) بين القرطبي أن الصبغة قد يراد بها الاغتسال . فقال : « وقيل أن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الاسلام بدلا من معمودية النصراني ذكره الماوردي ... » ثم قال القرطبي مشيراً إلى نقله عن كتاب المجمل . وقيل : إن القرية إلى الله تعالى يقال لها صبغة حكاه ابن فارس في المجمل (٢) »

وفي قوله تعالى « فان أحصرتم فما استيسر من الهدي » (٣) . بين أن ابن العربي حدد المانع في الآية بأنه المدو . وأنه قال هذا هو اختيار هلمثنا . وناقش القرطبي ابن العربي فقال : « قلت ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار هلمثنا لم يقل به إلا أشهب وحده . وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا . وقالوا : الاحصار إنما هو المرض . وأما المدو فلإنما يقال فيه حصر حصر فهو محصور . قاله الباجي في المنائق . وحكى أبو إسماعيل الزجاج

(١) آية ٦٠ من سورة البقرة . وكتاب المجمل مطبوع بالقاهرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) آية ١٩٦ من سورة البقرة .

أنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال أبو هيبدة والكسائي : أحصر بالمرض
وحصر بالمدو . »

ثم بين أن ابن فارس خالف أكثر أهل اللغة فقال : وفي المجمل لأبن
فارس على المكس فحصر بالمرض وأحصر بالمدو (١) .

وفي قوله تعالى « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم » (٢) يقول القرطبي
« السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع » ثم قال : قال ابن فارس
سجد إذا تطامن . وكل ما سجد فقد ذل والإسجد إدامة النظر . قال
أبو عمر وأسجد إذا طأطأ رأسه . قال :

فضول أزمتهما أسجدت سجود النصارى لأخبارها (٣)

قال أبو هيبدة : وأشدنى أهرابي من يئ أسد :

وقلن له اسجد ليلي فأسجد ..

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه (٤)

ولم يذكر القرطبي مصدره الذى نقل عنه هذا النص وهل هو « كتاب

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) آية ٣٤ من سورة البقرة

(٣) هو حيد بن نور وصف نساء يقول : اسأ او تخان ولوين فضول أزمه جاهلن
على معاصيهم أسجدت أى طأطأت رأسها لهن .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٩١ آية ٣٤ من سورة البقرة وانظر معانيهم للقبية

ج ٣ ص ١٢٣

المجلد أم كتاب مقاييس اللغة ٠٠٠ ولكنني وجدت هذا النص في كتاب
«مقاييس اللغة»

تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري : وهو أبو نصر اسماعيل بن حماد
الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ .

أعاد القرطبي من هذا الكتاب النفوس كثيراً . ففي قوله تعالى :
«الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» يقول القرطبي في المسألة العاشرة
الصلاة أصلها في اللغة البناء مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا ومنه قوله عليه
السلام «إذا دعى أحدكم (١) إلى طعام فليجب فإن كان منعراً فليعاصم وإن
كان صائماً فليصل» أي فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة
المعروفة فيصل ركعتين وينصرف والأول أشهر وعليه العلماء الأكثر ، ولما
ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت
أسماء : تم مسحه وصل عليه (٢) . أي دعا له . وقال تعالى «وصل عليهم» (٣)
أي ادع لهم وقل الأئمة :

تقول بنقي وقد قربت مرتجلاً يارب جنب أبي الأوصاب والوجما
عليك مثل القدي صليت فاغتمضي نوما فإن لجنب المرء مضطجما
وقال الأئمة أيضاً :

وقابلها الريح في ذنبا وصل دلى ذنبا وارتم

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة «باب الأمر بلجاجة الداهي إلى دهوة»
ج ٩ ص ٢٣٦
(٢) أخرجه مسلم باب (استنباط بحبك الولود عند ولادته) ج ١ ص ١٢٥
(٣) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

ارتسم الرجل كبير ودها . قاله في الصحاح^(١) . وفي قوله تعالى « قال إني أعلم ما لا تعلمون »^(٢) يقول « أعلم فيه تأويلان » قيل لأنه فعل مستقبل وقيل أنه اسم بمعنى فاعل كما يقال الله أكبر بمعنى كبير وكما قال :
لعمرك ما أدري وإني لأوجل حل أينما تمدو المنية أول^(٣)

فعل أنه فعل تكون « ما » في موضع نصب بأعلم . ويجوز إدغام الميم في الليم وإن جعلته اسماً بمعنى عالم تكون « ما » في موضع خفض بالإضافة
قال للمدوي يجوز أن تقدر التنوين في أعلم إذا قدرته بمعنى عالم . وتنعصب « ما » به فيكون مثل حواج بيت الله . قال الجوهري : وسوة حواج بيت الله بالإضافة إذا كن قد حجهن وإن لم يكن حجهن قلت حواج بيت الله . فتنعصب البيت لأنك تريد التنوين في حواج^(٤) .

وفي قوله تعالى « فليستجيبوا لي وليؤمنوا بك لعلمهم يرشدون »^(٥) . يقول « والزائد خلاف الفى . وقد رشد يرشد ورشداً . ورشد « بالكسر » يرشد رشداً لغة فيه . وأرشدته الله . والمرشد ، مقاصد المارقي ، والعاريق الأرشد نحو الأقصد ونقول : هو يرشده^(٦) خلاف قولك لزبية . وأم راشد ، كنية لفأرة وبنو رشدان بطن من العرب هن الجوهري وقال المروى : الرشد والرشد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٨ آية ٣ من سورة البقرة وانظر صحاح الجوهري ج ٢ ص ٥٠٥ والذين واحد الدنان .

(٢) آية ٢٠ من سورة البقرة .

(٣) التال هو ممن بن أوس كان له صديق وكان ممن متزوجاً بأخته فانفق أنه طلبها ونزوح غيرها فإلى صديقة ألا يكلمه أبداً فأنشأ ممن يستطاف قلبه ويستترقه له .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٨ .

(٥) آية ١٨٦ من سورة .

(٦) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها وانظر صحيح الجوهري ج ١ ص ٢٢٧

والرشاد . الهدى والاستقامة ومنه قوله « لملهم يرشدون » (١) .

ولقد ناقش القرطبي ابن فارس والجوهري وتعليقهما . ومن أمثلة ذلك
ما ذكره في قوله تعالى « وإذ استبقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر » (٢)
فقد قال في المسألة الرابعة :

« وقد يميز بالعصا عن الاجتماع والافتراق ومنه يقال في الخوارج : قد
شقوا عصا المسلمين أى اجتمعهم وائتلافهم ، واشتقت العصا أى وقع الخلاف
قال الشاعر :

إذا كانت الميخاء واشتقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم لا ترفع عصاك عن أهلك يراد به
الأدب ، والحجر معروف وقياس جمه فى أدنى المدد أحجار وفى الكثير حجار ،
وحجارة ، والحجارة نادر وهو كقولنا : جل وجهالة وذكر وذكرة . كذا قال
ابن فارس والجوهري وهنّب القرطبي على قولهما بقوله :

قلت: وفى القرآن فهى كالحجارة « وإن من الحجارة » (٣) « قل كونوا
حجارة » (٤) « ترميهم بحجارة » (٥) « وأمطرنا عليهم حجارة » (٦) فكيف

(١) ورشدة بكسر الراء وقد تفتح ومنه إذا كان لتسكاح صحيح .

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة .

(٣) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٤) آية ٥٠ من سورة الانراء .

(٥) آية ٤ من سورة الليل .

(٦) آية ٨٢ من سورة هود .

يكون نادراً إلا أن يريد أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال نصيب والله أعلم (١).

مصادر القرطبي من كتب النحو :

من أبرز المصادر النحوية التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره :

« الكتاب لسيبويه » وهو « أبو بشر عمرو بن قنبر » المتوفى سنة ١٨٨ هـ ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » فقد قال :

« والكاف في « كما » نعت لمصدر محذوف « وما » مصدرية أو كافة ، والمعنى : اذكروه ذكراً . صمناً كما هلككم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه « وإن » مخففة من الثقيلة يدل على ذلك دخول اللام في الخبر قاله سيبويه (٢) .
وفي قوله تعالى « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » يقول :

« سميت الزيادة بالساعة لسرعة الحساب فيها » ومعنى « بغتة » فجأة يقال : يفتهم الأمر بيقظهم بغتاً وبغتة . وهي نصب على الحال وهي عند سيبويه مصدر في موضع الحال كما تقول : قتلته صبراً . وتقدير الحال عند سيبويه مفاجأة فالمصدر عند سيبويه لا يكون صالحاً إلا بعد التساويل وذلك لأن حق الحال أن يكون وصفاً وهو ما دل على معنى وصاحبه كقائمه وحسن ، شرح الأشموني ج ١ ص ٢٤٥ .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٢٧ آية ١٩٨ من سورة البقرة .

وأشد :

فلاناً بلأى ما خلطنا وليدنا على ظهر محبوبك غلام مقاصله (١)

« كتاب المنتخب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ هـ
لقد نقل القرطبي عن « أبي العباس المبرد » وأعاد منه ومن كتابه هذا .
ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أو لم
تنذرهم لا يؤمنون » فقد قال القرطبي قوله تعالى « لا يؤمنون » موضعه رفع
خبر « إن » أى إن الذين كفروا لا يؤمنون وقيل : خبر إن « سواء » وما
يمده يقوم مقام الصلة ، قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : « سواء » . رفعه بالابتداء
« أأنذرتهم أم لم تنذرهم » (أى من الربط والتفصيل) الخبر والجملة خبر إن (٢) .

وفى قوله تعالى « وأخر متشابهاً » يقول القرطبي : لم تصرف « آخر »
لأنها عدلت عن الألف واللام لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالذكر
والصفر فلما عدلت عن مجرى الألف واللام أى والاخر منعت الصرف . أبو عبيد
لم يصرفوها لأن واحدها أى أخرى لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد
وقال : يجب على هذا ألا ينصرف فعاب وعطش . الكسائى : لم تنصرف
لأنها صفة وأنكره المبرد أيضاً وقال : إن لبدا وحطما صفتان وهما نصرتان (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٢٤ آية ٣١ من سورة الانعام والبيت لزهير بن أبي سلمى
والشاهد فيه قوله « لا يابلاى » ونصبه على المصدر للوضوح فى موضع الحال والتقدير جلتنا
وليدينا مبطلين . وصف فرساً بالنشاط وشدة الخلق فيقول : إذا جلتنا الغلام عليه ليسيد
امتنع لنشاطه فلم تمعه إلا بعد إبطاء وجهه واللاى : الإبطاء ، والمجبرك . للتدديد الحاق
والطاء هنا التأييد الاسم وهو المحمود منها . وأميل اللام إلى العطش .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٤ آية ٦ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٣ آية ٧ من سورة آل عمران . وكتاب المنتخب

وأمّهما اعطف إثر همز النسوية أو همزة من لفظ أى غنية
نفضيان مفرد غضاب وهو غير منصرف وكذلك عطشان مة عطاش
وهو غير منصرف لأنهما مزيدان بالالف واللام . في حين أن غضاب وعطاش
مصرفان .

مصادر القرطبي من كتب التوحيد :

« كتب أبي بكر بن الطيب » :

« لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني » المتوفى سنة ٤٠٣ هـ عدة مؤلفات
في العقيدة الأشعرية أفاد منها القرطبي . ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك .

كذلك أفاد القرطبي في التوحيد « كتب أبي المعالي عبيد الملك
ابن عبد الله الحويني إمام الحرمین المتوفى سنة ٤٧٨ هـ » ومن أمثلة ذلك : قوله
تعالى : « وإذ قال ربك للأنبياء إني جاعل في الأرض خليفة » فقد قال القرطبي
في المسألة السابعة عشرة : « فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد
واحد فلا يجوز إجماعا . قال الإمام أبو المعالي : ذهب أصحابنا إلى منع عقد
الإمامة لشخصين في طرق العالم . ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نزل
ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما
بعقد الآخر . قال : والذي هندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد
متضابق الضمط وللخالف (١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ، فأما إذا
بعد المدى وتخلل بين الإمامين شيوع النوى . فللاحتيال في ذلك مجال . وهو
خارج عن القواطع (٢) .

(١) الخالف الاطراف والنواحي . الكتاب مطبوع بالقاهرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦٩ . ٢٧٣ . آية ٣٠ من سورة البقرة .

مصادر القرطبي من كتب التاريخ :

لقد أفاد القرطبي من كثير من المراجع التاريخية ومنها : كتاب «لانازي»
لابي هبة الله محمد بن عمر الأسلمي الواقدي . للتوفي سنة ٢٠٧ هـ .

وكتاب «سيرة الرسول» ﷺ لابي بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطليبي
المتوفي سنة ١٥٠ هـ . ومن الامثلة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « اذ همت
طائفتان منك أن تفشلا والله وليهما » .

فقد قال : « قال الواقدي : بإسناده عن نافع بن جبير . قال سمعت رجلا من
المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبيل تأتي من كل ناحية ورسول
الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه . ولقد رأيت هبة الله بن شهاب
الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد فلا تجوت إن نجا . وإن رسول الله ﷺ
إلى جنبه . ما معه أحد . ثم جاوز . فدأبته في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته
أحلف بالله إنه منا ممنوع » .

ثم أخذ القرطبي ينحدث عما أصاب رسول الله ﷺ في ذلك اليوم ومن
مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . ثم بين ما فعلته هند بنت عتبة بجثة
حمزة ، فقال : « قال ابن إسحاق : فبقرت هند عن كبده حمزة فلا كتها ولم
تستطع أن تسيها فلفظتها » ثم ذكر ما قاله عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة من
من الشعر ومنه قوله :

بكت هيني وحق لها بكاءها وما يغنى البكاء أو اللويل
على أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القليل

أصيب المسلمون به جميعا هناك وقد أصيب به . بول
ثم قال :

ألا يا هند لا تبدي شمتانا بمحمزة إن همزكم ذليل
ألا يا هند فابكي لا تملي فأت أواله العبرى الهبول (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٤ آية ١٢٢ آل عمران ، الهبول من النساء الشكول .
وانظر سيرة ابن هشام . تحقيق الاساندة . مصطفى السقا ، إبراهيم الايباري
ومهد الحفيظ شلي م ٩١ ، ١٦٢ ج ٢ ، وكتائب «مغازي الواقدي» مطبوع بالقاهرة.

الفصل الثاني

موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأى

اختلفت أنظار العلماء في التفسير بالرأى : هل يجوز أو لا ؟ فنتعه بعضهم واستدلوا على ذلك بما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، تهاجم من يقول في القرآن برأيه وتذوذه بالنار .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

وروى أبو داود عن جنسب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) وتحدث السيدة عائشة رضي الله عنها فتصفت موقف رسول الله ﷺ من تفسير القرآن فنقول : « ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آتياً بمدد علمه من إياه جبريل » (٣) كما استدلل هؤلاء

(١) أخرجه الترمذى عن ابن عباس « باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه » ح ٤ ص ٢٦٨ انظر الجامع الصحيح مراجعة عبد الرحمن هثان طبع السلي بالمدينة للنورة (٢) أخرجه أيضاً الترمذى عن جندب بن عبد الله وقال هذا حديث هريب وقد تكلم أهل العلم في سبيل بن أبي حزم — أحد رواة الحديث — وأخرجه أبو داود في كتاب العلم ح ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) أسنده الطبري إلى هشام بن عروة عن أبيه عن جده عرج عائشة وقال الاستاذ احمد عاكر واه أبو دلي والبخاري بنحوه .

العلماء بموقف بعض الصحابة والتابعين الذين تخرجوا من القول في القرآن بأرائهم . مثل ما نقل عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قال : « أى سماء تظلمنى وأى أرض تغلمنى إذا قلت في القرآن برأى أو بما لا أعلم » . ومثل ما نقل عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « أنا لا أقول في القرآن شيئاً » (١) .

وفي الجانب الآخر نرى القرطبي لا يرتضى ذلك المسلك . فيجيز التفسير بالرأى ويفتح المجال لكل من عنده مؤهلات الفهم والاستنباط . ويقول إن كتاب الله يحوى بين دفتيه آيات نحت على الاعتبار والتدبر . يقول عز وجل « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليسذكر أولوا الألباب » (٢) ويقول « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآنًا هربيا غير ذى هوج » (٣) ويقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٤) فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الله تعالى دعا عباده إلى تدبر القرآن ، والاعتبار بآياته والانتباه بمواعظه ، وذلك لا يكون إلا بفهمه وتأويله . وهل يعقل أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ، ولا يعقل تأويله : احذر بما لا فهم لك به ولا دراية لك بشأنه، إن ذلك يكون ضربا من العبث — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا —

وتأول القرطبي ما تمسك به الفريق الأول من أحاديث فبين أن حديث عائشة ليس معناه أن رسول الله ﷺ لم يكن يفهم القرآن شيئا إلا القليل

(١) هذه الاخبار وأمثالها من كتاب الطبرى والقرطبي في نصوص متفرقة .

(٢) آية ٢٩ من سورة ص .

(٣) آية ٢٧ من سورة الزمر .

(٤) آية ٢٤ من سورة محمد .

النادر . وإلا فأى معنى لقول الله لرسوله « وأُنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (١) وقوله « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٢) وإنما هو محمول على منفيات القرآن ، وتفسيره لمجمله ، ونحو ذلك مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . وسكت القرطبي عن نقد هذا الحديث . مع أن راويه « محمد بن جعفر الزبيرى » معطون فيه . فقد قال البخارى فى حقه لا يتابع فى حديثه . وقال هـن الطبرى : إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار .

وبين القرطبي أن حديث جندب لم تثبت صحته عند المحدثين (٣) . وهى فرض صحته فإن معناه ومعنى حديث ابن عباس : « من قال فى القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار » .

أما موقف بعض الصحابة والتابعين ، وإحجامهم عن تفسير القرآن ، فهذا مسلك غير ملزم وقد بين للقرطبي نقلاً عن ابن عطية : إن هذا الموقف قوبل بموقف آخر لكثير من الصحابة والتابعين . كانوا منارات تهدى الناس ، وتغىء أمام العقول ما استملق هليها من معان . ثم هدد للقرطبي كثيراً من المفسرين من الصحابة والتابعين ، وذكر ما توجه إليهم من مدح وثناء . وعلل القرطبي ، نقلاً عن ابن عطية أيضاً ، موقف المتحرجين عن تفسير القرآن ، بأنهم كانوا

(١) آية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) آية ٦٤ من سورة النحل .

(٣) قال البخارى فى التاريخ الكبير ، فى حق سهيل بن أبى حزم أحد رواة هذا الحديث « ليس بالقوى عندهم » وروى ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل عن أبيه قال « سهيل ابن أبى حزم ليس بالقوى يكتب حديثه ولا يحتج به وحزم أخوه أتمن منه » .
انظر تفسير الطبرى ج ١ ص ٧٩ طبع دار المعارف .

يفعلون ذلك تورعا واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقديمهم . أو أن توقفهم ذلك كان في مشكل القرآن . خوفاً من أن تفسيرهم في تلك الحالة قد لا يوافق مراد الله عز وجل (١) . وبعد ذلك أخذ القرطبي يهاجم من يقف في حدود المأثور بأكثر مما تقدم . فقال : وقال بعض العلماء أن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » (٢) . وهذا فاسد لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل ، والمسموع ، وترك الاستنباط ، أو المراد به أمراً آخر . وباطل أن يكون للمراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه . فإن الصحابة رضی الله عنهم قد قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه . وليس كل ما قالوه مسموعاً من النبي ﷺ . فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » (٣) فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ، فما فائدة تخصيصه بذلك ، وهذا بين لا إشكال فيه ، وإنما النهي يحمل على أحد وجوه أحدهما : أن يكون له في الشئ رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه . فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه . لينتج على تصحيح فرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وبعد أن بين القرطبي أن هذا النوع يستعمله أهل الأهواء والبدع ويستعمله أيضاً الباطنية في المقاصد الهاسدة لتغريب الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، بعد هذا تكلم عن الوجه الثاني وحدد المراد به فقال : « الوجه الثاني أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية

(١) أخذت موقف القرطبي هذا من جملة ما ذكره في مقدمته في باب ما جاء من الوعيد في التفسير بالرأى .

(٢) آية ٥٩ من سورة النساء .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل عبد الله بن عباس ح ١٦ ص ٢٧ بلفظ « اللهم فقهه » والمحدث بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم صحيح الاستناد . انظر المتن من حل الاسفار في الاستنار على مائتي الأحياء ح ١ ص ٦٣ طبع الشعب .

من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بفرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المهمة والمبدلة (١) وما فيه من الاختصار والحذف ، والإضمار ، والتقديم ، والتأخير . فن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بجود فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأى . ثم قال : « والنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولا ليعتق به ، واضح الغلط . ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والفرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا طمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى « وآتينا نوحاً والناقة مبصرة فظلوا بها » ، معناه آية مبصرة . فظلوا أنفسهم بقتلها . فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا بدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم . فهذا من الحذف والإضمار ، وأمثال هذا في القرآن كثير . وما عدا هذين الوجهين فلا يشترك انتهى إلى والله أعلم . »

هذا موقف « القرطبي » . وهو مسبق بما وصل إليه « ابن عطية » والذهبي والفزاري ، وغيرهم . ولقد استشهد بعض الباحثين المحدثين بموقف : « الفزاري والقرطبي » على جواز التفسير بالرأى ، والدهوة إليه (٢) .

وأحب أن أقول لا يفهم من موقف القرطبي هذا أنه أهمل التنبيه المأثور ؟ كلا إنه دعا إليه أولا كما يفهم من عبارته « والنقل والسماع لا بد مما قاله — أي للمفسر — منه في ظاهر التفسير أولا ليعتق به مواضع الغلط إلى آخر ما قاله » ويبدو أن هذا ليس دعوة إلى تفسير المأثور فقط . وإعما هو فوق ذلك

(١) المتنوعة من أصل منهاها الفتوى إلى منى إسلامي متعارف كإفظ الصلاة والوضوء وغير ذلك . انظر موقف العلماء من التفسير بالرأى في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٧ ، ٨٤ ومناهل السرفان ج ١ ص ٧٢ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٧ .
(٢) انظر تفسير التحرير لظاهر ابن عاشور (١) التقدمة الثالثة .

دعوة إلى عدم الانتقال إلى الاجتهاد والرأى إلا بعد مباح أو معرفة ما قاله أئمة الدين والعربية — أى بعد توفر أسبابه ومؤهلاته — وعلى هذا فإننا نرى « القرطبي » كثيراً ما يمرض للتفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . وعن الصحابة والتابعين أثناء شرحه لآيات القرآن الكريم .

منهج القرطبي في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ :

كان منهج القرطبي في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، أنه يقف عنده ، ويقتصر عليه في شرح اللفظ والآية ، ولا يستعرض غيره من آراء المفسرين لأنه لا مجال للاجتهاد والرأى مع النص . ويتضح ذلك فيما يأتى :

في قوله تعالى « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » فسر « القرطبي » هذه الآية بما ورد عن رسول الله ﷺ فقال : « في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون مم أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى . فيقول فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً بى . قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهدوا ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانك انطقي قال فتنتطق بأعماله . قال ثم يحل بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وصحفا فنحن كنت أناضل . وبين القرطبي أن هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبى هريرة أيضاً وفي « ثم يقال له الآن نبث شاهدنا عليك ، ويتفكر في نفسه ، من ذا الذى يشهد على » ؟ فيختم على فيه ويقال لنخذ ولحم وعظامه : انطقي فتنتطق فخذ ولحم وعظامه بماله . وذلك ليعذر من نفسه . وذلك للناتق وذلك

الذى يسخط الله عليه » (١) .

وفى قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » فسر الحساب اليسير بأنه الذى لا مناقشة فيه . ثم قال « كذا روى عن النبي ﷺ من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة هذب » قالت فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ؟ فقال « ليس ذاك الحساب . إنما ذلك الغرض . من نوقش الحساب يوم القيامة هذب » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح (٢) .

وقد يستعرض القرطبي بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ . وفى تلك الحالة نرى القرطبي يرجع الأمور عن رسول الله ﷺ ، ويقف بمجواره ، ويرد ما يخالفه فى قوله تعالى « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يقول القرطبي : « روى من حديث أنس قال : مثل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى « وزيادة » قال : « الذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الجنة » . والزيادة النظر إلى وجه الله

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٧ آية ٧ ، ٨ من سورة الانشقاق . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب التفسير « باب فسوف يحاسب حساباً يسيراً » انظر صحيح البخارى بمحاشية السندى ج ٣ ص ١٣٩ وأخرجه مسلم « باب إيمان الحساب » ج ١٧ ص ٢٠٨ وأخرجه الترمذى فى « أبواب تفسير القرآن » سورة الانشقاق انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن المباركوروى ج ٩ ص ٢٥٦ .

الكریم « (٣) وهو قول أبي بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة ، وعبد بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبي موسى ، وصهيب ، وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح في الباب . ثم أخذ القرطبي في سرد بعض روايات أخرى فقال : « وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم ندخلنا الجنة وتمتعنا بالنار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » وفي رواية ثم تلا « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وأخرجه النسائي أيضاً عن صهيب قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار » (٢) . نادى نادياً أهل الجنة . إن لكم موعداً عند الله يريد أن ينجزكموه . قالوا : ألم يبيض وجوهنا وينقل موازيننا ويخرجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه . والله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر ، ولا أفرحهم . وبعد هذا ذكر القرطبي أقوالاً أخرى تختلف مع هذا التفسير ولكنه أبان عن منهجه ، وأنه يقف عند التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال في صدر كلامه : « وهو الصحيح في الباب » .

وفي قوله تعالى « إنا أعطيناك السكوتر » يقول القرطبي في المسألة الثانية « واختلف أهل التأويل في السكوتر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) قال ابن كثير هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن ربيعة . ابن كثير ج ٢ ص ٤١٤ .
 (٢) أخرجه مسلم في باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ج ٣ ص ١٧ وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن انظر الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٤٩ طبع إسنافية بالمدينة . وانظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٣٠ آية ٢٦ من سورة يونس .

سنة هشر قولاً . الأول : أنه نهر في الجنة رواه البخاري عن أنس والترمذي (١) أيضاً . وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : الكوثر نهر في الجنة حافظه من ذهب ، ويجراه على الدر والياقوت . تربته أطيب من للمسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج . هذا حديث حسن صحيح . الثاني أنه : حوض النبي ﷺ في اللوقف . قاله هطاء ، وفي صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله ، إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتدئاً . قلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت على آتفا سورة . فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أهمليناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وهديه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة . آيته عدد النجوم (٢) . فيختلج العبا (٣) منهم فأقول إنه من أمي . فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك .

ثم أخذ القرطبي يذكر بقية الآراء . « وأنه قيل في الكوثر : أنه النبوة والكتاب ، وقيل فيه الإسلام ، وقيل الإيثار ، وقيل الفقه في الدين . الخ ما ذكره » . وعقب القرطبي بما يوضح منهجه فقال « قلت أصبح هذه الأقوال الأول والثاني . لأنه ثابت عن النبي ﷺ أنس في الكوثر . وسمع أنس قوماً يتناكرون في الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير انظر صحيح البخاري بحاشية السندی ح ٣ ص ١٤٣ وأخرجه الترمذي في أبواب فسر القرآن انظر تحفة الاحوذى ح ٩ ص ٢٩١ وما بعدها . وأخرج أيضاً حديث أنس عن عمر في أبواب فسر القرآن .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الصلاة باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ج ٢ ص ١٢٤ وذكره هبط في صحيح مسلم .

(٣) يختلج فالدناء للعجول المعتاه يبتلع .

يتأرون في الحوض . لقد تركت هجائز خلقي ما تعلى امرأة منهم إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ . وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من بدانيكا وأنت حقاً حبيب باريكا

هكذا كان يسير القرطبي في التفسير للأثور عن رسول الله ﷺ يقف عنده ، ولا يتجاوزهُ أو يتخطاه . ولكنه أحياناً كان يذكر بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم . إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ . ورغم أن بعضها يختلف معه . فإننا نراه يسكت ولا يعقب عليها . أو يعلن دفاعه عن الأثور عن رسول الله ﷺ كما هودنا دائماً . ولعله يكون قد ارتضى هذه الآراء . إلى جانب الأثور عن رسول الله ﷺ . ففي قوله تعالى « لم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الآية . يقول القرطبي قوله تعالى « لم البشرى في الحياة الدنيا » . عن أبي الهرداء قال سألت رسول الله ﷺ عنها فقال « ما سألتني أحد عنها غيرك منذ أنزلت » . هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو أو ترى » أخرجه الترمذي في جامعه (١) . وقال الزهري وعطاء وقتادة . هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمنين في الدنيا عند الموت . وعن محمد ابن كعب القرظي قال : إذا استنقعت (٢) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ولى الله . الله يقرئك السلام . ثم نزع بهنذه الآية « الذين تنوam الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم (٣) » ذكره ابن المبارك وقال قتادة والضحاك : هي أن يعلم أين هو قبل أن يموت . وقال الحسن : هي ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته ، وكريم ثوابه بقوله : « يبشرهم ربهم

(١) أخرجه الترمذي في أبوابه تفسير القرآن ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) إذا اجتمع فيه زيد الخروج كما يستنقع الماء في قراره وأراد بالنفس الروح .

(٣) آية ٢٢ من سورة النحل .

برحة منه ورغوان^(١) » وقوله « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات^(٢) » وقوله « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون^(٣) »

ولهذا قال « لا تبديل لكلمات الله » أى لا خلف لمواهبه وذلك لأن سواهبه بكلماته^(٤) .

نتيج القرطبي في التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين :

لم يهل القرطبي التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين . فضمن تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » بهذا اللون من التفسير . ولكن القرطبي كان يقرن أقوال الصحابة والتابعين بأقوال غيرهم من المفسرين . ثم يحاول الجمع بين هذه الآراء كلها إن أمكن .

ففي قوله تعالى « وإذا خلوا إلى شياطينهم » يقول القرطبي : واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ، فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفرة . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم السحرة . ثم قال : ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان يتم جميع من ذكر والله أعلم^(٥) .

فإذا تذكر الجمع لجأ القرطبي إلى المفاضلة والترجيح . فيختار من الآراء ما تؤيده الأدلة والقرائن . سواء كان ذلك منسوبا إلى الصحابة أو إلى التابعين

(١) آية ٢٢ من سورة التوبة .

(٢) آية ٢٥ من سورة البقرة .

(٣) آية ٣٠ من سورة فصلت .

(٤) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٨ آية ٦٤ من سورة يونس .

أو إلى غيرهم من المفسرين . وقواعد الترجيح هذه تقوم إما على العموم ، وإما على الثقة ، وإما على سياق الآيات ، وإما على ما تشهد به الأحاديث ، وإما على دلالة بعض القراءات التفسيرية على صحته .

ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » يقول القرطبي في المسألة الحادية عشرة : اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا فقال قتادة : العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل قوم ورعب . وقيل أهل كل زمان عالم قاله الحسين بن المفضل لقوله تعالى « أتأتون الذكران من العالمين ^(١) » أي من الناس وقال المصباح :

فخندف ^(٢) هامة هذا للعالم

وقتل عن ابن عباس أنه قال : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « ليكون للعالمين نذيرا ^(٣) » ولم يكن نذيرا للبهايم ، وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عن يعقل وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين : ولا يقال للبهايم عالم . لأن هذا الجعم إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأدهي :

ما إن سمعت يمثلهم في العالمينا

(١) آية ١٦٥ من سورة الشعراء .

(٢) خندف اسم قبيلة من العرب .

(٣) آية ١ من سورة الفرقان . ولقد بين الطبري إسناد هذا الحديث . وأنه عن محمد بن سنان القزاز عن أبي حاتم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس . ثم بين الأستاذ / أحمد شاكر أن محمد بن سنان القزاز شيخ الطبري . تكلم فيه علماء الجرح . من أجل حديث واحد . ثم قال : والحق أنه لا بأس به . وله ترجمة جيدة في تاريخ بغداد ٥٠ : ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

ثم ذكر القرطبي أقوالاً أخرى عقب في نهايتها بقوله :

قلت والقول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق ومو . ود
دليله قوله تعالى « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض
وما بينهما ^(١) » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجد ، كذا الزجاج
قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم والعلامة
والعلم ما دل على الشيء فالعالم دال على أن له خالقاً ومدبراً وهذا واضح ^(٢) .

فالقرطبي قد رجح قول قتادة على قول ابن عباس وغيره من المفسرين
وقام الترجيح عنده على الموم .

وينضح هذا أيضاً في قوله تعالى « الذين يؤمنون بالشيء ويقيمون الصلاة
وما رزقناهم ينفقون » ^(٣) : د قال في المسألة الخامسة والمشرين :

واختلف العلماء في أنراد بالنفقة ما هنا . فقيل : الزكاة المفروضة . روى
عن ابن عباس لمقارنتها الصلاة ، وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن
ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول
الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت
به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك »
وقيل : المراد صدقة التطوع روى عن الضحاك « نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي
إلا بلفظها المختص بها ، وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت
الفرض والتطوع فإذا جاءت بلفظ الإنفاق ، لم تكن إلا التطوع . » ثم قال

(١) آية ٢٣ من سورة الشعراء .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٨ وما بعدها .

(٣) آية ٢ من سورة البقرة .

القرطبي « وقيل هو عالم وهو الصحيح ، لأنه خرج مخرج اللبس في الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال . أي يؤتون ما ألتهم الشرع من زكاة وغيرها ، مما يعن في بعض الاحوال مع ما ندبهم إليه (١) »

وفي قوله تعالى « ومنهم من يلزك في الصدقات (٢) » بين القرطبي معنى « يلزك » نقلا عن قتادة بأنه يظن عليك ، وأن المعنى في قول الحسن « يميمك » وفي قول مجاهد للمنى يروك (٣) ويسأك . ورجح القرطبي قول قتادة والحسن ، ورد قول مجاهد لأن اللفظ لا تشهد له . فقال : والقول عند أهل اللغة قول قتادة والحسن . يقال لمزه يلززه إذا عابه . واللمز في اللغة العيب في السر . قال الجوهري : اللمز العيب . وأصله الإشارة بالعين ونحوها وقد لمزه ويلززه وقرى بهما « ومنهم من يلزك في الصدقات » ورجل لماز ولمزه أي هيب . ثم فسر القرطبي الآية بما يتفق مع هذا (٤) .

وفي قوله تعالى « أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا (٥) » يقول القرطبي وفي قوله « أفن زين له سوء عمله » أربعة أحوال . أحدها : أنهم اليهود والنصارى والمجوس . قال أبو قلابة ويكوف سوء عمله مما نذرة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثاني : أنهم الخوارج . رواه عمر بن القاسم . فيكون سوء عمله تحريف التناويل . الثالث الشيطان قاله الحسن . ويكون سوء عمله الإيهام . الرابع : كفار

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٧٩ والحديث أخرجه مسلم بلب فضل النفقة على الديار والبلوك ج ٧ ص ٨٢ .

(٢) آية ٨٨ من سورة التوبة .

(٣) الروز الامتحان والتقدير .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٦ بصرف .

(٥) آية ٨ من سورة فاطر .

قريش . قاله الكلبي . ويكون سوء عمله الشريك ثم عقب فرجح بعض الأراء لأن كثير آمن الآيات تشهد له وكذلك السياق . قال : « والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال . لقوله تعالى : « ليس عليك هدام » ^(١) وقوله « ولا يجرى بك الذين يشارعون في الكفر » ^(٢) وقوله « فذلك بائع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ^(٣) وقوله « فذلك بائع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ^(٤) وقوله في هذه الآية « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وهذا ظاهر بين أى لا ينفع نأسفك على كفرهم فإن الله أضلهم ^(٥) .

وفي قوله تعالى « » وامرأة مؤمنة ^(٦) » يقول القرطبي « للمعنى وأحلاما لك امرأة تهب نفسها من غير صداق . وقد اختلف في هذا المعنى فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن هند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح ، أو ملك يمين فأما الزمعة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم كانت هندة موهوبة . « لم يرجع القرطبي القول الثاني لأن بعض الأحاديث تؤيده وتشهد له فقال : قلت : والذي في الصحيحين يقوى هذا القول وبعضه ؛ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت أظار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى « ترجى من تشاء ومن تؤوى إليك من تشاء » ^(٧) » فقلت والله

(١) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٧٦ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٦ من سورة الكهف .

(٤) آية ٣ من سورة الشعراء .

(٥) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٦) آية ٥٠ من سورة الاحزاب .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٣ ص ١١٥ انظر صحيح البخاري

بمحاشية السندی .

ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ، ووروى البخارى عن عائشة أنها قالت :
 كانت خولة بنت حكيم من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدل هذا
 هل أنهن كن خير واحدة (١)

وفى قوله تعالى « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (٢) رجح القرطبي بعض
 الآراء لأن كثيراً من قواعد الترجيح السابقة يشهد له . ولأن بعض القراءات
 التفسيرية أيضاً تؤيده . يقول القرطبي فى المسألة الثالثة عند قوله تعالى « وأزواجه
 أمهاتهم » ، واختلف الناس : هل من — أى أزواج رسول الله ﷺ —
 أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة على قولين : فروى الشعبي عن
 مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمه . فقالت لها : لست
 لك بأم إنما أنا أم رجالكم ، قال ابن العربى : وهو الصحيح . قلت — والمائل
 القرطبي — لا فائدة فى اختصاص المصير فى الإباحة للرجال دون النساء والذي
 يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء
 يدل عليه صدر الآية « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » وهذا يشمل الرجال
 والنساء ضرورة ويدل على ذلك حديث أبى هريرة وجابر فيكون قوله
 « وأزواجه أمهاتهم » حائداً إلى الجميع ، ثم إن فى مصنف أبى بن كعب
 « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » — وقرأ ابن عباس « من أنفسهم وهو
 أب لهم وأزواجه أمهاتهم » وهذا كله يوهن ما رواه مسروق ، إن صح ،
 من جهة الترجيح وإن لم يصح . فيسقط الاستدلال به فى التخصيص وبقينا على
 الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٠٨ .

(٢) آية ٦ من سورة الاحزاب .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٢٣ .

أما حديث أبي هريرة وجابر الذي يشير إليه القرطبي فهو ما أخرجه
«سلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : قال ﷺ «إِنَّمَا مَثَلُ وَمَثَلُ أُمِّي كَمَثَلِ
رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَمَلَتْ الدُّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ وَأَنَا أَخَذُ بِمُحْزَمٍ وَأَنْتُمْ
تَقْحَمُونَ فِيهِ » وَأَخْرَجَ مِثْلَهُ عَنْ جَابِرٍ . وَقَالَ بَدَلُ قَوْلِهِ « وَأَنْتُمْ تَقْحَمُونَ فِيهِ »
« وَأَنْتُمْ تَقْلَنُونَ مِنْ يَدِي » (١) .

وأحياناً نرى القرطبي يعرض آراء الصحابة والتابعين ويوجهها ويكتفي
بذلك ولا يعقب عليها . ولعله في تلك الحالة يعرب عن رضاه عنها كلها .

ففي قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » (٢) يقول :
والأمانى جمع أمانة وهي التلاوة . وأصلها أمانة على وزن أفعولة . فأدغمت
الواو في الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أمانة . ومنه قوله
تعالى « إلا إذا نعى ألقى الشيطان في أمنيته » (٣) « أى إذا نلا ألقى الشيطان
في تلاوته » وقال كعب بن مالك :

نعى كتاب الله أول ليلة

وأخوه لاقى حمام للقادر .

والأمانى أيضاً : الأكاذيب . ومنه قول حبان رضى الله عنه : ما نعت منذ
أسلت أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دأب وهو يحدث : « هذا شئ مرويت
أم شئ » يعنيته ؟ أى افصلته . وهذا المعنى فسر ابن عباس ومجاهد « أمانى » في
الآية . والأمانى أيضاً ما يتمناه الإنسان ويشتهي . قال قتادة : « إلا أمانى »

(١) أخرجه مسلم في باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ح ١٥ ص ٤٩

(٢) آية ٨٧ من سورة البقرة

(٣) آية ٥١ من سورة الحج

يسئ أنهم يمتنون على الله ما ليس لهم . وقيل : الأمانى التقدير يقال 'مئى له أى قدره ، قاله الجوهري وحكاه ابن بحر وأشد :

لا تأمن وإن أسبت فى حرم حتى تلاق ما يئى لك المائى .

أى يقدر لك القادر . ولم يعقب القرطبي على هذه الآراء . فلهذا قد ارتضاها كما قلت .

إذن فالقرطبي لم يكن ينتقل بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ إلى التفسير للمأثور عن الصحابة يبحث عنه ، ويقف بجواره ، ولكنه كان يذكر المأثور عن التابعين ، وآراء كثير من المفسرين إلى جواره غالباً ثم يجمع بين هذه الآراء تارة ، ويمرضها تارة ، ويرجع بعضها ، مرة ثالثة ، وقد يخرج من آراء الصحابة والتابعين ، لأن الأدلة والقرائن لا تشهد لها ولا تؤيدها . ومن حقنا أن نسأله كيف جاز للقرطبي أن يفاضل بين آراء الصحابة والتابعين ولماذا لم يقدم قول الصحابي على قول التابعين ؟ وكيف جاز له أن يخرج على التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين ؟ ؟

لقد اعتبر أكثر العلماء تفسير الصحابي من قبيل الموقوف فهو رأى له وليس قولاً لرسول الله ﷺ ولهذا فهو عرضة للخطأ ، وذهب فريق آخر إلى أن أقوال الصحابة حجة يجب الأخذ بها فهي وإن كانت من قبيل الرأى والاجتهاد . فاجتهادهم أرفع شأننا وأهمل مقامنا . لأنهم أذكى عقولاً وأقوى فهماً واستنباطاً من سائر الناس (١) .

ورغم هذا الخلاف فقد اتفق الفريقان ، على أن تفسير الصحابي له حكم

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣ والتفسير والفرون لاستاذنا الشيخ عبد
حيث القهى ج ١ ص ٩٦ طبع دار الكتب الحديثة.

المرفوع ، إذا كان لا يعرف بالرأى والاجتهاد . كأسباب النزول ، وأحوال يوم
القيامة ، ونحوها مما لا مجال للرأى فيه . وكذلك قال أكثر العلماء في تفسير
التابعين إذا كان مما لا مجال للرأى فيه « إن له حكم المرفوع » .

ولقد عبر عن ذلك ابن الصلاح فقال ، وأما قول من قال : تفسير الصحابي
مرفوع . فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية كقول جابر : كانت اليهود
تقول ، من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله تعالى
« لساؤكم حرث لكم » الآية رواء مسلم . . أو نحوه مما لا يمكن أن يؤخذ
إلا عن النبي ﷺ ، ولا مدخل للرأى فيه . وغيره موقوف . وكذا يقال في
التابعي إلا أن المرفوع من جهته مرسل . (١) ويقصد « ابن الصلاح » بقوله
« وأما قول من قال تفسير الصحابي مرفوع » وهو الحاكم (أبو عبد الله محمد بن
عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري المتوفى في سنة ٤٠٤ هـ) . فقد قال الحاكم في
مستدرکه « ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل
هذه الشيخين حديث مسند »

ولقد بين السيوطي أن الحاكم قيد ما أطلقه فقد مرة ثانية في كتابه
« معرفة علوم الحديث » فأما ما قوله من أن تفسير الصحابة مسند . فإمّا
تقوله في غير هذا النوع — أى ما كان من قبيل الرأى والاجتهاد — ثم
أورد حديث جابر في قصة اليهود وقال : فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف .
فإن للصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها

(١) تدريب الراوى بتحقيق الشيخ « عبد الوهاب عبد الطيف » للكتبة العلمية
بالمدينة المنورة ص ١١ وما بعدها .

نزلت في كذا فإنه حديث مسند . (١)

وإذا كان أكثر العلماء قد قالوا : أن آراء الصحابة من قبيل الموقوف
لا من قبيل المرفوع فلا حرج على القرطبي إذا فاضل بين آراء التابعين
ولا حرج عليه إذا خرج عن آرائهم وأقوالهم .

لكن ما هو موقفه من آراء الصحابة والتابعين التي تنصل بأسباب
النزول أو نحوها مما لا يعلم إلا بتوقيف ؟

إن القرطبي كان يأخذ بأقوال الصحابة والتابعين في أسباب النزول إذا
اتفقت . ففي قوله تعالى « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى
الله » الآية بين في المسألة الأولى سبب نزولها « قالت عائشة رضي الله عنها :
تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على
بعصه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله أكل
شبابي ، ونفرت له بطنى حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ، فإمرئى ، اللهم
إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية « قد سمع الله قول التي
تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله » . أخرجه ابن ماجه في السنن . (٢) ومات
القرطبي كثيراً من الروايات التي أخرجهما المحدثون . وذكر ما قاله ابن عباس
والحسن وغيرهما في سبب نزول الآية وكلها متقاربة . ولم يبد عليها اعتراضاً ولم
يخرج منها في تفسير الآية (٣) .

(١) تدريب الراوى للسيوطي ص ١١٦ وحديث جابر الشار إليه أخرجه البخارى في
كتاب التفسير .

انظر صحيح البخارى بمحاشية السندى ح ٣ ص ٧٠

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن باب الطهار . انظر سنن ابن ماجه بمحاشية السندى

طبع العلمية ح ١ ص ٣٢٥

(٣) تفسير القرطبي ح ١٧ ص ٢٢٠ آية ١ من سورة المجادلة

أما إذا اختلفت آراؤهم فإننا نرى القرطبي في بعض الأحيان يحاول الجمع بينها . ففي قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمددوا بما لم يفعلوا » الآية يقول القرطبي في سبب النزول : « ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقدم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتنوا إليه ، وحلفوا ، وأحبوا أن يمددوا بما لم يفعلوا . فزلت « لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمددوا بما لم يفعلوا » الآية وفي الصحيحين أيضاً أن مروان (١) قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما آتاه ، وأحب أن يمدد بما لم يفعل معذبا للمعذنين أجمعين . فقال ابن عباس : ما لكم وهذه الآية . إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وإذا أخذ الله ميتات الذين آتوا الكتاب لئيبينه للفسق ولا تكتبوه » و « ولا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمددوا بما لم يفعلوا » وقال ابن عباس : سألم النبي ﷺ عن شيء فكتبوه إياه ، وأخبروه بشيئه ، فخرجوا وقد آروه أن قد أخبروه بما سألم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما آتوا من كتابهم

(١) مروان هو مروان بن الحكم ابن العاص وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية . والحديث الأول أخرجه البخاري في كتاب التفسير وأخرج الحديث الثاني عن ابن جريج انظر صحيح البخاري بحاشية السندی ح ٣ ص ٧٦ والثاني الذي سألم النبي صلى الله عليه وسلم عنه مفسراً وقوله « يفرحون بما آتوا » أي يكتبونهم محمداً . واستحمدوا بفتح التاء مبنياً للفاعل أي طلبوا أن يمددوا . وقيل أنها بصيغة المثنى للمجهول من استحمد فلان عند فلان أي صار محموداً عنده والسين فيه للصيرورة . انظر تحفة الأحـوذى ح ٨ ص ٢٦٦ وما بعدها

لإياديه، وما سألهم عنه، ثم قال القرطبي : وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في همدان بن إسرائيل الذين كتموا الحق، وآتوا بلوكمهم من العلم ما يوافقهم في باطنهم « واشتروا به ثمناً قليلاً » أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا . فقال الله لنبيه ﷺ « لا تحسن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدين على عباد الله . وذكر قريباً من هذا من الضحاك ثم قال : والحديث الأول يقتضي الحديث الثاني، ويحتمل أن يكون نزولها على السببين لاجتماعهما في زمن واحد فكانت جواباً للفريقين (١) .

والقرطبي وإن كان جمع بين ما قاله أبو سعيد الخدري في الحديث الأول وبين ما قاله ابن عباس في الحديث الثاني . فإن ما قاله الضحاك وما قاله محمد ابن كعب القرظي لا يختلف كثيراً عما قاله الصحابة . فكأن القرطبي جمع بين آراء الصحابة والتابعين . فإذا لم يكن الجمع رجح القرطبي بعض آراء الصحابة أو التابعين وبنى ترجيعه على ما يحيط بالكلام من أدلة وقرائن . وقد يخرج على أقوال الفريقين .

ففي قوله تعالى « ومنهم من هادى الله لئن آتانا من فضله لمصدقين ولنكونن من الصالحين » رجح القرطبي بعض آراء التابعين . لأن سياق الآية يشهد له ويؤيده . يقول القرطبي في المسألة الأولى : « ومنهم من هادى الله » قال قتادة : هذا رجل من الأنصار قال لئن رزقني الله شيئاً لأؤدين فيه حقه ولأنصدقن . فلما آتاه الله ذلك فعل ما نصه إليك . فاحذروا الكذب فإنه يؤدي إلى العجز . وروى علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي : أن ثعلبة بن حاطب

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٠٦ آية ١٨٨ من سورة آل عمران .

الأنصاري — فجه — قال للنبي ﷺ : ادعوا الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام « ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » ثم ماود ثانيا فقال النبي ﷺ « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً لاسرت » (١) فقال: والذي بملك بالحق إن من دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدعاه النبي ﷺ فآخذ غنما فذمت كما تنمي الهدود . فضافت عليه المدينة فتنتحى عنها . ونزل وادياً من أوديتها . حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة وترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة . وهي تنمي (٢) حتى ترك الجمعة أيضاً . فقال رسول الله ﷺ : « يا أريح ثعلبة » ثلاثاً ثم نزل « خذ من أموالهم صدقة » (٣) . فبعث ﷺ رجلين على الصدقة . وقال لهما : « مرا بثلثة وبقلان — رجل من بني سليم — لخذنا صدقاتهما » فأتيا ثعلبة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرقا ثم تمودا . . الحديث — وهو مشهور وقيل سبب غناه ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن عبيد البر : قيل أن ثعلبة

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق علي بن زيد القاسم بن عبد الرحمن وهذا إسناد ضعيف جداً . انظر الكافي الشاف في تخریج أحاديث الكشاف للحافظ بن حجر على هامش تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢٩ . ولقد بين ابن حجر أن ثعلبة بن حاطب من البصريين ونقل أنه رجل آخر من المتنافقين ثم قال فلها اثنتان . وقال الأستاذ محمود شاكر هذا الخبر رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الاسفاني . وهو مقروك . انظر تفسير الطبري ج ١٤ ص ٣٧٣ .

(٢) في الصحاح نى المال وغيره بنى بالكسر بناء بالفتح ولد . وربما جاء من باب ما . . واما الحديث إلى سلال أسنده إليه ووضه . ونى الرجل إلى ابنه نسبة وبأبهما روى .

(٣) آية ٢-١٠ من سورة التوبة .

ابن حاطب هو الذي نزل فيه « ومنهم من عاهد الله » الآية . إذ منع الزكاة
 بالله أعلم .

وما جاء فيمن شهد بذكر ما عارضه قوله تعالى في الآية « فأهتبهم نفاقاً في
 قلوبهم » الآية . ثم يقول القرطبي . قلت : وذكر هن ابن عباس في سبب نزول
 الآية أن حاطب بن أبي بلتمة أبطأ عنه ماله بالثمام فحلف في مجلس من
 مجالس الأنصار إن سلم ذلك لأصدق من معه ولأصل من فدا سلم بخل بذلك
 فتركت ، ولكنه عارض الرأي وضمنه ، وأيد قول ابن عبد البر السابق واستدل
 على عدم صحة هذا الرأي بما نقله ثانياً عن ابن عبد البر فقال : قلت وتعلية
 بدرى أنصارى . وعن شهد الله له ورسوله بالإيمان . فارتوى عنه غير صحيح ؛
 قال أبو عمر : ولعل قوله من قال في تلبية لأنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية
 غير صحيح والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين
 « فنزل بن الحارث وجسد ابن قيس ومعتب بن قشير » وارتضى القرطبي هذا
 الرأي وأيده فقال قلت وهذا أشبه بنزول الآية فيهم إلا أن قوله « فأهتبهم
 نفاقاً » يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل . إلا أن يكون المعنى
 زادهم نفاقاً فأثبتوا عليه إلى للمات وهو قوله تعالى « إلى يوم يلقونه » (١) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس (٢) »
 خرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين . فقال في المسألة الأولى : « قال قتادة
 ومجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض ،
 وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا

(١) غصه القرطبي ج ٨ ص ٢٠٩ آية ٧٥ من سورة التوبة

(٢) آية ١١ من سورة المائدة

للحرب. قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبي ﷺ إذا قام المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة ، فنزلت فيكون كقوله «مقاهد القتال» (أى تصفهم وتسوى صفوفهم) . وقال مقاتل : كان النبي ﷺ في الصف وكان في للسكران ضيق يوم الجمعة . وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا في المجلس . فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبي ﷺ . فقال لمن حوله من غير أهل بدر «قم يا فلان وأنت يا فلان» . بعدد القاعين من أهل بدر فشق ذلك على من أقام ، وهرب النبي ﷺ الكراهية في وجوههم . فغضب المنافقون وتسكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء قد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان . فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

وخرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين فقال : « قلت الصحيح في الآية أنها عامة . في كل مجلس اجتمع للسلوك فيه الأخير والأجبر سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة . فان كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه . قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به » (١) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق من موضعه . روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » (٢) وعنه عن النبي ﷺ أنه « نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه »

(١) أخرجه مسلم بمنأه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قام أحدكم وفي حديث أبي هريرة « من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به . انظر صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٦١

(٢) أخرجه مسلم في باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه الذي سبق إليه ج ١٤ ص ١٦٠ .

فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا » وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه (١) لفظ البخارى (٢) وكذلك فعل القرطبي في قوله تعالى « لا تبين فيها أحقاباً » فقد نقل عن عمر وأبي هريرة أن الحنبل ثمانون سنة ونقل عن الحسن أنه سبعون ألف سنة . ونقل أقوالاً كثيرة . ثم عقب في نهايتها بقوله : قلت هذه أقوال متعارضة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع المنع وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ . وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرناه ، أولاً ، أى لا تبين فيها أزمانا ودهورا كلامه مضمون يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر وهكذا أبد الأبد من غير انقطاع » (٣) .

ولا حرج على القرطبي في ذلك ، لأنه رغم اختلاف مناهج الأئمة الأربعة في قول الصحابي حيث إن بعضهم يأخذ به على أنه سنة وبعضهم يأخذ به لجرد التقليد ولم في ذلك توجيهات كثيرة . إلا أنهم قد اتفقوا جميعاً على أن أقوال الصحابة إذا اختلفت تغيروا منها أقربها إلى رأى الجماعة ، أو أقربها إلى السنة (٤) .

وكانت الأئمة يأخذون بأقوال التابعين لا على أنها حجة بل استئناساً بأرائهم . وينخبرون منها بعد إعمال الرأى والاجتهاد ، وكانوا جميعاً يجوزون

(١) ولفظ مسلم لا يقيم الرجل الرجل من مقدمه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه . انظر صحيح البخارى بإشياءه

السندى ح ٤ ص ٤٥ وانظر صحيح مسلم ح ١٤ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ح ١٧ ص ٢٩٧

(٣) تفسير القرطبي ح ١٩ ص ١٧٨ وما بعدها .

(٤) انظر « مالك » ص ٣٧٣ وأبو حنيفة ص ٣٠٤ لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .

الخروج عنها . يقول الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه : ما جاء عن رسول الله
ﷺ فعل الرأس واليمين بأبى وأبى وليس لنا مخالفته وما جاء عن أصحابه تخيرنا
وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال ، (١) .

(١) انظر أبو حنيفة ص ٢٧٠ وانظر الاصول ص ٢٠٧ فقد نقل الشيخ محمد أبو
زهرة وأبا الشوكاني . مفاده أن قول الصحابي ليس بحجة مطلقاً ، ورد عليه .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

منهج القرطبي في القراءات الشاذة والمتواترة وموقفه منها

القراءات الشاذة في تفسير القرطبي :

بين « ابن الجزري » ضابط القراءات الشاذة والمتواترة فقال « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف الثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها . بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ويجب على الناس قبولها . سواء كانت من الأئمة السبعة أم من العشرة أم من غيرهم من الأئمة المقبولين . وبقى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها ضميعة أو شاذة أو باطلة . سواء كانت من السبعة أم من غيرها أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف .

وارتضى السيوطي « هذا الضابط وأشاد به وأثنى على قائمه ثناء عاترا (١) وإذا كانت الصلاة لا تجوز بالقراءة الشاذة فإن لها مجالات أخرى كثيرة . فلقد احتج بها النحويون على مذاهبهم وآراءهم . فاحتج « ابن جني » بقراءة « ابن مسعود وأبي » و« بإطلاما كانوا يملكون » (٢) على جواز تقديم خبر كان

(١) : لايتان ح ١ ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) : الاعراف آية ١٣٩ .

عليها ، فقال ، « باطلا » منصوب ، « يعملون » وما زائدة للتوكيد . فكأنه قال « وباطلا كانوا يعملون » ثم قال « ففى هذه القراءة الشاذة دلالة على جواز تقديم خبر كان عليها كقولك : قائما كان زيد . ووجه الدلالة من ذلك أنه لما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل « وباطلا » منصوب « يعملون » والموضع إذا يعملون ، لوقوع معموله متقدما عليه فكأنه قال : ويعملون باطلا كانوا » (١) .

. يجوز فى اللغة أن يقدم خبر كان عليها كما تقول قائما كان زيد . فاذا كان خبر كان جملة فعلية فإنه يجوز تقديم معمول الفعل على كان كما فى قوله تعالى « وباطلا كانوا يعملون » فباطلا معمول يعملون و يعملون جملة فعلية هى خبر كان . فكما يجوز أن تقدم يعملون على كان إذ يعملون هو الخبر يجوز أن تقدم المعمول وهو « باطلا » على كان ، لأنه يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل .

واحتج « ابن جنى » بقراءة شاذة على ترجيح بعض مذاهب النحويين فاحتج بقراءة ابن مسعود « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا » على ترجيح ماذهب إليه البصريون من جواز حذف القول . فقال « وهذا دليل على صحة ماذهب إليه أصحابنا — البصريون — من أن القول مراد مقدر فى نحو هذه الأشياء . وأنه ليس كما ذهب إليه السكوفون من أن الكلام محمول على منزه دون أن يكون القول مقدرا معه وذلك كقول الشاعر :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا هريانا

(١) أبو على الفارسي حياته ومكانته بين أئمة المريضة وآثاره فى التراجم والنحو ص ٣٤٠

فهو عندنا نحن هلى : قالا . وعلى قولهم . لا إضمار قول هناك . لكنه لما كان « أخبرنا » فى معنى « قالا لنا » صار كأنه قال : « قالا لنا » فلما على إزار « قالا » والحقيقة فلا (١) . وفعل كثير من النحاة ذلك ، ولا داعى للإسار من الشواهد والأدلة فى ذلك كفاية ، وجعل النحويون القراءات الشاذة مصدراً أصيلاً لمعرفة لهجات العرب ولغاتها . ولقد أوضح كثير من الباحثين هذه الحقيقة . فالقراءة الشاذة يمكن من خلالها معرفة اللهجات العربية التى كانت سائدة قبل الإسلام (٢) . ويذكر صاحب « تفسير التحرير » فى مقدمة كتابه أن القراء قد اختلفوا فى وجوه النطق بالحروف والحركات وأن مزية القراءات من هذه الجهة أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها ، وهو تحديد كيفيات نطق العرب وبيان اختلاف اللهجات (٣) .

ثم إن الفقهاء قد احتدوا بكثير من القراءات الشاذة فى نصرة بعض الآراء وللذاهب وكلنا يعلم أن جماعة من الفقهاء منهم أبو حنيفة والثورى واللى قد استدلوا بقراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » على اعتبار التتابع فى صوم كفارة اليمين (٤) .

ولقد أبرز القرطبي فى عرضه وتوجيهاته للقراءات الشاذة مثل هذه الأشياء ، أبرز بعض ما ذهب إليه النحويون على ضوء القراءة الشاذة . . . فى قوله تعالى « يا بنى إن الله اصطفى لك الدين » (٥) يقول : قوله تعالى « يا بنى » منناه أن

(١) للصدر السابق .

(٢) أنظر اللهجات العربية فى القراءات القرآنية للدكتور عبده الراجحي دار السارف ص ٨٧ ، وأنظر تاريخ اللصل السادس (مشكلة الصحف)

(٣) تفسير التحرير يتصرف

(٤) أنظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٣

(٥) آية ١٣٢ من سورة البقرة

يا بنى وكذلك هو في قراءة أبى وابن مسعود والضحاك . ثم قال : « قال الفراء
ألنيت » أن « لأن التوسية كالقول وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول
« أن » وجاز فيه إلناؤها . قال : وقول النحويين إنما أواد « أن » ألنيت ليس
بشيء وفي قوله تعالى « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا » (١)
قوى القرطبي وجها إعرابيا في قراءة صحيحة بما ورد في قراءة شاذة . فقال :
« قرأ ابن عامر ومأم وحمزة بالنصب عطفا على « أن يؤتبه » ويقويه أن اليهود
قالت للنبي ﷺ أتريد أن تتخذك يا محمد ربا ؟ فقال الله تعالى « ما كان لبشر أن
أن يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة ... إلى قوله ولا يأمركم » وفيه : أى على
هذا التفسير ضمير البشر « أى لا يأمركم بنى عيسى وعزيرآ » . ثم قال القرطبي
« وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول فيه ضمير اسم
الله عز وجل أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوى هذه القراءة أن في
مصحف عبد الله ولن يأمركم والضمير أيضا لله عز وجل . (٢)

كذلك يستعرض القرطبي أثناء توجيهه للقراءات الشاذة لهجات بعض
القبائل ولغاها . ففي قوله تعالى « أهدنا الصراط للستيم » يقول القرطبي
« وقرئ الصراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يستطرط
من يسلكه ، وقرئ بين الزاى والصاد وقرئ يزأى خالصة . وحكى سلمة عن
الفراء قال الزراط بإخلاص الزاء لغة لعذرة وكلب وبني القريين قال :
وهؤلاء يقولون فى أصدق أزدق وقد قالوا الأزدد فى الأسد ولزق به
فى لصق به » . (٣)

(١) آ ٨٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٢٣

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩٤٨

وفى قوله تعالى « إياك نسجد » يقول « قرأ الفضل الرقاشي إياك »
بفتح المدة وهى لغة مشهورة وقرأ أبو السوار التنوي « هياك » فى الموضعين
وهى لغة .. قال :

فهبياك والأمر الذى إن توسعت موارد ضاقت عليك مصادره
وفى قوله « وإياك نستعين » يقول وقرأ يحيى بن وثاب والاعشى
« نستعين » بكسر النون وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ليدل على أنه من
استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل (١) .

وفى قول الله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن
كنتم مؤمنين » (٢) يقول وقرأ الحسن « ما بقى » بالألف وهى لغة طى يقولون
للاجارية جارية والناسية فاساة وقال الشاعر :

لمعرك لا أخشى النصلك ما بقى على الأرض قيسى يسوق الأبارا (٣)

وفى قوله تعالى « فلامه الثلث » يقول قرأ أهل الكوفة « فلامه الثلث »
وهى لغة حكاهما سيبويه قاله الكسائي : هى لغة كثير من هوازن وهذيل ،
ولأن اللام لما كانت مكسورة وكانت متصلة بالحرف كرهوا ضمها بعد كسرة
فأبدلوا من الضمة كسرة لأنه ليس فى الكلام فعل . . ومن ضم جاء به على
الأصل ، ولأن اللام تنفصل لأنها داخلة على الاسم . قال جهم النحاس (٤)

وفوق هذا فلأنى ألمح فى توجيه القرطبي للقرافات الشاذة — أنه كان

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٦

(٢) آة ٢٧٨ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٠

(٤) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٧٢

أحياناً يريد معنى القراءة الشاذة إلى قراءة الجهاة . ففي قوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ولا نساءل عن أصحاب الجحيم » (١) يقول « قرأ الجمهور برفع » « نساءل » ويكون في موضع الحال بطفه على « بشيراً ونذيراً » والمعنى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً خير مسئول » . ثم قال : « وقرأ ابن مسعود » و « لن نساءل » . وقرأ أبي « وما نساءل » ومعناها موافق لقراءة الجمهور نفي أن أن يكون مسئولاً عنهم » (٢) .

وأحياناً يقوى قراءة الجهاة بما جاء في قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » (٣) يقول وقرأ ابن محيسن « ويشهد الله على ما في قلبه » بفتح الياء والماء في « يشهد » « الله » بالرفع والمعنى يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قاله دليله قوله « والله يشهد إن للنافقين لكاذبون » وقراءة ابن عباس « والله يشهد على ما في قلبه » ثم قال وقراءة الجهاة أبلغ في القم لأنه قوى (أى الرجل) على نفسه التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافة . وقرأ أبي وابن مسعود « ويشهد الله على ما في قلبه » وهى حجة لقراءة الجهاة » (٤) .

وأحياناً يقوى بعض آراء المفسرين أو يرفضها بما جاء في قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « فلما تبين له قال أهلم أن الله على كل شىء قدير » (٥) وجه قسرة القطع فقال « قال مكي : إله أخبر من نفسه هندا ما ين من قدرة الله

(١) آية ١٩ : من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٩٢

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة

(٤) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥

(٥) آية ٢٥٩ من سورة البقرة

تعالى في إحيائه الموتى فتيقن ذلك بالمشاهدة فأقر أنه يعلم أن الله على كل شيء
قدير، أي أعلم أنا هذا الضرب من العلم الذي لم أكن أعلمه من معانية . وهذا
على قراءة من قرأ « أعلم » بقطع الألف وهم الأكثر من القراء ، ثم وبوجه قراءة
الوصل فقال وقرأ حمزة والسكاكي : بوصل الألف ويحتمل وجهين أحدهما : قال
له الملك « أعلم » . والآخر : هو أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبي فالمعنى
« فلما تبين له قال لنفسه : إلهي يا نفس هذا العلم اليقين الذي لم تسكوني تعليل
معانية ، وأشهد أبو علي في مثل هذا المعنى :

ودع هريرة إن الركب مر بهل

ألم تقتض عينك ليلة أرمدا

قال ابن عطية وتأنس أبو علي في هذا المعنى يقول الشاعر :

تذكر من أتى ومن أين شربه يؤامر نفسه كذى المحجة الأبل (١)

قال مكى : ويبعد أن يكون ذلك أمراً من الله جل ذكره له بالعلم لأنه قد
أظهر إليه قدرته وأراه أمراً أيقن صحته وأقر بالقدرة . فلامع لأن يأمره الله
بعلم ذلك بل هو يأمر نفسه بذلك وهو جاز حسن . . « ثم قال القرطبي : وفي
حرف عبد الله ما يدل على أنه أمر من الله تعالى له بالعلم على معنى : ألزم هذا
العلم لما بينت وتيقنت وذلك أن في حرفه « قيل أعلم » وأيضاً فإنه موافق لما
قبله من الأمر في قوله « انظر إلى طه امك » و « انظر إلى حمارة » ، و « انظر
إلى المظالم » فكذلك « وأعلم أن الله » وقد كان ابن عباس يقرأها : « قيل
أعلم » . ويقول أمو خير أم إبراهيم ؟ إذ قيل له « وأعلم أن الله عزيز حكيم »

(١) المحجة : يتفتح فسكون القطعة الضميمة من الأبل ، وقيل هي ما بين الثلاثين إلى الثلاثين
ووجل أبل فككتف حلق مصلحة الأبل .

فهذا يبين أنه من قول الله سبحانه له لما عين من الإحياء (١) .

وإذا كانت القراءات الشاذة ليست متواترة ولم تثبت قرآنتها ، فإذا أضيف إلى ذلك أنها ضيقة للمعنى أو ليس لها وجه في العربية فإن القرطبي كان يرفض الاستدلال بها . ففي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « الجمهور من القراء والعلماء على شد الباء من « إياك » في الموضعين . وقرأ عمرو بن واقد « إياك » بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضييق الياء لنقلها وكون السكسة قبلها » . ثم قال : « وهذه قراءة مرغوب عنها فإن للمعنى يصير . شمسك نعبد أو ضوءك ، وإيالة الشمس بكسر الهمزة ضوءها ، وقد تفتح وتقال :

مقته إيالة الشمس إلا لثانته أصف فلم تكدم عليه بآدم (٢)

وفي قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتنه قليلاً ثم أضطره إلى هذاب النار وبئس المصير (٣) » يقول : « واختلف : هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام . فقال أبي بن كعب وابن إسحاق وغيرهما . هو من الله تعالى وقرأوا « فأمتنه » بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء « ثم أضطره » يقطع الألف وضم الراء ، وكذلك القراء السبعة خلا ابن عامر فإنه سكن فانه سكن وخفف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن في قراءة أبي « فنمتنه قليلاً ثم نضطره »

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٦ وفأمن هذا البيت طرد بين السد والماء في « مقته » ولثانته « يعود على النحر وهكذا المعبر الذي في « نسب » وممن سقته حسنة ويسنة وأشربته حسنا ، « وأسف » . ذر هاية « فلم سكدم عليه » أي لم تمنش خطا فيؤثر في نفرها .

(٣) آية ١٢٦ من سورة البقرة

بالنون . وقال ابن عباس ومجاهد وقناة : هذا القول من ابراهيم عليه السلام وقرأوا « فأنتم » بفتح الهمزة وسكون الميم « ثم أضطره » بوصل الألف وفتح الراء فسكان ابراهيم عليه السلام دما للمؤمنين وعلى الكافرين ، وعليه فيكون الضمير في « قال » « لا ابراهيم » وأعيد قال لطول الكلام ، أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل في « قال » هي قراءة الجماعة اسم الله تعالى واختاره النحاس وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة قال : وسق الكلام والتفسير جميعاً يدلان على غيرها .

أما سق الكلام : فإن الله خير من ابراهيم عليه السلام أنه قال « رب اجعل هذا بلداً آمناً » ثم جاء بقوله عز وجل « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ولم يفصل بينه « فقال » ثم قال بعد « قال ومن كفر » فسكان هذا جواباً من الله ولم يقل بعد قال ابراهيم . وأما التفسير فقد صح من ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب وهذا لفظ ابن عباس « دما لإبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن وأنه يمتعه قليلاً ثم يضطره إلى عذاب النار . قال أبو جعفر . وقال الله عز وجل « كلنا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك » وقول جل ثناؤه « وأمم سنمهم » قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن في ذنوبه كساراً فخص المؤمنين لأن الله تعالى قال « لا ينال عهد الظالمين ^(١) » .

وفي قوله تعالى « فصرهن اليك » ^(٢) يقول : قرأ قوم « فصرهن » بكسر الصاد وشد الراء المفتوحة ومعناه صيحن . من قولك صر الباب

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٣٠

(٢) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

والعلم إذا صوت . حكاية النقاش ، ثم قال ابن جني هي قراءة غريبة وذلك أن
« بفعل » بكسر العين في المضاهف المتمدى قاييل ، وإنما بابه « بفعل » بضم
العين : كشد يشد ونحوه ولكن قد جاء منه : ثم الحديث يته ، وهو الحرب :
يرهاويها . ومنه بيت الأدهي :

ليمتورك القول حتى تهـ (٧)

موقف القرطبي من القراءات المتواترة :

أما موقف القرطبي من القراءات المتواترة فإننا نراه أحياناً في حرونة
وتوجيه لها يظهر ترجيح بمضاهي بعض « في قوله تعالى » مالك يوم الدين
يقول : « اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان من
النبي (ص) وأبي بكر وعمر . ذكرها الترمذي . فقيل : « ملك » أهم وأبلغ
من « مالك » ، إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً ولأن أمر الملك نافذ على
للمالك في ما يحق لا يتصرف إلا من تدير الملك قاله أبو حنيفة وللبرد ،
وقيل « مالك » أبلغ لأنه يكون مالكا فأناس فالمالك أبلغ تصرفاً
وأعظم إذ إليه إجراء قوانين الشرع ثم عنده زيادة للتملك ، وقال أبو
علي : حكى أبو بكر السراج عن بعض من اختار القراءة « يملك » أن الله
سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله « رب العالمين » .

فلا غائدة في قراءة من قرأ « مالك » لأنها تكرار ، قال أبو علي : ولا حاجة
في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة . تقدم المأم ثم ذكر الخصاص

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٧ . ونوره معناه نسكه . وانظر القراءات
القرآنية للذكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٧٢ .

كقوله « هو الله الخالق البارئ المصور » فالحاق تعم وذكر المصور لما فيه من التنبيه على العنمة ووجود الحكمة ، وكما قال تعالى « وبالأخرة هم يؤمنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يعم الآخرة وغيرها ولكن ذكرها لمعظمها والتنبيه على وجوب اعتقادها والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال « الرحمن الرحيم » فذكر « الرحمن » الذي هو عام . وذكر « الرحيم » بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله « وكان للمؤمنين رحيمًا » وقال أبو حاتم إن « مالكا » أبلغ في مدح الخالق من « ملك » و « ملك » أبلغ في مدح المخلوقين من « مالك » والفرق بينهما أن للملك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي وذكر ثلاثة أوجه : الوجه الأول أنك تضيفه إلى الخاص والعام فنقول ، مالك أقدار والأرض والنوب . كما تقول مالك الملوك ، الثاني ، أنه يطلق على مالك القليل والكثير ، وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا والثالث ، أنك تقول مالك الملك ولا تقول ملك الملك .

قال ابن الحصار ، إنما كان ذلك لأن المراد من « مالك » القلة على الملك بسكر الميم وهو لا يتضمن « الملك » بضم الميم . وملك يتضمن الأمرين جميعاً فهو أولى بالبالغة . ويتضمن أيضاً الكمال ، ولذلك استحق الملك على من دونه ألا ترى إلى قوله تعالى « إن اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » ولهذا قال عليه السلام « الإمامة في قريش ^(١) » وقريش أفضل قبائل العرب والعرب أفضل من المعجم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار ، وذلك أمر ضروري في الملك ، إن لم يكن قادراً مختاراً نافذاً حكمه وأمره قهره هدوه وجار عليه قهره ، وأزدرته وهيته ، ويتضمن البطش ، والأمر والنهي ،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخلافة والامارة عن أنس ٢٧٣ .

والوهد والوهيد ، ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام « مالى لأرى الهدهد
أم كان من الثائيبين لأهدبته عناباً شديداً » إلى غير ذلك من الأمور المعجبة
والمعاني الشريفة التي لا توجد في المالك .

وارتضى القرطبي ذلك فقال في تكميله على من قال إن مالكا أبلغ زيادة
حروفه التي تقتضى زيادة ثوابه من قرأ به . إن «مالك» أبلغ معنى من «ملك»
يقول القرطبي « قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة
حرف فلقارته عشرين زيادة عن قرأ « ملك » قلت هذا نظر إلى الصيغة
لا إلى المعنى ، وقد ثبت القراءة بملك وفيه من المعنى ما ليس في مالك على علمنا
والله أعلم » (١) .

وفي قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » (٢)
يقول في المسألة الثانية . قرأ حمزة وحفص « البر بالنصب » لأن « ليس »
من أخوات كان يقع بعدها المرفعتان فتجعل أيهما شئت الاسم أو المجرور .
فلما وقع بعد « ليس » البر نصبه . وجعل « أن تولوا » الاسم وكان المصدر
أولى بأن يكون اسماً لأنه لا يتنكر والبر قد يتنكر والفعل أقوى في التعريف
وقرأ الباقر « البر » بالرفع على أنه اسم ليس وخبره « أن تولوا » تقديره :
ليس البر توليتكم وجوهكم . وعلى الأول ليس توليتكم وجوهكم البر كقوله
« ما كان حجتهم إلا أن قالوا » « ثم كان عاقبة الذين أساءوا للمواي أن
كذبوا » « فكان عاقبتهما أنهما في النار » وما كان مثله ، ثم قال القرطبي ،
« ويقوى قراءة الرفع أن الثاني معه الباء إجماعاً في قوله « وليس البر بأن تأتوا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) آية ١٧٧ من سورة البقرة .

البيوت من ظهورها ، ولا يجوز فيه إلا الرفع لحمل الأول على الثاني . أولى من مخالفته له ، وكذلك هو في مصحف أبي الباء « ليس البر بأن تولوا » وكذلك في مصحف ابن مسعود أيضاً ، وعليه أكثر القراء . والقراءتان حستان . (١) .

وأحياناً تختفي من توجهات القرطبي لقراءات للنوارة هذه الظاهرة : ففي قوله تعالى « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق » (٢) يقول : وقرأ نافهم « النبيين » بالهمز حيث وقع في القرآن إلا في موضعين في سورة الأحزاب « إن وهبت نفسها للنبي إن أراد » و « لا تدخلوا بيوت النبي إلا » فإنه قرأ بلا مد ولا همز ، وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين وترك الهمز في جميع ذلك الباقي . أما من همزه فهو عنده من أبأ إذا أخبر واسم فاعله مني . ويجمع نبي أنبياء ، وقد جاء في جمع نبي نبياء قال العباس بن مرداس السلمي يمدح النبي ﷺ :

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هذا كما

هذا معنى قراءة الهمز ، واختلف القائلون بترك الهمز ، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز ثم سهل الهمز : ومنهم من قال : هو مشتق من نيا ينبو إذا ظهر فالنبي من النبوة وهو الارتفاع فمترلة النبي رفيعة . والنبي بترك الهمز أيضاً الطريق ، فسمى الرسول نبياً لاهتداء الخلق به كالطريق . فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٨ . وانظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٦ آية ٢١٠ من سورة البقرة ، ج ٣ ص ١٩٩ في قول الله « لا جناح عليكم إن طلتم النساء نسوهن » وفي قوله « قال لم تعلموا ماذنوا بحرب » ج ٣ ص ٢٧٠

(٢ ، ٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٣١

وفي قوله تعالى « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من هنده فعميت عليكم » (١) يقول : قرىء « فعميت عليكم » وهذه قراءة نافع أى عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها ، يقال عميت عن كذا وهو على كذا أى لم أفهمه . والمعنى فعميت الرحمة . فقيل : هو مغلوب لأن الرحمة لا تسمى إنما يسمى ههنا فهو كقولك : أدخلت في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجله وقرأها الأعمش وحزرة والسكاكى « فعميت » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله أى فصاها الله عليكم وكذا في قراءة أبي فهاها « ذكر الماوردى » (٢) .

وأحب أن أقول أن توجيه القراءات يبرز كثيراً من المعانى التى يمكن أن تدل عليها ألفاظ القرآن الكريم . ولقد اهتم العلماء بتوجيه القراءات المتواترة وألفوا في ذلك كتباً عديدة ، وجعلوه أمراً محموداً .

أما الترجيح بين القراءات المتواترة . فقد أفتى بعض العلماء بأن السلاماء هند أهل الدين إذا صحت القراءتان أن لا يقال : إحداهما أجود . لأنها جميعاً من النبي ﷺ فيأثم من قال ذلك . وقال بعض آخر . إن المنع ينحصر فيها إذا رجعت إحدى القراءتين على الأخرى ترجيحاً يكاد يسقطهما ، وذهب فريق ثالث إلى جواز الترجيح بين القراءات للمتواترة (٣)

وإذا كان القرطبي قد رجح بعض القراءات المتواترة في توجيهاته فإنه لم يلتصق من الأخرى ، بل لقد امتدحها بقوله والقراءتان حسنتان . وفي الأمانة التى أشرت إليها لازمته هذه العبارة . على أنه بعد أن عرض آراء العلماء

(١) آية ٢٨ من سورة هود

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٥

(٣) انظر الإتيان ج ١ ص ٨٤ وتفسير التحرير مقدمة القراءات .

وموقفهم من قراءة « مالك » « وملك » ، جاء ترجيحه بعد أن كشف ما في القراءتين من وجود الحسن والبلاغة . ولم يمد إلى الترجيح قبلاً ، لأنه أو بعد أن كشف وجوه الترجيح في القراءة التي اختارها دون الأخرى . ثم إنه قال في ترجيحه بعد أن استعرض آراء العلماء : وقد ثبتت القراءة بملك وفيه من المكي ما ليس في مالك هل ما بينا والله أعلم . وليس في هذا ما يسيب القراءة الأخرى .

موقف القرطبي من بعض القراءات التي ردها النحاة :

تقدم لنا أن النحاة قد اختلفوا في مذاهبهم وأصولهم وأنهم لجأوا إلى القراءات يحاولون أن يستخرجوا منها شواهدهم وأدلتهم ، ولكنهم مع هذا رفضوا بعض القراءات المتواترة لأنها لا تتفق مع أصولهم وقواعدهم . ففي قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام » منع النحويون قراءة الخلفض كما منعوا غيرها من القراءات المتواترة في بعض الآيات ، ومن حقنا أن نتساءل ما هو موقف القرطبي من هذا للسلك ؟

يقول القرطبي في قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام » (١) « وقرأ إبراهيم النخعي وقتادة والأعشى وحزة «الأرحام» بالخلفض وقد تكلم النحويون في ذلك . فأما البصريون فقال رؤسائهم : هو لحن لا يهل القراءة به . وأما الكوفيون فقالوا هو قبيح ، ولم يزدوا على هذا ولم يذكروا علة قبحه . قال النحاس فيها حلت . وقال سيديويه : لم يسطف على المضمر المخفوض ، لأنه بمنزلة التنوين والتنوين لا يسطف عليه ، وقال جماعة : هو معطوف على اللكني فإنهم كانوا يساطون بها ، يقول الرجل : سألتك بالله والرحم . هكذا فسره الحسن

والنخعي ومجاهد . وهو الصحيح في للسألة هل ما يأتي : وضمنه أقوام منهم
الزجاج وقالوا : يقيح عطف الاسم الظاهر على المضمر في الخافض إلا بإظهار
الخافض كقوله « نخسنا به وبداره الأرض » ويقيح مررت به وزيد . قال
الزجاج عن المازني : لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحمل كل واحد منهما
على صاحبه . فكما لا يجوز « مررت بزيد وك » . كذلك لا يجوز « مررت
بك وزيد » وأما سيبويه : فهي هذه قبيحة ولا تجوز إلا في الشعر كما قال :
فاليوم قربت تهجونا وتشتننا فاذهب فابك والأيام من عجب

عطف الأيام على الكاف في « بك » بغير الباء للضرورة ثم قال : قال
الزجاج : قراءة حمزة مع ضمها وقبها في العربية خطأ عظيم في أصول أمر
الدين لأن النبي ﷺ قال « لا تحلفوا بآبائكم » (١) . فإذا لم يميز الحلف بغير
الله فكيف يجوز بالرحم ؟ ورأيت اسماعيل بن اسحق يذهب إلى أن الحلف بغير
الله أمر عظيم وأنه خاص لله تعالى . قال النحاس : وقول بعضهم « والأرحم »
قسم خطأ من المعنى والإعراب لأن الحديث عن النبي ﷺ يدل على النصب ،
وروى شعبة عن هون بن أبي جحيفة عن للنضر بن جرير عن أبيه قال : كنا
عند النبي ﷺ حتى جاء قوم من مضر حفاة عراة . فرأيت وجه رسول الله
ﷺ يتغير لما رأى من فاقهم . ثم صلى الظهر وخطف الناس فقال : « يا أيها
الناس اقوا ربكم » إلى « والأرحم » ثم قال « تصدق رجل بديناره تصدق رجل
بدرمه تصدق رجل بصاع تمره » وذكر الحديث (٢) ففي هذا النصب . لأنه
حضمهم على صلة أرحابهم ، وأيضاً فقد صح عن النبي ﷺ « من كان حالفاً

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان عن ابن عمر ج ٤ ص ١٠٣

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باختلاف يسير ج ٧ ص ١٠٢

فليحلف بالله أوليمنت» (١) فهذا يرد قول من قال : المعنى أسألك بالله .
وبالرحم . وعلق القرطبي فقال « قلت : هذا ما وقفت عليه من القول لملء
اللسان في منع قراءة « والأرحام » بالغرض واختاره ابن عطية ، ورده الإمام
أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري واختار المعطف فقال : ومثل
هذا الكلام (أي رد النجاة للقراءة وتخريجها على قواعدهم) مردود عند أئمة الدين
لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ وتواتراً يعرفه أهل
الصناعة ، وإذا ثبت شيء عن النبي ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ ،
واستتبع ما قرأ به ، وهذا مقام محذور ، ولا يقد فيه أئمة الفقه والنحو . فإن
العربية تملق من النبي ﷺ ، ولا يشك أحد في فصاحته ، وأما ما ذكر من
الحديث ففيه نظر . لأنه عليه السلام قال لأبي المشرأه « وأبيك لو طعنت في
خاصرتي » (٢) . ثم انتهى إجماعاً في الخلاف بغير الله . وهذا توسل إلى الغير بحق
الرحم فلا نهى فيه . قال القشيري : وقد قيل هذا إقسام بحق الرحم ، أي اتقوا
الله وحق الرحم كما تقول : أفعل كذا وحق أبيك ، وقد جاء في التنزيل « والنجم »
« والطور » « والثنين » « لعمرك » وهذا تكلف . ورد القرطبي على القشيري في .
في رفضه لهذا الرأي الأخير فقال : « قلت لا تكلف فيه فإنه لا يبعد أن يكون
« والأرحام » من هذا القبيل فيكون أقسم بها كما أقسم بمخلوقاته المذلة على
وحدانيته وقدرته تأكيداً لها حتى قرنها بنفسه والله أعلم . والله أن يقسم بمشاه

(١) أخرجه البخاري من صحيحه ج ٤ ص ١٠٢

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي المشرأه الدارمي عن أبيه بلفظ لو طعنت في
لهذا ج ١ ص ٣٤٣ . هذا في للتردية وأخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة قال
جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله نبئت ما أحق الناس مني
بحسن الصحبة فقال : نعم وأبيك لتبأن . أمك : قال : ثم من قال : أبوك . ج ٢ ص ٨١ .

ويمنع ما شاء ويبيح ما شاء ، فلا يبعد أن يكون قسماً ، والعرب تقسم بالرحم .
ويصح أن تكون « الباء » مرادة فحذفها كما حذفها في قوله :

مشائهم ليسوا مصاحين عشيرة ولا ناهب إلا بين غرابها

فجر وإن لم ينقسم « باء » قال ابن الدهان أبو محمد سميد ابن مبارك :
والسكوفى يميز عطف الظاهر على الجبرود ولا يمنع منه . واستدل بكثير من
الشعر منها قوله :

فأذهب فابك والأيام من هجيب وقوله

فحسبك والضحاك سيف مهند وقوله

قد رام آفاق السماء فلم يجد له مصمداً فيها ولا الأرض مقعداً

فنحن نرى أن القرطبي في هذا النص قد استمرض ما قاله النحويون في
منع قراءة « والأرحام » بالانفص وصحح في ثانياً عرضه العطف على الضمير
وقوى ذلك أخيراً بما نقله عن القشيري ، ورد رفض القشيري لمن خرج قراءة
الانفص على أساس أنها إقسام بالرحم ، وارتضى أن تخرج القراءة على هذا
أيضاً ، وعلى أن تكون الباء الجارة التي تجوز عطف الظاهر على المضمر —
وإن كانت محذوفة — مقدرة . ومرادة في الكلام . بل إن عطف الظاهر
على المضمر لا مانع منه عند الكوفيين . وبهذا دافع القرطبي عن القراءة
المثورة ، ولم يرفض مسلك النحاة (١) .

وإن « ابن جني » في كتابه الخصائص لم يزد في دفعه عن هذا عندنا

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٧ وما بعدها .

تحدث من هذه القراءة تحت عنوان « باب في أن المحذوف إذا دلت الالة عليه كان في حكم الملفوظ به » يقول ابن جني « من ذلك أن ترى رجلا قد دسا سهما نحو الفرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله . « أي » أصا القرطاس . « فأصاب » الآن في حكم الملفوظ به ألبنة وإن لم يوجد في اللفظ . غير أن دلالة الحال عليه ثابت مناب اللفظ به . وكذا قولهم لرجل مهو بسيف في يده : زيدا . أي « اضرب زيدا » فصارت شهادة الحال بالانتم بدلا من اللفظ . . وكذلك قولهم للقادم من سفر : خير مقدم . وقولك : قد مررت برجل إن . . . زيدا وإن ههنا . أي إن كان زيدا أو إن كان ههنا . وقولك للقادم من حجة : مبرور ما . . . وكذلك قوله .

رسم دار وقتت في طلاء كدت أفقى الغداة من جلاء

أي رب رسم دار وكان رغبة إذا قيل له كيف أصبحت يقول : خير وذلك الله . أي بخير . ويحذف الباء الالة الحال عليها يجرى المادة والمرف .. وعلى نحو من هذا تنوجه قراءة حزة وهي قوله سبحانه « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » ثم يقول : « ليست هذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رأاه فيها ، وذهب إليه أبو العباس لأبرد . بل الأمر فيها دون ذلك ، وأقرب وأخف ، وألطف ، وذلك أن لحزة أن يقول لأبي العباس : إنني لم أحمل الأرحام على المعاف على المجرور بل اعتقلت أن تكون فيه « باء ثانية » حتى كأتى قلت : وبالأرحام ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها كما حذف لتقدم ذكرها في نحو قولك : بمن تمر أمره ، وعلى من تنزل أنزل (١) .

وفي قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » (١) .

دافع القرطبي عن قراءة ابن عامر « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » برفع « قتل » ونصب « أولادهم » وجر « شركاؤهم » فقال : قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز في كلام ولا في شعر وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يفضل ، وأما بالأسماء غير الظرف فلمن . قال مكي : وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق في الشعر مع الظروف لا أسماءهم فيها وهو في المفعول به في الشعر بعيد . فإجازته في القراءة أبعد ، وقال المهدوي : قراءة ابن عامر هذه هي التفرقة بين المضاف والمضاف إليه . ومثله قول الشاعر :

فزججتها بمزجة زَجَّ القلوص أبي مزادة (٢)

يريد زج أبي مزادة القلوص وأشد :

تمس على ما تستمر وقد شفت خلائل هبد القيس فيها صدورها

يريد شفت هبد القيس خلائل صدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي : قراءة ابن عامر لا يجوز في العربية ، وهي زلة عالم ، وإذا زل العالم لم يميز أتباعه . ورد قوله إلى الإجماع . وكذلك يجب أن يرد من زل منهم أوسها إلى

(١) آية ١٣٧ من سورة الانعام .

(٢) زج هاهنا الطمن : والزجة بكسر اللام : رمح قصير كالناربيق والقلوص : يفتح اللام : الفتية من النوق . يخبر انه زج امرأه فزججه ، كما زج أبو مزادة القلوص وأبو مزادة كنيته رجل .

الإجماع . فهو أولى من الإصرار على غير الصواب . وإنما أجازوا في الضرورة
المشاهرة أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظروف لأنه لا يفصل كما قال :

كما خط السكتاب بكف يوما يهودى يقارب أو يزيل (١)

وقال آخر :

كان أصوات من إيمان بنا أواخر لليس أصوات الفرائج (٢)

وقال آخر :

لما رأيت سائيدا استميرت لله در اليوم من لامها (٣)

ثم رد القرطبي ذلك بما نقله عن الفشيري : فقال : وقال الفشيري : وقال
قوم هذا قبيح ، وهذا محال ، لأنه إذا ثبتت القراءة بالتواتر عن النبي ﷺ
فهو الفصيح لا القبيح ، وقد ورد ذلك في كلام العرب ، وفي مصحف عثمان
« شركاهم » بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل في هذه
القراءة إلى الشركاء . لأن الشركاء هم الذين زينوا ذلك ودعوا إليه بالفعل . مضاف
أى (مستند) إلى فاعله على ما يجب في الأصل . ولكنه فرق بين المضاف

(١) الشاهد في البيت إضافة السكت إلى اليهودى مع الفصل بالظرف . وصف رسوم
الدار فشيها بالسكتاب في دقتها والاستدلال بها . وخس اليهود لاهم أهل كتاب ، وجعل
كتابتها بصها متلارب وبضها مفترق متبان ، لا تشناه آثار الديار وتلك الصفة والمحال .

(٢) الشاهد في البيت إضافة الاصوات إلى أواخر لليس مع فصله بالجور ضرورة .
وليس شجر تمل منه الرجال . والابنال سرعه السر . يقول سكان أصوات أواخر لليس
من شدة سير الأبل بنا واضطراب رجلا هليها : أصوات الفرائج .

(٣) الشاهد في البيت إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم
يسكنه إضافة الدار إليه . وصف امرأة نظرت إلى « سائيدا » وهو جبل بعينه بعيد عن
ديارها فدهسكت به بلادها فاستمرت شوقا إليها .

وللضاف إليه ، وقدم للفعول ، وتركه منصوباً على حاله إذ كانت متأخراً في
الغنى ، وأخر المضاف وتركه مخفوضاً على حاله ، إذ كان متقدماً بعد القتل .
والنقدیر : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم أى أن
قتل شركائهم أولادهم (١) .

فالقرطبي بعد أن استعرض أقوال النحويين ومن تابعهم من المفسرين في منع
قراءة ابن عامر . دافع عنها ووجهها بما نقله عن القرطبي . وهذا أيضاً لم يرتض
مسالك النحاة ولم يوافقهم فيما ذهبوا إليه كما وافقهم بعض المفسرين . . وإذا
كان القرطبي قد نص على بعض المفسرين الذين وافقوا النحاة فيما ذهبوا إليه
فإن هناك عدداً من المفسرين لم يذكرهم القرطبي ووافقوا النحاة في مسلكتهم
أيضاً « فالطبري » قد بين في تفسيره . ضف هذه القراءة وقبحها في العربية .
وكذلك فعل « الزخشرى » . يقول الزخشرى : « وأما قراءة ابن عامر »
قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة
القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بفعل الخلف فثبوته لو كان في مكان
الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً كما سمج ورد

زج القلوص أبي مزادة

فكيف به في الكلام المنشور . فكيف به في القرآن للجزء بحسب نظمه
وجزأته ؛ والذي حمل على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركتهم مكتوباً
بالياء (٢)

ولقد دافع « أبو حيان » عن هذه القراءة وهاجم « الزخشرى » فقال :

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) تفسير الزخشرى ج ٢ ص ٥٥ فذكره عبد الباقى سالم ص ١٠٧

وأعجب لمجى ضعيف في النحو يرد على هربى صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت • وأعجب لسوء ظن الرجل بالفراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اهتمد المسلمون على قلمهم ، لضبطهم وفهمهم وديانتهم • ثم قال : وإذا كان قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجلّة في قول بعض العرب : هو غلام - إن شاء الله - أخيك . فالفصل بالفرد أسهل (١) .

من هذا يتضح أن القرطبي دافع عن القراءات المتواترة ورد هجيات النحويين عليها ولم يرض مسلّكم • وهذا منهج مستقيم ، فإن العقل قد يتصور أن بعض القراءات الشاذة لا توافق العربية ، ولكنه لا يتصور أن القراءات المتواترة تخالف العربية • وفي هذا يقول السيوطي : « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على حاصم ، وحزمة ، وابن حاتم قراءات بعيدة في العربية ، وينسبونهم إلى الفحن ، وهم مخطئون في ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا ملطن فيها ، وثبت ذلك دليل على جوازه في العربية » (٢) .

وفوق هذا فإن القراءات سنة متبعة وقد أثبت القرطبي ذلك في كثير من المواضع في تفسيره (٣) وليس معنى هذا أنه يجوز القراءة بما لا يسوغ في العربية كلا ، إنما المعنى أن النحاة لم يحيطوا بكل ما ورد عن العرب فكان الأولى ألا يردوا ذلك ، وأن يلتزموا تأويلها وتخريجها اعتداداً بمن رواها من الأئمة وأن يقولوا كما قال « أبو عمرو بن الملاء » : « ما انتهى إليكم مسألاته العرب إلا أقفه ولو جاءكم لم جاءكم علم وافر وشر كثير » (٤) .

(١) أثر الفراء انتهى الدوايات النحوية لـ الدكتور عبدالمال سالم ص ١٠٧ (٢) الصمد السابق •

(٣) انظر على سبيل المثال ما ذكره في قوله ولذا قال موسى لتوّمه يا قوم ح ١ ص ٤٠٠

(٤) أثر القراءات في الدوايات النحوية ص ١٠٨ •

الفصل الثالث

اللغة في تفسير القرطبي

حاول القرطبي أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم ، وأن يوضحها بلغة العرب ، فبين معنى للكلمات ومدلولاتها بما قاله أئمة اللغة ، وما تناقله العلماء منهم ، وحث القرطبي بما نقله من الأحاديث والأخبار في مقدمته على البحث في ألفاظ القرآن وطلب معانيها . ومنها ما روى أن رسول الله ﷺ قال « أهربوا القرآن واتمسوا خرائبه » وما روى عن ابن مسعود أنه قال « جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأهربوه فإنه هربى والله يحب أن يعرب به » وحدد السيوطي المراد بأهراب القرآن وهو يتحدث عن الحديث الأول فقال : « وإيس المراد به الإهراب المصطلح عليه عند النحاة ، وهو ما يقابل الإعراب لأن القراءة مع فقدته ليست قراءة ولا ثواب فيها » (١) .

وشكك بعض الباحثين فيما روى في الحث على إهراب القرآن من الأحاديث والآثار فقال « والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر لأن الإهراب لم يظهر مصطلحا إلا في عصر متأخر » . ويبدو أنها كذلك (٢) . ثم قال « وفي نظري أن للرد بالإهراب الإيابة والتوضيح وفهم الغريب وقد كان الصحابة رضئ الله عنهم يسمون هذا الغريب إهراب القرآن لأنهم يستبينون معانيه

(١) الامتياز ج ١ ص ١٤١ يتصرف

(٢) حديث « أهربوا القرآن » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ، وسنده ضعيف . انظر رسالة ابن عطية للأميل عبد الوهاب فايد ص ١٣٥ .

ويخلصونها^(١) والباحث مسبوق في ذلك وليس أول من حدد للراد من الإهراق
بالإبانة كما نزل هيارته .

ولقد استعرض القرطبي في تفسيره مباحث لغوية كثيرة حاول بها أن
يوضح اللفظ القرآني وأن يبين مدلوله . ومن هذه للمباحث : الاشتقاق .

نرى القرطبي يأخذ المعنى الغوى للكلمة . فيجعل أصلها من الكلمات
التي تقرب من هذه الكلمة في حروفها . وذلك قلاهن أمة اللفظ وما تناسله
المعاني عندهم . . ففي قوله تعالى « وأولئك هم المفلحون » يقول : الفلاح أصله في
اللفظ الشق والتقطع ، قال الشاعر :

إن الحديد بالحديد يفلح

أى يشق ، ومنه فلاحه الأرضين ، أى شقها قاله أبو هبيد . ولذلك سمي
الأكار^(٢) فلاحا ، ويقال للذى شقت شقته السفلى : أفلح ، وهو بين الفلحة ،
فكان الملاح قطع المصايب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل في الفوز والبقاء .
وهو أصله أيضا في اللفظ . ومنه قول الرجل لامرأته : استفلحي بأمرك ، معناه
فوزي بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حى مدرك الفلاح أدركه ملاهب الزمان

وقال الأضيض بن قريع السعدي :

لكل م من المهموم سمه والمسى والصبح لا فلاح معه

(١) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد المال سالم ص ٢٦٣

(٢) الذى يحرق الارض .

يقول ليس مع كرايل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلاداً كلها حل قبلنا ونرجو الفلاح بعد عاد وخير

أى البقاء . وقال هيبند :

أفلاح بما شئت فقد يدرك بالضف وقد يندفع الأريب

أى أبى بما شئت من كس وحق . فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل فعلى
« وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى اسحاق :
المفلحون هم الذين أدرکوا ما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا . والمعنى
واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث « حق كاذب فوثنا الفلاح
مع رسول الله ﷺ . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور » أخرجه أبو داود (١)
فكان معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلها سماه فلاحاً . ثم
الفلاح فى العرف الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب (٢) فالقرطبي قد أخذ
المعنى الذى لكلمة (الفلح) وهى أصل اشتقاق كلمة (المفلحون) وبين أن
معناها فى اللغة إما أن يكون الشق والقطع ، أو الفوز والبقاء ، ثم بين اللفظ
القرآنى ووضعه على كلا المعنيين ، وجعلهما أصلاً لمعنى الكلمات التى تقرب
من هذه الكلمة . كالفلاحة والفلاح (بتشديد اللام) والفلاح وغيرها .

وينضح ذلك فى قوله تعالى « والحصينات من النساء » (٣) فقد بين أن
الحاء والصاد والنون تؤلف بناء معناه للنعم ، وأن هذا المعنى يوجد فى كل كلمة

(١) أخرجه أبو داود عن جابر بن عبد الله عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ . انظر منحة المعبود فى ترتيب مستند الطيالسى أبو داود للاستاذ الساقى ج ١ ص ١٢٠

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٣ آية ٥ من سورة البقرة .

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

تقرب من هذا البناء . ثم أخذ يوضح اللفظ القرآني على ضوءه . فقال :
والحصن التمتع لأنه يتمتع فيه ، ومنه قوله تعالى « وهلمناه صنعة لبوس لكم
لنحصنكم من بأسكم » (١) أى لتمتعكم . ومنه الحصان للفرس يسكر الحاء
لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . الحصان يتمتع الحاء المرأة العفيفة لئلا ينفذها
الهلاك وحصنت للمرأة تحصن فهي حصان مثل جنت فهي جيان . وقال حسان في
عائشة رضي الله عنها :

حصان رزان ما تزن يرية وتصبح غرثي من لحوم الغوافل (٢)

والصدر الحصانة ، والحصن كالمسلم . فلراد بالحصنات هاهنا ذوات
الأزواج يقال امرأة محصنة أى متزوجة ، ومحصنة أى حرة . ومنه « والحصنات
من المؤمنات والحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (٣) ومحصنة أى عفيفة .
قال الله تعالى « محصنات غير مسافحات » (٤) وقال « محصنين غير
مسافحين » (٥) ومحصنة ومحصن أى عفيفة أى بمنة عن الفسق .
والحرية تمنح الحرة مما يتعاطاه العبيد . قال الله تعالى « والذين يرمون
المحصنات » (٦) أى الحرائر . وكان عرف الإمام في الجاهلية الزنا . ألا ترى
إلى قول هند بنت عتبة لعنني ﷺ حين بايعته : وهل تزني الحرة؟ والأزواج
أيضاً يمنع زواجه من أن تزوج غيره . ثم قال القرطبي « فبناء » ح من ن

(١) آية ٨٠ من سورة الانبياء .

(٢) زن تنهم غرثي جائمة . ولراد أنها لا تقتلب غيرها .

(٣) آية ٥ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) آية ٢٤ من سورة النساء .

(٦) آية ٤ من سورة النور .

ممناء للنع كما بينا ويستعمل الإحصان في الإسلام . لأنه حافظ ومانع . . .
ومنه قول المنذلي :

فليس كهده الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وقال الشاعر :

قالت هلم إلى الحديث قفقت لا يأبى عليك الله والإسلام
ومنه قول سحيم :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا (١)

وفي قوله تعالى « ولتصني إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » (٢) بين
القرطبي أن المعنى القوي لهذا اللفظ : الميل . فقال : وأصله الميل إلى الشيء
لفرض من الأغراض ، ثم أبرز هذا المعنى في الكلمات القرينية من اللفظ القرآني
في الآية . فقال : « ومنه صفت النجوم : أي مالت للغروب ، وفي التنزيل
« فقد صفت قلوبكم » قال أبو زيد : يقال صفوه مملك — وصفوه وصفاء
مملك ، أي ميله ، وفي الحديث « فأصنى لها الإناء » (٣) يعني للهرة . وأكرموا
فلانا في صافته أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده ، وأصفت
الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يشد عليها الرحل .
قال ذو الرمة :

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٠ وما بعدهما .

(٢) آية ١١٣ من سورة الانعام .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في باب ما جاء في سؤر الهرة من كبشة بنت كعب
انظر فقه الاجودى ج ١ ص ٣٠٨ .

نصفى إذا شدها بالسكور جاحضة حتى إذا ما استوى في فرزها نسب (١)

ولقد أطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الاشتقاق اسم الاشتقاق العام (٢) وكان القرطبي يذكر للكلمة أحياناً أكثر من أصل اشتقاقى ، وقد يرجح بينهما تارة ، وقد يعرضها تارة أخرى بلا ترجيح أو اعتراض ، ولله فى تلك الحالة يكون قد ارتضى ما ذكره . . . ومن ذلك ما ذكره فى للسألة السابعة عشرة من مسائل البسمة فقد قال : « اختلفوا فى اشتقاق الاسم على وجوهين فقال البصريون : هو مشتق من السو وهو الملو والرفة . فقبل اسم لأن صاحبه بمنزلة للرفع به . وقيل : لأن الاسم يسو بالمسى فغيره من غيره . وقيل : إنما سمي الاسم اسماً لأنه علا بقوته على قسى الكلام . الحرف والفعل . والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل . فلهو به عليها سمي اسماً فهذه ثلاثة أقوال . وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهى العلامة . لأن الاسم علامة لمن وضع له . وأصل اسم على هذا « رسم » ثم رجح القرطبي الرأى الأول فقال : والأول أصح لأنه يقال فى التصغير : سمي وفى الجمع أسمىاء ، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها . فلا يقال رسم ولا أوسام . »

(١) السكور رجل الناقة بأداته . وهو كالسرج وآله لافرس قال ابن سيده وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ . وجاحضة مائلة لاصقة . والغرز سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب . وصف ناقته بالبطانة وسرعاً بالحركة . انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٦٩ .

(٢) انظر فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وفى ص ١٤٣ فلقد تحدث المؤلف عن معنى الاشتقاق العام وبين أن الاشتقاق عند علماء الصرف يتناول المشتقات فقط وهى أفعال الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم للمفعول واسم الزمان واسم المكان واسم الآلة . وعلى هذا فالاشتقاق الصرفى قسم من الاشتقاق العام .

ثم انتقل القرطبي إلى بيان ثمرة الخلاف وفائده . واستدل بها أيضاً على ترجيح الرأي الأول فقال : « ويدل على صحته أيضاً قائمة الخلاف وهي :

الثامنة هشرة : فإن من قال الاسم مشتق من الملو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق ؛ وبعد وجودهم ، وعند فناءهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته ، وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم المشتق من البسملة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة . فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات فإذا أنفهم . بقي بلا اسم ولا صفة وهذا قول المعتزلة . وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة . وهو أعظم في الخطأ من قولهم أن كلاماً مخلوق ، تعالى الله عن ذلك » .

وفي مسائل البسملة أيضاً . في المسألة الحادية والعشرين . وهو يتحدث عن لفظ الجلالة يقول : « قيل : هو مشتق من وله إذا تحير ، والوله ذهاب العقل . يقال رجل وله ، وامرأة والهة وواله ، وماء موله » . أرسل في الصحاري : قاله سبحانه تنحير الألباب ، أو يذهب في حقائق صفاته ، والفكر في معرفته . فعلى هذا أصل « إله » « ولله » . وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح . وإسادة . ووسادة وقيل أنه مشتق من « أله » الرجل . إذا تمبذ وتأله إذا تنسك . ومن قوله تعالى « ويترك وإلهتك » (و تعبدك) على هذه القراءة فإن ابن عباس وغيره قالوا . وعبادتك قالوا : فاسم الله مشتق من هذا . قاله سبحانه معناه المقصود بالعبادة . ومنه قول الموحدين لا إله إلا الله . معناه لا معبود غير الله » (١) ولعل القرطبي قد ارتضى هذين الأصلين ولهذا لم يعرض على واحد منهما . .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠١ وما بعدها .

ونرى السيوطي يرجح أحد أصول الاشتقاق في لفظ الجلالة بل ويضع لترجيح قواعد في كتابه المزهري : فيقول « إن الكلمة إذا ترددت بين أصليين أو أكثر في الاشتقاق وطلب الترجيح . فلها الترجيح قواعد . ومن التواضع التي ذكرها . » أن يكون أحد الأصليين أشرف . لأنه أحق بالوضع له . والنفس أذكر له ، وأقبل . وذلك كدوران كلمة (١) الله عند من اشتقها . بين الاشتقاق من أله أو لوه أو وله فيقال من أله أشرف وأقرب . »

وهناك نوع آخر من الاشتقاق وجه به القرطبي اللفظ القرآني . وهو :

الاشتقاق الكبير . ويطلق عليه كثير من المحدثين اسم الاشتقاق الأكبر وأطلق عليه السيوطي اسم الإبدال . وهو أن تتماكب الحروف فيبدل بعضها من بعض ، ويبقى المعنى بعد هذا الإبدال متغافراً . ومثال ذلك امتنع لونه وانتقم . وهدر الحام وهمل ، ورغم أن القرطبي وجه بهذا النوع من الاشتقاق اللفظ القرآني . إلا أنه قد أشار إلى أنه ليس بكثير في كلام العرب . وإلى أنه لا يقاس عليه .

ففي قوله تعالى « فادع لنا ربك » يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقنابها وقومها (٢) يقول : اختلف في القوم فقيل : هو النوم لأنه المشاكل لبصل رواء جوير من الضحاك والشاء تبدل من الغاء كما قالوا : « مغاير ومغاير » ، وجدت وجدى « لقبر » ، وقرأ ابن مسعود « ثوما » بالشاء المشابة وروى ذلك عن ابن عباس وقال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس والغومان والبعل

(١) المزهري للسيوطي بتصرف ح ١ ص ٢٠٢

(٢) آية ٦١ من سورة البقرة

والفراديس واحدها فرديس وكرم مفردس أى معرش وقال جسان :

وأنتم أناس لثام الأصول طماكم القوم والحوقل

يعنى الثوم والبصل . وهو قول السكاكى ، والنفسر بن شميل . وقيل :
القوم الخنطة . روى عن ابن عباس أيضا ، وأكثر المفسرين ، واختاره النحاس
قال : وهو أولى . ومن قال به أهل . وأسايد صحاح . وليس جوير بنظير
لروايته . وإن كان السكاكى والفراء قد اختاروا القول الأول لإبدال
العرب الفاء من التاء والإبدال لا يقاس عليه وليس ذلك بكثير فى كلام
العرب (١) .

وفى قوله تعالى « إنا خلقناهم من طيب لازب » (٢) بين القرطبي أن لفظة
« لازب » معناها « لاصق » ثم قال : ومنه قول على رضى الله عنه :

لعل فان الله زادك بسطة وأخلق خير كلها لك لازب

.. وقال هكزما لازب لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حر يلصق
باليد مجاهد : « لازب » لازم ، والعرب تقول طين لازب ولازم . تبدل الباء
من الميم .. واللازب الثابت . تقول : صار الشيء ضربة لازب . وهو
أفصح من لازم . وقال الخنابة :

ولا تحسبون الخبير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب : طين لائب بمعنى لازم . واللائب : الثابت

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٥

(٢) آية ١١ من سورة الصافات .

تقول: منه ؛ لنب يلنب لتبا ولتوبا مثل لنب يلزب بالضم لزوبا . وأنشد
أبو الجراح في اللاتب :

: فإن يك هذا من فيئذ شربته فأنى من شرب التنيئذ لئائب
صداع وتوصيم العظام وفقرة وهم مع الإشراف في الجوف لائب

ولقد أشار القرطبي في توجييه لبعض ألفاظ القرآن الكريم إلى نوع
ثالث من الاشتقاق يسمى للنحت ومعناه في أصل اللغة : البرى يقال نحت
الخشب والعود إذا برأه وهذب سطوحه ومثله في الحجارة والجبال قال الله
تعالى « أعبدون ما تنحتون » وتنتحون من الجبال بيوتا « أما في الاصطلاح
فهو أن تتمد إلى كلمتين أو جملة فتزعم من مجموع كلماتها كلمة تدل على الجملة
نفسها . ولما كان هذا النوع يشبه النحت من الخشب والحجارة فقد سمي نحتا .
وهو في الحقيقة من قبيل الاشتقاق وليس اشتقاقا بالفعل لأن الاشتقاق أن
تزرع كلمة من كلمة والنحت أن تزرع كلمة من كلمتين أو أكثر ونسعى تلك الكلمة
المتزوعة منحوتة . وينقسم النحت إلى أقسام منها نحت كلمة من جملة ، ولقد
أشار القرطبي إلى هذا النوع من مسائل البسطة فقال : في المسألة السابعة قال
الماوردي : ويقال لمن قال بسم الله : بسمل ، وهي لغة ولادة ، وقد جاءت في
الشعر ، قال صهر بن أبي ربيعة :

لقد بسملت ليل خداة لقيتها فيأجبنا ذلك الحبيب البسمل

:

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٦٨ وما بعدها، والنظر في معنى الإبدال .
فهذه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وأنى ص ١٤٧ والتشريب والاشتقاق للاستاذ
عبد القادر بن مصطفى المغربي ص ١٢ والتمزهر للسيوطي ص ٢٢٢ ح ١ .
والخصائص لابن جني ص ٥٣٧ ح ١ .

وتعقب القرطبي للأوردي ، وبين لنا أن لفظ بسم الله ليس مشهوراً في اللغة . وإنما هناك ألفاظ أخرى أشهر منها لأنها تنوقلت عن علماء اللغة . فقال : « قلت : المشهور عن أهل اللغة : بسم الله ، قال يعقوب بن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٣) والمطرز (هو محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥) ، والنعماني ، وغيرهم من أهل اللغة : بسم الله الرجل إذا قال بسم الله ، يقال ، قد أكثر من اللبس له أى من قول بسم الله . ومثل حوقل الرجل . إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله . وهلم إذا قال : لا إله إلا الله . وسبحل إذا قال : سبحان الله . وحمل إذا قال . الحمد لله . وحصل إذا قال : حي على الصلاة . وجعل إذا قال : جعلت فداك . وطبق إذا قال . أطال الله بقاءك . ودمع إذا قال : أدام الله عزك . وحيفل إذا قال : حي على الفلاح . ثم قال القرطبي « ولم يذكر للمطرز . الخبيصة إذا قال : حي على الصلاة . وجعل إذا قال : جعلت فداك . وطبق إذا قال : أطال الله . بقاءك ودمع إذا قال : أدام الله عزك . » فالقرطبي في هذا النص قد ذكر تقريباً كل لكلمات التي حدث فيها نحت من جملة ، وهذا النوع كما يقول : الدكتور على عبد الواحد وافي « لم يرد إلا في كلمات قليلة معظمها مستحدث في الإسلام ، ومن المباحث اللغوية التي استمرضها القرطبي في تفسيره « الاشتراك » ومنه أن يكون لاسم الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق الحقيقة لا المجاز .

ولقد وقف علماء اللغة من هذا المبحث ، موقفين متضادين . فمنهم من ذهب إلى أنكر وروده ، وعلى رأس هؤلاء « ابن درستويه » وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده وضرب له كثيراً من الأمثلة . ومن هؤلاء الأصمعي والغليل وسيبويه . وابن فارس . والنعماني . والمبرد . وغيرهم . بل أفرد بعض علماء

هذا الفريق لا مشترك مؤلفات على حدة (١) .

وإن القرطبي لم ينسكرك الاشتراك . وإنما أشار إليه ، ونقل عن العلماء الذين
اعترفوا به . ففي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » حدد
القرطبي المعنى المراد من الصلاة في الآية . ثم أشار إلى أن لفظ الصلاة من الألفاظ
المشتركة وأنها تطلق على عدة معان فقال « الصلاة الدعاء والصلاة الرحمة »
ومنه « اللهم صل على محمد » الحديث ، والصلاة العبادة ، ومنه قوله تعالى « وما
كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أى عباداتهم والصلاة النافلة ومنه
قوله تعالى « وأمر أهلك بالصلاة » (٢) والصلاة : التسبيح والوجود التسبيح فيها
ومنه قوله تعالى « فلو لا أنه كان من المسبحين » (٣) . أى من المصلين . ومنه
سبعة الضحى ، وقيل فى تأويل « تسبيح بحمدك » (٤) لصلى لك . والصلاة القراءة
ومنه قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك » (٥) ثم قال بعد هذا « فهو لفظ مشترك » (٦)
وفى قوله تعالى « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٧) يقول :

« إذا أراد الله إحكام أمر وإنفاذه — كما سبق فى علمه — قال له كن

(١) انظر فقه اللغة للدكتور عبد الواحد واقى ، فصل الاشتراك ، والمزهر للسيوطى
ص ٣٦٩ طبع هيسى الخلى بتحقيق محمد أبو الفضل وآخرون .

(٢) آية ١٣٢ من سورة طه . يبدو أن المراد الفريضة لا النافلة فإن هذه الآية خطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل فى عموم جميع أمته وأهل بيته على التخصيص ، وكان
عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت طاعة وعلى ويقول « الصلاة »

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات .

(٤) آية ٣٠ من سورة البقرة

(٥) آية ١١٠ من سورة الاسراء

(٦) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٩

(٧) آية ١١٧ من سورة البقرة

فيكون» ثم قال: قال ابن هرة: «قضاء الشيء إحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه. ومنه معنى القاضى، لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين». وبعد أن حدد القرطبي المراد من لفظ «قضى» في الآية بين أنه من الألفاظ المشتركة فقال: «قال علماءنا: قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق. قال الله تعالى: «فنبضهن سبع سموات في يومين»^(١) أى خلقهن ويكون بمعنى الإحلام. قال الله تعالى: «وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب»^(٢). «أى أحلنا. ويكون بمعنى الأمر كقوله تعالى «وقضى وبك ألا تعبدوا»^(٣) إلا إياه، ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ومنه معنى الحاكم قاضيا. ويكون بمعنى توفية الحق. قال الله تعالى «فلما قضى موسى الأجل»^(٤) ويكون بمعنى الإرادة كقوله تعالى «فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»^(٥).

وقد تذكر القرطبي معان كثيرة لبعض الألفاظ. ولكنه لا يشير إلى الاشتراك. ورغم هذا فلاشتراك واضح في تلك الألفاظ. ففى قوله تعالى: «الحمد لله رب العالمين» فسر في المسألة الثامنة لفظة «رب» بالمالك. ثم أخذ يذكر معانيها فقال: «والرب السيد ومنه قوله تعالى «اذكرنى هند ربك»^(٦) وفى الحديث أن نلدا الأمه ربتهما»^(٧) أى سيدتهما، والرب المصلح والمدير

(١) آية ١٢ من سورة فصلت

(٢) آية ٤ من سورة الاسراء

(٣) آية ٢٢ من سورة الاسراء

(٤) آية ٢٩ من سورة القصص

(٥) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٨٨ من سورة البقرة

(٦) آية ٤٧ من سورة يوسف

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجه عن أنى هيرة فى باب أشراف الساعه ج ٢ ص ٢٥٨

انظر سنن ابن ماجه بإحاشية السندى ج ٢ ص ١٥٨.

والعاجز والفاني» قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه يربه فهو رب له ورب له ورب له ورأب ومنه سمي الربانيون . لقياسهم بالكتب ، وفي الحديث « هل لك من نعمة تربها عليه » أي تقوم بها تصلحها ، والرب المعبود
تومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثملبات برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعالب (١)

للطلق والمقيد :

فوق القرطبي بين الألفاظ التي توم الترادف ، أو بعبارة الفونين فرق بين المطلق والمقيد : ونقل عن علماء اللغة تلك التفرقة . وارتضاها في تقديره ولم يرتض لمثل هذه الألفاظ أن تكون من قبيل للترادفات .

ففي قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة » يقول في المسألة الثانية : وفراً أبو جعفر ابن القمعا : « الميتة بالتشديد » وقال جماعة من الفونين : التشديد والتخفيف في ميت وميت لفتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يميت بعد فلا يقال فيه « ميت » بالتخفيف . دليلة قوله تعالى : « إنلك ميت وإنهم ميتون » (٢) وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يميت إلا ما روى البزى عن ابن كثير « وما هو بميت » (٣) والمشهور عنه التشكيل . وأما قول الشاعر :

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها

(٢) آية ٣٥ من سورة الزمر

(٣) آية ١٧ من سورة الزمر

إذا ما مات ميت من نهم فسرك أن يعيش فجاء بزاز
فلا أبلغ في الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى
أنه أراد من شارف الموت ، والأول أشهر (١) .

ويتضح ذلك أيضاً في قوله تعالى « . . والسكاطين النبط » فقد قال في
المسألة الثانية : كظم النبط رده في الجوف يقال : كظم غيظه أى سكت عليه ،
ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه ، وكظمت السماء أى ملأته وسدتها عليه
والسكظامة ما يسد به مجرى الماء . ومنه : السكظام للسير الذى يسد به فم الزق
والقربة . وكظم البعير جرت . إذا ردها في جوفه ، وقد يقال لحبسه الحجر قبل أن
يسلها إلى فيه : كظم . حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة . إذا لم
يجترا . ومنه قول الشاعر :

فأفضن بسد كظرمين بحجرة من ذى الأباقي إذا رهين حقيلاً
الحقيل موضع ، والحقيل نبت ، وقد قيل إنها تفعل ذلك عند الفزع
والجهد فلا تجتر . قال أهدى باهلة يصف رجلاً نحاراً إلا بل فهو تفزع منه :
قد تكظم البزل منه حين تبعره حتى تقطع في أجوافها الجور

ومنه : رجل كظيم ، ومكظوم ، إذا كان متمكناً غماً وحزنًا . وفي التنزيل :
« وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (٢) « ظل وجهه مسوداً وهو
كظيم » (٣) « إذ نادى وهو مكظوم » (٤) ثم قال : « والغيظ أصل الغضب

(١) تفسير الفرطحي ج ٢ ص ٢١٦ آية ١٧٣ من سورة البقرة . وانظر منهج الزمخشري
في تفسير القرآن ص ١٦٦ .

(٢) آية ٨٤ من سورة يوسف

(٣) آية ٥٨ من سورة النحل

(٤) آية ٤٨ من سورة القلم

وكثيراً ما يتلازمان لكن فرقان ما بينهما أن الفيظ لا يظهر على الجوارح بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع قتل ولا يد . ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المنضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس ، الفيظ بالغضب ، وليس بجيد والله أعلم (١) .

وكذلك في قوله تعالى : « ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » (٢) فرق القرطبي بين المائدة والخوان فقال : « المائدة الخوان الذي عليه الطعام قال قطرب : لا تكون المائدة مائدة حتى تكون عليها طعام . فإن لم يكن قيل خوان وهي فاعلة من ماد هبته إذا أطعمه وأعطاه » (٣) .

وفي قوله تعالى « يطاف عليهم بكأس من معين » فرق القرطبي بين الكأس والإناء فقال : « الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه . فإن كان فارغاً فليس بكأس . قال الضحاك والسدي : كل كأس في القرآن فهي الخمر . والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، وإن لم يكن فيه خمر قالوا : إناءً وقدح ، ونقل القرطبي عن النحاس أنه قال : حكى من يوثق به من أهل اللغة : إن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس ، فإن لم يكن فيه خمر فهو قدح . كما يقال للخمر إناء إذا كان عليه طعام مائدة . فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة » (٤) .

ولقد منع من هذه التفرقة بعض علماء اللغة وقالوا : إن أمثال ذلك من

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) آية ١١٤ من سورة المائدة

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦٧

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ آية ٤٥ من سورة الصافات . وانتظر الصاحبي

في فقه اللغة لأن فارس طبع السلفية ص ٦٥ وما بعدها .

قبيل المترادفات . ولكن القرطبي أهرض من ذلك كما رأينا في بعض الأمثلة السابقة حيث فرق بين الغضب والغضب . ورد قول من قال : إن الغضب مساو للغضب واقتصر في الأمثلة الأخرى على أقوال القائلين بالفرقة فلم يذكر آراء غيرهم ، وهو بهذا يدل على رضا بهذا الملاك وإعراضه عن المسلك الآخر .

احتكام القرطبي إلى اللغة :

قدمنا في التفسير المأثور أن القرطبي كان يفاضل بين الآراء ويرجح بعضها أحياناً بما تشهد له اللغة وتأييده . ومثل ذلك ما ذكره في قوله تعالى « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » فقد قال جمهور المفسرين : إنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة . قال مكي من بعضهم : حتى القرن والظلف ، وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . ومن الحسن أيضاً : صفراء منهاها سوداء . قال الشاعر :

للك خيل منـه وتلك ركابي من صفر أولادها كالزبيب

ولم يرتض القرطبي هذا الرأي لأن اللغة لا تؤيده . فقال : « قلت والأول أصح لأنه الظاهر وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل . قال الله تعالى : « كأنه جملة صفر » (١) وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة ولو أراد السواد لما أكداه بالقوع . وذلك نمت غنص بالصفرة ، وليس يومض السواد بذلك . تقول العرب : أسود حالك . . . وأحمر قان . وأبيض ناصع ، وأخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، هكذا نص قلة اللغة عن العرب . قال الكسائي : « يقال فقع لونه يقع فتوعاً إذا خلصت صفرة » (٢) .

(١) آية ٣٣ من سورة المرسلات

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٠ آية ٦٩ من سورة البقرة .

وفوق هذا فان القرطبي قد استخدم اللغة ، وجعلها ركيزة يعتمد عليها
 لا في رده لبعض الآراء كما سبق بل في مواضع كثيرة . ومنها مهاجمته
 للمعتزلة فقد قامت مهاجمة القرطبي للمعتزلة في بعض الأحيان على أساس لغوي
 بمعنى أنه لجأ إلى اللغة فجعلها حكماً بين ما يذهب إليه أهل السنة وبين
 ما يقوله المعتزلة . ولما وجد حكومتها في صف أهل السنة انتقد مذهب المعتزلة
 وطابه . ففي قوله تعالى « ختم الله على . . . » يقول في المسألة الثالثة : « في
 هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ،
 والكفر والإيمان فاهتبروا أيها السامعون ، وتمعّبوا أيها المفكرون من عقول
 القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم . فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان
 ولو جهدوا وقد طبع الله على قلوبهم . وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة
 فحق يمتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأبغى أبصارهم .
 « ومن يضلل الله فإله من هاد » وكان فعل الله ذلك هدلاً فيمن أضله وخذله
 إذ لم يمتنه حقاً وجب له قزول صفة العدل وإنما منعهم ما كان له أن
 يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

: فان قالوا : إن معنى الختم والطبع والمشاورة : التسمية والحكم والإخبار
 بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل ، قلنا : هذا فاسد لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو
 فعل ما يصير به القلب مطبوعاً مختوماً . ولا يجوز أن تكون حقيقة التسمية
 والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه كان حقيقة أنه فعل
 ما صار به الكتاب مطبوعاً ومختوماً ، لا التسمية والحكم . ثم قال : هذا مالا
 خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه
 بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم . كما قال تعالى « بل طبع
 الله عليها بكفرهم » وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي

عليه السلام ، ولللاسكة ، وللؤنين : عتسح . فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون لأنهم كلهم يسمون بالكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مخنوم عليها ، وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم وإنما هو معنى يخلفه الله في القلب بمنع الإيماء به ، دليله قوله تعالى : « كذلك أسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به » وقال « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » أي لثلا يفقهوه وما كان مثله . (١)

وكرر مثل هذا أو قريباً منه في قوله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » حيث رجح أن هذا القول خبر من الله عز وجل ثم انتقل إلى مهاجمة المعتزلة فقال : « وهايه فيكون فيه رد هلي من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى يضل به كثيراً التسمية هنا . أي يسميه ضالاً كما يقال : فسدت فلانا يعني سميت به فاسقاً . لأن الله تعالى لا يضل أحداً . وهذا طريقهم في الإضلال وهو خلاف أقاويل للفسرين ، وهو غير محتمل في اللغة لأنه يقال : ضلله إذا سماه ضالاً . ولا يقال أضله إذا سماه ضالاً ، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل للتأويل من الحق ، أنه يضل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم » (٢)

واحتكم القرطبي إلى اللغة في مناصرة بعض المذاهب المتقية والرد على بعض الفقهاء :

ففي قوله تعالى : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني » .

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٦ وما بعدها آية ٧ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ .

يقول القرطبي في اللسالة السامية : « قال ابن العربي قال أبو حنيفة من قال : إن شرب هبدي فلان من الغرات فهو حر فلا يعتق إلا أن تكرع فيه ، والكرع : أن يشرب الرجل بفيه من النهر ، فإن شرب بيده ، أو اغترف بالإناه منه لم يعتق . لأن الله سبحانه فرق بين الكرع في النهر وبين الشرب باليد . قال — أي ابن العربي — وهذا فاسد لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرف باليد أو كرع بالغم انطلاقاً واحداً . فإذا وجد الشرب المحلوف عليه لغة وحقيقة حث ، فاعلمه » . ورد القرطبي قول ابن العربي وانتصر لمذهب أبي حنيفة محتمكاً إلى اللغة فقال : قلت قول أبي حنيفة أصح فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة . قال الجوهري وغيره : كرع في الماء كروما إذا تناوله بفيه من غير أن يشرب بكفيه . وفيه لغة أخرى : كرع بكسر الراء يكرع كروما . والكرع ماء السماء . وأما السنة فذكر ابن ماجه في سننه حديثنا واصل بن هبدي الأحملي حديثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد ابن عامر قال : مر بنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله ﷺ « لا تكروها ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناه أطيب من اليد » وهذا نص . وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف . (١)

وفي قوله تعالى : « فرهان مقبوضة » يقول القرطبي : « قال أبو هريرة : ولما كان الزهن بمعنى الثبوت والدوام . فمن ثم بطل الزهن عند الفناء . إذا خرج من يد اللزيم إلى الزهن بوجه من الوجوه . لأنه فارق ما جعل باختيار

:

(١) تفسر القرطبي ح ٣ من ٢٥٣ آية ٢٤٩ من سورة البقرة . والحديث أخرجه ابن ماجه في الشرب بالأكف والكرع ح ٢ من ١٧٦ انظر ابن ماجه معاشية السندي . والحديث مروي عن ابن عمر بلفظ مرونا على بركة فجعلنا نكرع منها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكروها ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناه أطيب من اليد

للمرئنه له . قلت — والقائل القرطبي — هنا للمتمد هذنا في أن الزهن متى رجع إلى الزاهن باختيار للمرئنه ، بطل الزهن . وقاله أبو حنيفة غير أنه قال : إن رجع بدارية أو ودية لم يبطل . وقال الشافعي : إن رجوعه إلى يد الزاهن مطلقاً لا يبطل حكم القبض للنقدم . ولم يرتض القرطبي رأى الشافعي فرد عليه بقوله : « ودليلنا » فرهان مقبوضة « فإذا خرج من يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لانه فلا يصدق عليه حكماً وهذا واضح » . (١)

ونرى القرطبي يحتكم إلى اللغة في ترجيحه لبعض القراءات أو توجبها وشل شاهد ذلك كثيراً عند حديثنا عن منهجه في القراءات ونكتفي هنا بذكر هذا للنال :

في قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » يقول القرطبي : القيوم من قام . أى القائم بتدبير ما خلق ، من قتادة . وقال الحسن : القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شيء منها . وقال ابن عباس : « مناه الذى لا يحول ولا يزول . . . » ثم قال « وقرأ ابن مسعود وعلقمة والأعمش والنخعي » « الحى القيوم » بالالف ، وروى ذلك عن عمر ورجسح القرطبي قراءة الجماعة محتمكاً إلى اللغة فقال « ولا خلاف بين أهل اللغة في أن القيوم أهرق عند العرب وأصح بناء وأثبت هله » (٢)

النحو والإهراق في تفسير القرطبي : —

لقد تأسست في البصرة أول مدرسة نحوية . وكان لها منهج خاص في استنباط

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤١٠ آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٨٢ آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قواعد النحو وأصوله . وتلتها مدرسة الكوفة وكان لها أيضاً منجها . وعن طريق هاتين المدرستين تكونت مدرسة بغداد والأندلس . ورغم أن هاتين المدرستين تأثرتا بمدرسة الكوفة والبصرة . إلا أن كل واحدة منهما كانت لها قواعد نحوية جديدة . ومن هنا كثرت التخریجات والآراء النحوية التي حاول بها كل فريق أن يبطل حجة الآخر وأدلته، وكثرت أوجه الإعراب^(١)، وتعددت المعاني، فشكل إعراب معنى . ولعل ماساقة ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» يكشف ذلك . فقد قال وهو يمتدح لغة العرب «ولو أن قاتلا قال «هذا قاتل أخى» بالتنوين وقال آخر : «هذا قاتل أخى» للإضافة . لدل التنوين على أنه لم يقتله ، وحل حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قاتلا قرأ «فلا يحزنك قولهم» أناعلم ما يسرون وما يعلنون» وترك طريق الابتداء بأنا وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب «أن» بالقول كما ينصبها بالظن . فقلب للمعنى من جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبي يحزنونا عليه لقولهم «أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون» وهذا كفر ممن تصده ، وضرب من الحقن لا يجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتجاوزوا فيه . وقد قال رسول الله ﷺ «لا يقتل قرشى صبيا بعد اليوم» فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشى أن لا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه إن قتل . ومن رواه رفعا انصرف التأويل الى الظاهر من قریش أنه لا يرتد أحد من الإسلام فيستحق القتل» ثم ختم ابن قتيبة كلامه بقوله «أفا ترى

(١) راجع كتاب نشأة النحو من ص ١٩ وما بعدها ، وص ١٣٥ إلى ص ١٤٠ ومن ١٤٤ إلى ١٤٩ . وانظر كتاب القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص ١١ ،

الإهراب كيف فرق بين هذين المعنيين (١) . ويذكر ابن الأنباري في كتابه «نزهة الألباء» سبب وضع أبي الأسود الدؤلي للنحو : أن أبنته قالت له ما أحسن « السماء » برفع « أحسن » وإضافة « السماء » إليها . فقال لها : نجومها . فنالت : أني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها : اذن فقولي ما أحسن السماء . ووضع النحو من ساحتها وكان أول ما رسم منه باب للتعجب (٢) .

ولقد اتهم النحويون على اختلاف مذاهبهم ، أداتهم وشواهدهم من القرآن الكريم فكثرت التخريجات ، وكثرت أوجه الإهراب في الآية الواحدة أو في الكلمة من الآية .

ونرى القرطبي يستعرض في تفسيره مذاهب هؤلاء النحويين وتخريجاتهم ويستعرض خلافتهم في الإهراب ، وهدفه كغفر أن يكشف للعلمي وأن يجليبه .

ففي قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » (٣) يقول القرطبي « كتاب » نصب على المصدر المؤكد أي حرمت هذه النساء كتابا من الله عليكم ومعنى « حرمت عليكم » « كتب الله عليكم »

وقال الزجاج والكوفيون : هو نصب على الإغراء أي الزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله . وفيه نظر على ما ذكره أبو علي . فان الإغراء لا يجوز

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١١ وانظر خصائص ابن جني ج ١ ص ٣٣ وكتاب الصاحبي في لغة اللغة لابن فارس ص ٤٢ ، وكتاب للدارس النحوية للدكتور شوقي خفيف ص ٢٠٦ فلبعض النحاة رأى يخالف إجماع العلماء في أن الإهراب يفر للماني . والحديث الذي ذكره « ابن قتبية » أخرجه مسلم في فتح مكة ج ١٢ ص ١٣٤ .

(٢) نزهة الألباء في طبقات الفهويين والادباء أي النحويين ص ١٢ .

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

فيه تقديم المنصوب على حرف الإغراء فلا يقال : زيدا عليك أو زيدا دونك . بل يقال : عليك زيدا ودونك مرراً وهذا الذي قاله صحيح على أن يكون منصوباً بـ « عليك » ، وأما على تقرير حذف الفعل فيجوز . ويجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه (١) .

هذا ما ذكره القرطبي . ولو أردنا أن نكشف ما دار في هذه الآية من تحريجات نحوية فإننا نقول — ذهب الكوفيون — وتبهم الزجاج من مدرسة بغداد إلى أن عليك ودونك وعندك في الإغراء ، يجوز تقديم مفعولاتها عليها فهو زيدا عليك ، ومرراً عندك ، وبكرراً دونك ، واستدلوا بقوله « كتاب الله عليك » .

ومنع ذلك البصريون — وأبو على الفارسي — من مدرسة بغداد أيضاً وخرجوا الآية وحلوا على أساس بأن « كتاب » الله ليس منصوباً بـ « عليك » وإنما هو منصوب لأنه مصدر والعامل فيه فعل مقدر دل عليه ما تقدمه من قوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » فان فيها معنى « كتب » وتقدير الكلام : كتب كتاباً الله عليك ثم أضيف المصدر إلى الفاعل كقوله « ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب صنع الله » فلفظ « صنع » على المصدر بفعل مقدر ، ولم يظهر للدلالة ما تقدم عليه من الكلام والتقدير فيه : صنع صنفاً الله . وحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل « (٢) » .

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) راجع الانصاف في مسائل الخلاف للسكاك ابن الانباري للتوفيق سنة ٧٧٠ هـ بتعقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . نشر محمود توفيق الكتبي ج ١ ص ١٤٠ مسألة ٢٧ .

وفي قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) ،
 ابن القوطي مذاهب النحويين وموقفهم من المعطف على المضمر ونحريجات من
 لم يرض هذا وردم على من تمسكوا بالآية كدليل لهم . فقال :

« والذين هادوا » معارف وكذا « والصابئون » معطوف على المضمر في
 هادوا في قول السكسائي (٢) والأخفش (٣) . قال النحاس (٤) : سمعت الزجاج
 يقول وقد ذكر له قول الأخفش والسكسائي . هذا خطأ من جهتين إحداهما :
 أن للمضمر المرفوع يقيح المعطف عليه حتى يؤكد ، والجهة الأخرى أن
 للمعارف شريك للمعطوف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا في اليهودية
 وهذا محال . وقال الفراء (٥) وإنما جاز الرفع في « والصابئون » لأن « إن »
 ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر « والذين » هنا لا يثبت في الإعراب
 فجري على جهة واحدة الأمران — يقصد الرفع والنصب — فجاز رفع الصابئين
 رجوعاً إلى أصل الكلام . قال الزجاج : وسبيل ما يثبت في الإعراب وما
 لا يثبت في الإعراب واحد ، وقال الخليل (٦) وسيبويه : الرفع محمول
 على التقديم والتأخير ، . والتقديم « إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن
 بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون
 والنصارى كذلك » وأشد سيبويه :

(١) آية ٦٩ من سورة المائدة .

(٢) من مدرسة الكوفة . وهو على بن حمزة للتوفى سنة ١٨٢ هـ .

(٣) « الأخفش » — هو الأخفش الأوسط لأنه إذا أطلق انصرف الالف إليه وهو
 سعيد بن مسعدة من مدرسة البصرة . للتوفى ٢٢١ هـ .

(٤) « النحاس » — من نفاة مصر . وهو أبو جعفر النحاس للتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

(٥) « الفراء » من مدرسة الكوفة . وهو يحيى بن زياد للتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

(٦) هو الخليل بن أحمد للتوفى ١٦٠ هـ .

وإلا فاهلوا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شفاق

وقال ظبي البرجمي :

فن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

وقيل « إن » بمعنى « نعم » فالمبايئون مرتفع بالإبتداء وحذف الخبر لدلالة الثاني عليه . فالمطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام ، وانقضاء الاسم والخبر .

وقال قيس الرقيات :

بكر العواذل في العصبا ح يلنني وألومهنه
ويقلن شيباً قد علا ك وقد كبرت قللت إنه

قال الأخفش : « إنه » بمعنى « نعم » وهذه الهاء أدخلت لتسكت (١) .

وفي قوله تعالى « وسيق الذين اقروا بهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاهاها وفتحت أبوابها » (٢) بين مذاهب النحويين في زيادة « واو المطف » . فقال : « واو هذا المطف عطف جملة على جملة والجواب محذوف » قال للبرد (٣) : أي سمعوا وفتحت وحذف الجواب بليغ في كلام العرب وأنشد :

فلو أنها نفس تموت جميعه - ولكنها نفس تساقط أنفاسه

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٤٦

(٢) آية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) للبرد من مدرسة البصرة - وهو أبو العباس محمد بن يزيد المثنوي سنة ٢٨٠ هـ .

فحذف جواب لو والتقدير : لكان أروح . وقال الزجاجي . حتى إذا جاءوها دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : «الواو» زائدة قاله الكوفيون . وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لسكراتهم على الله تعالى . والتقدير : حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله « جات عدن مفتحة لهم الأبواب » وحذف الواو في قصة أهل النار . لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذ لا لا وتروياً لهم . ذكره للهدوى ، وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول . فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أهل إلا الله سبقه إليه أحد . وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مغلقة ، ولما قال في أهل الجنة « حتى إذا جلدوها وفتحت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها والله أعلم . وقيل : أنها واو التمانية وذلك أنه من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون : خمسة . ستة . سبعة . وتمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا : وتمانية : قاله أبو بكر بن هياش . قاله الله تعالى « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام » وقال « التائبون العابدون » ثم قال « في الثامن » والناهون عن الشرك » وقال « ويقولون سبعة وثامنهم » وقال « ثيبات وأبكاراً » (١) .

وفي قوله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا » (٢) بين القرطبي مذاهب التنويين في إهراب ماذا فقال « اختلف التنويون في « ماذا » فقيل :

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨٥

(٢) آه ٢٦ من سورة البقرة .

هي بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شيء أراد الله. فيكون في موضع نصب « بأراد » قال ابن كيسان (١) وهو الجيد وقيل . « ما » اسم تام في موضع رفع بالابتداء . و « ذا » بمعنى الذى وهو خير الابتداء . ويكون التقدير : ما الذى أراد . الله بهذا مثلاً . ومعنى كلامهم هذا الإنكار بلفظ الاستفهام (٢).

وفي قوله تعالى : « وقلن حاش لله » (٣) ذكر أيضاً مذاهب النحويين في إعراب « حاش » فقال : يقال : « حاش زيد » ، وحاشا زيداً . قال النحاس . وسمعت علي ابن سلمان (٤) يقول النصب أولى لأنه قد صح أنها فعل . بقولهم حاش لزيد والحرف لا يحذف منه . وقد قال النابغة :

ولا أحاشى من الأقوام من أحد

وقال بعضهم : حاش حرف وأحاشى فعل . ويدل على كون حاشاً فعلاً وقوع حرف الجر بعدها . ثم ينتهى إلى أن حاش وحاشا في الاستثناء حرف جر هند سيديويه ، أما هند المبرد وأبي علي الفارسي (٥) فهى فعل ، لأن للعنى صار يوسف في حاشية وناحية مما أنهم به (٦) .

ويذكر القرطبي مذاهب النحويين في معانى بعض الحروف .

ففي قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم

(١) من مدرسة بغداد ت سنة ٢٩٩ هـ

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤٤

(٣) آية ٣٢ من سورة يوسف .

(٤) هو الاخفش الصغير من مدرسة بغداد ت سنة ٣١٥ هـ .

(٥) من مدرسة بغداد ت سنة ٣٧٧ .

(٦) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٨١

للملك تنقون» ذكر معاني «لعل» عند النحويين فقال : قوله تعالى «للملك تنقون» وما كان مثله فيها ورد في كلام الله تعالى من قوله «للملك تنقون» «وللملك تشكرون»، «للملك تذكرون»، «للملك تهتدون» فيه ثلاثة تأويلات . الأول : أن «لعل» على بابها من الترجى والتوقع إنما هو في حيز البشر . فكأنه قيل لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم ، والطمع أن تمقلوا وأن تذكروا ، وأن تنقوا . هذا قول سيويه ورؤساء اهلان . قال سيويه في قوله هزوجل «اذعبا إلى فرعون إنه طغى» فقولا له قولنا لعله يتذكر أو يخشى قال : معناه اذعبا على طمعكما ورجاءكما أن يتذكر أو يخشى . واختار هذا القول أبو اللعالي . الثاني : أن العرب استعملت «لعل» مجردة من الشك بمعنى لام كي . فاعلموا لتمقلوا ، ولتذكروا ، ولتنقوا . وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففتنا الحرب كانت هبودكم كلعن سراب في السلامة ألقى

المعنى كفوا الحروب لنكف . ولو كانت «لعل» هنا شكاً لم يوثقوا لهم كل موثق . وهذا القول من قطرب^(١) والمازني . الثالث : أن تكون «لعل» بمعنى التعرض لشيء كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تمقلوا ، أو لأن تذكروا ، أو لأن تنقوا^(٢) .

وفي قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون»^(٣) ذكر مناهب النحويين في معنى «أو» فقال : قال الفراء : «أو» بمعنى بل، أي بل يزيدون وقال غيره : إنها بمعنى الواو ومنه قول الشاعر :

(١) من مدسة البصرة . وهو محمد بن السائب التوفى سنة ٢٠٦ هـ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) آية ١٧٤ من سورة الصافات .

فلما اشتد أمر الحرب فبنا تأملنا رباحا أو رزاما

أي ورزاما ، وهذا كقوله تعالى « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (١) وقرأ جعفر بن محمد « إلى مائة ألف ويزيدون » بغير همز . فيزيدون في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف أي وهم يزيدون : النحاس : ولا يصح هذان إلا لأن هتد البصريين وأنكروا كون « أو » بمعنى بل ، وبمعنى الواو لأن بل للاضراب من الأول والإيجاب لما بعده وتعالى الله عز وجل عن ذلك . أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك والواو معناه خلاف معنى أو ، فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت للعاني ، ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخضر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتهم لقلت : هم مائة ألف أو أكثر — ومعنى قول المبرد أنها لشك هتد الخطابين ، وفي نظرم بحيث لو رأوهم لشكوا وقالوا ذلك فخرط السباد على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول جاءني زيد أو عمرو . وأنت تعرف من جاءك مذهبا إلا أنك أهيمت على المخاطب « فأو » للإيهام ومنه قول الله تعالى « وإنا أولياكم على هدى » (٢) أو في ضلال مبين » (٣)

وكان القرطبي في بعض الأحيان يرد بعض الآراء والمذاهب النحوية .
لضعفها وشذوذها ، أو لإخلالها بالمعنى .

ففي قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » يقول في المسألة الثالثة : « أنت » تأكيد للضمير الذي في الفعل ومثله « فاذهب أنت »

(١) آية ٧٧ من سورة النمل .

(٢) آية ٢٤ من سورة سبأ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٢ بقصر .

وربك» (١) ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك . إلا في ضرورة
الشعر كما قال :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كتماج الملائسفن وملا (٢)

« فزهر » معطوف على المضمر في « أقبلت » ولم يؤكد ذلك المضمر .
ويجوز في غير القرآن على بعد « قم وزيد » (٣) .

وفي قوله تعالى « رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً » يقول القرطبي :
« محرراً » نصب على الحال . وقيل : نعت لمفعول مخنوف . وتقديره مولوداً
محرراً مثل قوله تعالى : « أن أحمل سابقات » أى دروها سابقات ، ثم يقول :
والأول أولى من جهة التفسير وسباق الكلام والإعراب . أما الإعراب : فإن
إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع ، ويجوز على الجواز في أخرى .
ويجوز حذف النعت إن لم كافى قوله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا » .
أى كل سفينة سالحة .

يجوز حذف المنعوت وإقامة النعت مقامه في صورتين الأولى : إما أن
يسكون النعت صالحاً لمباشرة العامل كافى قوله تعالى « أن أحمل سابقات » .

الثانية : أن يكون المنعوت بعض اسم مقدم مخفوض « بمن » أو « فى »
فالأول كقولهم « منا ظنن ومنا أظن » أى منا فريق ظنن . . . فظنن جملتان
في موضع رفع لثلاث مخذوفين . والمنسوتان بعض اسم مقدم هو الضمير
المجروح بمن .

(١) آية ٢٤ من سورة الشائدة .

(٢) قاله عمر ابن أبى ربيعة : وزهر جمع زهراء وهى البيضاء للشفرة والتهادى للحمى
الرويد الساكن . والتماج يقر الوحش « تسفن » ركين .

(٣) تفسير القرطبي . . ح ٣٠٠ ص ٣٠٠ .

والثاني كما في قول الشاعر وهو الأسود الحناتي يصف امرأة .

لوقلت ما في قومها لم تينم بفضلها في حسب وميسم
أصله : لوقلت ما في قومها أحد يفضلها لم تأنم تخفف المنعوت وهو أحد
وكسر حرف المضارعة من « أنم وأبدلت الهمزة ياء » بميسم من الوسامة والجمال .
وأما التفسير : فقليل أن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة
لأنه ، وكانوا أهل بيت من الله يمكن . وأنها كانت تحت شجرة فبصرت
بطائر يزق فرخاً فنحرت نفسها لذلك ودعت ربها أن يهب لها ولداً .

ونذرت إن ولدت أن نجعل ولداً محرراً أي حقاً خالصاً لله . . . فلما
وضعت قالت ربني إنني وضعتها أنثى ، يعني أن الأنثى لا تصلح للخدمة . قيل ..
لما بصيها من الحيض والأذى . وقيل لا تصلح لمخالطة الرجال وكانت ترجو
أن تكون ذكراً فذلك حررت (١) .

وفي قوله تعالى « ص » والقرآن ذى الذكر ، استعرض آراء النحويين في
جواب القسم وأدغى بعضها . ورد بعضها الآخر . لغرضها وقبحها . فقال :
جواب القسم « بل الذين كفروا في هزة وشقاق » لأن « بل » نفي لأمر سابق
وإثبات لذميمة ، قال العيني . فكأنه قال : والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا في
هزة وشقاق ، من قبول الحق ، وهداوة محمد ﷺ ، أو « والقرآن ذى الذكر »
ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة .
بل هم في تكبر من قبول الحق . وهو كقوله « ق » والقرآن المجيد بل عجبوا ،
وقيل : الجواب « كم أهلكننا » كأنه قال والقرآن لكم أهلكننا . فلما
تأخرت « كم » حذفت اللام منها كقوله تعالى « والشمس وضحاها » ثم قال

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٦٦ آية ٣٥ من سورة آل عمران .

« قد أفلح » أى لقد أفلح. قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء. ابن الأنبارى :
 فن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله « فى عزة وشقاق » وقال الأخفش :
 جواب القسم « إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » ونحو منه قوله تعالى
 « تألفه إن كنا لفي ضلال مبين » وقوله « والسماء والطارق إن كل نفس »
 ابن الأنبارى : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال فيها بينهما ، وكثرت الآيات
 وللقصص . وقال السكاكى : جواب القسم قوله « إن ذلك لحق تخاصم أهل
 النار » ابن الأنبارى : وهذا أفصح من الأول . لأن الكلام أشد طولاً فيها
 بين القسم وجوابه . وتيل : الجواب قوله « انى هذا لزقنا ماله من فساد »
 وقال قتادة : الجواب عنونى تقديره . « والقرآن ذى الذكر لتبئنا » (١)

وهكذا يعضى القرطبي فى تفسيره مرتكزاً على اللغة والنحو والإعراب
 والشعر وبهذا وضع ألفاظ القرآن الكريم ، وألقى عليها كنهراً من الأضواء .

الاستشهاد بالشعر عند القرطبي :

استخدم القرطبي الشعر فى تفسيره كثيراً ولو أراد باحث أن يتعمق
 ذلك وأن يحمصره لضائق ذروا وضائق مجموعة من الرسائل من استمياها • فى
 الكتاب ثروة كبيرة من الأضمار • ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه يوجد فى
 كل آية عدد كبير من الأبيات الشعرية .

وكان القرطبي يذكر الشعر لأغراض مختلفة . فتارة يذكره لبيان معنى لغوى
 وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية أو للاستدلال على توجيه
 رأى فى الإعراب . أو غير ذلك .

ففي قوله تعالى : « لا ريب فيه » بين معاني « الريب » بالشعر فقال :

وفي الريب ثلاثة معان أحدها : الشك . قال هبدا لله بن الزبيري :

ليس في الحق يا أميمة ريب إنما الريب ما يقول الجهول

وثالثها : التهمة . قال جميل :

بئينة قالت يا جميل أريتي فقلت كلانا يا بئين مريب

وثالثها : الحاجة . قال :

قضينا من تهامة كل ريب وخير ثم أجمعنا السيوط (١)

وفي قوله تعالى : « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (٢)
استدل بالشعر على قاعدة بلاغية وهي : وضع للمستقبل موضع للماضي . فقال :
« قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » رد من الله تعالى عليهم في
قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم ، وتكذيب منه لهم ، وتوبيخ . للمنفك كيف
قتلتم وقد نهيتم عن ذلك . فالخطاب لمن حضر محمداً ﷺ وللراد أسلافهم
وإنما توجه الخطاب لأنبائهم . لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا كما قال
« ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء » (٣) فإذا
تولواهم فهم بمنزلةهم وقيل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم . وجاء
« تقتلون » . بلفظ الاستقبال وهو بمعنى الماضي لما ارتفع الإشكال بقوله « من

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٩

(٢) آية ٩١ من سورة البقرة .

(٣) آية ٨١ من سورة المائدة

قبل ، وإذا لم يشكل فجائز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضي . قال الخطيب :

شهد الخطيب يوم يلتقي ربه أن الوليد أحق بالعذر
شهد بمعنى يشهد (١) .

وفي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » استدل بالشرع على قاطبة بلاغية أيضاً . وحى تقديم المفضل على الفعل للاهتمام . فقال في المسألة الرابعة والعشرين : « إن قيل لم يقدم المفعول على الفعل ؟ قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أهراًياً سب آخر فأعرض المسبب عنه فقال الساب . إياك أحنى . فقال له الآخر : وهناك أعرض . فقدم الأهم ، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر المبد والمعبادة على المعبود ، فلا يجوز تعبدك ولستينك ، ولا نعبد إياك ولستين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن وثال المعاجز :

إياك أدعو فتقبل ملقى واغفر خطايى وكفر ورقى

وفي قوله تعالى « والموفون بهدم » بعد أن بين أن قوله « والموفون » عطف على « من » في قوله « ولكن البر من آمن » لأن « من » في موضع جمع وحل رفع فكأنه قال ولكن البر المؤمنون والموفون . بعد أن بين ذلك قال : « والعابرين » نصب على المسح أو بإضمار فعل . والعرب تنصب على المسح وعلى القم . كأنهم يريدون بذلك أفراد المدوح والمنموم ، ولا يتبعونه

أول الكلام ، وينصبوه . فأما المدح فقولہ « والمطيعين الصلاة » (١) وأنشد
السكاني :

وكل قوم أطاعوا أمرا سيديم إلا نغيراً أطاعت أمرا غاويها
الظاهنين ولما يظعنوا أحداً والقائلون لمن دار نخيلها
وأشد أبو حبيدة :

لا يمسدن قوى الدين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر
وقال آخر :

نحن بنو ضبة أصحاب الجبل

فنصب على المدح . وأما الهم فقولہ تعالى « ملمونين أينما تنفوا » (٢) الآية .
وقال هروة بن الورد :

سقوني الحمر ثم تكثفوني عداة الله من كذب وزور

وهذا مبيح (٣) — شائع — في النعموت لا يظعن فيه من جهة الإهراق
موجود في كلام العرب (٤) : ومن شاهد هذا اللون من الاستشهاد وغيره من
الألوان السابقة في كثير من المواقف فلا داعي للإطالة في ذلك .

(١) آية ١٦٢ من سورة النساء .

(٢) آية ٦١ من سورة الأحزاب .

(٣) ينتج للهم وسكون الهاء وفتح الياء قال صاحب القاموس وهو الطريق الواسع الواضح .

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٩ آية ١٧٧ من سورة البقرة .

وإذا كان القرطبي قد استخدم الشعر في كثير من الأغراض فإن له حقاً في ذلك . فإن لغة العرب وأشعارها كانت أساساً اعتمد عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم في تفسير غريب القرآن . فآزولوا بذلك ما يستريحه من خموض وخفاء . ولقد أشار إلى ذلك القرطبي في مقدمته ، وذكر أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سألتوني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب . وأنه كثيراً ما أقدم على تفسير الغريب باللغة والشعر ، وهذا حذوه التابعون في ذلك . فقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض » أنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أهرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدئتها واخترتها (١) . ويقول في قوله تعالى « إنه ظن أن لن يمحر » ما كنت أدري « ما يمحر » حتى سمعت أهرابية تدهو بنية لها : حورى . أى ارجعى فالخور في كلام العرب الرجوع (٢) .

ولقد سأله يوماً رجل عن قول الله عز وجل : « وثيابك فطير » فأجابه بقوله : لا تلبس ثيابك على خدر وتعمل بقول خيلان النقي :

فأنى بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سرواة أقتنع

وسأله نافع بن الأزرق (٣) عن معنى السنة في قوله تعالى « لا تأخذ سنة ولا نوم » فقال : السنة للذئب ثم عمل بقول زهير بن أبى سلمى :

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣١٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٣

(٣) ذكر السيوطي في الاتقان غالب الاسئلة التي وجهها نافع بن الأزرق إلى ابن عباس وأجوبة ابن عباس الشعرية . انظر الاتقان ج ١ ص ١٤٩ .

لا سنة في طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا في أمره فند^(١)
وسأل رجل حكيم عن الزنيم فقال : هو ولد الزنا . وتمثل بيت شعر :
زنيم ليس يصرف من أبوه بضى الأم خو حسب لشم
وسئل عن قوله تعالى ه ذواتا أفنان فقال ذواتا ظل وأخصان ألم تسمع
إلى قوله الشاعر :

ما حاج شوقك من هدير حمامة تدهو على فتن الفصوص حماماً
تدهو أبا فرخين صادف طائراً ذا غلبين من الصقور قطاماً^(٢)

ويوضح الزايفي في كتابه « إيجاز القرآن » معنى الغريب فيقول : « في
القرآن ألفاظ اصطلاح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد ببرايتها أنها
منسكرة ، أو نادرة ، أو شاذة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه . وإنما الانظة
الغريبة ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى
في العلم بها أهلها ومائر الناس » (٣) .

ولما تأملت المدارس النحوية . كان من مصادرها في تعقيد قواعد النحو
لهجات القبائل وأشعار العرب . . . كما استدلّت هذه المدارس على غريب القرآن
ومشكلة اللغة والشعر^(٤) . ولقد أسكر فريق من العلماء على النحويين الاستدلال

(١) الفند . بالتحريك ضعف الرأي من الكبر وقد يستعمل في غير الكبر .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤ وما بعدها بتصرف

(٣) إيجاز القرآن ص ٧٤ ونقل هذا النص الدكتور عبدالعال سالم في كتابه « القرآن
الكريم وأثره في الدراسات النحوية » ص ٢٤٢ .

(٤) انظر « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » ص ٩٥ ، ١٢١ .

على غريب القرآن ومشكله بالشعر بحجة أن الشعر في تلك الحالة يكون أصلاً للقرآن ، وهذا لا يصح ، وأبطل القرطبي هذا الرأي في مقدمته مسنداً بوقف الصحابة والتابعين ، وكأنه قد انتهى إلى صحة مذاهب النحويين في جعلهم الشعر أصلاً تؤخذ منه القواعد النحوية ويحتج به على الغريب وللشكل .

ونقل القرطبي رأيه هذا من « أبي بكر بن الأنباري » . ولكنه لم يشر إلى الحجة التي تمسك بها من أنكسر على النحويين مذهبهم . فنقل كلام ابن الأنباري مختصراً ، ولكن السيوطي أشار إلى ما قاله ابن الأنباري بأوضح مما قاله القرطبي فقال : « قال أبو بكر بن الأنباري : قد جاء من الصحابة والتابعين كثيراً ، الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر . وأنكر جماعة ، لا علم لهم ، على النحويين ذلك وقالوا : إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن . قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن . وهو مذموم في القرآن والحديث . قال : وليس الأمر كما زعموه من أننا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن . بل أردنا تبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقال : « بلسان عربي مبين » وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب . فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلسان العرب رجعنا إلى ديوانها فاعلمنا معرفة ذلك منه » (١) .

وإذا كان القرطبي قد ارتضى الشعر دليلاً على اللغة والنحو والإعراب وغير ذلك ، وأورد في كتابه ثروة هائلة من الشعر . فهل نزل في استشهاده إلى طبقات المؤرخين من الشعراء أم وقف على طبقات الاسلاميين منهم ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يستحسن أن نعرف موقف العلماء من طبقات الشعراء التي يجوز الاحتجاج بشعرها ؟

بن صاحب « خزنة الأدب » أنه الشعراء ينقسمون إلى طبقات أربع :

الطبقة الأولى : الشعراء الجاهليون وهم كانوا قبل الإسلام كأمريء القيس والأهشي .

الطبقة الثانية : المخضرمون : وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كليد وحسان .

والطبقة الثالثة : المتقدمون ويقال لهم الإسلاميون : وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفروق .

الطبقة الرابعة : المولودون ويقال لهم المحدثون : وهم من بعدهم إلى زماننا كبشار بن برد وأبي نواس . . . فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً وأما الثالثة فالمصحيح صحة الاستشهاد به، ووضح صاحب الخزنة أنه وإن كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحاق وغيرهما من النحاة يخطئون بالفروق والكهيت وذو الرمة وإسراهم . فإن ذلك يرجع إلى أنهم كانوا في عصرهم والمعاصرة حجاب .

وأما الرابعة فالمصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم كأبي تمام (حبيب بن أوس الطائي لقتوى سنة ٢٣١ هـ) فلقد استشهد الزمخشري في تفسيره أوائل البقرة بيت من شعره . (١)

ولقد استشهد القرطبي في تفسيره بشعر نخول شعراء الجاهلية وأعلامها

(١) خزنة الادب ج ١ ص ٥ وما بعدها . وانظر آداب العرب لرافعي ج ١ ص ٣٦٩

كأمرى القيس ، وهنتره بن شداد العبسي المتوفى سنة ٢٢ قبل الهجرة .
وزهير بن أبي سلى المتوفى سنة ٦٣١ هـ . وطفيل القنوى . والحارث بن حنزة
اليشكرى المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة . وهدي بن زيد . وعمر بن كلثوم
ابن زهير المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة ، والحويدرة الندياني .

كما استشهد بأشعار الحضرمين . مثل حسان بن ثابت . ولبيد بن أبي
ربيعة والحطيئة . جرويل بن أوس الملقب بالحطيئة لقصره المتوفى سنة ٣٠ هـ .
وكعب بن سعد القنوى . وهباس بن مرداس .

ولقد عهد بعض العلماء « لبيد بن ربيعة » من شعراء الجاهلية وقالوا :
هو وإن عاش في الإسلام طويلا ، وكانت وفاته سنة ٤١ هـ إلا أنه أضرب عن
قول الشعر بعد أن أسلم (١) .

ومن الشعراء الإسلاميين الذين استشهد القرطبي بشعرهم : جرير ، الفرزدق
والأخطل بن غياث بن غوث المتوفى سنة ٩٢ هـ . وزباد بن الأهمم ، وابن
هرمة أبو اسحاق إبراهيم بن هلى المتوفى بين سنة ١٩٦ ، ١٩٨ هـ . وذو الرمة
وجميل بن معمر المتوفى سنة ٨٢ هـ ، وهيرم . وإليك بعض الأمثلة والنماذج التي
تؤيد ذلك :

في قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سرت به الجبال » (٢) بين القرطبي أن
جواب لو محذوف تقديره « لكان هذا القرآن » وأنه حذف لإيجاز المأني
ظاهر الكلام من الدلالة عليه . ثم استدلل على جواز حذف جواب لو بقول
أمرى القيس :

(١) لحالة الشعراء للأصمعي ص ٢٨

(٢) آية ٣٣١ من سورة الرعد

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

وتقدير الجواب في البيت « لمان هلى » (١) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا » (٢) « بين أن الأمر بالمصابرة معناه مصابرة الأعداء وصحح هذا القول مستدلا بقول عنزة :

فلم أرحيا صابروا مثل صبرنا ولا كلفوا مثل الذين نكافح

ثم قال : فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدو في الحرب ولم يبد منهم جبن ولا خور (٣) .

وفي قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء » (٤) بين أن من معانى « سواء » العدل ، واستشهد بقول زهير :

أرونى خلة لاضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء (٥)

وفي قوله تعالى « فتوقوا بما لسيتم لقاء يومكم هذا » (٦) يقول القرطبي : « قد يعبر بالنوق » عما يطرأ على النفس . وإن لم يكن معلوما لإحساسها به كإحساسها بذوق المطموم . واستشهد بقول عمر بن أبى ربيعة الشاعر الإسلامى :

فتنى هجرها إن كنت تزهم أنها فساد ألا ياربها كذب الزهم

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣١٩ :

(٢) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٢٣

(٤) آية ٦٤ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٦

(٦) آية ١٤ من سورة السجدة

ويقول طفيل الشاعر الجاهلي :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الفيظنى أكبادنا والنحوب^(١)

وفى قوله تعالى « أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا »^(٢)

يقول : فراحمة والسكسأى : وولداً بضم الواو ، والباقون بفتحها واستدل لقول من قال : إنيما لغتان بمعنى واحد . يقول الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً قد نمسروا مالا وولداً

ويقول شاعر آخر :

فليت فلانا كان فى بطن أمه وليت فلانا كان ولد حمار^(٣)

وقوله تعالى « ومن يسكن الشيطان له قرينا فساء قرينا »^(٤) يقول :

والذين للفقارن . أى للصاحب والخليل وهو فعيل من الإقران . قال عدى بن زيد :

هن للراء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمتقارن يقتدى^(٥)

وفى قوله تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً »^(٦) يقول

قرأ الكوفيون : لا يضركم بضم الراء وتشديد يدها من ضر يضر . ويجوز أن

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٩٨ من وما بعدها

(٢) آية ٧٧ من سورة مريم

(٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٤٦

(٤) آية ٣٨ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٤

(٦) آية ١٢٠ من سورة آل عمران

يكون مرفوعاً على تقدير إضمار الفاء وللمعنى فلا يضركم ومنه قول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها

وهذا صدر بيت لحسان بن ثابت وتماه

والشر بالشر عند الله سيأت (١)

وفي قوله تعالى « وما زادهم غير تنبيب » (٢) استدل على أن لفظة « تنبيب » معناها الخسران بقول ليبس :

فقد بليت وكل صاحب جدة ليلى يعود وذاكم التنبيب (٣)

وفي قوله تعالى « الذين استجابوا لله » (٤) استدل على أن استجاب بمعنى أجاب وأن السين والياء زائدتان (كثرة المبنى تدل على كثرة المعنى والسين والياء من حروف اللطوعة والفرق بين أجاب واستجاب يدل على الاستجابة بعد التمعب والجهد) يقول كعب بن سعد القنوي :

وداع دما يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك يجيب (٥)

وفي قوله تعالى « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً » (٦) فرق بين الإسراف والسرف فقال : الإسراف في الألفة : الإفراط ومجاورة الحد والسرف الخطأ في الإنفاق ومنه قول الشاعر :

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٤

(٢) آية من سورة هود

(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٥

(٤) آية ١٧٢ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٧٧

(٦) آية ٦ من سورة النساء

أعطوا هنيذة يحدوها ثمانية

ما في عنائهم من ولا مسرف

أى ليس يخطئون مواضع المطاء . والبيت لجرير . (١)

وفى قوله تعالى «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى» (٢) استشهد بيت الأختل
على أن للراد بالشقاق فى الآية العداوة فقال «والشقاق هنا بمعنى العداوة ومنه
قول الأختل :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق (٣)

وفى قوله تعالى «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم هند ربكم» (٤) بين أن «أو» بمعنى
«حتى» أو «إلا أن» واستدل بقول زياد بن الأهمم :

وكنتم إذا غرمت قناة قوم كسرت كويها أو تسفيا (٥)

وفى قوله تعالى «قل من يكلؤكم بالليل والنهار» بين معنى يكلؤكم فقال :
أى يحرصكم ويحفظكم . والكلأة الحراسة والحفظ . كلاًه الله كلاًه بالكسر
أى حفظه وحرصه . يقال اذهب فى كلاًه الله ، وا كلاًت منهم أى احترست .
قال الشاعر :

(١) هنيذة اسم لكلى مائة من الأبل . وانظر تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٠

(٢) آية ٨٩ من سورة هود

(٣) الرسول هنا معنى الرسالة . وانظر تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٠

(٤) آية ٧٣ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٣

إن سليبي والله يكلوها ضنت بشيء ما كان يرزوها (١)

وفي قوله تعالى « فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضميماً » (٢) قال:
السفيه المهمل الرأى في المال . الذي لا يحسن الأخذ لنفسه ، ولا الإحطاء منها
مشبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسيج ، والبدنيء اللسان يسمى سفيهاً لأنه
لا تكاد تنفق البذاعة إلا في جهال الناس ، وأصحاب العقول الخفيفة . والعرب
تطلق السفيه على ضعف العقل تارة ، وعلى ضعف البدن أخرى قال الشاعر :

نخاف أن نسه أحلامنا ويجهل الدهر مع الحالم
وقال ذو الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفت أطالها من الرياح النواجم
أي استقصمها واستلانها فخر كما (٣)

وفي قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها » يقول : قال أبو حاتم : كنت
أقرأ غريب القرآن على أبي هبيرة . فلما أتيت على قوله « ولقد همت به وهم
بها » الآية قال أبو هبيرة : هذا على التقديم والتأخير . كأنه أراد ولقد همت
به ولولا أن رأى برهان ربه لم . وقال أحمد بن يحيى : أي همت زليخاء
بالمصيبة ، وكانت مصرة وم يوسف ولم يواقع ما به . فبين المهمتين فرق .
ذكر هذين القولين المروى في كتابه . قال جليل :

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٩١ . آية ٤٢ من سورة الانبياء .

(٢) آية ٢٨٢ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٨٥

هممت بهم من بنينة لوبدا شفت خليات الهوى من فؤاديا (١)
ولم يقع نظرى على أشعار الطبقة المحدثنة فى تفسير القرطبي المهم إلا فى
مواضع قليلة جداً لا تعدو أصابع اليد الواحدة .

ففى قوله تعالى : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد » (٢) بين
القرطبي أن الأصفاد هى الإخلال والقيود . ثم بين أن الصفد كما يستعمل فى القيد
يستعمل فى المعطاء كما قال النابغة :

فلم أهرض أبيت القمن بالصفد (٣)

وكما قال أبو العلي :

وقبست نفسى فى ذراك عجة ومن وجد الاحسان قيذا تقيدا (٤)

فسمى الإحسان هنا قيذا ، فكأنه استعمل الصفد فى المعطاء والقيود .

وفى قوله تعالى « واللاتى يخافون بشوزهن » يقول القرطبي : ويختلف الحال
فى أدب الرفيعة والدينثة فأدب الرفيعة العذل ، وأدب الدينثة السوط ، ثم قال :

قال بشار :

والحر يلحى والعصا للمبد

والقرطبي كما ترى لم يستشهد بكلام بشار فى الآية أو فى النحو وكل للروايع
التي وقع نظرى عليها من هذا القبيل .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٦٦ آية ٢٤ من سورة يوسف

(٢) آية ٤٩ من سورة إبراهيم

(٣) هذا هجر بيت وصدوره : هذا اللناء قال تسمع به حسناً . وقوله أبيت القمن بحجة
كانوا يحبون بها الملوكة . والصفد المعطاء . معناه : أبيت أن تأق من الأمور ما تلحن عليه وتذم
تقول : هذا اللناء الصحيح الصادق فن الحق أن تقبله فلم أمدسك مترصاً لمطائك لكن
أمتدسك إقراراً بفضلك .

(٤) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٨٤

كما أنه في المثال الأول لم يستشهد بشعر أبي الطيب وحده وإنما أتى به بعد شعر النابغة، وهو من تحول شعراء الجاهلية. فهو النابغة الذبياني للتوفى سنة ١٨ قبل الهجرة .

على أنه يجوز أن يكون ضمن الأبيات التي لم يذكر قائلها وهي كثيرة في تفسيره ، أبيات لشعراء آخرين من هذه الطبقة .

وأحب أن أقول أنه لو ثبت ذلك فقد يكون شعر هذه الطبقة مشغوعاً بشعر آخر من الطبقات التي يحتاج بها . وهنا لا حرج ولا عيب على القرطبي في ذلك . أو لعله إذا لم يفعل ذلك قد اقتصر على المجيد من منها ، وهو بهذا إذا خالف كثرة النحاة ، فقد وافق فريقاً منهم ، وفوق هذا فإن ابن قتيبة له رأى في الشعراء القدماء والحديثين فقد قال في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » بعد أن وجد للكثرة لا يتقون بشعر اللواتين قال : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره » (١) .

ولقد احتج القرطبي في تفسيره بأبيات من الشعر لا يعرف قائلها : ففي قوله تعالى : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » (٢) بين أن بعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النداء فقال :

من أجلك يا التي تيمت قلبي وأنت بخيلة بالود هي

وهرض القرطبي في كلامه حجة الشاعر فقال : وحروف النداء لا تدخل على

(١) الشعر والشعراء طبع المصنف ، واضطر كتاب المصنف لاس وشيق الترومي بتحقيق محمد محي الدين ، طبع التجاوية ج ١ ص ٧٢

(٢) نية ٢٤ من سورة البقرة

ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها (١)

وفي قوله تعالى : « فأينا تولوا فثم وجه الله » (٢) استدل على أن من معاني الوجه القصد بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل (٣)

وفي قوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام » (٤) نقل من سيبويه أن عطف الظاهر على المضمرة قبيح لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ومنه قول القائل :

فاليوم قربت تهجونا وتشتبنا فاذهب فما بك والأيام من عجب
فقد عطف « الأيام » على « لكاف » في « بك » بغير إعادة حرف الجر للضرورة (٥).

وهذه الأبيات كلها لا يعرف قائلها . فهل يوجه إلى القرطبي نقد أو لوم حيث لم ينبه على ذلك ، أو لأنه ذكر مثل هذه الأبيات في استشهاده ؟

لقد اختلف العلماء في جواز الاحتجاج بالشعر الذي لا يعرف قائله فمنع من ذلك « السكال بن الأنباري » المتوفى سنة ٨٧ هـ . وقال : « لا يحتج بالشعر الذي لا يعرف قائله خوفاً من أن يكون لمولود » ووداين الأنباري احتجاج

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٥ بتصرف

(٢) آية ١١٥ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٨٤

(٤) آية ١ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣ بتصرف

الكوفيين على البصريين إذا كان مستنده الشعر الذي لا يعرف قائله ، في كتاب
« الإنصاف في مسائل الخلاف » (١) .

وبعد أن منع « ابن هشام » ذلك بادية ذى بدء عاد فأجازه : بحجة أنه :
لو لم يجر ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من الأبيات التي تضمنها « كتاب
سيبويه » وكلها ألف وخمسون . فالاحتجاج بالأبيات المجمولة جائز عند فريق
من النحاة فلا حرج على القرطبي إذا أورد بعضاً منها في استشهاده .

على أن هذه الأبيات الثلاثة التي ذكرتها والتي عثرت عليها في نفسه
مذكورة في كتاب سيبويه ، وأبياته كما يقول العلماء أصح الشواهد اعتمادها
العلماء جيلاً بعد جيل ، ولم ينقدها أحد . رغم ما فيها من أبيات مجرولة القائل .
قال الجرجي : « نظرت في كتاب سيبويه فاذا فيه ألف وخمسون بيتاً فأما الألف
فقد هرقت أسماء قائلها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائلها » فاعترف
بمجزؤه ولم يعطن عليه بشيء . وقد روى مثل هذا عن أبي عثمان اللزني
أيضاً (٢) .

كما نرى في احتجاج القرطبي وتوجيهاته أحياناً مهنوعة :

ففي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » بين القرطبي
أن الصوم معناه في اللغة ، الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال واستدل
بقوله النابتة :

(١) المزهر السيوطي ج ٥ ص ٨٥ . وانظر على سبيل المثال مسألة ٤٢ من كتاب
الإنصاف في مسائل الخلاف

(٢) خزائن الأدب ١ ص ١٦ وانظر كتاب « نشأة الترمذ وتاريخ أشهر النحاة » للشيخ
محمد قطاوى ، طبع وادى للوك ٦٣ وما بعدها .

خيل صيام وخيل غير سائمة تحت العجاج وخيل تملك اللها
أى خيل ثابتة ممسوكة من العجى والحركة (١) .

وفى قوله تعالى « وإنا لجميع حذرون » يقول القرطبي : « قرىء حاذرون »
ومناه معنى « حذرون » أى فرقون خائفون . قال النحاس : أبو هيبه يذهب
إلى أن معنى « حذرون » « وحاذرون » واحد وهو قول سيويه وأجاز هو
حذر زيدا كما يقال : حاذر زيدا وأنشد :

حذر أموراً لا تضر وآمن ما ليس منجيه من الاقدار (٢)

والبيت الأول وإن كان مصنوعاً إلا أنه صحيح المعنى : ولقد ذكر القرطبي
بجانبه مجموعة من الايات التى تدل على معنى الصيام فى اللغة . وعقب على
ذلك بقوله : والشعر فى هذا كثير (٣)

على أنه قد يكون للقرطبي حذر فى استشاده بمثل هذه الايات . فان الشعر
المصنوع وإن كان لا خير فيه ولا حجة فى غريبه كما يقول « ابن سلام » فى
طبقات الشعراء . إلا أنه قد أدرج فى الشعر ، وتناقله الشعراء ، وأثبت فى
دواوينهم . وقد خفى هل بعض من له علم بالشعر الحكمة التى يرد بعض الناس
أبياتاً فى نظره جميلة رائقة . وتساءل بأى شيء ترد هذه الأشعار ؟ فأجاب
رجل : هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه . قال : نعم . قال : أفنظم فى

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٢ آية ١٨٢ من سورة البقرة .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٣ و ١٠٠ ومضى البيت أن الانسان جاهل
بواقب الأمور يدبر فيخونه التدبير .

(٣) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٣

الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا ينكر أن يعلموا من ذلك ما لا تعلمه أنت . (١)

ويقول صاحب كتاب « مرائب النحويين » كان « خلف الأحمر » يضرب به المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على السنة للناس فيشبه كل شعر بقوله شعر الذي يضعه عليه . ولما تاب عن ذلك في أخريات حياته خرج إلى أهل السكوفة وأراد أن يعرفهم الأشعار التي وضعها . فقالوا له : أنت كنت هتدنا في ذلك الوقت أوتق منك الساحة ، فبقى في دواوينهم إلى اليوم . وهذا البيت من وضعه . يقول السيوطي في كتابه المزهر : قال أبو حاتم سمعت الأصمعي يقول سمعت خلف الأحمر يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها :

خيل صيام وخيل غير صائمة

نحت العجاج وأخرى تملك العجا (٢)

أما البيت الثاني فقد استشهد به سيبويه على عمل « فعل » مع أبنية المبالغة لكن النقاد قالوا : يروى عن اللاحق أنه قال : إن سيبويه سألني شاهد في تمدي قل . فعملت له هذا البيت .

فلا هييب على القرطبي إذا نقل عن سيبويه ، أو نقل عنه وهو من هو في فضله ومساكنه . ولقد تصدى للرد عن سيبويه في العطن الوارد على هذا

(١) طبقات الشعراء الجاهليين ، الاسلاميين لاقى هذا الله محمد بن سلام الجعفي

(٢) للمزهر السيوطي ج ١ ص ١٠٤ ولقد نقل حلف بن حيان البصري الأحمر سنة

١٠٨ هـ وانظر آداب العرب للأصمعي ص ٢٧٩ وما بعدها.

البَيْتُ السَّكْنِيرُ مِنَ الْمَلَاءِ . قَالَ الْأَعْلَمُ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الشَّاهِدِ « وَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا — يَقْصِدُ مَارُوِي هُنَا اللَّاحِقُ — فَلَا يَفُورُ ذَلِكَ سَبِيحُهُ ؛ لِأَنَّ الْقِيَاسَ يَمْضِيهِ » وَقَالَ ابْنُ يَمِيشَ فِي شَرْحِ الْفَصْلِ : إِنْ سَبِيحُهُ رَوَاهُ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ وَهُوَ ثَمَّةٌ لِاصْبِيلَ إِلَى مَارُوَاهُ . وَهَقَبَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْمُطَنَاوِيُّ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ « وَبَعْدُ فَلَا مَجَالَ لِلْعُلَمَاءِ عَلَى سَبِيحِهِ » (١) .

الاستشهاد بالحديث على الغريب والنحو في تفسير القرطبي :

استشهد القرطبي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غريب القرآن وقد تقدم كثير من الشواهد على ذلك، ونسكتفي هنا بهذا المثال في قوله تعالى « وبعلتهن أحق بردهن » (٢) بين أن البعل معناه الزوج، وأن البعل معناه الجماع يقول رسول الله ﷺ في أيام التشريق « إنها أيام أكل وشرب وبعل » (٣) ويبدو أنه لا خلاف بين النحويين في هذا .

أما الاحتجاج بالحديث في النحو . فهو موضع خلاف بين العلماء فلقد منعه كثير من النحاة وأجازه بعضهم . ويذكر صاحب « خزنة الأدب » . أن من الذين منوا ذلك أبو الحسن ابن الضائم، وأبو حيان . ثم يعرض حجتهما وهي حجة كل من ذهب إلى هذا فيقول « وقد منعه — أي الاحتجاج بالحديث — ابن الضائم » وأبو حيان وسندهما أمران أحدهما : أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي ﷺ ، وإنما رويت بالمعنى ، وثانيهما : أن أئمة

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص ٢٥ وانظر آداب العرب لفرافسي ج ١

ص ٣٧١

(٢) آية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٠ والحديث أخرجه ابن ماجة وأبو داود في كتاب الصيام .

النحو للتقدمين من للصيرين - يقصد الكوفة والبصرة - لم ينجوا بشيء منه « ثم يبطل هذا بقوله « ورد الأول على تقدير تسليمه بأن النقل بالمعنى إنما كان في المصدر الأول قبل تدوينه في الكتب ، وقبل فساد اللغة وهاتيه تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق - هل أن اليقين غير شرط بل الظن كاف . ورد الثاني بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به . والصواب جواز الاحتجاج بالحديث لقنحوى في ضبط ألفاظه » (١)

ولقد بين القرطبي أن رواية الحديث بالمعنى جائزة ، وخالف في ذلك كثيراً من العلماء والفقهاء فقال في قوله تعالى « وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » : « والقول بالجواز - أى جواز رواية الحديث بالمعنى - هو الصحيح إن شاء الله تعالى - وذلك أن للعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بالألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثقه ابن الأسيغ أنه قال : « ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم ، حسبكم للمعنى » وساق القرطبي كثيراً من الآثار في التبديل على ذلك . ثم قال : « فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فبلغها كما سمعها . . » الحديث (٢) . وما ثبت عنه ﷺ أنه أمر رجلاً أن يقول هند

(١) خزانة الأدب ص ٩ ج ١ وانظر كتاب المدارس النحوية ص ١٩ للدكتور غوثي ضيف .
(٢) أخرجه الترمذي عن عمر بن سليمان في أبواب العلم انظر جامع الترمذي ج ٤ ص ١٤١ .

مضجيه، في دهاء هذه « آمنت بكتابك الذي أنزلت ونيك الذي أرسلت » (١) ولما خالف الرجل وقال « ورسولك » بدل « ونيك » لم يقره الرسول على ذلك (٢) قالوا أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن هذه الدعاء مخالفة اللفظ. وقال « فأداها كما سمعها » قيل لهم : أما قوله « فأداها كما سمعها » فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير ممتد به ، ويدل على أن المراد من الخطاب حكمه قوله « قرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ثم إن هذا الحديث بينه ، قصد نقل بالفاظ مختلفة والمعنى واحد . وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي ﷺ في أوقات مختلفة لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بالفاظ مختلفة ، وذلك أجل دليل على الجواز . وأما رده عليه السلام من قوله « ورسولك » إلى قوله « ونيك » لأن لفظ النبي ﷺ أمدح ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى إن اسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام . وإنما فضل للرسول من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة . فلما قال « ونيك » جاء بالتمت الأمدح ثم قيده بالرسالة بقوله « الذي أرسلت » (٣) .

وإذا كانت القرطبي قد ارتضى جواز الرواية بالمعنى وناصر من قال بها فإننا نراه فوق هذا محتج بالحديث في النحو وهو بهذا يوافق من ذهب إلى جواز الاحتجاج بالحديث بالنحو حتى ولو كان مروياً بالمعنى .

ففي قوله تعالى « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن البراء ابن عازب ج ٢ ص ٢٣٦ ، وتشتهر . اللهم أسألك وجهي إليك ، وفوضت أمري لك ، وألجأت ظهري إليك ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك

(٢) نصرفت في الناس هنا قليلا .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣ ، آية ٥٨ من سورة البقرة .

ذرية طيبة « يقول القرطبي : وإنما أنت « طيبة » لتأنيث لفظ
الذرية كقوله :

أبرك خليفة ولده أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنت « ولده » لتأنيث لفظ « الخليفة ». وروى من حديث أنس
قال : قال النبي ﷺ « أي رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله له مثل أجر
عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً » (١).

وفي قوله تعالى « فإب لم تفعلوا ولن تفعلوا » يقول : قوله تعالى
« ولن تفعلوا » نصب « بلن ». ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو هبيرة
ومنه بيت النابغة :

فلن أهرض أيت اللعن بالصفد

وفي حديث ابن عمر حين ذهب به إلى النار في منامه فقيل له « لن
نزع » (٢) هذا على تلك اللفظة .

(١) أخرجه الترمذي بمعناه عن أبي هريرة، نسخة الاحوذى ج ٦ ص ٢٦٤
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في باب تنبيه الرؤيا بلفظ لم نزع ج ٢ ص ٢٣٦ وأخرجه
البخاري بلفظ لن نزع اس ٢٤٦ وأخرجه أبو داود في فضائل هدا الله ابن عمر بلفظ
لم نزع ج ٢ ص ١٤٩

الفصل الخامس

البلاغة في تفسير القرطبي

لم يتوسع القرطبي في الأسرار البلاغية أثناء شرحه للقرآن الكريم . ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن الأندلسيين والمغاربية لم يعنوا بدوام البلاغة والبيان ولم يهتموا بها كثيراً . على عكس للشارقة الذين توفروا على دراستها وشرحها ، كما يرجع السر في ذلك أيضاً إلى أن القرطبي كان يميل إلى استعمال الحقيقة . فالحقيقة هي الأصل : والمجاز فرع عنها . فإذا أمكن حل اللفظ على الحقيقة فلا داع إلى استعمال المجاز . ففي قوله تعالى « وإن منها لما يهبط من خشية الله ^(١) » يقول : قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله . نزل بذلك القرآن الكريم ، وقيل لفظة الهبوط مجاز وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلفها وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب : ناقة تاجرة . أي تبعث من يراها على شرائها ، وحكي الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستمارة كما استمرت الإرادة للجدار في قوله « يريد أن ينقض ^(٢) » وكما قال زيد الخليل :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور للدينة والجبال انلشم
وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى « وإن منها » راجع إلى القلوب
لا إلى الحجارة ، أي « من القلوب لما يخضع من خشية الله » . ثم قال القرطبي في

(١) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٧٧ من سورة الكهف .

تعتيه هل هذه الأقوال : « قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح فإنه لا يتمتع أن يعطى بعض الجادات المعرفة فيمقل ، كالذى روى عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله ﷺ إذا خطب ، فلما نحول عنه حن ، وثبت عنه أنه قال « إن حجرا كان يسلم على فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن (١) » وفى التنزيل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض (٢) والجبال » الآية وقال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيناه خاشعا متصدعا من خشية الله (٣) » يعنى تذلا وخضوعا (٤) .

ولقد أشار القرطبي إلى ذلك فى قوله تعالى « ثم آموا الصيام إلى الليل » (٥) حيث بين أن ظاهر قوله تعالى « إلى الليل » يفيد النهى عن الوصال ، وتفيد السنة ذلك أيضا . فقد قال ﷺ « إياكم والوصال » . إياكم والوصال أخرجه البخارى وهذا ما عليه جمهور العلماء وذكر القرطبي أن فريقا من العلماء أجاز الوصال وخصص النهى عنه بمبدأ الاسلام — حتى لا يضمف المسلمون من الجهاد ومكافحة الأعداء . أما بعد أن ظهر الإسلام وارتفعت رأيته . فقد راصل المسلمون وألزموا أنفسهم أهلى مقامات الطاعة .

رد القرطبي لذلك . وقال « ترك الوصال مع ظهور الإسلام وفهر الأعداء أولى وذلك أرفع الدرجات وأهلى للنازل وللمقامات ، أما وصال رسول الله ﷺ الذى تمسك به هذا الفريق . فلما ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من نفسه قال « است كيهنكم إنى أبيت لى مطعم ، يطعمنى وساق يسقين »

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل من جابر بن مرة ج ١٥ ص ٣٦ .

(٢) آية ٧٥ من سورة الأحزاب .

(٣) آية ٢١ من سورة الحشر .

(٤) فسر القرطبي ج ١ ص ٤٦٥ وما بعدها

(٥) آية ١٨٧ من سورة النقرة

وليس في هذا وصال والظاهر منه الحقيقة وأنه ﷺ كان يؤتى بطعام الجنة وشرايبها ، ولا داهى لحله على ما يرد على القلب من الماتى والطاقات فاللفظ إذا تردد بين الحقيقة والحجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها (١) .

ورغم ذلك فلم يخل تفسير القرطبي من الصور البلاغية والبيانية .

ومن هذه الصور التشبيه :

ففي قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (٢) يقول القرطبي في للسألة الثانية . . حرث تشبيه لأنهن مزروع القوة . . فلفظ الحرث يعطى أن الإلهام لم تقع إلا في الفرج خاصة ، إذ هو للزروع ، وأشد ثعلب :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله التبات

ففرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبنر ، والولد كالنبات ، والحرث بمعنى المحترث (٣) وفي قوله تعالى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » يقول :

أصل اللباس في الثياب ثم سمي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لانضمام الجسد ، وامتزاجهما ، وتلازمهما « تشبيهاً بالثوب » وقال النابغة الجعدي :

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٩ وحديث لست كهيئتكم أخرجه البخاري

في كتاب الصوم من ابن سيد ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) آية ٦٢٣ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٩٢ .

إذا ما الضجيج نفي جيدها تداخت فكانت عليه لباسا
وقال أيضا :
لبست أناسا فأفنيتمهم وأفنيت بعد أناس أناسا (١)

(*) الاستعارة

يقول القرطبي في قوله الله تعالى « في قلوبهم مرض » (٢). المرض عبارة

(١) ضير القرطبي ج ٢ ص ٣١٦

(٢) آية ١٠ من سورة البقرة

(*) الاستعارة : عند البيايين ومنهم الخطيب مجاز اقوى أى أنها لفظ اسم عمل في خير ما وضع له دلالة للشبهة فالعريف في الاستعارة إنما هو في نقل اللفظ من من معناه الموضوع له في اللفظ إلى معنى آخر كما في قولك رأيت أسدا يقود جيشاً فللفظ أسد في اللفظ موضوع للحيوان للفترس للرجل الجرى — أى أن اللفظ المستعار موضوع في اللفظ المشبه به لا للمشبه ولا للأهم من المشبه والمشبه بها مما .

* * *

أولئك الذين اشترؤا الضلالة .

الضلالة الخروج من القصد وفقد الافتداء فاستمير للذهاب عن الصواب في الدين .

أما قوله فأربحت تجارتهم ، فهذا من الإسناد المجازي وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتري . وإذا كان شراء الضلالة بالمسدى وقع في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة . وليس هناك مانع على الحقيقة ؟ هذا مما يقوى أنه المجاز ويحسنه =

مستعارة للفساد الذي في عقائدهم ، وذلك إما أن يكون شكوكاً ، وإنما هذا جديداً
وتكديداً والمعنى قلوبهم مرضى ظنواهم من العصمة والتوفيق والرهابة والتأييد^(١) .

شبه الفساد الموجود في قلوبهم بالمرض ثم حذف المشبهة وأقام المشبهة مقامه على
سبيل الاستعارة الأصلية لأن الأصلية ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس غير
مشتق والمراد به الماهية الصالحة لأن يصدق على كثيرين حقيقة أو تأويلاً .
فالجلس الحقيقي رأيت بجرأ يتحدث والحقيقة إنك تقول رأيت اليوم سبحانه .
ويقول في قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى »^(٢) اشترى
من الشراء والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال :
« فاستحبوا العمى على الهدى » فغيره بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه
مشتريه . فإما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا . لأن المنافقين لم يكونوا
مؤمنين فيبيعون إيمانهم^(٣) .

وفي قوله تعالى : « واركموا مسح الراكعين »^(٤) يقول الركوع في اللغة
الانحناء بالشخص ، وكل منحن راكع . قال لبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأي كفاقت راكع

وقال ابن جرير « الركمة » الهوة في الأرض لغة يمانية . وقيل الانحناء بهم

== فالله قد ذكر الشراء ثم أتبعه ما يشاكله ويؤاخيّه تمثيلاً لفسادهم وتصويراً
لحقيقته . شبه جهنم للكفر بشراء الضلالة ثم حذف المشبهة وأقام المشبهة به مقامه
وهو شراء الضلالة على سبيل الاستعارة الأصلية .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٧

(٢) آية ١٦ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٠

(٤) آية ٤٣ من سورة البقرة ، ونظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٤

الركوع والسجود ويستمار أيضاً في الانحطاط في المنزة قال :

ولا تهاد الضعيف هلك أن تركم يوماً والهدر قد رفعه

ولقد هبر القرطبي هن الاستعارة باسم الاستمار والمجاز أى مجاز الاستعارة.

ففى قوله تعالى « صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة » (١) فإنه قال : « الصيغة الدين وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء وهو الذى يسمونه المعمودية . ويقولون هذا تطهير لهم وقال ابن عباس هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأبى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يقال له ماء المعمودية فصبغوه بذلك ليظهر وبه مكان الختان ، لأن الختان تطهير فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانياً حقاً . فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال « صيغة الله » أى صيغة الله أحسن صيغة وهو الإسلام فسوى الدين صيغة استعارة ومجازاً . من حيث تظهر أعماله ويمتته على المتدين . كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب وقال بعض شعراء ملوك همدان :

وكل أناس لهم صيغة وصيغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذاك أبناءنا فأكرم بصبغتنا فى الصبغ (٢)

المجاز بالخنف :

فى قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (٣) يقول « من تحتها » أى من تحت أشجارها ،

(١) آية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٤ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٩ .

ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها « الأنهار » أى ماء الأنهار ، فندب
الجرى إلى الأنهار توسعاً ، وإنما يجري الماء وحده فحذف اختصاراً كما قال
تعالى « واسأل القرية » أى أهلها . وقال الشاعر :

نبئت أن النار بمدك أوقدت واستب بمدك يا كليب المجلس
أراد أهل المجلس تخفف .

المجاز العقلي - وهو إسناد الفعل إلى غير ما هو له :

قيل أن أصل الإستعارة مجاز لقوى :
وقيل أن أصلها مجاز عقلي وذلك أن من يقول :

رأيت أسداً منتقلاً ربحاً فإنما يريد أن يثبت معنى الأسدية لرجل جرىء
مقدام وأن ينقل هذا من نوع الإنسان إلى جنس الأسد مذهباً أنه فرد من
أفراده وهى هذا فاستعمال الأسد في الرجل الجريء استعمال للفظ فيها وضع له
فيكون مجازاً عقلياً بمعنى أن العقل اعتبر الرجل الجريء داخل في جنس
الأسد حقيقة وفرداً من أفراده واعتبار ما ليس في الواقع وأما مجاز عقلي ومن
هنا صبح التمجيد في قول ابن العميد يصف غلاماً جليلاً يظلمه من حر الشمس :

قامت تطلاني من الشمس نفسى أهرز على من نفسى
قامت تطلاني ومن هجب شمس تطلاني من الشمس

أى غلام مشرق الوجه كالشمس .

يقول الفرطبي في قوله تعالى « فساربحتم نجارهم » أسند تعالى
الريح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ،

وقولهم ليل قائم ، ونهار حائم . والمعنى رجعت وخسرت في بيعك ، وقتت في ليلك ، وصمت في نهارك : أى فما رجحوا في تجارتهم . وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم كذلك في الدنيا تعيش البهائم

الإيجاز :

وهو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل مع الوفاء بالترض والإيضاح ومثال ذلك في تفسير القرطبي ما ذكره في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » الآية فقد قال « وهذه الآية بما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام . فإنها تضمنت خمسة أحكام : الأول الأمر بالوفاء بالعقود . والثاني : تجليل بهيمة الأنعام والثالث استثناء ما يلى بعد ذلك . الرابع استثناء حال الإحرام فيها يصاد وانطامس ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم » وحكى النقاش أن أصحاب السكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن . فقال : نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت للصحف فخرجت سورة للائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلها ما . ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قبرته وحكته في سطرين ، ولا يقدر أن يأتى أحد بهذا إلا فى أجلاذ (١) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦ وما بعدها .

التعبير عن الماضي بالمستقبل أو العكس :

يقول القرطبي في قوله تعالى « قل فم تقولون لئن بآتاه الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (١) .

وجاء تقولون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله « من قبل » وإذا لم بشكل فجاز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضي قال الخطيئة :

شهد الخطيئة يوم يلتقي به أن الوليد أحق بالعذر

شهد بمعنى يشهد (٢) .

وفي قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس » يقول القرطبي « سيقول بمعنى قال . جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك أنهم يستمرون على ذلك القول » (٣) .

التكرير : وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض ودواع . ومن هذه الأغراض والوداعي التأكيد ، وتقرير المعنى في النفس كقوله تعالى « كلا سوف تعلمون » ثم كلا سوف تعلمون « فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أشد تأثيراً . ويظهر هذا الغرض في الخطابة ، وفي مواطن الفخر والمدح والارشاد والإنذار .

ولقد أشار القرطبي إلى التكرير في قوله تعالى : « فبأيه آلاه وبكما تسكذبان »

(١) آية ٩١ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ وما بعدها آية ١٤٢ من سورة البقرة .

فقد ذكر أن الله تبارك وتعالى كرر هذه الآية في هذه السورة لتأكيدها
وللبالغة في التقرير ثم قال القرطبي : « قال القتيبي : إن الله تعالى هدانا في هذه
السورة نعماء وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلقه وصفها ونعمة وضعها بهذه
وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبئهم على النعم ويقررهم بها .. كما تقول لمن
تناهى فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفنتنكر
هذا ؟ ألم تكن خاملاً فمرزتك أفنتنكر هذا ؟ ألم تكن صرورة فحجبت
بك أفنتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك أفنتنكر هذا ؟ ..

والتكوير حسن في مثل هذا . قال :

كم نعمة كانت لكم كم كم وكـ .

وقال :

لا تقتل مسلماً إن كنت مسلماً إياك من دمه إياك إياك

وقال آخر :

لا تقطن الصدوق ما طرفت عيناك من قول كاشح أشر
ولا تملن من زيارته زره وزره وزره وزره

وقال الحسين بن الفضل . التكوير يكون طرقاتاً وتأكيداً
للحجة (١) .

التميم : في قوله تعالى « وآتى اللال على حبه » يقول القرطبي :

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٥٩ وما بعدها ، وانظر مقاله القرطبي في سورة
الكَافُرُون ج ٧٠ ص ٢٢٦

« اختلف في هود الضمير في « حبه » فقيل يعود على « المعلى لئال »
 أى على حب المعلى لئال وحذف المفعول . وهو المال وقيل : يعود على المال .
 فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول . قال ابن عطية : ويجوز قوله « على حبه »
 اعتراضاً بليغاً أثناء القول . وهب القرطبي فسر عن رضاه بما قاله
 ابن عطية فقال : قلت ، وظيره قول الحق « يطعمون الطعام على حبه
 مسكيناً » . فإنه جمع بين اللعينين . الاعتراض وإضافة المصدر إلى المفعول .
 أى على حب الطعام . ومن الاعتراض قوله الحق « ومن يعمل من الصالحات
 من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك » ثم قال القرطبي : « وهذا عندهم
 يسمى « التتميم » وهو نوع من البلاغة ، ويسمى أيضاً « الاحتباس »
 و« الاحتياط » فتم بقوله « على حبه » وقوله « وهو مؤمن » ومنه
 قول زهير :

من يلقى يوماً على علاقته هرما يلقى الساحة منه والندى خلقتا
 وقال امرؤ القيس

على هيكلي يملك قبل سؤاله أفانين جرى غير كره ولا دان

فقوله على علاقته ، وقبل سؤاله تتميم حسن ومنه قول هنترة .

اننى على بما هلت فإننى ممتع مخالفتى إذا لم أعظم

فقوله : إذا لم أعظم تتميم حسن . وقال طرفة :

فنى ديارك غير مفسدا صوب الريح وديمة نهمى

وقال الريح بن ضبع الفزاري :

فريت وما يفنى صنيعى ومنطقى وكل امرئ إلا أحاديثه فان

فقوله : غير مقصدها « وإلا أحاديثه » تتميم واحتراس . وقال
أبو هفان :

فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير غائب
فقوله « غير ظالم وغير غائب » تتميم واحتياط وهو في الشعر كثير . (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٤٢ ويلاحظ أن القرطبي قد استعمل « التتميم
والاحتراس والاعتراض » بمعنى واحد ، مع أن الباحثين قد فرقوا بينهم فقالوا
الاحتراس هو أن يؤتى في كلام يوم خلاف المقصود بما يدفع ذلك اليوم
ومثال ذلك قول طرفة وقول عنقرة اللذيين ذكرهما القرطبي والتتميم هو أن
يؤتى في كلام لا يوم خلاف للمقصود بفضلة لفائدة والفضلة كالمفعول والحال
والتمييز والجار والمجرور والفائدة مثل المبالغة في المدح ومن أمثلته قول زهير
الدى ذكره القرطبي أى على أى حال يكون عليها من فقر أو غنى ويلقاء الانسان
يلقى منه السكرم والجود ، والاعتراض هو أن يؤتى في خلال الكلام أو بين
كلايين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب ، ومن أغراض
الاعتراض الدعاء وذلك مثل قول الشاعر .

ان الثمانين وبلغتها

قد احوجت صمى الى ترجان

فجملة « وبلغتها » دعائية معترضة لاستئالة الممدوح واستحلاب عطفه .
راجع البلاغة والادب للشيخ ابراهيم الصباغ ص ٦٢ وما بعدها .

الفصل السادس

موقف القرطبي من التفسير الرمزي

يُحاول بعض الناس أن يصرف ألفاظ القرآن الكريم عن ظاهرها وأن يخرج بها عن مدلولاتها وما تحته من معان. ثم يختار معنى خريباً يدعي أن اللفظ لا يدل عليه بطريق الظاهر. وإنما يدل عليه بطريق الرمز والإشارة ويسمى ذلك التفسير الرمزي أو الإشاري.

واشترط العلماء لقبول التفسير الرمزي شرطين : أحدهما أن يصح هل يقتضى الظاهر للقرآن في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية .

وثانيهما أن يكون له شاهد نصوصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحة من غير معارض . فالشرط الأول وهو موافقة اللغة — لا بد منه — ضرورة أن القرآن عربي وكل تفسير لا تساعد عليه قواعد اللغة العربية يجب رده والحكم بطلانه .

والشرط الثاني وهو شهادة الشرع — لا بد منه كذلك — فلم يشهد لصحة هذا التفسير شاهد من الشرع أو كان له معارض صار هذا التفسير من جملة الدعاوى التي لا دليل عليها ، والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء (١)

(١) رسالة « منبه ابن عطية في تفسير القرآن الكريم » لزميل عبد الوهاب فايد تتلوه الموافقات ح ٣٩٤ وذكر هذا النمط أستاذنا محمد حسين الذهبي في كتابه « التفسير والمفسرون » ح ٣ ص ٧٤

ولقد استعمل هذا اللون من التفسير ، الباطنية ، فقالوا في قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »^(١) إن المراد بالبقرة عاتشة . وقالوا في قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان »^(٢) إن المراد بالبحرين : حلي ، وعاطلة . وقالوا في قوله تعالى « يخرج منهما الفؤاد والمرجان »^(٣) إن المراد بالفؤاد والمرجان : الحسن والحسين .^(٤)

والتفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية مرفوض من أساسه لايقيله عقل ولا تساعد عليه اللغة والتشريعة ، بل إنه قائم على الكفر والإلحاد . فكان الباطنية يهدفون من وراءه إلى هدم الإسلام وتقويض أركانه ، وتواصوا بذلك .

جاء في كتاب « الفرق بين الفرق » لأبي منصور البغدادي ، أن زهبا باطنياً كتب إلى آخر رسالة جاء فيها ٠٠ ٠٠ ٠٠ وإني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والنوادة والزيور والإنجيل ، وتدهوم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد والنشر من القبور ، وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الأرض ، وأوصيك بأن تدعوم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك هو لك على القول بقدم العالم ...

ويسلق الأستاذ محمد حسين الذهبي على هذا النص فيقول « رأى هذا

(١) آية ٦٧ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٩ من سورة الرحمن .

(٣) آية ٢٢ من سورة الرحمن .

(٤) انظر مفتاح السعادة . لطاش كبرى زادة . تحقيق كامل بكري عبد الوهاب

أبولنور . طبع دار الكتب الحديثة ، ح ٢ ص ٨٧

الزهم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعا . فقالوا : لقرآن ظاهر وباطن والمراد منه باطنه دون ظاهره ، المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر . والمتمسك بظاهره . منب بالشقة فى الكتاب . وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره . (١) وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية « ١٣ » من سورة الحديد . « فضررب بينهم بسورله باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (٢)

كذلك استعمل الصوفية هذا اللون من التفسير . إلا أنهم لم يهملوا ظاهر القرآن كما فعل الباطنية بل اهتموا به وفهموا من وراءه فوق ذلك رموزاً وإشارات . قالوا أن الباطن يدل عليها . يقول الإمام الغزالى وهو بصدد التعليق على مثال ذكره لتفسير الإشارى « لا تظن من هذا الأتموزج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظواهر واعتقاداً فى إبطالها . حتى أقول مثلاً . لم يكن مع موسى فلان ولم يسمع الخطاب بقوله « اخلع نمليك » حاشا لله فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين الموراء إلى أحد المالمين وجعلوا جهلاً بلوازنة بينهما فلم يفهموا وجهه ، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية . فالتى يجرد الظاهر حشوى والتى يجرد الباطن باطنى والتى يجمع بينهما كامل . ولذلك قال عليه السلام « لقرآن ظاهر وباطن وحده ومطلع » (٣) وربما نقل ههنا من على موقفا عليه . بل أقول : « موسى فهم من الأمر

(١) ينى أن من وصل إلى علم الباطن انحط عنه التشكيك .

(٢) للتفسير وللفسرون ج ٢ ص ٢٤٠ ، وانظر الفرق بين الفرق ص ١٨٠ والمواقف ج ٨ ص ٣٨٨ والحشو براد « التشبيه بالحشوية منهاها للشبهة .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه . انظر الفنى من حسن الاسفار فى تخرىج ما فى الاحياء من الاخبار - ج ١ ص ١٣٦ .

بمطلع النملين اطراح الكونين فامتثل الأمر ظاهراً بمطلع نمليه وبطناً بمطلع الملمين» (١)

موقف القرطبي من التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية :

لقد رفض القرطبي التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية . ولم يقبله . من الأمثلة التي تؤيد هذا ما ذكره في قوله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يقول بعد أن بين أن الضمير للمسل في قول الجمهور . . . « قال القاضي أبو بكر بن العربي : من قال إنه القرآن فبيد ، ما أراه يصح عنهم . ولو صح قلنا لم يصح هؤلاء . لأن مساق الكلام كله للمسل ليس للقرآن فيه ذكر . ثم قال : قال ابن عطية وذهب قوم من أهل الجهة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم وأنهم النحل وأن الشراب القرآن والحكمة وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي فقال له بعض من حضر : جميل الله طمالك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم . فأضحك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت سخافة قوله » (٢)

وفي قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعنا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هاجم من يقول برجمة الإمام علي رضي الله عنه فقال : « وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يا ابن عباس ، إن ناساً يزعمون أن علياً مبعوث بعد الموت قبل الساعة

(١) رسالته (منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم) ص ١٧٢ وانظر مفتاح السعادة

ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٣٦ آية ٦٩ من سورة النحل .

ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك . إنما هذه الآية عامة
للناس . لو كان على مبعوثاً قبيل القياس ما نكحنا نساه ولا قسمنا
ميراثه « (١)

أما موقفه من التفسير الصوفي فإنه كان يقبله أحياناً ، ويرفضه أحياناً
أخرى . ففي قوله تعالى : « .. إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى
بارئكم فاقتلوا أنفسكم » يقول القرطبي . « قال بعض أرباب المالئ : عجل
كل إنسان نفسه ، فمن أسقطه وخالف مراده فقد برىء من ظلمه » وهاجم
القرطبي هذا الرأي ولم يرتضه لأن السياق والقرائن لا تدل عليه . فقال
« والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبود كما نطق به التنزيل والحمد لله »
ثم قال في قوله تعالى « فاقتلوا أنفسكم » « قال أرباب الخواطر ذلها بالطاعات
وكفوها عن الشهوات » ورد القرطبي ذلك . فقال « والصحيح أنه قتل على
الحقيقة هنا ، والقتل إمانة الحركات ، وقتلت الحر كسرت شدتها بلاءه « (٢)
وفي قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر »
الآية . يقول القرطبي : « وقال بعض من يتعاطى غرائب المالئ هذه
الآية مثل ضرب الله للدين فشيها الله بالنهر والشارب منه بالمثل إليها .
والمستكثر منها ، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها . والمفتقر بيده
غرفة بالأخذ منها قبر الحاجة ، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة » وعقب
القرطبي بقوله . « قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل
والخروج عن الظاهر . ولكن مناه صحيح من غير هذا « (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٠٥ آية ٣٨ من سورة النحل

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠١ آية ٥٤ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥١ آية ٢٤٩ من سورة البقرة

وفي قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » يقول : وقال بعض أهل المعاني « إنما أراد إبراهيم أن يريه كيف يحيي القلوب » وهذا فاسد مردود بما تمقبه من البيان (١) — أى بما يحيط به من أدلة وقرائن لا تشهد له — وفي قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين » والذى هو يطمئني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميننى ثم يمين « يقول :

« ونجوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه المقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : والذى هو يطمئني ويسقين . أى يطمئني لذة الإيمان ويسقين حلوة القبول . ولحم في قوله « وإذا مرضت فهو يشفين » وجهان . أحدهما : إذا مرضت بخالفته شقائى برحمته . الثانى : إذا مرضت بمقاساة الخلق شقائى بمساهمة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالقنوب شقائى بالتوبة . ونزلوا قوله « والذى يميننى ثم يمين » على ثلاثة أوجه : فالأول يمينى بالمعاصى ويحيينى بالطاعات : الثانى : يميننى بالخوف ويحيينى بالرجاء الثالث : يميننى بالعلم ويحيينى بالفنائه ، وقول رابع يميننى بالعدل ويحيينى بالفضل ، وقول خامس يميننى بالعراق ويحيينى بالتلاق . وقول سادس يميننى بالجهل ويحيينى بالعدل ، إلى غير ذلك مما ليس بشئ منه مراد من الآية فان هذه التأويلات الغامضة والأمر الباطنة إنما تكون لمن حنق وهرف الحق ، وأما من كان فى عى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة وتركه الأمور الظاهرة هذا محال . والله أعلم » (٢)

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٩٩ آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١١١ آية ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ من سورة الشعراء .

ومن الأدلة التي تبين قبول القرطبي للتفسير الصوفي في بعض الأحيان ما ذكره في قوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » فقد قال : « قوله تعالى « فزادهم الله مرضاً » قيل : هو دواء عليهم ويكون معنى الكلام زادهم الله شكاً ونفاقاً . . . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أي فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم ، كما قال في آية أخرى « فزادهم رجساً إلى رجسهم » ثم قال : « وقال أرباب المعاني : في قلوبهم مرض أي يسكونهم إلى الدنيا وجنهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها » وقوله « فزادهم الله مرضاً » أي وكلهم إلى أنفسهم وجمع عليهم هموم الدنيا فلم ينفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين « ولهم هذاب أليم » بما يقى عما يقى . وقال الجنيدي : هلل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن هلل الجوارح من مرض البدن . (١)

وفي قوله تعالى « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » يقول : « وقال أهل الإشارات : ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحتم على تزود التقوى فان التقوى زاد الآخرة قال الأعشى :

إذا أنت لم زحل بزاد من التقى ولا فئت بعد للوت من قد تزودا
ندمت هلئ ألا تكون كمثل وأنت لم ترصد كما كان أرمدا
وقال آخر :

للوت يجر طامح موجه تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إنى تأمل طامعي معالة من مشفق ناصح

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٩ إية ١٠ من سورة البقرة.

لا يصحب الانسان في قبره

غير التقى والعمل الصالح (١)

وكان القرطبي ينقل عن التصوف بعض تعريفاتهم واصطلاحاتهم . ويقابلها ولا يرفضها ففي قوله تعالى « ثم هو لا هلك من بعد ذلك لعلمكم تشكرون » يقول في المسألة الرابعة : « قال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاحتراف في تفسير الشكر للنعم . ولذلك قال تعالى : « اعملوا آل داود شكرآ » فقال داود : كيف أشكرك يا رب والشكر منك . قال : الآن قد عرفني وشكرتني إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة . قال يا رب فأرني أخشى نعمك هل قال : يا داود تنفس فنفس داود فقال الله تعالى : من يصحى هذه النعمة الليل والنهار ، وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضمتها بيدي من نعمك لا يجازي بها على كذا فأوحى الله اليه يا موسى الآن شكرتني . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر وعنه . قال : كنت بين يدي السرى السقطي ألمب وأنا لسن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت ألا يعصى الله بنعمة . فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد فلا أزال أبسكى على هذه السمكة التي قالها السرى لي . وقال الشبلي : الشكر التواضع والحفاظ على الحسنات ومخالفة الشر . وبذل الطاعات ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصري أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيره بالمسكافة ولمن دونك بالإحسان والأفضال (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١٢ آية ١٦٢ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ١ آية ٢٥٧ من سورة البقرة

ويبدو أن لقرطبي كان يقبل التفسير الصوفي إذا لم يتناقض مع الشرع
واقبته . وكان يرفضه إذا تناقض معها . وهذا موقف لاغبار عليه . مطلقاً . فقد
بين الإمام الشاطبي أن من التفسير الصوفي مالا يقبله العقل ولا تشهد له اللمنة
والشرع . فقال : وقد حل بمضهم — معنى الصوفية — قوله تعالى «ومن أظلم
من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه» (١) هل أن للمساجد القلوب تمنع
بالمعنى من ذكر الله . ونقل في قوله «أظلم لمليك» (٢) أن باطن النملين
١٨ الكونان الدنيا والآخرة فذكرهن الشبلي أن . معنى «أظلم لمليك»
أظلم السكل منك أصل إيتنا بالكلية ، ومن ابن عطية : أظلم لمليك من
المتنوعون فلا تنظر إليه بمد هذا الخطأ . وقال : النمل ، النفس . الوادي المقدس
من اللزء أى حان وقت خلوك من نفسك والقيام معنا بدينك ، وقيل غير ذلك
كما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل من السلف .

وهذا كله ان صبح نقله خارج عما نفهمه العرب ودهوى مادليل هليها في
مراد الله بكلامه ولقد قال الصديق : أى سماء تظلمنى وأى أوض تظلمنى إذا
قلت في كتاب الله مالا أعلم . وفي الظاهر : (٣) «من قال في القرآن برأيه
فأصاب فقد أخطأ» وما أشبه ذلك من التحذيرات . (٤)

(١) آية ١٤ من سورة البقرة :

(٢) آية ١٧ من سورة طه .

(٣) أخرجه الترمذى عن جندب بن عبد الله في أبواب تفسير القرآن «باب ما جاء
في القدي يفسر القرآن برأيه» ح ٧ ص ١٥٧

(٤) رسالة منيخ ابن عطية في تفسير التركان السكريم ص ١٧٣ وانظر للرافعات
ح ٣ ص ٤٠٢/٤٠٣

أبرز مصادر القرطبي من التفسير المصوف :

تفسير القرآن العظيم ، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري (١) :

كان « القرطبي » ينقل عن « التستري » بعض الإشارات الواضحة التي لا تخالف الشرع والفقه ، من أمثله ذلك ، ما ذكره في قوله تعالى « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » فقد قال « قال سهل بن عبد الله : لا يكون — أى الإنسان — خاشعاً حتى تخشم كل شجرة في جسده لقول الله تبارك وتعالى « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » وأيد القرطبي ذلك فقال : « قلت هذا هو الخشوع المحمود لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقة متأدياً متذللاً . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ، وأما للذموم ، فتكلفه والتباكى ومطامأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بهن البر والإجلال . وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلاً تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ، فلكزه عمر ، وقال له . وكان عمر رضى الله عنه إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع . وكان ناسكاً صديقاً وخاشعاً حقاً . (٢)

وفي قوله تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » الآية يقول : وقال سهل بن عبد الله التستري شروط الهداء سبعة . أولها : التضرع . والخوف والرجاء وللداومة والخشوع والمعموم ، وأكل الحلال . وقال ابن همام : إن الهداء أركانها وأجنحة وأسبابا وأوقاتها فإن وافق أركانها قوى . وإن وافق

(١) نسبة إلى قسطنطين بن عيسى وسكن السين وفتح التاء الثانية بلد من الاهواز ولقد اختلف في سنة وفاة هذا المفسر فقيل سنة ٢٧٣ هـ وقيل ٢٨٣ راجع وفيات الابهسان ج ١ ص ٢٨٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٥ آية ٤٥ من سورة البقرة .

أجنته طار في السماء وإن وافق موافقته فاز . وإن وافق أسبابه فنجح . فأراده
حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع ، وأجنته الصدق وموافقته
الأسرار . وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ . (١)

حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي المتوفى

سنة ٤١٢ هـ . « المشهور بالسلي » :

نقل القرطبي كثيراً من تفسير « السلي » المعروف بحقائق التفسير
وجرى في نقله على نهجه السابق فلم ينقل ألفاظاً أو رموزاً غامضة . وإنما
نقل الاشارات التي لاتناقض الفقه والشرع .

ففي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « قال السلي في
حقائقه سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص
الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين فقد برىء من الجبر
والقدر » (٢)

وكان القرطبي ينقل عن السلي ولا يشير إليه .

ففي قوله « الحمد لله رب العالمين » يقول : « ويذكر عن جعفر الصادق
في قوله « الحمد لله » من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد . لأن الحمد
حام وميم ودال . فالحمد من الوحدانية . والميم من الملك . والدال من الديمومية .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٢ آية ١٧٦ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٥ . وانظر حقائق السلي نسخة خطية بدار الكتب
رقم ١٥٠ تفسير ص ٦ .

فمن عرفه بالوحدانية والديوميه والملئ فقد عرفه . وهذا هو حقيقة الحمد لله .
وقال شقيق بن ابراهيم في تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولاً
إذا أعطاك شيئاً تعرف من أعطاك . والثاني أن ترضى بما أعطاك . والثالث .
مادامت قوته في جسدك ألا تمصيه ، فهذه شرائط الحمد » . ثم قال القرطبي . في
المسألة السادسة : « أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه واقتبح كتابه بحمده .
ولم يأذن في ذلك لغيره . بل نهام من ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه
السلام فقال : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى » (١) وقال عليه السلام
« احذروا في وجوه المداحين التراب » (٢) رواه المقداد . . . فثنى الحمد لله رب
العالمين : أى سبق الحمد معنى لنفسى قبل أن يحمدي أحد من العالمين
وحمدى نفسى لنفسى في الأزل لم يكن بخله . وحمدى الخلق مشوب بالملل .
قال هملأنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط السكال أن يحمده نفسه
ليستجلب لها للنافع ويدفع عنها المضار . وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن
حمد حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل . فاستفراغ طرق عباده هو محل
المعجز عن حمده ، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر المعجز بقوله « لأحمى
ثناء عليك » وأنشدوا :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

قيل : حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وهجرهم

(١) آية ٣٢ من سورة التجم .

(٢) الحديث أخرجه مسلم من المقداد ح ١٨ ص ١٢٨

انظر صحيح مسلم بشرح النووي .

من القيام بواجب حمد . فحمد نفسه عنهم لتكون العمة أهناً لديهم حيث
أسقط عنهم به فضل المنّة (١)

وفي قوله رب العالمين « بعد أن استعرض أقوال العلماء في معنى العالمين »
قال : وقد ذكر أن رجلاً قال بين يدي الجنيد « الحمد لله » فقال له :
أتمها كما قال الله . قل « رب العالمين » فقال الرجل : ومن العالمون
حق تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى
له أثر .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ وانظر حقائق السلي من «
وما ذكره القرطبي من الإشارة في قوله تعالى « في طوبى لهم مرث فزادهم الله مرضاً »
وفي قوله « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم للجل » فقد ناله من حقائق السلي
رغم أنه هاجمه ورده . انظر حقائق السلي في الآيتين ص ١٠ وما بعدها .

الفصل السابع

الأحكام في تفسير القرطبي : منهجه وعدم تعصبه :-

لقد توسع القرطبي في ذكر الأحكام الفقهية ، و تعرض كثيراً لأراء الفقهاء وما دار بينهم من خلافات ، ولعل عنوان تفسيره يشير إلى هذا من أول وهلة فقد سماه « الجاهم لأحكام القرآن وللبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان »

ولقرطبي منهج في ذكر الأحكام يتضح فيما يأتي :

الفقه المالكي :

كان القرطبي يقتصر أحياناً على آراء الإمام «مالك» وبعض فقهاء المالكية وتارة يكتب في بالعرض والتجسس لهذا الأراء دون التعميق عليها أو مناقشتها وأمل في تلك الحالة يكون قد ارتضاها

في قوله تعالى « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (١) يقول في للسئلة الحادية عشرة : « والعدو الحاصر لا يخلو أن يتيقن بقاؤه واستيظانه . لقوته وكثرته أولاً . فإن كان الأول حل المحصر مكانه من ساعته ، وإن كان الثاني وهو مما يرجى زواله - فهذا لا يكون محصوراً حتى يبقى بينه وبين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدو لا يدرك فيه الحج ، فيحل حينئذ عند ابن القاسم وابن الماجشون ، وقال أشهب : لا يجل من حصر عن الحج بعدو حتى يوم النحر ، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى هرفة . وجه قول ابن القاسم : أنه هذا

وقت يأمن من إكمال حجه لعدوه غالب فجاز له أن يحل فيه . ووجه قول أئمه :
أن هليه أن يأتي من حكم الإحرام بما يمكنه ، ولتزامه إلى يوم النحر الوقت
الذي يجوز للعاج التحلل بما يمكنه الإتيان به فكان ذلك هليه (١) .

وفي قوله تعالى « فاذا أفضت من عرفات فاذكروا الله ههنا المشعر
الحرام » (٢) .

تحدث في المسألة الثانية عشرة عن منية الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة
بعد الدفع من عرفات ثم قال في المسألة الثالثة عشرة « ومن أسرع فأتى المزدلفة
قبل مغيب الشفق . فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل
مغيب الشفق . لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق . لقوله عليه السلام « الصلاة
إمامك » (٣) ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق ، ومن جهة المعنى أن وقت
هذه الصلاة بعد مغيب الشفق . فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت
قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه »

ويقول في المسألة الثالثة عشرة « وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ، أو كان
له هذر من وقف مع الإمام فقد قال ابن المراز : من وقف بعد الإمام فليصل
كل صلاة لوقتها ، وقال مالك فيمن كان له هذر يجتمع أن يكون مع الإمام
إنه يصل إذا غاب الشفق الصلواتين مجتمع بينهما جمع تأخير قبل أن يصل إلى
المزدلفة ، وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتي المزدلفة

(١) تفسر الترمذى ج ٢ ص ٣٧٧ ، ح ٥٥٥

(٢) آية ١٩٨ من سورة البقرة .

(٣) حديث حرجه البخارى في حشاش عجم عن سامه بن زيد . ج ١ ص ١٩٩

ثبت الأجل فليؤخر الصلاة حتى يأتي المزدلفة ؛ ولا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة ، لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى ذلك الوقت دون المكان واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان إذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان وكان مراعاة المختار أولى . (١)

ومن الواضح في هذين النصين . أن القرطبي قد اقتصر على الفتى المالكي فنقل آراء الإمام مالك ، وآراء ابن المواز ، وابن الماجشون ، وأشهب — وكل هؤلاء من فقهاء المالكية بل ومن كبارهم — ولم يعقب على هذه الآراء ولم يناقشها لأنه قد ارتضاها .

ونرى القرطبي أحيانا أخرى يفاضل بين آراء المالكية ويختار منها ففي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » بين في المسألة الرابعة عشرة حكم التكبير في الصلاة ، وموقف بعض فقهاء المالكية منه . ثم اختار أقرب الآراء إلى رأى أئمة الجماعة وقرى ذلك بما ذكره من الأحاديث . فقال : « وأما التكبير ما هنا تكبيرة الإحرام فسنون عند الجمهور . وكان ابن القاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام » وإن لم يسجد بطلت صلاته وأن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجدة أيضا للسهو . فإن لم يفعل فلا شيء عليه . وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها . وهذا يدل على أن هظام التكبير وجهته هذه فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أصبغ بن الفرغ وجهد الله بن عبد الحكم . ليس على من يكبر في الصلاة من

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٢٢ .

أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام . فإن تركه صاحبا مسجد
السهر . فإن لم يسجد فلا شيء عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامداً
لأنه سنة من سنن الصلاة . فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .
ثم رجح القرطبي هذا الرأي . وبين أنه يتفق مع رأى الجمهور وساق بعض
الأحاديث لتقويته . فقال : « قلت هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة
فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث . فدلكيين غير
من ذهب مذهب ابن القاسم . وقد ترجم البخارى رحمه الله « باب إتمام
التكبير فى الركوع والسجود » وساق حديث مطرف ابن هبة الله قال : سألت
خلف هلى بن أبى طالب أنا وعمران بن حصين ، فكان إذا سجد كبر وإذا
رفع رأسه كبر وإذا نهض من الركعتين كبر ، فلما قضى الصلاة أخذ يدي
عمران بن حصين فقال : لقد ذكرنى هذا صلاة محمد ﷺ . أو قال : لقد صلى
بنا صلاة محمد ﷺ . وحديث هكرمة قال : رأيت رجلا هندا المقام يكبر فى
كل خفض ورفع وإذا وضع ، فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس صلاة النبى
ﷺ لا أم لك . فدلل البخارى (١) رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير
لم يكن معمولا به هندم . روى أبو إسحق السبعى عن يزيد بن أبى مريم عن
أبى موسى الأشعرى قال : « صلى بنا هلى يوم الجمل صلاة أذكنا بها صلاة رسول
الله ﷺ كان يكبر فى كل خفض ، ورفع ، وقيام ، قال أبو موسى : فإمانيناها
وإما تركناها عمدا » ثم علق على هذه الأحاديث بقوله : « قلت : أنراهم أعادوا
الصلاة : فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته . ولو كان ذلك لم يكن
فرق بين السنة والقرض . والىء إذا لم يجب إفراده لم يجب جمعه . وبالله
التوفيق » (٢) .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ح ١ ص ٩٨ .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٧١ وما بعدها .

وفي قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» (١)
يقول في المسألة الحادية عشرة : « لما قال تعالى « اركعوا واسجدوا » قال بعض
هملائنا وغيرهم : يكنى منها ما يسى ركوعاً وسجوداً ، وكذلك من القيام ، ولم
يشترطوا الطمأنينة في ذلك . فأخذوا بأقل الاسم في ذلك . وكأنهم لم يسمعوا
الأحاديث الثابتة في إلقاء الصلاة (أي لا بالطمأنينة) قال ابن عبد البر : ولا يجوز
ركوع ، ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدين حتى يستدل
واكفاً ، وواقفاً ، وساجداً ، وجالساً ، وهو الصحيح في الآخر ، وعليه جمهور
العلماء ، وأهل النظر . وهي رواية ابن وهب وابن مذهب عن مالك . وقال
القاضي أبو بكر العربي : وقد تكررت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب
الفصل وسقوط الطمأنينة وهو وهم هظيم . لأن النبي ﷺ فعلها وأمر بها ،
وعلمها . فان كان لابن القاسم هنر إن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد
انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم . روى النسائي والدارقطني وهى ابن
عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ
جاءه رجل فدخل للسجدة فصلى فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله ﷺ
وعلى القوم فقال رسول الله ﷺ : ارجع فصل فإنك لم تصل . وجعل الرجل
يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندري ما يميم منها ، فلما جاء فسلم على النبي ﷺ
وعلى القوم فقال له النبي ﷺ : « وهليك ارجع فصل فإنك لم تصل » قال
مام (٢) فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثاً فقال له الرجل : ما آتوت فلا
أدري ما هبت على من صلاتي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه لا تتم صلاة أحدكم

(١) آية ٤٣ من سورة البقرة .

(٢) مام هذا هو أحد رجال سند الحديث . والحديث أخرجه النسائي في بلج الرخصة
في ترك التكبير في السجود ح ٢ ص ٢٢٥ طبع التجارية .

حتى يسبح الوضوء كما أمره الله فيفسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه ثم يكبر الله تعالى ويثنى عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أُنزل فيه وتيسر ثم يكبر فيركم فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائماً حتى يقم صلبه ، ويأخذ كل هظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه . قال هام : وربما قال جهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ، ثم يكبر فيستوى قائماً على مقدمه ، ويقم صلبه ، فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال : لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك .^(١)

الفقه المقارن :

في كثير من الأحيان لم يكن القرطبي يقتصر على الفقه المالكي بل كان يضم إليه فقه المذاهب الأخرى ، ونستطيع أن نسمي ذلك بالفقه للمقارن ، ومنهجه في تلك الحالة يشبه منهجه السابق . فهو تارة يسلك مسلك العرض والتوجيه . ومثال ذلك ما ذكره في قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر »^(٢) فقد قال في المسألة الرابعة : « واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر فقال مالك والشافعي في بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه » وجل من ذهب مالك التخيير وكذلك ذهب الشافعي . قال الشافعي ومن أتبعه : وهو خير ولم يفرق وكذلك ابن هبيلة » لحديث أنس قال : سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان فلم يصب الصائم على الفطر

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة .

ولا المفطر على الصائم. (١) أخرجه مالك والبخاري ومسلم . وروى عن
 هنيان بن أبي العاصي التقي وأنس بن مالك صاحبي رسول الله ﷺ : الصدوم
 في السفر أفضل لمن قدر عليه ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وروى عن
 ابن عمر وابن عباس أن الرخصة أفضل ، وقال به سعيد بن المسيب ، والشعبي
 وعمر بن عبد العزيز ومجاهد ، وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق . وكل
 هؤلاء يقولون الفطر أفضل لقول الله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد
 بكم العسر » فالقرطبي في هذا النص قد استعرض آراء الفقهاء ووجه هذه
 الآراء واكتفى بذلك فلم يعلن معارضته لرأى من الآراء (٢) ولعله قد ارتضاها
 جميعا : وكذلك فعل في قوله تعالى « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت
 إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » (٣) .
 فإن القرطبي يقول في المسألة الرابعة عشرة « واختلفوا — أى العلماء — في رجوع
 المجبرين لوصية الوارث في حياة للوصى بعد وفاته . فقالت طائفة : ذلك جائز
 عليهم ، وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبي رباح وطاوس والحسن
 وابن سيرين وابن أبي ليلى والزهري وربيعة والأوزاعي . وقالت طائفة : لهم
 الرجوع في ذلك إن أحبوا . هذا قول ابن مسعود وشريح والحكم وطاوس
 والثوري والحسن بن صالح وأبي حنيفة والثافعي وأحمد وأبي ثور . واختاره
 ابن المنذر . وقرئ مالك فقال : إذا أذنوا في صمته فلم أن يرجعوا . وإن
 أذنوا له في مرضه حين يحجب عن الله فذلك جائز عليهم . وهو قول إسحاق .
 احتج أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة . فإذا أجازوا جاز
 وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبي جاز بإجازتهم ، فكذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ج ١ ص ٢٢٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٠

(٣) آية ١٨٠ من سورة البقرة

ها هنا ، واحتج أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت ، وإنما يملك المال بعد وفاته ، وقد يموت الوارث المستأذن قبضه ، ولا يكون وارثا ، وقد يرثه غيره . فقد أجاز من لا يحق له فيه ، فلا يلزمه . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء . فإذا أذنوا له فى صحته . فقد تركوا شيئا لم يجب لهم . وإذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق . فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان أعتقه لأنه قد مات . . « ثم يقول فى المسألة السادسة هشة « واختلفوا فى الرجل يوصى لبعض ورثته بمال ، ويقول فى وصيته : إن أجازها الورثة فهم له وإن لم يجزوه فهو فى سبيل الله فلم يجزوه ، فقال مالك إن لم تجز الورثة ذلك رجع إليهم . وفى قول الشافعى وأبى حنيفة ومعمر صاحب عهد الرازق يمضى فى سبيل الله « (١)

ونرى القرطبي تارة أخرى يسلك فى الفقه المقارن مسلك المناقشة والترجيح ويؤيد ذلك بالحجة والدليل والأمثلة كثيرة — وإليك بعضها :

فى قوله تعالى « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (٢) يقول القرطبي فى المسألة السادسة « قال مالك وأصحابه : لا ينفع الحرم الا الاشتراط فى الحج اذا خاف الحصر بمرض أو عدو . وهو قول الثوري وأبى حنيفة . وأصحابهم .

والاشتراط أن يقول اذا أهل : لبيك اللهم لبيك ومحلى حيث حبستى من الأرض . وقال أحمد ابن حنبل ، واسحاق ابن راهويه وأبو ثور :

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٧٦٥

(٢) آية ١٩٦ من سورة البقرة .

لابأس أن يشترط له شرطه وقال خير واحد من الصحابة والتابعين . وحديثهم حديث ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إني أردت الحج أأشترط ؟ قال : نعم قالت : فكيف أقول قال : « قولي ليبيك اللهم ليبيك وعلى من الأرض حيث حبستني » (١) أخرجه أبو داود والدارقطني . قال الشافعي : لو ثبت حديث ضباعة لم أهدمه . وكان محله حيث حبسه الله .

وهلني للفرط على قول الشافعي بما يفيد تأييده للرأي الثاني فقال : « قلت : قد صححه — أي الحديث — خير واحد منهم أبو حاتم البستي وابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ قال لضباعة بنت الزبير « حيي واشترطي » وبه قال الشافعي إذ هو بالمرأى ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر والبقول الأول — أي يقول الشافعي الأول — أقول ، وذكره عبد الرازق . أخبرنا ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طائوساً وهكرمة . أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله ﷺ فقالت إني امرأة نفيلة (٢) وإني أريد الحج فكيف تأمرني أن أهل ؟ قال : أهل واشترطي أن محلي حيث حبستني . قال فأدركت ، وهذا إسناده صحيح (٣) .

وفي قوله تعالى :

« فن تسجل في يومين فلا إثم عليه » (٤) ويقول في المسألة الرابعة هشة

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عباس في كتاب الحج ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) أنثى للرجل .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) آية ٢٠٣ من سورة البقرة .

واختلف في قدر الحصى . فقال الشافعي : يكون أصغر من الأنبلة طولاً وحرماً . وقال أبو ثور وأصحاب الرأي : يمثل حصى الخنف . وروينا عن ابن عمر أنه كان يرمى الجرة بمثل بعر الغنم ولا معنى لقول مالك أكبر من ذلك أحب إلى . لأن النبي صلى الله عليه وسلم من الرمي بمثل حصى الخنف ، ويجوز أن يرمى بما وقع عليه اسم حصاة ، واتباع السنة أفضل . قاله ابن المنذر . ثم قال : « قلت وهو الصحيح الذي لا يجوز خلافه لمن اهتمى واتدى » روى النسائي عن ابن عباس قال قال لي رسول الله ﷺ « خذوا العقبة وهو على راحلته » هات القط لي — فلقطت له حصيات من حصى الخنف فلما وضعتهم في يده قال : « مثال هؤلاء وإياكم والنلو في الدين فانما أهلك من كان قبلكم النلو في الدين » فدل قوله . « وإياكم والنلو في الدين » على كراهة الرمي بالجلاد الكبير وأن ذلك من النلو والله أعلم (١) .

الفقه المقارن المبني على أحاديث اختلاف :

في كثير من الحالات تختلف أنظار الأئمة والفقهاء وآراؤهم في الأحكام الشرعية وكثيراً أيضاً ما يقوم هذا الاختلاف على أساس أن كل واحد قد أخذ ما ذهب إليه بما روى في تلك الأحكام من الأحاديث ، فإذا ذهب بعض الأئمة مثلا إلى إباحة حكم لأن هناك من الأحاديث ما يؤيد ذلك نرى بعضاً آخر يذهب إلى عدم إباحة ذلك الحكم بعينه لأن هناك أيضاً من الأحاديث

(١) تكملة للترطبي ج ٣ ص ١١ وما بعدها والحديث أخرجه النسائي في كتاب الخلع ج ٥ ص ٢٦٨ طبع التجارية : والخذف رمى الإنسان بمحصاة ونحوها من بين أصابعه من بلب ضرب .

ما يفيد ذلك ويثبت ، ومن هنا سميت هذه الأحاديث أحاديث الخلاف . ولقد استمرض القرطبي في تفسيره كثيراً من الفقه المقارن المبني على أحاديث الخلاف ، وكان منهجه في تلك الحالة أنه يحاول الجمع بين هذه الآراء بما يفعله من جمع بين الأحاديث من طريق تأويلها تأويلاً يبعد عنها التناقض والتعارض . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والماكين والركع السجود » (١) . فقد قال في المسألة الرابعة استدلل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبل حائطا بين حيطانها فصلاته جائزة ، وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة ، وكذلك من صلى على ظهرها : لأنه لم يستقبل منها شيئاً وقال مالك لا يصلى فيه الفرض ولا السنن ويصلى فيه التطوع . غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت وقال أصح : يعيد أبداً . ثم عقب فقال : « قلت وهو الصحيح لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج منه فلما خرج ركع في قبل الكعبة ركعتين وقال « هذه القبلة » (٢) وهذا نص . واستمرض القرطبي بعض الأحاديث التي تخالف هذا الحديث والتي قد يستدل بها بعض الفقهاء على ما يخالف هذا الرأي الذي صححه ثم أولها حتى لا تتعارض فقال : فإن قيل فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) آية ٢٥ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه الترمذي أيضاً عن أسامة بن زيد ح ٥ ص ٢٧٠

هو وأسامة ابن زيد وبلال وهنّان بن طلحة الحبشي البيت . فأهلقوا هاليم
الباب . فلما فتحوا كنت أول من ولج . فلفقت بلال فسأله : هل صلى فيه
رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم بين المودين الجانبيين (١) . وأخرجه . ولم يرد
قال : جميل عمودين من يساره وعموداً من يمينه وثلاثة أعمدة وراءه . وكذب
البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا كما
قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية . وإذا احتمل هذا وعذا
سقط الاحتجاج به .

فان قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبي ﷺ
صوراً في الكعبة فكنت آتية بماء في الدلو يضرب به تلك الصور . يعني أن
الرسول ﷺ مسح الصور ولم يصل . وخرجه أبو داود الطيالسي قال
حدثنا ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عبيد مولى ابن
عباس عن أسامة بن زيد قال دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة ورأى
صوراً قال : فدعا يدلو من الماء فأتيته به فجعل يحوها ويقول : « قال
الله قوماً يصورون مالا يخلفون » (٢) فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه
وسلم في حالة مضى أسامة في طلب الماء . فشاهد بلال مالم يشاهده أسامة .
فكان من أثبت أولى ممن نفي . وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس
بقول بلال وتركوا قولي ، وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال قلت
لعمر بن الخطاب . كيف صنع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة ؟ قال :
صلى ركعتين . قلنا هذا محمول على النافقة . ولا يعلم خلافاً بين العلماء في صحة
النافقة في الكعبة ، وأما الفرض فلا لأن الله تعالى حين الجهة بقوله تعالى « فقولوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ج ١ ص ١٩١ .

(٢) أخرجه البخاري بمناه عن ابن عباس ج ١ ص ١٩١ .

وجوهكم شطره» وقوله ﷺ لما خرج: «هذه القبلة». فميتها كما هيها
الله تعالى. ولو كان الغرض يصح داخلها لما قال: هذه القبلة. ثم قال القرطبي
بعد ذلك: وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث وهو أولى من إسقاط بعضها فلا
تعارض والحمد لله (١).

وإذا كان بين الأحاديث عموم وخصوص أو إطلاق وتقييد جمع القرطبي
بين الآراء. فأخرج من أفراد العام ما يتناول التخصيص وحل المطابق على
للتقييد: ومثال الأول ما ذكره في قوله تعالى «فمن كان منكم مريضاً أو على
سفر فمدة من أيام أخر» (٢) فقد قال في المسألة الخامسة هشة «واختلفوا
فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه فقال مالك والشافعي والثوري:
لا يصوم أحد من أحد. وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو هيبه
وأهل الظاهر: يصام منه إلا أنهم خصصوه بالنذر، وروى مثله عن الشافعي
وقال أحمد وإسحاق في قضاء رمضان: يطعم منه. احتج من قال بالصوم
بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من مات
وعليه صيام صام وليه» (٣).

إلا أن هذا عام في الصوم يخصه ما رواه مسلم أيضاً من ابن عباس قال:
جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أمي لقد ماتت
وعليها صوم نذر — وفي رواية صوم شهر — أفأصوم عنها؟ فقال: أرايت
لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت: نعم، قال:

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب قضاء الصوم من الميت ج ٨ ص ٢٣.

« فصومى عن أمك » (١). احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقوله « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » وبما خرج النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : لا يصلى أحد على أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يعلم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة (٢). ثم هقب على هذا الحديث بما يجمع بينه وبين الأحاديث التي تمارض . فحمله على صوم رمضان دون صوم النذر فقال : قلت وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون للراد بقوله : لا يصوم أحد عن أحد صوم رمضان ، أما صوم النذر فيجوز بدليل حديث ابن عباس وغيره . فقد جاء في صحيح مسلم أيضاً من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفي بعض طرقه : صوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال « صومى عنها » قالت : إنها لم تخرج قط أفأحج عنها ؟ قال : « حجى عنها » (٣) فقولها شهرين . يبعد أن يكون رمضان والله أعلم . وأقوى ما يحتاج به مالك أنه عمل أهل المدينة ، وبعضه القياس الجلى ، وهو أنه عبادة بدنية لا تدخل للمال فيها . فلا تفعل عن وجهت عليه كالصلاة ، ولا ينقض هذا بالحج لأن المال فيه مدخلا .

ومثل الثانى ما ذكره في قوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » (٤). فقد قال : قيل هذا تأكيذ للأمر باستقبال الكعبة واهتمام

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام ج ٨ ص ٢٣ و ٢٤ :

(٢) رواه الترمذى عن ابن عمر بلفظ : من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه مكان كل يوم مسكيناً . انظر التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والشيخ منصور ناصب ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٥ وما بعدها وانظر طرق حديث ابن عباس في صحيح

مسلم ج ٨ ص ٢٤ و ٢٥ .

(٤) آية ١٤٩ من سورة البقرة

على أساس علمي ، فنناقش الأدلة وأبطال مالا يصلح منها واعتمد آراءه صواباً ثم وقف بجانبه ينصهر له ويدافع عنه. ففي قوله تعالى « ولا تشعروا بأي شيء عذاباً قليلاً » (١) يقول في المسألة الثانية :

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان في معناها — فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن . لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والاخلاص . فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام وقد قل تعالى « ولا تشعروا بأي شيء عذاباً قليلاً » وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قل : تعلمو صبيانكم شراركم أقلامهم راحة باليتيم وأغلاظهم على للسكين (٢) وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول في المعلمين ؟ قال : درهمهم حرام وثوبهم صحت وكلامهم رياء . وروى جابر بن الصامت قال : علمت ناساً من أهل الصفة القرآن والكتابة فأهدى إلى رجل منهم قوساً فقلت ليست بمالك وأرعى عنها في سبيل الله فسألت عنها رسول الله ﷺ فقال « إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فأقبلها » وأجار أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور . وأكثر العلماء لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس — حديث الرقية — : إن أحق ما أخذتم عليه

(١) آية ٤١ من سورة البقرة .

(٢) هذا الحديث أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة وقال عنه إنه موضوع وتنبه سبب وضعه أن سعد ابن طريف — واضع هذا الحديث — كان له ابن فجاه يبكي ذات يوم فقال له مالك ؟ قال : ضربي للعلم قال : والله لا جزيته اليوم ثم وضع من فوره هذا الحديث ، وسبب أن تعد الترتيلي لهذا الحديث وحديث أبي هريرة وابن الصامت •

أجراً كتاب الله « أخرجه البخارى (١) . وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يقول « ثم قال القرطبي :

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه في مقابلة النص ، ثم إن بينهما فرقاً ، وهو أن الصلاة والصوم هبادات مخنصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعددة لمير المعلم . فتجوز الأجرة على محاولته النقل ، كتعليم كتابة القرآن . قال ابن للنفر وأبو حنيفة . يسكره تعليم القرآن بأجرة ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحاً أو شعراً أو فناء معلوماً بأجر معلوم . فيجوز الإجارة فيما هو ممصية ويمطأها فيما هو طاهية .

وأما الجواب عن الآية : فلراد بها بنو إسرائيل وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف وهو — أى مالك — لا يقول به :

جواب ثان : وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً . فأما إذا لم يتمين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك . ثم يتبين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفعه على نفسه ، ولا على عماله : فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعه وحرفته ، ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين وإطاعته والا فضل المسلمين لأن الصديق رضى الله عنه لما ولي الخلافة ، وهين لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله فأخذ ثياباً ، وخرج إلى السوق وميل له في ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على هبالي ، فردوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ولا يصح منها شيء عند أهل

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ج ٤ ص ١٣

العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن هكرمة عنه .
وسعيد متروك . أما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن سلمة
عن أبي جرم عنه . وأبو جرم مجهول لا يعرف ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد .
يقال له أبو جرمهم . وإنما رواه عن أبي المازم وهو متروك الحديث أيضاً .
وهو حديث لا أصل له ، وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من
حديث المغيرة ابن زياد الموصلى عن عبادة بن نسي عن الأسود بن زبية عنه ،
والمغيرة معروف عند أهل العلم ، ولكنه له منا كثير هذا منها . قاله أبو عمر
ثم قال : « وأما حديث القوس فعرف عند أهل العلم لأنه روى عن عبادة
من وجهين وروى عن أبي ابن كعب من حديث موسى ابن علي عن أبيه عن
أبي . وهو منقطع وائس في الباب حديث يجب العمل به . . . وروى عن
الذي عليه السلام أنه قال : خير (١) الناس وغير من يعنى على تجديد
الارض المعلومون كما خلق الدين جددوه أعلامهم ولا تستأجروهم
فتخرجوهم فان العلم إذا قل لصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال
الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة له في وبراءة
لأبيه من النار » (٢)

فالترطبي قد رجح مذهب الامام مالك ومن تابعه وبني ترجيحه على
أساس رد القياس لانه في مقابلة النص : وله الحق في ذلك كما سيتضح في
بعد . ثم تأويل الآية . ويبين أن الاحاديث التي استدل بها المخالفون لاتصلح

(١) أخرجه ابن مردويه وأورده السيوطي في اللآلئ للصبوحه ج ١ ص ١٩٨
وبين أنه موضوع ،

(٢) تفسير الترطبي ج ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

التدليل لأن في سندها من هو متروك لا يؤخذ منه . ومنه من هو مجهول لا يعرف ولأن فيها ما هو منقطع وكل هذه لا تقوم على ساق ولا تصلح دليلا وحجة . وقد أجاد القرطبي إلى هنا ولكنه في النهاية قد استدل بحديث لا يصلح للتدليل . وهو ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس وخير من بعث على الأرض الملعون » الحديث ، وهذا الحديث قد رواه ابن الجوزي بسنده إلى ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للملعون خير الناس كلما خلق الله ذكر جددوه ، عظموم ولا تستأجروم فإن للعلم إذا قال لعصي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال العصي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للعصي وبراءة لوالديه وبراءة للمعلم من النار .

وإذا كان القرطبي قد أورد هذا الحديث دليلا على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن فإن ابن الجوزي قد أورد دليلا على عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن .

والحديث يصلح الرايين . فرواية ابن الجوزي تقول « عظموم ولا تستأجروم » وهذه تفيد عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن . ورواية القرطبي تقول « عظموم ولا تستأجروم » وهذه تفيد الجواز . والحديث لا يصلح حجة ودليلا فكان الأولى بالقرطبي أن يقتصر على الأدلة القوية وأن يكتفي بها وخاصة أنه هاجم أدلة المخالفين وردّها . وإذا كان قد رد بعض الأحاديث لا قطعها فإنها قد استدل بحديث موضوع قال عنه ابن الجوزي : « لا يجوز الاحتجاج به لأنه من عمل أحمد بن عبد الله المروى الجويباري وكان كذابا يضع » وقد أجمع أهل النقل على ذلك^(١) .

(١) رسالة ابن الجوزي ص ٢٣٦ تتلacen التحقيق لابن الجوزي ١٨٧ وانظر الآتي .
المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٢٩٨ .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا طارى سبيل حتى تنضلوها^(١) » . يقول فى للسألة الثالثة حشرة « نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة إلا بعد الاغتسال ، والاغتسال معنى معقول ، ولفظه هند العرب معلوم . يعبر به عن إصرار اليد مع الماء على المغسول ولذلك فرقت العرب بين قولهم : غسلت الثوب وبين قولهم : أفضت عليه الماء وغسسته فى الماء . وإذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى الجنب يصب على جسده الماء أو ينغمس فيه ولا يتذلك . فالشهور من مذهب مالك أنه لا يجوز حتى يتذلك لأن الله سبحانه وتعالى أمر الجنب بالاغتسال . كما أمر التوضؤ بغسل وجهه ويديه . وهذا قول المزنى واختياره . قال أبو الفرج عمرو بن محمد المالكي . وهذا هو المعقول من لفظ الغسل . لأن الاغتسال فى اللغة هو الاغتسال ، ومن لم يمر يديه فلم يفعل خير صب الماء . لا يسميه أهل اللسان غاسلاً بل يسمونه صاباً للماء . ومنغمساً فيه قال : وهى نحو هذا جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تحت كل شجرة جنابة فاحسبوا الشعر وألقوا بالبشرة » قال : وإتقاؤه — والله أعلم — لا يكون إلا بتقبه على حد ما ذكرنا .

ورد القرطبي هذا الرأى بعد أن ناقشه ، ثم انتصر لرأى الجمهور ورجحه لقوة حجته ودليله فقال :

قلت : لاجبة فيما استدلل به من الحديث لوجهين : أحدهما — أنه قد خولف فى تأويله . قال سفيان بن عيينة : المراد بقوله عليه السلام « وألقوا بالبشرة »

أراد غسل الفرج وتنظيفه ، وأنه كفى بالبشرة من الفرج . قال ابن وهب :
ما رأيت أحداً أهدأ من ابن هبيرة .

الثاني : أن الحديث أخرجه أبو داود في سننه وقال فيه : وهذا الحديث
ضعيف كذا في رواية ابن داسه^(١) . وفي رواية الألباني عنه : الحارث بن وجيه
ضعيف . حديثه منكر . فسقط الاستدلال بالحديث . وبقى المول على اللسان
كما بينا ، وبعبارة ثابتة في صحيح الحديث أن النبي ﷺ أتى بصبي فقال عليه
فدعا بما فأتبمه بوله ، ولم يذهب ، روته عائشة ونحوه من أم قيس بنت محسن
أخرجهما مسلم^(٢) . وقال الجمهور من العلماء وجهه الفقهاء : يميزه الخشب
صب الماء ، والانتماش فيه ، إذا أسيغ وهم ، وإن لم يتبدل ، على مقتضى
حديث ميمونة وعائشة في غسل النبي ﷺ رواها الأئمة وأن النبي ﷺ كان
« يفيض الماء على جسده »^(٣) . وبه قال محمد بن عبد الحكم وإليه رجع
أبو الفرج ورواه عن مالك : وإنما أمر بإمرار اليدين في الفضل لأنه لا يكاد
من لم يمر يده عليه يسلم من تنكب الماء من بعض ما يجب عليه من جسده .
قال ابن العربي : لأبي الفرج الذي روى وحكى عن صاحب المذهب أن الفضل
دون ذلك (التدليك وإمرار اليد) يميزه . وما قاله مالك قط نصاً ولا تخريفاً ،
وإنما هي من أوهامه . ورده للقرطبي على ابن العربي ، ثم : فش بما نقله عن
ابن عبد البر ما تمسك به المحالفون من الدلالة القوية للفظ الفضل على
التدليك . فقال :

(١) ابن داسه هو أبو بكر محمد بن بكر الداسي البصري راوى سنن أبي داود .

(٢) أخرجهما مسلم في كتاب الطهارة ، باب حكم بول الطفل الرضيع ج ٣ ص ١٩٣

(٣) حديث ميمونة وعائشة أخرجهما مسلم في كتاب الحيض باب صفة غسل الجنابة ج ٣

« قلت قد روى هذا عن مالك نصاً . قال مروان بن محمد الظاهري وهو ثقة ثقة الشافعيين : سألت مالك بن أنس عن رجل انغمس في ماء وهو جنب ولم يتوضأ قال : مضت صلاته . » ثم قال القرطبي . « قال أبو عمر : فبهذه الرواية فيها لم يتدلك ولا توضأ . وقد أجزأه عند مالك ، والمشهور من مذهبه أنه لا يجوز له حتى يتدلك قياساً على غسل الوجه واليدين . وحجة الجماعة أن كل من صب عليه الماء فقد اغتسل . والعرب تقول غسطنى السماء وقد حكمت عائشة وميمونة صفة غسل رسول الله ﷺ ولم تذكر اندلصاً ، ولو كان واجباً ما تركه لأنه المبين عن الله مراده ، ولو ناله لنقل عنه كما نقل تحليل أصول شعره بالماء وغفره على رأسه وغير ذلك من صفة غسله ووضوئه عليه السلام . قال أبو عمر : وغير نكير أن يكون الغسل في لسان العرب مرة بالمرء (١) . ومرة بالنصب والإضافة . وإذا كان هذا فلا يمتنع أن يكون الله عز وجل تعبد عباده في الوضوء بإمرار أيديهم على وجوههم مع الماء ، وأن يكون ذلك غسلًا ، وأن يفيضوا بالماء على أنفسهم في غسل الجنابة والحيض ، ويكون ذلك غسلًا موافقاً لسنة غير خارج عن الأمة ، ويكون كل واحد من الأمرين أصلاً في نفسه . لا يجب أن يرد أحدهما إلى صاحبه لأن الأصول لا يرد بعضها إلى بعض قياساً — وهذا ما لا خلاف فيه بين علماء الأمة ، وإنما ترد الفروع قياساً على الأصول وبالله التوفيق » (٢) .

القرطبي قد ناقش ما تمكك به المخالف من الأحاديث . وأسقط الاستدلال بهانم بين أن دلالة اللفظ القوي تؤيد ما ذهب إليه المخالف .

(١) الرء منناه الدلك .

(٢) تفسير القلى ج ٥ ص ٢٠٩ وما بعدها

وأن بعض الأحاديث يعضد هذه الدلالة . وبهذا عرض القرطبي حجة الخلع بدنة وأمانة وقواها حيث ذكر ما يؤيدها من الأحاديث . ثم عاد فبين بما قلناه من « ابن هب البر » أن الافة لا تناقض ما ذهب إليه الجمهور . وعلى هذا فرأى الجمهور أقوى وأسلم .

وقد لاحظت أن القرطبي في قول الله تبارك وتعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى »^(١) وجع بعض الآراء . واتصره . وكان يمكنه أن يجمع بين الأحاديث وألا يسقط الاستدلال ببعضها . وبالتالي كان يمكنه أن يجمع بين الآراء بدون أن يلجأ إلى هذا الترجيح . . يقول في المسألة الثالثة عشرة .

« روى الأئمة من أبي شريح السلمي قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم معشر خزاعة قتلتهم هذا القتيل من هذيل وإنى عاقله فمن قتل له — بعد مقاتله هذه — قتيلا فأهله بن خيرتين . أن يأخذوا القتل أو يقتلوا »^(٢) لفظ أبي داود . وقال الترمذي حديث حسن صحيح^(٣) . وروى عن أبي شريح الخزاعي عن النبي ﷺ قال « من قتل له قتيلا فسله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية » وذهب إلى هذا بعض أهل العلم وهو قول أحمد وإسحاق . ثم قال في المسألة الرابعة عشرة . اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمه فقالت طائفة : ولي المقتول بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن لم يرض القاتل . يروى هذا عن سعيد بن المسيب وعطاء والحسن ورواه أشهب عن مالك وبه

(١) آية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات ج ١٥ ص ٢٥٥ .

(٣) أخرجه الترمذي بلفظ من قتل مؤمنا متبدا دفع الى أولياء القتول فان شاء

قتلوه وان شاءوا أخذوا الدية — انظر التاج ج ٣ ص ٩ .

قال الأيبي والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في مناه وهو نص في موضع الخلاف ، وأيضاً من طريق النظر فإنما لزمه الدية بشير رضاه (أى وإن لم يرض) . لأن فرضاً عليه إحياء نفسه . وقد قال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وقال « فنحن له من أخيه شيء » أى تركه له دمه في أحد التأويلات ، ورضى منه بالدية « فاتباع بالمعروف » أى فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف في اللطالبة بالدية ، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان . أى من غير ممانعة وتأخير عن الوقت « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » أى إن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم خير النفس بالنفس ، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضى بها ولي الدم . . . وقال آخرون : ليس لولى المقتول إلا الفصاص ، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضى القاتل ، رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه . وبه قال الثوري والكويتي ، واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثنية المرأة ، رواه الأئمة قالوا : « فلما حكم رسول الله ﷺ بالقصاص وقال : القصاص كتاب الله ولم يغير المجنى عليه بين القصاص والدية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وصلة رسوله في العمد هو القصاص » ورجع القرطبي الرأى الأول فقال « والأول أصح لحديث أبي شريح المذكور » ثم انتصر له فقال « وروى الربيع عن الشافعي قال : أخبرني أبو حنيفة عن ابن سنان بن الفضل الشهابي قال : حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح لا يحكي أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إذا أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود » فقال أبو حنيفة : فقلت لابن أبي ذئب أأخذ بهذا يا أبا الحارث ، فضرب صدرى ، وصاح على صياحاً كثيراً ، وقال منى وقال : أحدكم من رسول الله ﷺ وتقول : أأأخذ به ، نعم أخذ به وذلك الفرض على وعلى من سمعه . إن الله عز وجل تناؤه اختار محمداً ﷺ من

الناس فهدام به وهلى يده، واختار لهم ما اختاره له ، وهلى لسانه . فملى الخلق أن يقيموا طائمين أو داخرين لا يخرج مسلم من ذلك . قال : وما سكت عنى حتى تمنيت أن يسكت « (١) .

فالفرطى قد رجح الرأى الأول وانتصر له وقواء ، وإنى أرى أن الجمع بين الأحاديث ممكن . فلعل واقعة الربيع كانت قبل أن يعلم النبى ﷺ أن ولى للقتول بخير النظرين إن شاء قتل . وإن شاء هقل، ويرشح قتلك أن أحاديث التخيير متأخرة . فحديث أبى شريح كان يوم فتح مكة وحديث أبى هريرة كذلك . حيث أسلم قبل الفتح . فلقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى (أى بسطى له الفدية وإما أن يقتل (٢) » .

على أن الحديث الذى تمسك به الفريق الآخر أصحاب الرأى الثانى . أخرجه البخارى وغيره من الأئمة . ولفظ البخارى :

روى أنس بن مالك بن النضر أن عتة الربيع لطمت جارية فكسرت ثيابها فطلبوا المعفو فأبوا والأرش فأبوا إلا القصاص . فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله بالقصاص فقال أنس : يا رسول الله : أنكسر ثنية الربيع . لا والذى بيمتك بالحق لا تكسر ثنيها . فقال رسول الله ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضى القوم فصفوا ، وقال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (٣) وهذا مما يؤيد الجمع لا الترجيح .

(١) تفسر للفرطى ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الديان باب من قتل له قتيل ٢٢٥/١ وانظر رسالة ابن الجوزى المحدث فى زميل أبو اللاه على أبو الملا ص ٢١٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة البقرة باب « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » ج ٩ ص ٢٤٣ .

عدم تعصب القرطبي

لم يتعصب القرطبي لمذهب الإمام « مالك » فبرجحه وإن ضفت حجته ، ولكنه كان يرجح غيره من المذاهب . إذ رأى الحق بجانبه ، ويخرج على المذهب للمالكى ، ويعلم معارضة له . كما لم يلتزم القرطبي في عرض حجة الخصم ، أو يأتي بها مبتورة مهمللة . بل كان يعرضها بدقة وأمانة ، وكان يضيف عليها . كثيراً من الشرح والتوضيح ، ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك . ونذكر هنا بعض الشواهد الأخرى :

في قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية (١) يقول في للسؤال الثانية عشرة : « قال مالك والشافعى وأبو نوح وأصحاب الرأى : إذا أكل ناسياً فظن أن ذلك قد فطره فجامع عاتداً كان عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقيل في المذهب : عليه القضاء والكفارة . إن كان قاصداً لهلك حرمة صومه جرأة وثناؤنا . قال أبو هريرة . وقد كان يجب على أصل مالك ألا يكفر . لأن من أكل ناسياً فهو عنده منظر يقضى يومه ذلك . فأى حرمة كُتبت وهو منظر ، وعند غير مالك : ليس بمنظر كل من أكل ناسياً الصوم » (ويلاحظ أن القرطبي قد انتقل بلامتهديد إلى حكم آخر وهو حكم من أكل ناسياً في رمضان) ورجح القرطبي هذا الرأى مع أنه يخالف لمذهب مالك . ثم دلل على ذلك فقال : « قلت وهو الصحيح وبه قال الجمهور : إن من أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه وأن صومه تام لحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإمّا هو رزق صافه الله

تمالى إليه ولا قضاء عليه ، وفي رواية : ولتيم صومه فان الله أطعمه وسقاه (١) أخرجه الدارقطني وقال : إسناده صحيح ، وكلمة ثقات ، قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله يسأل عن أكل ناسيا في رمضان قال : ليس عليه شيء على حديث أبي هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالك يقول : عليه القضاء ، وضحك . وقال ابن المنذر لا شيء عليه لقول النبي ﷺ لمن أكل أو شرب ناسيا « يتم صومه » وإذا قال : « يتم صومه » فأنه فهو صوم تام كامل . ثم عرض القرطبي الأدلة التي تمسك بها المالكية في وجوب القضاء على من أفطر ناسيا وصححها ، ولكنه عاد فخرج عليها وبين أن هذه الأدلة لا تقف أمام النص المبرح فقال :

وإذا كان من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ، وصومه صوم تام . فعليه إذا جامع هامدا القضاء والكفارة - والله أعلم - كن لم يفطر ناسيا .
(وهجارة القرطبي فيها تأييد لما ذهب إليه بعض فقهاء المالكية من أن من أفطر ناسيا ثم جامع هامدا عليه القضاء والكفارة . وفيها في الوقت نفسه رد لما ذهب إليه مالك من أن من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ولا كفارة - فهو قد رجع بعد الانتقال من حكم إلى حكم رجع إلى الحكم الأول ثم عاد إلى الانتقال إلى الحكم الثاني) .

وقد احتج هنادنا على إيجاب القضاء بأن قالوا : للطلب منه صيام يوم تام لا يقع فيه حرّم لقوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل » وهذا لم يأت به على التمام فهو باق عليه . ولعل الحديث في صوم التطوع

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة : بلفظ « من نسي وهو صائم فأكَل أو شرب فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه » ورواية الترمذي : من أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر فانها هو رزق رزقه الله . انظر التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول لشيخ منصور ناصف ج ٢ ص ٧٨ .

تلفته . وقد جاء في صحيح البخارى ومسلم : « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه » فلم يذكر قضاء ولا تعرض له . بل الذى تعرض له سقوط للأخذة ، والأمر بمضيه على صومه ، وإتمامه . هذا إن كان واجبا فدل على ما ذكرناه من القضاء .

وأما صوم التطوع فلا قضاء فيه لمن أكل ناسيا لقوله ﷺ « لا قضاء عليه » ثم قال : قلت هذا ما احتج به هلمأؤنا وهو صحيح . لولا ما صح من الشارع ما ذكرناه ، وقد جاء بالنص الصريح الصحيح . وهو ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ : « من أفطر في شهر رمضان ناسيا فلا قضاء عليه ولا كفارة » أخرجه الدارقطنى وقال : تفرد به ابن مروزق ، وهو ثقة عن الأنصارى فزال الاحتمال وارتفع الإشكال والحمد لله ذى الجلال والإكمال ، (١) .

وفي قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » (٢) الآية . . يقول فى اللسان السابعة عشرة : « روى الدارقطنى عن ربي بن حراش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بأنه لأهلا (٣) الهلال أمس هشية . فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يفطروا ، وأن يندوا إلى مصلاهم . قال الدارقطنى هذا إسناد حسن ثابت . قال أبو عمر : لا خلاف من مالك وأصحابه أنه لا تملى صلاة العيد فى غير يوم العيد ولا فى يوم العيد بعد الزوال . وحكى عن أبي حنيفة . واختلاف قول الشافعى فى هذه المسألة . فرة قال بقول مالك ، واختاره المزنى ،

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) أهل الرجل بالحلال وآه الحديث أخرجه أيضا أبو داود واحد بسند صحيح انظر التاج الجامع للاصول فى الحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٦٣ .

وقال إذا لم يجز أن تصلي في يوم العيد بعد الزوال . فالיום الثاني أبعد من وقتها ، وأخرى ألا تصلي فيه . وعن الشافعي رواية أخرى : أنها تصلي في اليوم الثاني ضحي وقال البويطي : لا تصلي إلا أن يثبت في ذلك حديث قال أبو عمر : لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأثبتت الفرائض ، وقد أجمعوا في مائتين أنهما لا تقضى فهذه مثلها وقال الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل يخرجون من الغد ، وقال أبو يوسف في الإملاء وقال الحسن بن صالح بن حي : لا يخرجون في الفطر ويخرجون في الأضحي قال أبو يوسف : وأما في الأضحي فيصلحها بهم في اليوم الثالث . قال أبو عمر : لأن الأضحي أيام هيد ، وهي صلاة هيد ، وليس الفطر يوم هيد إلا يوم واحد . فإذا لم تصلي فيه لم تقض في غيره . لأنها ليست بفريضة فتقضى . وقال الميت بن سعد : يخرجون في الفطر والأضحي من الغد . . . » .

وخرج القرطبي على مذهب مالك ، ورجح قول من ذهب إلى جواز الخروج فقال : « قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصبح السنة الثامنة في ذلك . ولا يمنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يعمل ركعتي الفجر فإيصلهما بعد ما تطلع الشمس ^(١) . صححه أبو محمد . قال الترمذي : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وابن المبارك . وروى عن ابن عمر أنه فعله .

قلت وقد قال علماءنا : فمن ضاق عليه الوقت ، وصلى الصبح وترك

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة انظر جامع الترمذي بفتح ابن العربي ويسمى نسخة الاحوذى في شرح الترمذي لابن العربي ج ٢ ص ٢١٧ .

ركعتي الفجر فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء ، وقيل : لا يصليهما حينئذ . ثم إذا قلنا يصليهما فهل ما يفعله قضاء أو ركعتان ينوب له ثوابهما من ثواب ركعتي الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب وذكر القضاء نجوَز .

قلت ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني على هذا الأصل . لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة مع ما ثبت من السنة روى النسائي قال : أخبرني عمرو بن علي قال حدثنا يحيى قال حدثنا شعبة قال حدثني أبو بشر عن أبي عمير بن أسد عن عروة له أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبي ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من القد . في رواية « ويخرجوا لمصلاتهم من القد (١) » .

وإذا كان القرطبي يخرج عن المذهب المالكي لأنه لا يرى الحق بجانبه بعد النظر في أدلته ، وأدلة المخالفين له ، ومناقشة ذلك كله بأسلوب علمي . فإنه أيضاً لم يكن يبنى نقده للمخالفين له بما يشير حوله الاتهام بالنصب . بل كان يبنى نقده على هذا الأسلوب العلمي وهذا مثال بوضح ذلك .

في قوله تعالى : « ومن أوصافها وأوطارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » يقول في المسألة السابعة :

« ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبست . لأنها كلمم الميتة ، والإخبار بالانتفاع بعد

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠٤ والحديث أخرجه النسائي في كتاب صلاة العيدين ج ٣ ص ١٨٠ .

الدباغ . ترد قوله ، واحتج بحديث عبد الله بن حكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة وأنا غلام شاب ، « ألا تستمعوا من الميتة بأهاب ولا هصب » وفي رواية : قبل موته بشهر . رواه القاسم بن خزيمة عن عبد الله بن حكيم قال : حدثنا مشيخة لنا أن النبي ﷺ كتب إليهم . . . قال داود بن علي : سألت يحيى بن معين عن هـنا الحديث . فضمعه ، وقال ليس بشيء . إنما يقول حدثني الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتاً لا أحتمل أن يكون مخالفاً للاحاديث المروية عن ابن عباس ، وعائشة ، وسلمة بن الحقيق ، وغيرهم . لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن حكيم : ألا تنتفعوا من الميتة بأهاب قبل الدباغ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجعله مخالفاً ، وعلينا أن استعمل الخبر ما أمكن ، وحديث عبد الله بن حكيم . وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر . فيمكن أن تكون قصة ميمولة وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب دباغ فقد تطهر » قبل موته بجمعة أو دون جمعة والله أعلم (١) .

فالإمام أحمد ابن حنبل . يرى أن جلد الميتة لا يظهر بالدباغ . وبالتالي لا يبيح الانتفاع به بعد دباغه ، ودليله حديث : عبد الله بن حكيم : ولم يرتض القراطي مذهب الإمام أحمد ابن حنبل وناقش دليله فضمعه ، ولكنه في النهاية عاد فجمع بين الأدلة . فهل قامت هذه المناقشة على أساس سليم أم على أساس التمسك بالحياة ؟ .

لقد ناقش الزميل : أبو الملا علي أبو الملا : ابن الجوزي . في رسالته هذه .

(١) خرج أبو داود في كتاب لباس ٣٨٧/٢ والنسائي / ١٧٥ والترمذي في كتاب لباس — ٣ / ٣٦ والبيهقي في كتاب الطهارة باب في جلد الميتة . وكل من يحيى ابن معين أنه ضيف هذا الحديث وقال ليس بشيء . إنما هو حدثني أشياخ جهينة ورواه عنه داود بن علي .

ونقده تحت عنوان : سكوت ابن الجوزي عن بعض الأحاديث التي استدل بها الحنابلة : وأحب أن أمتعرض موقف « ابن الجوزي » من هذه المسألة .
ونقد الزميل له رغم ما فيهما من طول — لأنهما يوضحان لنا هدم تمصب القرطبي . وأنه كاف يقف بجانب الحق أينما كان .

يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى : مسألة جلود الميتة لا تطهر بالدباغ ، وقال أبو حنيفة والشافعي تطهر .

لنا أحاديث أشهرها حديث ابن هكيم . وهو ما رواه بسنده عن عبد الله بن هكيم قال : أتانا كتاب رسول الله ﷺ وأنا غلام شاب قبل موته بشهر أو شهرين ألا تنتقموا من الميتة بإهاب ولا عصب . . . ثم قال ابن الجوزي :
احتج الخصم بأحاديث :

الحديث الأول : ما رواه بسنده عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال : ألا استمتعتم بجلدها ؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة . قال : إنما حرم أكلها (١) . ثم ذكر طرقاً أربعة . رواه الدارقطني بسنده زاد في الطريق الأول منها . أو ليس في الماء والقرظ ما يطهرها : وفي الطريق الثاني : إن دباغها ذكاهما : وفي الثالث : دباغ إهابها يطهرها : وفي الرابع نحو الذي تقدم غير أنه قال : إنما حرم هلككم لحمها ورخص لكم في مسكها (٢) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفايح والصيد باب جلود الميتة ج ١٢ ص ٧٩ وأخرجه مسلم بشرح النووي ج ٤ ص ٥١ .

(٢) السك الجلود والجمع مسوك ، مثل فلس وفلس .

قال الدارقطني هذه أسانيد صحاح .

والحديث الثانی بسنده عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أيما أهاب دبع فقد طهر .

الحديث الثالث بسنده عن سلمة بن الحقيق : أنه كان مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . فأتى هلى بيت فدأه قربة معلقة قال : للشراب . قيل : أنها ميتة . فقال : ذكاتها دباها . قال أحمد بن حنبل — جون — أحذروا ته لا يعرف (١) .

الحديث الرابع بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ دأبأ إهاب دبع فقد طهر .

الحديث الخامس بسنده عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ . قال : «طهور كل أديم دباها» . قال الدارقطني إسناده كالم ثقات (٢) .

قال ابن الجوزى . ولهم حديث يرويه المفيرة بن شعبة وآخر ترويه أم سلمة كلاهما مطعون فيه فلم أر في ذكرهما فائدة . ثم قال ابن الجوزى : وأصحابنا يقولون : حديثنا متأخر . وهو حاطر والحظر مقدم .

ويقول الزميل : هذا ما ذكره ابن الجوزى في تلك المسألة ، ونلاحظ عليه أنه ذكر أحاديث مذهبه دون أن ينبه على ما فيها من ضعف ، وإهلال .

(١) سنن الدارقطني ٤٥/١ رقم ١٢ وسنن أبي داود ٣٨٧/٢ والنسائي ١٧٣/٢

(٢) سنن الدارقطني ٤٨/١ ، ٤٩ ، رقم ٢٤ ، ٢٧ .

وإذا كانت مصاحبتنا لابن الجوزي وملازمته في الدراسة تقتضي الدفاع عنه فإن واجب الإنصاف والعلم يقتضينا أن نقول كلمة حق حتى وإن كانت في غير صالح ابن الجوزي . بل إن الذي يهمننا هو أن يسير بحثنا في طريقه العلمي السوي دون هوى أو ميل لهذا أو لذلك .

ويكفيها هنا أن نبين وجوه الطعن فيها استدل به لأهل مذهبه ، وخصوصا ما يتعلق بالحديث الأول وهو حديث عبد الله بن حكيم وهي : —

الإرسال لعدم سماع عبد الله بن حكيم من النبي ﷺ .

الانقطاع لعدم سماع عبد الرحمن بن أبي ليلى من عبد الله بن حكيم .

الاضطراب في سنده فإنه تارة يقول : عن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وتارة : عن مشيخة من جبهة : وتارة عن قرأ الكتاب :

نعم إن قوله : قرأ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بأرض جبهة وأنا غلام شاب . ما يدل على حضوره وسماعه إياه من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن في غيره من الأحاديث : جاءنا كتاب رسول الله ، وكتب إلينا رسول الله فيمحمّل أنه لم يحضره . ومنه أنه كتب إلى قومنا وهذا جائز في كلامهم . وقد حققه ما روى عنه أنه قال : حدثني أشياخ بجبهة . قالوا : أتانا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو قرأ علينا كتاب رسول الله . فلم يتم حجة إذ لم يسم الأشخاص حتى نعلم أنهم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

قال الترمذي : سمعت أحمد بن الحسين يقول : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا الحديث لما ذكر فيه : قبل وفاته بشهرين : وكان يقول :

هذا آخر أمر رسول الله ﷺ . ثم ترك أحمد هذا الحديث لما اضطربوا في إسناده حيث روى بعضهم فقال : هن عبد الله بن حكيم هن أشياخ من جيبنة .

قال الجلال لما رأى أبو عبد الله نزول الرواة فيه توقف .

الاضطراب في متنه . فرواه الأكثر من غير تقييد ، ومنهم من رواه بتقييد شهر أو شهرين أو أربعين يوماً أو ثلاثة أيام .

هذه بعض وجوه العطن في هذا الحديث . وقد نقل الحافظ « ابن حجر » في الفتوح : رد « ابن حبان » على من ادعى فيه الاضطراب وقال : سمع ابن حكيم الكتاب يقرأ ، وسمعه من أشياخ من جيبنة هن النبي ﷺ فلا اضطراب .

أقول ولو سلم ذلك لزم أمران :

الأول : جهالة الشيوخ الذين سمع منهم وهل هم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

الثاني : الاضطراب في المتن كما سبق بيانه .

وقد رد الحافظ « ابن حجر » دهمي الاقطاع أيضاً . بعدم سماع ابن أبي ليلى من ابن حكيم محتجاً بما رواه أبو داود عنه أنه : انطلق وناس معه إلى عبد الله بن حكيم قال : فدخلوا وقعدت على الباب فخرجوا إلى فأخبروني . . قال : فهذا يقتضى أن في السند من لم يسم ، ولكن صح تصريح عبد الرحمن بن أبي ليلى بسماعه من ابن حكيم فلا أثر لهذه العلة .

فزاء بعد أن سلم بأن في السند من لم يسم . صرح بأنه لا أثر لهذه العلة وهؤلاء الذين قال ابن أبي ليلى بأنه سمعه منهم ، وأنهم ناس مجهولون المعين

والحال ، لا تقبل روايتهم عند جواهر العلماء . والواقع أن في الحديث جهالة من جهتين :

الأولى : في سماع عبد الله بن حكيم من أشيائه .

الثانية : في سماع عبد الرحمن بن أبي ليلى ممن دخلوا على عبد الله بن حكيم . وعلى فرض عدم الانقطاع . فالحديث معلول بالإرسال ، وبالاضطراب وفي جهالة بعض رواة . وهو ماسكت عنه ابن الجوزى ، ولم يحاول إظهاره وتحقيقه كما فعل في بعض أدلة الخصم ، حتى قدحها . وهو ما نصبه على مثله عندما يعرض لأحاديث الخلاف وتحقيقها ، ولم يدر لو فعل لما سلم لأصحابه قولهم : حديثنا متأخر وهو حائل والحظر مقدم . ذلك أنه عند تقديم بعض أحاديث الحظر لابد أولاً من تحقيق صحتها ورجحانها على أحاديث الإباحة . والأمر ما هنا بالعكس . فقد ذهب الجمهور إلى ترجيح أحاديث الطهارة لصحتها وتخرج الشيخين لبعضها .

والذي أميل إليه في مثل هذه : الجمع بينها ذلك أن حديث ابن حكيم يمكن أن يحمل على أن معناه « لا تنتفعوا من اللينة بإهاب » . ما دام غير مدبوغ فإذا دبغت يجوز الانتفاع بها . لأن « الإهاب » اسم الجلد غير مدبوغ فإذا دبغ تغير ذاته ، واسمه ، أما تغير ذاته : فإنه يزول عنه تلك الرطوبة النجسة والبن والفساد ، وأما تغير اسمه : فإنه يسمى بعد الدبغ أديماً (١) .

وكان القرطبي فوق أنه يناقش مناقشة علمية ، ويعرض حجة الفقهاء بدقة

(١) رسالة ابن الجوزى المحدث ص ٢٤٧ وما بعده .

وأمانة وملا التواء أو تعصب ، ويقف بجانب ما يراه حقاً وصواباً . كان فوق هذا كله هبّ اللسان لم يتناول هلى مخالفه أو يجرحهم . وأشهد ما رأيت منه سوى هذا . فى كل مجال ناقش فيه وجادل . وهذا مثال ينسب بذلك .

فقد ناقش القرطبي فيه كثيراً من العلماء فى مجال اللغة بأسلوب رصين متزن .

فى قوله تعالى « وإن ختم ألا تقسطوا فى الينامى »^(١) الآية : يقول فى المسألة الثالثة عشرة « قوله تعالى « ذلك أدنى » ألا تعولوا » أى ذلك أقرب إلى ألا تعولوا عن الحق ، وتجاوزوا ، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . يقال : عال الرجل يعول إذا جار ومال . ومنه قولهم : عال السهم عن الهدف مال عنه . ثم نقل عن الشافى أن معنى قوله تعالى « ألا تعولوا » ألا تكثروا هيبكم ، وأن الثعلبي انتقد الشافى فقال : وما قال هذا غيره وإنما يقال أهال بـعيل إذا كثره هيبه . وانتقل إلى ما قاله ابن العربى فقال : وزعم ابن العربى أن عال على سبعة معان لا ثامن لها يقال : عال : مال . الثانى : زاد . الثالث : جار ، الرابع : افتقر . الخامس : أثقل حكاه ابن دريد قالت الخفساء :

ويكفى العشرة ما هالها

السادس : عال . قام بموتة العيال ، ومنه قوله عليه السلام « وابدأ بمن تعول » .

السابع : عال غلب ومنه عيل صبره . أى غلب . ويقال أهال الرجل

(١) آية ٣ من سورة النساء .

كثر عياله ، وأما حال بمعنى كثر عياله فلا يصح ، وابتدأ الترطبي يناقش هذه الأقوال فقال : « قلت أما قول الشعبي » ما قاله غيره « فقد أسنده الصادق في سننه من زيد ابن أسلم ، وهو قول جابر بن زيد . فهذا إمامان من علماء المسلمين ، وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه ، وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة . فلا يصح وقد ذكرنا حال الأمر اشتد وتقادم . حكاه الجوهري . وقال المروى في فريه : وقال أبو بكر : يقال حال الرجل في الأرض يُعِيل فيها أى ضرب فيها . وقال الأحرار : يقال عالى الشيء يُعِيلُ عِيَالاً وَيُعِيلُ إِذَا أَهْبَزَكَ ، وأما حال كثر عياله فذكره السكاكي وأبو عمرو الدوري وابن الأهرابي . قال السكاكي أبو الحسن هل بن حمزة : العرب تقول حال يعول ، وأما حال يُعِيلُ أى كثر عياله . وقال أبو حاتم : كان الشافعي أهدم بلفة العرب مناوئله لفة : قال الشعبي المفسر : سألت أبا عمر الدوري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدافع فقال : هي لفة جدير وأنشد :
وأن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمتى وعالا

يعنى وإن كثرت ماشيته وحياله . وقال أبو عمر بن العلاء : لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحناً . وقرأ طلحة بن مصرف : « ألا تميلوا » وحى حجة الشافعي رضى الله عنه . قال ابن عطية : وقدر الزجاج وغيره في تأويل حال من العيال بأن قال : إن الله تعالى قد أباح كثرة السراير وفي ذلك تكثير العيال . فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثر العيال ؟ وهذا القدر غير صحيح ، لأن السراير إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما القادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وحكى ابن الأهرابي أن العرب تقول : حال الرجل إذا كثر عياله^(١) .

(١) تفسير الترطبي ج ٥ ص ٢١ وما بعدها .

ولقد كان ابن العربي يتسوف في أحيان كثيرة هل من خالف مذهبه ، ويحمل عليهم فكان القرطبي يرد عن العلماء هذه الحملات ويبين أن هذا للسالك لا يليق بالعلماء . وفي الكتاب شواهد كثيرة تؤيد ذلك .

ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم » (١) الآية . . يقول في المسألة الثالثة :

قال ابن العربي : اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع ، تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك لأن هذه الآية مصرحة بأن السؤال المتيقن منه إنما كان فيما تقع للساعة في جوابه . ولا مساءة في جواب نوازل الوقت فافترقا ، ورغم أن القرطبي وافق ابن العربي في رأيه . فإنه رد عليه قسوة هذا التعبير فقال : « قلت : قوله : اعتقد قوم من الغافلين فيه قبح ، وإنما كان الأولى به أن يقول : ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل . لكنه جرى على عادته » (٢) . ثم بدأ القرطبي بعد أن اتفقد هجوم ابن العربي . يصحح ما ذهب إليه . فالقرطبي وإن ارتضى مذهب ابن العربي ورأيه إلا أنه لم يرتض هجومه وتطاوله فانتقمه ورد عن العلماء هذا التطاول .

وفي قوله تعالى « ومن غرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » (٣) يبين القرطبي لابن العربي . كيف تكون للناقشة وكيف ينبغي هل الإقناع لا هل الثورة والغضب ؟ ولا ينبغي أن أذكر هذه للناقشة العلمية الرائعة إلا خوف التطويل فمن أرادها فليراجعها (٤) .

(١) آية ١٠١ من سورة المائدة .

(٢) تفسير القرطبي .

(٣) آية ٦٧ من سورة النحل .

(٤) انظر القرطبي ج ١٠ ص ١٢٩ وما بعدها .

الفصل الثامن

أصول الفقه في تفسير القرطبي

لقد تعرض القرطبي لأصول الفقه في تفسيره فذكر كثيراً من أدلة وقواعده وبين أثناء عرضه للأحكام كيف تبنى الفروع عليها ، وفي بعض الأحيان كان يتطرق إلى مدار من خلافت بين المذاهب حول هذه القواعد والأدلة ، والقرطبي وإن لم يتوسع في كل هذا التوسع المذكور في كتب الأصول فإن المقام يضيق عن ذكر كل ما جاء به . وسنقف على بعض ما عرضه من أصول الفقه فيما يأتي :

النص والظاهر :

قد يكون الدليل من قبيل النص وقد يكون من قبيل الظاهر ، وكل منهما طريق معترف به في استنباط الأحكام . ولقد فرق أكثرية علماء الأصول بين النص والظاهر فقالوا : إن النص ما لا يحتمل التأويل ، أو هو الذي لا يقبل احتمالاً فيما يدل عليه . والظاهر ما يحتمل التأويل ، أو يقبل احتمالاً فيما يدل عليه ولهذا فن المقرر ، أن النص والظاهر ليسا مرتبة واحدة في الدلالة على الحكم . فالنص أقوى في الدلالة من الظاهر . فإذا تعارضا ، قدم النص على الظاهر .

ونرى القرطبي أثناء عرضه لبعض الأحكام يبرز كل ذلك لينتزع الأدلة التي بنى عليها الفقهاء مذاهبهم وأحكامهم ، ويشير إلى أنها من قبيل النص ،

أو من قبيل الظاهر . ثم نراه يرجع الأدلة التي هي من قبيل النص لأن دلالة النص على الأحكام أقوى من دلالة الظاهر .

ففي قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتولوا بها » إلى الحكم (١) « يقول القرطبي في اللسان الثالثة :

من أخذ مال غيره لاهل وجه إذنت الشرع . فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضي لك ، وأنت تعلم أنك مبطل . فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضي . لأنه إنما يقضى بالظاهر ، وهذا إجماع في الأموال ، وإن كان عند أبي حنيفة قضاؤه ينفذ في الفروج باطنا ، وإذا كان قضاء القاضي لا ينير حكم الباطن في الأموال فهو في الفروج أولى ، وروى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار » في رواية « فليحملها أو يذرها » (٢) وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . ثم قال القرطبي : « وهو نص في أن حكم الحاكم على الظاهر لا ينير حكم الباطن ، وسواء كان ذلك في الأموال والدماء والفروج : إلا ما حكى عن أبي حنيفة في الفروج (عنده أن قضاء القاضي ينفذ في الفروج باطنا بمعنى أنه لو شهد رجلان بطلاق رجل زوجته وحكم القاضي بشهادتهما فإن فرجها يحمل لأحد الشهود ممن يعلم أن القضية باطل) وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته ، وحكم الحاكم بشهادتهما . لعدتهما عنده . فإن فرجها يحمل لزوجها — ممن يعلم أن القضية باطل —

(١) آية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأفضية ج ١٢ ص ٤ :

بعد المدة ، وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده ، لأنه لما حلت للأزواج في الظاهر كان الشاهد وغيره سواء . لأن قضاء القاضي قطع عصمتها ، وأحدث في ذلك التحليل والتحريم في الظاهر والباطن جميعاً ، ولولا ذلك ما حلت للأزواج ، واحتج بحكم الامان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها بالامان الكاذب الذي لو علم الحاكم كذبها فيه ، لحدها ، وما فرق بينهما . فلم يدخل هذا في عموم قوله عليه السلام « فن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه » الحديث (١) .

فالقرطبي قد بين أن الدليل الذي استدل به الجمهور على أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن ، من قبيل النص ، أي لا يحتمل تأويلاً ، ولا يصح أن يعارض بدليل آخر . ولهذا رجح ما ذهب إليه الجمهور على ما ذهب إليه أبو حنيفة كما يفهم من كلامه .

وفي قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا » (٢) رد على الحنفية مذهبهم في النية ، وبين أن ما دل على تحريمه من قبيل النص فلا يعارض . يقول القرطبي في المسألة الأولى :

« قال ابن عباس والبراء بن عازب وأنس بن مالك : إنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ — ونحو هذا — فنزلت الآية . روى البخاري عن أنس قال : كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر — أي النبي ﷺ — منادياً ينادي فقال أبو طلحة : أخرج فانظر ما هذا للصوت ، قال فخرجت فقلت هذا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨ وما بعدها .

(٢) آية ٩٣ من سورة المائدة .

مناد ينادى : ألا إن الحر قد حرمت . فقال اذهب فأهرقها . وكان الحر من الفضيل (١) — قال : فجرت في سكك المدينة . فقال بعض القوم : قتل قوم وهم في بطونهم فانزل الله عز وجل « ليس على الذين آمنوا وعلوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية . ثم قال في المسألة الثالثة « هذا الحديث في نزول الآية فيه دليل واضح : هل أن نبذ التمر إذا أسكر خر ، وهو نص لا يجوز الاغتراف عليه . لأن الصحابة ورحمهم الله هم أهل اللسان ، وقد هقلوا أن شراهم ذلك خر . إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره » وقد قال الحكمي :

لنا خر ولبنت خر كرم ولكن من تساج الباسقات
كرام في الساء ذهبن طولا وظلت تمارها أيدي الجنة

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النسائي : أخبرنا القاسم بن زكريا أخبرنا عبيد الله بن شيبان عن الأعشى عن عمار بن دينار عن جابر عن النبي ﷺ قال « الذيب والتمر هو الحر » (٢) . وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وحيدك به طالما باللسان والشرع — خطب على منبر النبي ﷺ فقال : يا أيها الناس ألا إنه قد نزل تحريم الحر يوم نزل وهو من خمسة : من العنب والتمر والعسل والخنطة والشعير . والحر ما خامر العقل (٣) . وهذا أبين ما يكون في معنى الحر ، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بحضور جماعة

(١) الفضيل شراب يتخذ من البعر للفضوخ وحده من هير أن تبه النار وللفضوخ للشدوخ . والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأثرية ج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الأثرية ج ٨ ص ٢٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأثرية ج ٣ ص ٢١٣ .

من الصحابة ، وهم أهل الأسان ، ولم يفهموا من الحُر إلا ما ذكرناه . ثم قال :
وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الحُر لا تكون
إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خرا ، ولا يتناول اسم الحُر وإنما
يسمى نبيذا وقال الشاعر :

تركت النبيذ لأهل النبيذ وصرت حليفا لمن طابه
شراب يندس هرض النقي ويفتح قلشر أبوابه^(١)

وفى قوله تعالى « فن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم »
بعد أن بين القرطبي أن العلماء أجمعوا على التمتع للراد بقوله تعالى « فن تمتع
بالمعرة إلى الحج » هو أن يحرم الرجل بمعرة في أشهر الحج . وبعد فوائده
من أعمالها يحرم بالحج ، وأن عليه في تلك الحالة هديا . فإن لم يجد صام ثلاثة
أيام اختلف العلماء في مبدئها فقليل : له أن يصوم من وقت إحرامه بالحج إلى
يوم النحر - وقيل : غير هذا . وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده وهذا مذهب مالك
والشافعي . بعد هذا كله هرض القرطبي في اللسان الخامسة آراء كثير من العلماء
مكان صوم هذه الأيام السبعة فقال :

« قال قتادة والربيع : هذه رخصة من الله تعالى فلا يجب على أحد صوم
السبعة إلا إذا وصل إلى وطنه . إلا أن يشتد أحد كما يفصل من يصوم في السفر
في رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصوم في الطريق . وروى عن مجاهد
وهطاء . قال مجاهد : فإن شاء صامها في الطريق ، إنما هي رخصة . وكذلك قال

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٢ وما بعدها .

عكرمة والحسن . والتقدير هند بعض أهل القبة : إذا رجعت من الحج أى إذا رجعت إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل . . . وقال ابن العربي : « إن كان تخفيفاً ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك الرفق فيها إلى الزينة إجمالاً ، وإن كان ذلك توقيفاً فليس فيه نص ولا ظاهر أنه أراد البلاد وأنها للراد في الأغلب » . وناقش القرطبي ابن العربي وبين له أن هناك دليلاً من قبيل الظاهر يدل على أن للراد البلاد فقال : « قلت : بل فيه ظاهرياً رب إلى النص يبينه ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : تمنع رسول الله ﷺ في حجة الوداع (١) بالعمرة إلى الحج وأهدى . فساق معه الهدى من ذى الحليفة ، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج ، وتمنع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج . فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ، ومنهم من لم يهد . فبدأ رسول الله ﷺ مكة ، قال للناس « من كان منكم أهدى فإيه لا يجل من شيء حرم منه حتى يقضى حجه . ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت والصفا والمروة وليقصر وليجمل ثم ليحل بالحج وليهد . فمن لم يجد هدفاً فليصم ثلاثه أيام في الحج وصبة إذا رجع إلى أهله » الحديث . وهذا كالنص في أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا في أهله وبلده والله أعلم (٢) .

الدلالات :

قسم العلماء دلالات الألفاظ إلى أقسام كثيرة منها :

دلالة العبارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بعبارة . فإذا قال الله تعالى

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب وجوب الدم على التمتع ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١٠ وما بعدها آية ٢٣٣ من سورة البقرة .

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قور الزور » فإن عبارة النص تفيد أن شهادة الزور جريئة يستحق صاحبها العقاب الشديد . وإذا قال الرسول ﷺ « إن من أكبر الكبائر الإشراك بالله وحقن الوالدين وشهادة الزور » فإن هذا الحديث يفهم منه أيضاً بدلالة العبارة مقدار إثم شهادة الزور (١) .

ودلالة العبارة من أقوى الدلالات في استنباط الأحكام . ونرى القرطبي في آيات كثيرة يبرز دلالة العبارة فيقول : هذه الآية تدل على كذا ويؤخذ منها كذا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وهى المولود له رزقهن وكسوتهن » فقد قال في للسألة الشامة : « الرزق فى هذا الحكم . الطعام السكاى ، وفى هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد . لضعفه وهجره وسماء الله سبحانه للأن لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها فى الرضاع كما قال « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن » لأن الغذاء لا يصل إلا بسببها ، وأجمع العلماء على أن على المرء نفقة ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال ﷺ لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أباً سفيان رجل شحيح وأنه لا يستطيع من النفقة ما يكفينى ويكنى بى إلا ما أخذت من ماله بفقر علمه فهل على فى ذلك جناح ؟ فقال « خذى ما يكفيك وولدى بالمعروف » (٢) .

دلالة الإشارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بغير عبارته ، ولكنه يجىء

(١) انظر الأصول لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٣ . وأصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد الحضرى ص ١٤١ .

(٢) أخرجه مسلم عن عائشة فى مسند الأئمة ج ١٢ ص ٧ .

نتيجة لهذه العبارة ، فهو يفهم من الكلام ولكنه لا يستفاد من العبارة ذاتها . ومثال ذلك قوله تعالى في سياق إباحة تعدد الزوجات « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فإن ما يفهم من هذا النص بدلالة العبارة ، أن الإنسان لا يحمل له دينيا لا قضائيا أن يتزوج أكثر من واحدة . إذا تأكد أنه لا يعدل بين أزواجه ، ويفهم منه بالإشارة أن العدل مع الزوجة واجب سواء كان متزوجاً واحدة أم كان متزوجاً أكثر من واحدة ، وأن ظلم الزوجة حرام^(١) .

ودلالة الإشارة حجة عند الفقهاء يؤخذ بها استنباط الأحكام .

ولقد أشار القرطبي إلى هذه الدلالة أثناء حديثه عن الأحكام النكحية في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » فقد خلق في للسنة الثامنة والثلاثين على قوله تعالى « ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا » فقال : قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزاً للإمام أن يقيم للناس شهوداً ، ويحمل لهم من بيت المال كفايتهم . فلا يكون لهم شغل إلا بحمل حقوق الناس حفظاً لها ، وإن لم يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت . فيكون للفقير : ولا ياب الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يجيبوا والله أعلم . فإن قيل : هذه شهادة بالأجرة . قلنا : إنما هي شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المال وذلك كأرزاق القضاة والولاة وجميع للصلح التي تمنى للمسلمين وهذا من جعلها والله أعلم . وقد قال تعالى « والماملين عليها » ففرض لهم^(٢) .

غوى الخطاب : وهي إثبات حكم المنطوق به للسكوت عنه بطريق .

(١) الأصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٨٩ آية ٢٨٧ من سورة البقرة .

الأولى . وكان للمالكية يأخذون بها ويمترونها حجة . أما غير المالكية فقد اختلفوا فيها فبعضهم قد اعتبرها طريقاً من طرق معرفة الأحكام وبعضهم قد رفض ذلك . ونرى القرطبي يأخذ بها وينتصر للمالكية ومن وافقهم ويستدل ببعض الآيات على صحة العمل بها . ففي قوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه ظاناً » يقول في المسألة الثانية : « أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الظانين والأمنين ، والمؤمنون لا يميزون ذلك فينبغي اجتناب جميعهم ، وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك ، لأن الخيانة فيهم أكثر فخرج الكلام على الغالب . ثم قال ومن حفظ الكثير وأداء القليل أولى ، ومن خان في اليسير أو منعه ، فذلك في الكثير أكثر ، وهذا أول دليل على القول بمفهوم الخطاب . وفيه بين العلماء خلاف كثير مذكور في أصول الفقه » (١) .

ولقد قسم الأصوليون دلالة فحوى الخطاب إلى قسمين :

أحدهما : إثبات الحكم في الأكثر إذا ثبت في الأقل . لأن الكثرة تزيد الحكم قوة . ثانيهما : إثبات الحكم في الأقل ، لأن القلة تقتضي قوة في الحكم لا تكون في الكثرة ، والآية التي معنا تصلح للقسمين ، ولعل قول القرطبي يوضح ذلك . فقد قال مشيراً إلى القسم الأول : « ومن حفظ الكثير وأداء القليل أولى ، وقال مشيراً إلى القسم الثاني : « ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر .

ويعلق أسناذنا الشيخ محمد أبو زهرة على هذه الآية وهو يتحدث عن

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٦ آية ٧٥ من سورة آل عمران .

فجوى الخطاب فيقول « وهذا المثال يشمل النوعين ، لأن التقسيم الأول من الآية الكريمة يثبت حكم الأكثر في الأقل بالأولى ، والتقسيم الثاني منها اعتبر النفي الأكثر لأنه نفي الأقل إذ من لا يؤمن على دينار بالأولى لا يؤمن على غنطار » (١) .

مفهوم المخالفة : وهي : إثبات قبض حكم المنطوق به للسكوت عنه . كقوله ﷺ « في سائمة الغنم الزكاة » فهذا يدل بمنطوقه ، على وجوب الزكاة في الغنم السائمة ، وبمفهومه على أن الزكاة لا تجب في غير السائمة . ولم يأخذ الحنفية بمفهوم المخالفة كطريق من طرق فهم الأحكام . هل هكس المالكية الذين أخذوا به في ذلك ويسمى هتدم « دليل الخطاب » (٢) .

ولقد رد القرطبي على من أنكر القول بمفهوم المخالفة أو بدليل الخطاب مستنداً بقوله تعالى « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما همكم ولا تكونوا أول كافر به » . قال : « لا حجة في هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وم الكوفيين ومن وافقهم . لأن لفصود من الكلام : النهى عن الكفر أولاً وآخرآ ، وخص الأول بالذكر ، لأن التقدم فيه أهمل . فكان حكم للذكور ولا سكوت هو واحداً وهذا واضح » (٣) .

وينقسم مفهوم المخالفة إلى أقسام كثيرة باعتبار القيد الذي يقيد الكلام فإن أساس مفهوم المخالفة أن يكون الكلام مقيداً بقيد ، فيثبت الحكم في الحال التي اشتمل عليه القيد بمنطوقه ، ويثبت النقيض في الحال التي تحت

(١) مالك من ٣٠٠ .

(٢) راجع الأصول ، ومالك للشيخ محمد أبو زهرة من ١٣٩ ، ٢٢٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ من ٢٣٤ آية ٤٢ من سورة البقرة .

من القيد بمفهومه . ومن القيود قيد الصفة . فن أقسام مفهوم المخالفة مفهوم الصفة نحو الحديث السابق في الزكاة (١) .

ومفهوم الصفة حجة هند للمالكية والشافعية ، وطريق من طرق استنباط الأحكام عندهم . ولقد بين القرطبي كيف بُني عليه بعض الأحكام فقال في قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم للمؤمنات » : قوله تعالى : « المؤمنات » بين بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتانية . فهذه الصفة مشرطة عند مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، والثوري والأوزاعي والحنن البصري والزهرى ومكحول ومجاهد . وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأى : نكاح الأمة الكتانية جائز . قال أبو عمر : ولا أعلم لهم سلفاً في قولهم إلا أنها ميسرة عمرو بن شرحبيل فإنه قال : إمام أهل الكتاب بمنزلة الحرائر ممن قالوا : وقوله « المؤمنات » على جهة الوصف الفاضل ، وليس بشرط ألا يجوز غيرها ، وهذا بمنزلة قوله تعالى « فإن ختم ألا تعدلوا فواحدة » فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز ، ولكن الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة : ولو تزوج غير المؤمنة جاز ، واحتجوا بالقياس على الحرائر ، وذلك أنه لما لم يمنع قوله « المؤمنات » في الحرائر ، من نكاح الكتانيات فكذلك لا يمنع قوله « المؤمنات » في الإمام من نكاح إمام الكتانيات . وقال أشهب في المدونة : جائز لعبد للمسلم أن يتزوج أمة كتانية . فلنعم عنده أن يفضل الزوج في الحرية والدين معاً (٢) .

(١) مالك ص ٢٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٠ الآية ٢٥ من سورة النساء .

ولقد هَرَفَ الأصوليون مفهوم الوصف فقالوا « هو أن يثبت الحكم في المنطوق المقيد بوصف وأن يثبت النقيض إذا تخلف الوصف ، فالآية قد قِيدَتْ حِلُّ الإمام بأن تكون مؤمنات فلا تحل الإمام غير المؤمنات . وبهذا النظر أخذ مالك والشافعي وبعض الفقهاء (١) . واشترط المالكية للأخذ بمفهوم الصفة : ألا تخرج الصفة مخرج الغالب والمادة كقوله تعالى في آية تحريم النساء « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » فترى هنا صفتين إحداهما : ذكرت على مجرى المادة والغالب فذكرها لا يدل على إثبات لقيض الحكم عند عدمها وهو الحل وهو وصفين يكونان في المحجور . والآخرى : لم تكن على هذا النحو فذكرها يُثبت نقيض الحكم وهو الحل عند عدمها ، وهو كون الأمهات قد دخلتم بهن . ولقد أشار القرطبي إلى هذا الشرط في الأخذ بمفهوم الصفة ، وناقش الظاهرية على ضوئه فقال في قوله تعالى « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » : « الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك لأنه يربيهما في حجره . فهي مربوبة . فبيلة بمعنى مفعولة ، واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأُم . وإن لم تكن الربيبة في حجره . وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا لا تحرم عليه الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج بأمها . فلو كانت في بلد آخر وطرق الأُم بعد الدخول . فله أن يتزوج بها واحتجوا بالآية فقالوا : حَرَّمَ الله تعالى الربيبة بشرطين أحدهما : أن تكون في حجر المتزوج بأمها ، والثاني : الدخول بالأُم . فإذا عدم أحد الشرطين لم يوجد التحريم ، ثم قال القرطبي في رد هذا : قال الطحاوي : وإضافتهن إلى

(١) راجع الأصول للشيخ أبو زهرة ص ١٤٦ .

المحجور إنما ذلك على الاغلب مما يكون عليه الربائب ؛ لانهم لا يجرمن إذا لم يكن كذلك « (١) .

العام والخاص

يعرف « القراني » وهو من علماء المالكية اللفظ العام بأنه الموضوع لمعنى كل شيء بحيث يشمل الحكم كل آحاده . فكل ما ينطلق عليه اسم العام يكون داخلاً في عموم الحكم التي أسند إليه . فإذا قلت الإنسان البالغ مكاف بالصلاة والزكاة والحج : فكل ما ينطبق عليه اسم الإنسان داخل في هذا الحكم ، وإذا قال الشارع : السارق تقطع يده فكل من يتحقق فيه الوصف وهو السرقة يستحق ذلك الحكم . وهكذا فالعام يدل على قدر مشترك يتحقق في كل آحاده فينطبق عليه اللفظ ، وينطبق بمقتضاه الحكم ، وإذا كان اللفظ لا يطلب فيه الحكم للقدر المشترك . بل يطلب فيه البعض فهو خاص كقوله تعالى « فحري رقية مؤمنة » أو قوله تعالى « فحري رقية من قبل أبيها » فاللفظ خاص فيهما لأنه لم يطلب فيه كل ما يتحقق فيه هذا الوصف بل واحد منه . وإن كان في الأول مقيداً بوصف وكان في الثاني مطلقاً من التقييد « (٢) .

ولقد اختلف العلماء في تخصيص عام القرآن بالسنة وتضييق دائرة الخلاف أمام تخصيص النصوص العامة من القرآن ، بالأحاديث المتواترة والمشهورة ، فأغلبية العلماء تجيز ذلك . ومن أمثلة الأول تخصيص قوله تعالى « يوصيكم

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١١٢ .

(٢) مالك ص ٢٨٢ .

الله في أولادكم « بقوله عليه الصلاة والسلام « القاتل لا يرث (١) » وبقوله عليه السلام « لا يثوارث أهل القبلتين وأهل اللتين (٢) » ومن أمثلة الثاني تخصيص قوله تعالى « وأهل لكم ماوراء ذلكم أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » بقوله عليه السلام « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أخيها إلكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » (٣) .

وتتسع دائرة الخلاف حول تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد فنعم من ذلك الإمام أبو حنيفة . لأن دلالة العام ههنا قطعية لا تحتاج إلى بيان فلا يجوز أن تخصص إلا بما هو في درجتها ، وأخبار الأحاد ليست لها هذه القوة . أما الإمام مالك فإن دلالة العام ههنا ظنية ، ورغم هذا أجاز ذلك مرة ومنعه أخرى ، ولقد استنبط المالكية من فقه الإمام مالك أنه كان لا يميز تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد . إلا إذا رفع من شأنها وقواها قياس أو إجماع أو عمل أهل المدينة (٤) .

ولقد أشار القرطبي إلى اختلاف العلماء في تخصيص الكتاب بالسنة

(١) أخرجه الترمذى عن أنس بن مالك ورواه عنه إسماعيل بن عباد وقال عنه تركه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل ويقول صاحب تحفة الأحوذى : أخرجه ابن ماجه والنسائي في السنن الكبرى وقال : إسماعيل متروك ثم بين أن العمل به هذا التردد عليه عند أهل العلم انظر تحفة الأحوذى ٦ ص ٢٩٠ .

(٢) أخرجه الترمذى عن جابر وانظر شرح تنقيح الفصول للقرائى ٦٨٤ ص ٩٧ .

(٣) الاصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٥٣ والحديث أخرجه البخارى في كتاب النكاح عن أبي هريرة ج ٣ ص ١٦٠ .

(٤) انظر مالك ص ٣٠٨ والاصول ص ١٥٢ وانظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٣ .

إشارة عابرة في قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » (١) الآية وبين أنه لا يجوز تخصيص الكتاب بحديث ضعيف باتفاق العلماء ، ثم أشار إلى أن الآية قد دخلها التخصيص ببعض الأحاديث فقال في المسألة الخامسة « وقد اختلف الناس في تخصيص كتاب الله تعالى بالسنة ، ومع اختلافهم في ذلك اختلفوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف قاله ابن العربي ، وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضاً بما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه (٢) ، وظاهره أكله كيف ماتت بملايح . أو حنف أفنه . وبهذا قال ابن نافع وابن عبد الحكم وأكثر العلماء وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما . ومنهم مالك وجهور أصحابه من أكله إن مات حنف أفنه . لأنه من صيد البر ألا ترى أن المحرم يميزه إذا قتله فأشبهه الفزال . وقال أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل ، لأنها حالة قد يعيش بها ويفسل (٣) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى يقول في المسألة السابعة : والجمهور أيضاً على أنه « لا يقتل مسلم بكافر » (٤) أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب ولا يصح لهم — أي المخالفين — مما روي من حديث ربيعة أن النبي ﷺ قتل يوم خيبر مسلماً بكافر ، لأنه منقطع ومن حديث ابن البيلماني وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعاً قال الدار قطنى : « لم يسند غير إبراهيم بن أبي يحيى وهو مقروك الحديث

(١) آية ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم في مسند أبي بكر بن العيص والقبائح ج ١٣ ص ١٠٣ .

(٣) تحصيل القسطي ج ٢ ص ٢١٧ .

(٤) أخرجه البخاري عن علي بن أبي يحيى وهو مقروك الحديث ج ٤ ص ١٢١ .

والصواب من ربيعة بن ابن البيهاني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيهاني ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث فكيف بما رسله .

قلت — والفاثل القرطبي — فلا يصح في الباب إلا حديث البخاري وهو يخصص عموم قوله تعالى « كذب عليكم القصص في القتل » الآية وعموم قوله « النفس بالنفس » (١) .

ويبدو أن القرطبي كان يميل إلى تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد مطلقاً مثل الشافعية وكثير من المالكية ويؤيد هذا ما ذكره في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » فقد قال في المسألة الرابعة : قوله تعالى « إلا ما يتلى عليكم » أي يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة » وقوله عليه الصلاة والسلام « وكل ذي ناب من السباع حرام » ثم قال « فإن قيل الذي يتلى علينا الكتاب ليست سنة . قلنا : كل سنة لرسول الله ﷺ فهي من كتاب الله . فعمم القرطبي كل ما نقل عن رسول الله ﷺ ولم يستثن أخبار الأحاد ، وبين أن كل ما نقل فهو من كتاب الله . ثم قال والدليل عليه أمران أحدهما : حديث السيف « لأقضي بينكما بكتاب الله » (٢) والرجم ليس منصوصاً بكتاب الله . الثاني : حديث ابن مسعود « وما لي لألن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله » (٣) . الحديث . على أن استاذنا الشيخ محمد أبو زهرة قد هلك

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٧ آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ج ١٣ ص ٨٣

(٣) حديث السيف أخرجه البخاري عن أبي هريرة ج ٤ ص ١١٠

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الباس ج ١٤ ص ١٠٥ .

هل حديث الرجم بأنه حديث آحاد فقال وهو ينحدر من موقف الحنفية والشافعية حول تخصيص الكتاب بأحاديث الآحاد . وإذا كانت دلالة العام في القرآن قطعية — أى عند الحنفية — فأحاديث الآحاد لا تخصص هام الكتاب وقد خالف في ذلك الشافعي ومن تبعه فإنهم يخصصون عام القرآن ، بالأحاديث ويضربون لذلك مثلاً بقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فإنها يمدولوها عام تشمل الحصنة وغير الحصنة . ولكنها خصصت بنير الحصن ، وخصصها حديث الرجم وهو خبر آحاد وليس بمحدث عامة — أى ليس متواتراً — (١) .

وإذا كانت الآيات العامة في القرآن تخصص بالأحاديث فإنها تخصص أيضاً بآيات أخرى وذلك مثل قوله تعالى « وللطلقاء يتربص بأففسن ثلاثة قروء » فإنها قد خصصت بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فالحكم عليهن من عدة تمتدونها » وبقوله « وأولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن » ويسمى كل هذا تخصصاً مستقلاً . وذهب العلماء إلى أن عام القرآن يخصص أيضاً بمخصص متصل ، والمخصصات المتصلة كثيرة منها : الاستثناء نحو قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغلوون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ونحو قوله « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً » (٢) وإذا جاء الاستثناء بعد جمل منطوقة بالواو أو نحوها فهل يصرف إلى الجملة الأخيرة وحدها أو إلى جميع الجمل . وبعبارة أخرى هل يخصص الاستثناء الجملة الأخيرة أو جميع الجمل ؟ .

(١) أبو حنيفة الشيخ بوزهرة س ٧٧٠ .
(٢) الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٦ بتصرف .

اختلف العلماء في ذلك فذهب قوم إلى أن الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة ، إلا إذا دل الدليل على خلاف ذلك وقال آخرون : يرجع إلى الجميع إلا أن يدل الدليل على خلاف ذلك . وقال قوم : يتوقف في الجميع إلا أن يدل الدليل . ولكل فريق أدلة وحجج . فمن حجج المممين أنها قالوا : لا فرق بين أن يقول : عاقب من قتل وسرق وزنى إلا من تاب في رجوع الاستثناء إلى الجميع ويجاب عن هذا الدليل بأن هذا قياس في اللغة .

ومن حجج الخصمين بالجملة الأخيرة قولهم : إطلاق الكلام الأول معلوم ودخوله تحت الاستثناء مشكوك فيه ، فلا ينبغي أن يخرج منه ما دخل فيه إلا بينين ، وهذا الكلام فاسد . لأنه غير مسلم إطلاق الأول قبل تمام الكلام ، وما تم الكلام حتى أردف باستثناء يرجع إليه عند الممم ، ويحتمل الرجوع إليه عند للتوقف وقال أرباب الوقف : إذا بطل التميم والتخصيص . لأن كل واحد منهما محكم . فيجب التوقف لا محالة . قال الفزالي : وهذا هو الأحق ، وإن لم يكن بد فذهب المممين أولى ، لأن الواو ظاهرة في العطف وذلك يوجب الاتحاد بين المعطوف والمعطوف عليه ، ومذهب المممين هو الاختار ههنا لأن المنبادر من الإطلاق في حرف التخطاب ، فإذا دل دليل على غير ذلك يسلم به ، (١) .

ولقد بين القرطبي موقف العلماء من الاستثناء ورجح التوقف ، ثم عاد فرجح موقف المممين ، لأن كثيراً من القرائن تشهد له ، وذكر القرطبي كل هذا في قوله تعالى « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم

(١) أصول الفقه للمرحوم ، الشيخ محمد الحنفى ، ص ١٩٨ وما بعدها ينصرف .

ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» يقول القرطبي في المسألة الرابعة والعشرين : الاستثناء إذا تعقب جملة معطوفة عاد إلى جميعها عند مالت والشافعي وأصحابهما ، وعند أبي حنيفة وجل أصحابه ، يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق . ولهذا تقبل شهادته ، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان أحدهما : هل هذه الجمل في حكم الجملة الواحدة للمطف الذي فيها أو لكل جملة حكم نفسها في الاستقلال ، وحرف المطف محسن لا مشرك ، وهو الصحيح في عطف الجمل ، لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض على ما يعرف من النحو . السبب الثاني : يشبه الاستثناء بالشرط^(١) في هوده إلى الجمل المتقدمة فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء . أولا يشبه به لأنه من باب القياس في اللغة وهو فاسد على ما يعرف في أصول الفقه .

والسببان اللذان ذكرهما القرطبي - وهما على ما أعتقد من أدلة كل فريق - فمن قال إن الجمل في حكم الجملة الواحدة للمطف الذي فيها همم . ومن قال إن لكل جملة حكما مستقلا أعاد الاستثناء إلى الجملة الأخيرة . ومن قال إن الشرط يشبه الاستثناء أعاد الاستثناء إلى الجميع . ومن قل إن هذا قياس والقياس لا يجوز في اللغة أرجحه إلى الجملة الأخيرة .

ثم بين القرطبي أن هذه المحجة محتملة ولا ترجيح لبعضها فالأصل التوقف .

(١) اتفق الفقهاء على أنه لو قال قائل : والله لا أكذب ولا شربت إن شاء الله تعلق الشرط بالجلتين ، وإذا ألحق الاستثناء بالشرط كان قياساً في اللغة وهو فاسد ويسى الشرط استثناء يجوز لأنه يقوم مقام « إلا » في الإخراج ، انظر للمصدر السابق وانظر شرح تنقيح الوصول ص ١٠٥ .

يقول القرطبي : « والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح . فتمين ما قاله القاضى من الوقف ، ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء فى كتاب الله عز وجل كلا الامرين .. فإن آية المحاربة « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... » إلخ فيها هود الضمير إلى الجميع باتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » فيها رد الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق .. وآية القذف محتملة الوجهين ، فتمين الوقف من غير مبن . قال علماؤنا : وهذا نظر كلِّ أصولي » ثم قال : « ويترجح قول مالك والشافعي رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئى بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهى عن قبول الشهادة جميعاً . إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الكفر فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى والله أعلم . قال أبو هيب : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة قال : وليس من نسب إلى أصنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا . ثم الزانى إذا تاب قبلت شهادته لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن منها قوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله — إلى قوله — إلا الذين تابوا » ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع . وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرماً من الكافر ، فغنى إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته ، قال وقوله « أبداً » أى ما دام قاذفاً كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن معناه ما دام كافراً . وقال الشعبي للمخالف فى هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته . ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة هند أقوام من الأصوليين فقوله « وأولئك هم المفسقون » تحليل لاجلة مستقلة بنفسها . أى لا تقبلوا شهادتهم لنفسهم . فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم ؟ . ثم توبة القاذف ، إكذابه

نفسه ، كما قال عمر لقدنة المفيرة بمحضرة الصحابة من غير تكبير مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار ، ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يميز أن يذنب لهم ذلك من الصحابة ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف ، ولم يسمهم السكوت من القضاء بتعريف تأويل الكتاب . فسقط قولهم والله المستعان ^(١) .

تخصيص العام بالعرف والمادة :

العرف إما قولى وإما عمل . فالعرف القولى : أن يكون الناس قد تعارفوا إطلاق اللفظ العام على بعض أفرادهم كما تعارفوا إطلاق الدابة على الحمار . ويُسمى هذا العرف : عادة المخاطبين فى الاستعمال أو المادة القولية . ولقد اتفق الأصوليون على جواز تخصيص النصوص العامة به . لأن الشارع إنما يخاطب الناس بما تعارفوه من الاطلاقات .

ولقد أبرز القرطبي ذلك وبين ما ذهب إليه الأصوليون . فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » الآية ، يقول فى المسألة السابعة والعشرين : قوله تعالى « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط » تقدم فى النساء مستوفى ونزید هنا مسألة أصولية أغفلناها هناك . وهى تخصيص العموم بالمادة الغالبة . فإن الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين فهو عام . غير أن جل هلماتنا خصصوا ذلك بالأحداث المتتادة

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٨٠ وما بعدها آية ٤ . هـ من سورة النور . وحديث ما قاله عمر لقدنة للمفيرة ورد فى أسد الغابة ج ٤ ص ١٠٧ أن للمفيرة بن شبة ولاد عمر البصرة ولم يزل عليها حتى شهد عليه بالزنى فزله ثم ولاد الكوفة فلم يزل عليها حتى قتل عمر .

الخارجة على الوجه المعتاد . فلو خرج غير المعتاد كالخصي والدود ، أو خرج المعتاد على وجه السلس والمرض ، لم يكن شيء من ذلك ناقضا ، وإنما صاروا إلى اللفظ لأن اللفظ مهما تقرر لدلوله حرف غالب في الاستعمال ، سبق ذلك الغالب لفهم السامع حالة الإطلاق ، وصار غيره مما وضع له اللفظ بعيداً عن الذهن . فصار غير مدلول له وصار الحال فيه كالحال في الدابة فإنها إذا أطلقت سبق فيها الذهن إلى ذوات الأربع ، ولم تخطر النملة ببال السامع . فصارت غير مرادة ولا مدلوله لذلك اللفظ ظاهراً . والمخالف يقول : لا يلزم من سبقية الغالب ، أن يكون النادر غير مراد فإن تناول اللفظ لهما واحد وضماً ، وذلك يدل على شعور المتكلم بهما قصداً . والأول أصح وتتمنه في كتب الأصول (١) .

أما العرف المعلى (٢) فقد أجاز الامام مالك تخصيص العام به ومنع ذلك الجمهور . ولقد امتدح القرطبي وجهة نظر الامام مالك هذه ، ويبدو من كلام القرطبي أن أحداً من الأئمة لم يقل به ولم يظن إليه . على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين من القدامى والحديثين (٣) .

يقول القرطبي في قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » : قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » أي لأولادكم غير الواحدة قاله الزجاج .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٠٤ آية ٦ من سورة المائدة

(٢) معناه قصر اللفظ العام على ما جرت عادة المخاطبين الفعلية عليه وذلك كلفظ الطعام فانه عام فإذا جرت عادة بعض المخاطبين ألا يأكل إلا نوحاً معيناً ثم حلف ألا يأكل طعاماً فهل يمتنع إذا أكل أي طعام أو لا يمتنع إلا إذا أكل ما جرت عادة بأكله قال الجمهور : يمتنع بأكل أي نوع من أنواع الطعام . وقال مالك : لا يمتنع إلا إذا أكل ما جرت عادته بأكله انظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

(٣) أنظر الأصول الشيخ الحنفي ص ٢٠٣ وشرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

قال النحاس: التقدير في العربية أن تسترضعوا أجنبية لأولادكم مثل «كلوم أو وزنوم» أي كلوا لهم أو وزنوا لهم . وحذفت اللام لأنه يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف ، وأشد سيوريه .

أمرتك الخير فاضل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نسب

ولا يجوز دھوت زيدا . أي دھوت لزيد . لأنه يؤدي إلى التلبیس
فيميز في هذا النوع ، السماع . ثم عقب القرطبي بقوله ؟ قلت : وعلى هذا يكون
في الآية دليل على جواز اتخاذ الظئر ، إذا انفق الآباء والأمهات على ذلك ،
وقد قال حكمة في قوله تعالى « لا تضار والدة » معناه الظئر حكاية ابن عطية ،
والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ، فأمر الزوجات
بإرضاع أولادهن وأوجب لمن على الأزواج النفقة والسكوة . والزوجة قائمة .
فلو كان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقين وكسوتين . إلا أن
مالك رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحسيبة فقال : لا يلزمها رضاعة
فأخرجها من الآية ، وخصصها بأصل من أصول الفقه وهو الصل بالعادة .
وهذا أصل لم ينقله ابن مالك والأصل البديع فيه أن هذا أمر كان في
الجاهلية في ذوى الحسب وجاء الإسلام فلم يغيره ، وبمادى ذوى الثروة
والأحساب على تفريغ الأمهات للتمتع بدفع الرضاعة للدواضع إلى زمانه . فقال
به ، وإلى زماننا فتحققنا ، شرعا (١) .

صيفة الأمر ومذاهب العلماء في حقيقتها :

إذا تجمدت صيفة الأمر عن القرائن فهل تدل على طلب الفعل على جهة

(١) تحصيل القرطبي ج ٣ ص ١٧٧ آية ٢٣٣ من سورة البقرة .

الوجوب أو الذنب ؟ ذهب جمهور العلماء إلى أنها في تلك الحالة تدل على طلب الفضل على جهة الوجوب . فالحق تبارك وتعالى قد قال ثلاثاً : « اسجدوا لآدم » فاستلوا ، وأبى إبليس السجود . فقال الله له « ما منعك من ألا تسجد إذ أمرتك » ولم يأمر إلا بقوله « اسجدوا » وكذلك ذم الله قوفاً بعدم امتثال ما أمروا به فقال « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » ولم يأمرهم إلا بقوله « اركعوا » وهو صيغة لا قرينة معها .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنها في تلك الحالة للذنب . وهناك أقوال ورأى أخرى لا داعي لتفصيلها . ويقول أستاذنا الشيخ محمد الخطرى مؤيداً رأي الجمهور « والذي يظهر لنا من استقراء الأدلة ، أن وضع صيغة « أفضل » إنما هو لطلب الفعل طلباً حتماً ، ويلزم من ذلك إذا كان لطلب سيادة على المطلوب منه ، أن يكون بالفعل مستحقاً للرضا والثواب ، وبالكف مستحقاً لللامة والعقاب . وهنا هو الذي يلزم أن يكون قاعدة لفهم كتب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لو فرضنا أن تأتي فيها هذه الصيغة مجردة عن القرائن . فأما إن احتمت بالصيغة قرينة تبين المراد فقد خرجت عن موضوع النزاع بين الخصوم . وهذا ما عظم ما ورد في التشريع كما يدل عليه الاستقراء (١) .

ولقد أشار القرطبي إلى هذا عندما بين على النزاع بين العلماء في «لغة» وذلك في قوله تعالى « وتمتعون على الموسم قدره وعلى المقر قدره » ووجه قول من قال بوجوب اللغة تمككاً بمقتضى الأمر ، ولغير ذلك من القرائن والأدلة فقال : قوله تعالى « وتمتعون » معناه أعطوهم شيئاً يكون متاعاً

(١) انظر أصول الفقه للشيخ الخطرى ص ٣٩٤ .

لهن . وحله ابن عمر وهى بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن ومعيد بن
عمير وأبو قلابه والزهرى وقتادة والضحاك بن مزاحم — هلى الوجوب ، وحله
أبو هبيل ومالك بن أنس وأصحابه والقاضى شريح وغيرهم — هلى الذنب .
تمسك أهل القول الأول ، بمقتضى الامر ، وتمسك أهل القول الثانى ، بقوله
تمالى « حقاً على المحسنين » « حقاً على المتقين » ولو كانت واجبة لأطلقها على
الخلق أجمعين . ثم قال : والقول الاول أولى . لأن صومات الامر بالامتناع
فى قوله « منهوه » وإضافة الامتناع اليه بلام التعليل فى قوله « والمطلقات
مناع » أظهر فى الوجوب منه فى الذنب . وقوله « على المتقين » تأكيد
لإيجابها لان كل واحد يجب عليه أن يتقى الله فى الاشراك به ومما صبه . وقد
قال تعالى فى القرآن « هدى للمتقين » (١) .

خبر الواحد :

ذهب أكثر العلماء من المحدثين والعقهاء والأصوليين، إلى أن خبر الواحد
حجة يلزم العمل بها ومع هذا فهو لا يفيد إلا الظن ولا يفيد اليقين ولا يفتى
ذلك فى حجيته لأنه يعتمد على أصل قطعى وهو القرآن . فالحمد لله تعالى
أمرنا أن نتبع الرسول ﷺ فى كل ما جاء به يقول سبحانه « وما آتاناكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ويقول « من يطع الرسول فقد
أطاع الله » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٠٠ وانظر مقاله فى قول الله « فانصروا ما تؤمرون »

ح ١ ص ٤٤٩ .

(٢) راجع مالك ص ٣١١ وللوافقات للشافعى ج ٢ ص ١٧ والحديث والمحدثون

للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦ .

ولقد هاجم الإمام الشافعي من ينسكو الاحتجاج بخبر الواحد وناقشه في رسالته مناقشة طويلة فليراجعها من أرادها (١).

ولقد أشار القرطبي أثناء تفسيره لبعض الآيات إلى أن خبر الواحد حجة وأنه يلزم قبوله . ففي قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم من قبلهم التي كانوا أهلها » يقول في المسألة الثامنة : وفيها — أى في الآية — دليل على جواز القلع بخبر الواحد ، وذلك أن استقبال بيت للقدس كان مقطوعا به من الشريعة هندم . ثم إن أهل قباء لما أنام الآتي وأخبرهم أن القبلة قد حوت إلى للمسجد الحرام قبلوا قوله واستداروا نحو الكعبة (٢) فتركوا للتواتر بخبر الواحد وهو مضمون . ثم بين القرطبي أن هناك من يمنع ذلك ، لأن المقطوع لا يرفع بالمظنون . أما قصة أهل قباء ، وما كان عليه السلام يتفذه من الولاية ، فمحمول على قرآن تنفيع العلم إما نقلا وتحقيقا وإما احتمالا وتقديرا . ثم قال أخيرا : « وتنجم هذا سؤال وجوابا في أصول الفقه » (٣) .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى » يقول في المسألة الثالثة : قوله تعالى « من البينات والهدى » فيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم . فان قيا : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منبها عن الكتان ومأمورا بالبيان ، ليكثر المخبرون ويتواتر بهم الخبر . قلنا : هذا غلط . لأنهم لم ينهوا عن الكتان

(١) انظر الامام الشافعي ج ٧ ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٣ ص ٦٧ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٥٦ آية ١٤٢ من سورة البقرة .

إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان ، فلا يكون خبرهم موجبا لعلم والله تعالى أعلم (١) .

فتوى الصحابي :

نقل القرطبي كثيرا من فتاوى الصحابة وأقضيهم أثناء عرضه للاحكام وكان من منهجه في ذلك أنه يرد قول الصحابي إذا خالف الكتاب والسنة .

ففي قوله تعالى « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والملك التي تجري في البحر بما ينفع الناس » يقول في المسألة الرابعة :

« هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عباد ، كالخج والجهاد . ثم استدلل القرطبي لذلك من السنة ، بحديث أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء . الحديث (٢) . ثم قال القرطبي « ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للمعقرض أولى وأوجب ، وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما . المنع من ركوبه ، والقرآن والسنة يرد هذا القول ، ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهاى عنه النبي ﷺ الذين قالوا له : إنا نركب البحر ، وهذه الآية وما كان مثلها نص في الفرض واليها المفزع . وقد تؤول ما روى عن العمرين في ذلك ، بأن ذلك محمول على الاحتياط

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٥ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه بمسناه ج ٢ ص ١٥٥ .

وترك التفرير بالهيج في طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما في أداء
الغرائض فلا « (١) » .

أما فتوى الصحابة إذا تارضها القياس . فقد اختلفت فيها أنظار العلماء
وتباينت ، ولا داعي أن نخوض عمار هذا المترك ، فذلك بحوث مستقلة في
أصول الفقه « (٢) » . ويكفي أن نشير إلى أن القرطبي قد ذكر هن علماء المالكية
أن أقوال الصحابة قد يحتاج بها إذا خالفت القياس .

ففي قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر »
يقول في المسألة الحادية عشرة : « فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء
بستان آخرى فروى الدار قطنى عن ابن عمر أنه يعلم مكان كل يوم مسكينا
مدا من حنطة ثم ليس عليه قضاء . وروى أيضاً عن أبي هريرة أنه قال : إذا
لم يصح بين الرمضانين ، صام من هذا وأطعم من الثانى ولا قضاء عليه . وإذا
صح فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام من هذا وأطعم من الماضى . فإذا
أفطر قضاء . إسناد صحيح . ثم قال القرطبي : قال علماءنا : وأقوال الصحابة
على خلاف القياس قد يحتاج بها « (٣) » .

ورد لـ كيا الطبرى — وهو شافى — ما ذكره القرطبي فقال : قوله تعالى
« فعدة من أيام أخر » يدل على جواز التأخير من غير أن يتحدد بوقت وهو
كالأمر للطلاق الذى لا يتقيد بوقت ويجوز مفرقا ومجموعا . والشافى رأى تقييد

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) راجع أصول الرخسى للإمام أبى بكر محمد بن أحمد بن أبى سهل الرخسى التوفى
سنة ٤٩٠ تحقيق أبو الوفا الافغانى ج ٢ ص ١٠٥ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٢ آية ١٨٤ من سورة البقرة .

القضاء . بالسنة قبل دخول رمضان آخر : وقال : إذا دخل رمضان آخر فدى
 عن كل يوم بماء ، ورواه عن ابن عباس وابن عمر ، فأما ما رواه عن ابن عباس
 أن رجلاً جاء إليه فقال مرضت رمضانين فقال ابن عباس : استمر بك للرض
 أو صححت فيما بينهما ؟ قال : بل صححت . قال : صم رمضانين وأطعم ستين
 مسكيناً . وعن ابن عمر في رجل فرط في قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر
 قال : يصوم القدي أدركه ويطلع من الأول كل يوم مداً من تمر ولا قضاء عليه .
 وهذا تشبيه منه في الحامل وللرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما . وأقول
 الصحابة على خلاف القياس قد يحتاج بها ، فقبل لهم : فالتقضاء بعد الصوم الآخر
 مأخوذ من قوله تعالى « فعدة من أيام أخر » واللفظ قد تناول الأوقات فلا يجوز
 أن يكون قد أوجب القضاء على قوم والفدية على قوم آخرين . (معنى ذلك
 أن الفتوى التي تقول إنه لا يصوم إلا رمضان الأخير ويطلع من الأول تخالف
 القياس ثم إننا لا نترك كتاب الله لفتوى يتوهم فيها توقيف) . بل يقتضى أن
 يكون الحكم في الكل واحداً : وغاية قول الصحابة على خلاف القياس أن
 يتوهم فيه توقيف ، مع احتمال كون وجه احتجاجه بالتوقيف فاسداً وغلطاً فظهور
 هذا من كتاب الله تعالى أولى بالاعتبار والاتباع (١) .

ولا يمتنا أن تناقش الرأيين . وإنما يمتنا أن نقول : لعل لسكيا الطبرى
 قد عرض وجهة نظر الشافعيين في فتوى الصمغاني ، إذا كانت على خلاف
 القياس كما عرض القرطبي وجهة نظر المالكية في ذلك . ولاداهى أن نحوض
 المعترك بأكثر من هذا .

الاستحسان والمصلحة :

انقد اعتبر المالكية الاستحسان دليلاً من الأدلة التي تستنبط بها الأحكام،
وخالفهم في ذلك الشافعية، فلم يأخذوا به واعتبروه حكماً بالهوى والتشوي، وفي
ذلك يقول الإمام الشافعي « من استحسّن فقد شرع » .

وإذا كان المالكية يأخذون بالاستحسان ويمتدونه طريقاً من طرق
استنباط الأحكام فاحقيقته عندم ؟ .

عرف بعض المالكية الاستحسان بأنه : استعمال مصلحة جزئية في مقابل
قياس كلي . وذكر أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة كثيراً من تعريفات
الاستحسان عند المالكية في كتابه « مالك » وبين أن من هذه التعريفات
ما يتفق مع تعريفات الحنفية للاستحسان . ثم بين أن تعريفات المالكية تنبج
كلها إلى قصر الاستحسان على أمر واحد، وهو ترك مقتضى القياس لمصلحة في
موضع معين — أي في مسألة جزئية — ويدخل في المصلحة رفع الحرج والتوسعة
ودفع المشقة (١) .

وهذا يتضح أن الاستحسان استثناء من القياس أو من القاعدة العامة، لأن
أطراف القياس أو القاعدة يقتضى الوقوع في المشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة
ومثال ذلك : الإطلاء على عورات الناس للتداوى . فإن القياس يحرم رؤيتها
ولكن استحسن دفع الضرر .

ولقد بين القرطبي أثناء شرحه لبعض الآيات أن الاستحسان لا يكون

(١) مالك من ٣٢٩ .

حيث يكون هناك نص . ففي قوله تعالى « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » يقول فى المسألة الثالثة :

« فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود فى كثير من السنة . وأكد الإشارات ما حكم به النبى ﷺ من أمر الموداء حين قال لها : أين الله ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : أعتقها فلانها مؤمنة . فأجاز الاسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم والمال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما حكم بنطق من يقول ذلك فيجب أن تكون الإشارة عامة فى سائر الديانة وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق : أنه يلزمه . وقال الشافى فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف وإن شك فيها فهو باطل وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا تغفل إشارته . ثم قال القرطبي : قال أبو الحسن بن بطلال : وإنما حل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم اللسان التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى الديانة (١) .

والفرق بين الاستحسان والمصلحة للرسالة : أن المصلحة تكون حيث لا يكون هناك دليل سواها . أما الاستحسان فإنه يكون إذا أدى القياس إلى حرج أو مشقة . وعلى هذا فلفظ المصلحة مطلقا ، يشمل للمصلحة للرسالة ، وذلك حيث لا يكون دليل سواها ، والاستحسان ، وذلك حيث يؤدى القياس إلى حرج أو مشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨٠ آية ٢١ من سورة آل عمران

ولقد اعتبر للالسكية للمصلحة أصلاً قائماً بذاته ، تبنى عليه بعض الفروع
الفقهية واشترطوا ألا يمارضها لص .

ولقد أبرز القرطبي الاستدلال بالمصلحة في بعض الأحكام وناقش بها
الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وضعف ما ذهب إليه بواسطتها .

ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل »
يقول في للسالة الثانية عشرة : « وقد استدلل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية
على قوله : لا تقتل الجماعة بالواحد قال : لأن الله سبحانه شرط للساواة
ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقد قال تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس والعين بالعين » والجواب أن المراد بالقصاص في الآية : قتل من قتل
كائناً من كان رداً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل
وتقتل في مقابلة الواحد مائة ، افتخاراً واستظهاراً بالجاه وللقدرة لأمر الله
سبحانه بالعدل والساواة ، وذلك بأن يقتل من قتل . وقد قتل عمر رضى الله
عنه سبعة برجل بصنعاء وقال : لو عملاً عليه أهل صنعاء لقتلهم به جميعاً .
وقتل على رضى الله عنه الحرورية^(١) بسبب الله بن خباب فإنه توقف عن قتالهم
حتى يحدثوا . فلما ذبحوا عبد الله بن خباب كما تذبح الشاة وأخبر هلى بذلك
قال : الله أكبر ، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل هب الله بن خباب . فقالوا :
كلنا قتله ثلاث مرات . فقال على لأصحابه : دونكم القوم ، فما لبث أن قتلهم على
وأصحابه . خرج الحديثين الدارقطني في سننه وفي الترمذى عن أبى سعيد وأبى
هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لو أله أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا

(١) الحرورية فرقة من الخوارج نسبة إلى حروراء موضع قريب من الكوفة لأن
أول مجتهدهم وتحكيمهم فيها .

في دم مؤمن لا يكهم الله في النار » وقال فيه : حديث غريب . ثم قال القرطبي :
وأيضاً فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا لتعاون الأعداء على قتل أهدأهم
بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من النشئ . ومراعاة هذه القاعدة أولى من
مراعاة الألفاظ والله أعلم^(١) .

سد القرائع :

لقد تحدث القرطبي في تفسيره عن سد القرائع وذكر ما يشهد لها من
الأدلة وما بنى عليها من الفروع فقال في للسألة الثانية في قوله تعالى « يا أيها
الذين آمنوا لا تقولوا واهنا وقولوا انظرونا واسمعوا » .

في هذه الآية دليلان أحدهما : هل تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التبريض
للتنقيص والفض . ويخرج من هذا فهم القذف بالترريض وذلك يوجب الحد
ههنا ، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا : التمريرى تحتل
للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .

الدليل الثانى : التمسك بسد القرائع وحمايتها . وهذا مذهب مالك وأصحابه
وأحمد بن حنبل في رواية عنه . وقد دل على هذا الأصل : الكتاب والسنة .
والذريعة هبارة من أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع .
أما الكتاب فهذه الآية ، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك ،
وهى سب بلغتهم ، فلما علم الله ذلك منهم . منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه
ذريعة للسب ، وقوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدهون من دون الله فيسبوا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٩ آية ١٧٨ من سورة البقرة ، وحديث لوان أهل
السما . أخرجه الترمذى عن أبي سعيد الخدرى في باب الحكم في الساء ج ٤ ص ٦٥٤
نسخة الاحوذى

الله هدوا بغير علم» (١) . فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك ، وقوله تعالى « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » (٢) الآية لحرم عليهم تبارك وتعالى الصيد في يوم السبت . فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرْعًا . أي ظاهرة . فمدُّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد ، وكان السد ذريعة للاصطياد فسخّهم الله قرعة وخنازير ، وذكر الله لنا ذلك في معنى التحذير من ذلك ، وقوله تعالى لأدم وحواء « ولا تقربا هذه الشجرة » (٣) .

ثم استدل القرطبي من السنة بأحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وهرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فمنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات . وذلك سدا للذريعة . ومنها قوله عليه الصلاة والسلام « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » (٤) . . . ثم عقب القرطبي بعد الأحاديث التي ذكرها ويبدو أن فرغ من سرد كثير من الأدلة بقوله ، قلت : فهذه هي الأدلة التي لنا على سد الذرائع ، وعليه بنى المالكية كتاب الأجال وغيره من السائل في البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الأجال ، لأن ذلك ضدم

(١) آية ١٠٨ من سورة الانعام ،

(٢) آية ١٦٣ من سورة الاحراف .

(٣) آية ٣٥ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في كتاب الكبائر ج ٢ ص ٥٨ .

عقود مختلفة مستقلة . قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر ، لا على الظنوف .
وللأسكية جعلوا السلعة محللة ليتوصل بها إلى دراهم بأكثر منها وهذا هو الربا
بمعناه فاعلمه (١) .

وقبل أن أترك هذا أقام أحب أن أعقب على نظرة الإمام مالك ونظرة
الحذافين له في بيع الآجال ، بما ذكره أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فقد
قال في تعقيبه على ذلك : « لقد تعارض جانبان قويان من النظر أحدهما : النظر
إلى أصل الإذن ، وأصل الإذن كان لمصلحة راجعة للفاعل ولذا أجازته
الشارع منه . والثاني : للفسدة التي كثرت وإن لم تكن غالبية . فنظر
أبو حنيفة والشافعي إلى أصل الإذن ، ولذلك كان التصرف عندهم جائزا
لا مجال لمنعه . . وأيضاً فإنه لا سبيل لأن تحمل عمل العامل وزر المفسدة
لأنه لم يقصدها ولم يكن مقصراً في الاحتياط لتجنبها . لأنها ليست غالبية
وإن كانت كثيرة ، فإنها لم تصل إلى درجة الأمر الغالب حتى يمدحهم
الاحتياط تقصيراً .

هذا نظر أبي حنيفة والشافعي فرجحا جانب الإذن لأنه الأصل ، وأما
مالك رضي الله عنه فقد نظر إلى الجانب الآخر ، وهو جانب قوي أيضاً وهو
كثرة للفساد المترتبة على الفعل وإن لم تكن غالبية . ورجح مالك رضي الله
عنه ذلك الجانب . لأن الفعل وإن كان الأصل فيه الإذن إلا أنه هارضة
أصل ثان . وهو أن الأصل صيانة الإنسان من الإضرار بغيره وإيلا . .
ويرجح الأصل الثاني لكثرة للفساد المترتبة . فيكون المنع للزجر .

بذلك الفعل من أصله وهو الإذن إلى العمل بالأصل الثاني وهو المنع . سدا
لذرائع الشر (١) .

وعن عرض القرطبي للأدلة التي تمسك بها المالكية في سد الذرائع يبين
لنا أن الذرائع التي تؤدي إلى الفساد ممنوعة . سواء كان ذلك الفساد قد نص
عليه بنص خاص به أو كان داخلا في التهي العام من الضرر والضرار
وهن كل فساد . ولكنني وجدت القرطبي يذكر في تفسير قوله تعالى
« ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم »
ما يستفاد منه أن الذرائع لا يلزم سدها أو الابتعاد عنها إلا إذا كانت تؤدي
إلى محذور منصوص عليه ، وإليك ما قاله القرطبي في ذلك : بعد أن بين رأى
مالك في جواز شراء ولي اليتيم من مال اليتيم قال : فإن قيل يلزم تركه مالك
أصله في التهمة والذرائع إذ جَوِّزَ له الشراء من يتيم . فالجواب : أن ذلك
لا يلزم وإنما يكون ذلك ذريعة — أى أصرا ممنوها — فيما يؤدي من الأفعال
المحظورة إلى محظورة منصوص عليها . وأما ما هنا فقد أذن الله سبحانه في
صورة المحالطة وكل الحاضنين في ذلك إلى أمانتهم بقوله « والله يعلم المفسد
من المصلح » وكل أمر مخوف وكل الله سبحانه المكلف إلى أمانته لا يقال
فيه إنه يتدرع به إلى محذور فيمنع منه . كما جعل الله النساء مؤتمنات على
فروجهن مع عظيم ما يترتب على قولهن في ذلك من الأحكام ويرتبط به من
الحِلِّ والحَرمة والأنساب . وإن جاز أن يكذبن . وكان طاموس إذا مثل
عن شيء من أمر اليتامى قرأ « والله يعلم المفسد من المصلح » وكان ابن
سيرين أحب الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع لصحاؤه فينظرون الذي

(١) مالك من ٤٣٩ وما بعدها بعض تصرف .

هو خير له ، ذكره البخارى . وفي هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه كما ذكرنا (١) .

والقرطبي قد نقل هذا النص من « ابن العربى » ، ولم يصرح بذلك . ويبدو أن ابن العربى كان له موقف يخالف موقف المالكية في سد القرائع . ولقد أشار إلى هذا أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فقد قال بعد أن ذكر النص السابق « ونرى من هذا أنه — أى ابن العربى — يقرر أن القرية تُسد إذا كانت تؤدي إلى محظور منصوص عليه ولكن المتنبع لكتب المالكية في الأصول والفروع يرى أنهم يتجهون في سد القرائع ، إلى سد وسائل الفساد . فكل ما يؤدي إلى فساد غالباً فهو ممنوع من غير تقييد يكون ذلك الفساد قد نص عليه بنص خاص به أو كان داخلاً في النهى العام من الضرر والضرار ومن كل فساد » (٢) .

ولا أدرى هل تابع القرطبي ابن العربى أم وقف مع المالكية ؟ لم أعتبر على نص يجيب على هذا السؤال . ولعله قد وقف مع ابن العربى حيث أنه قد أوتى ما نقله عنه .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) مالك ص ٤٤١ وانظر أحكام القرآن لابن العربي .

الفصل التاسع

موقف القرطبي من الأحاديث التي ذكرها في تفسيره

أورد القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث وأضافها إلى من خرجها من الأئمة : كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبي داود وغيرهم . لكن القرطبي ما كان يذكر عند هذه الأحاديث في الغالب ، ولعله فعل ذلك اختصاراً . وأبرز القرطبي في مقدمة تفسيره القيمة العلمية لتخريج الأحاديث فقال : « وشرط في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى ثائليها ، والأحاديث إلى مصنفها . فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى ثائله ، وكثيراً ما يجهل الحديث في كتب الفقه والتفسير مهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لآخرته له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم . ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حق يضيفه إلى من خرج به من الأئمة الأعلام والشفقات للشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جهل من ذلك في هذا الكتاب ، والله للوفق للصواب (١) » .

وإذا كان القرطبي قد سار على هذا النهج كثيراً فأضاف الأحاديث إلى من خرجها من الأئمة ، وأورد للحديث في كثير من الأحيان أكثر من طريق . وقد مر بنا في فصول الرسالة ما يؤيد كل ذلك . فإننا نراه في أحيان أخرى لا يلتزم هذا الشرط ، فيأتي بالأحاديث ولا يذكر من خرجها وقد مر بنا أيضاً ما يؤيد ذلك ونكتفي بهذا للثالث :

في قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » يقول : قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر في السفر « والعسر » الصوم في السفر والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين ، كما قال تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « دين الله يسر » « يسروا ولا تعسروا » (١) .

القرطبي بين تصحيح الأحاديث وتضعيفها :

لم يكن القرطبي حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره فقط . بل كان ينقدها نقداً هليماً فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتعديل فيها من جهة سندها أو من جهة متنها ، وقد مر بنا كثير من الأمثلة التي تؤيد هذا ونسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التي تؤكد هذه الحقيقة :

في قوله تعالى « والله للشرق والغرب فأبنا تولوا قم وجه الله » بين أن العلماء اختلفوا في المعنى الذي نزلت فيه الآية على أقوال كثيرة وأن من جملة الأقوال ما قاله عبد الله بن عامر بن ربيعة أنها : نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة ، ثم قال : أخرجه الترمذي عن أبيه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل واحد منا على خياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت فأبنا تولوا قم وجه الله « قال أبو هيسب

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٠١ آية ١٨٥ من سورة البقرة . والحديث أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٠ . والحديث الأول أخرجه البخاري في باب الاقتصاد في العمل عن أبي هريرة انظر التاج ج ١ ص ٤١ ولفظه إن الدين يسر — فاربوا — أي إن لم تقدروا على العمل بالأكمل فاعملوا بما يتقرب منه — الفدوة من الفجر إلى طلوع الشمس أي آخر الليل أو أوله .

هذا حديث ليس إسناده بذلك لانهرفه إلا من حديث أشعث السجان وأشعث ابن سعيد أبو الربيع يضعف في الحديث (١) .

وفي قوله تعالى « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن » يقول في المسألة السادسة عشرة : وخرج مسلم عن أنس قال : وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة (٢) . ثم قال القرطبي قال علماؤنا : هذا تمهيد في أكثر المدة والمستحب تفقد ذلك من الجملة إلى الجملة . وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي في حديثه نظر ، وقال أبو عمر فيه : ليس بصحة لسوء حفظه وكثرة غلطه وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل ولكنه قد قال به قوم . وأكثرهم على أن لا توقيت في ذلك وبالله التوفيق (٣) .

وفي قوله تعالى « ومن لم يطعمه فإنه منى » فرق القرطبي بين الكرع (٤) والشرب . بما ذكره ابن ماجة في سننه . حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد بن عمر عن ابن عمر قال : مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله ﷺ : « لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناؤه أطيب من اليد » ثم قال القرطبي : وليث بن أبي

(١) نشر القرطبي ح ٢ ص ٧٩ وما بعدها آية ١١٥ من سورة النقرة . والحديث أخرجه الترمذى انظر نسخة الاحودى ح ٨ ص ٢٩٢
(٢) أخرجه مسلم في باب غسل الفطرة ح ٣ ص ١٠٦
(٣) نشر القرطبي ح ٢ ص ٢٠٦ آ ١٢٤ من سورة النقرة .
(٤) الكرع : الشرب بالنم

سلم خرج له سلم وقد ضعف (١) .

وفي قوله تعالى «الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم» (٢) بين أن السنة معناها فتور يمتري الإنسان ولا يفقد معه عقله . وأن المراد بالآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال ثم قال : «والناس يذكرون في هذا الباب من أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى على المنبر قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه ملكاً فأمره ثلاثاً ثم أعطاه قاروريتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يذاه تلقيان ثم يستيقظ فينحي إحداها عن الأخرى حتى نام نوما فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان — قال — ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تمسك السماء والأرض ، ولا يصح هذا الحديث ، ضعفه غير واحد منهم البيهقي (٣) .»

وفي قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط» ، يقول في المسألة الثالثة :

« روى غالب القفطان قال أتيت السكوفة في نجارة فتزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ليلة أودت أن أنحدر إلى البصرة . فلم تهجد من الليل فقرأ بهذه الآية «شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام » قال

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥٢ وقد سبق تخريج الحديث المذكور في هذا القسم من أحكام القرطبي إلى اللغة .

(٢) آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٢ وما بعدها .

الأعشى : وأنا أشهد بما شهد الله به وأسودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله
 وديمة وإن الدين عند الله الإسلام - قالها مراراً - ، فندوت إليه وودعته
 ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بآفك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة
 لم تحدثني به قال : والله لأحدثتك به سنة . قال فأقمت وكتبت على بابي ذلك
 اليوم . فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل
 عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : يجاء بصاحبها يوم القيامة
 فيقول الله تعالى هبدي هبدي إلى وأنا أحق من وثي أدخلوا هبدي الجنة (١)
 قال أبو الفرج الجوزي : غالب القطان يروي عن الأعشى حديث شهد الله .
 وهو حديث مُعْضَل (٢) . قال ابن هدي : الضعف على حديثه بين . وقال أحمد
 ابن حنبل : غالب بن خفاف القطان ثقة وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم
 صدوق صالح . ثم عقب بقوله « قلت ويكفيك من عدائته وثقته أن خرج له
 البخاري ومسلم في كتابيهما وحسبك » (٣)

فالفرطلي قد انتقد ما تقدم من الأحاديث . ونراه في نقده يقتصر أحياناً
 على ما قاله بعض أئمة الجرح والتمديد ، وأحياناً أخرى يقابل أقوالهم ويرجح
 منها أقوالها .

ونرى الفرطلي إلى جانب ذلك يرتضى بعض الأحاديث رغم أن علماء
 الجرح والتمديد قد انتقدوها وذلك لأن لها طرقات أخرى تقويها وتشهد لصحتها
 أو لأن معناها لا يناقض ما جاءت به الأحاديث الصحيحة .

(١) الحديث قاله ابن كثير حريجه الطبراني في المعجم الكبير .

(٢) الفضل ما سبق من إسناده إثنان فصاعداً في موضع واحد .

(٣) مصر القاطن ج ٤ ص ٤٠٠ : وبهذه .

ففي قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

يقول في المسألة الرابعة : قال علماءنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحببه الله ويراليه ومؤمن لا يحببه الله ولا يواليه بل يبغضه الله ويبغضه فكل من علم الله أنه يوافق بالإيمان ، فله محبة له موال له راض عنه ، وكل من علم الله أنه يوافق بالكفر فله مبغض له ساخط عليه معادله . لا لأجل إيمانه ولكن لسكفه وخلافه الذي يوافق به ، والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة . وكافر لا يعاقب ، والذي يعاقب هو الذي يوافق بالكفر ، فله ساخط عليه معادله ، والذي لا يعاقب هو الذي بالإيمان فله غير ساخط عليه . فله موال ولا باغض له بل يحب له موال . لا لسكفه ولكن لإيمانه الموافق . فله موال .
أن يطلق القول وهي :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب والكافر يستحق العقاب بل يجب تقييده بالموافقة ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن هر في الوقت الذي قال يجب الأصنام ومريد ثوابه ودخوله الجنة لا لعبادته الأصنام لكن لإيمانه الموافق به وأن الله تعالى ساخط على إبليس في حال سعادته لسكفه الموافق به ، ثم قال القرطبي :

وخالفت للتقرية في هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطاً على إبليس وقت عبادته ، ولا راضياً عن هر وقت عبادته للصنم وهذا ثابت أن الله سبحانه عالم بما يوافق به إبليس لعنه الله وبما يوافق به عمر رضي الله عنه فيما لم

يزل ، فثبت أنه كان ساخماً على إبليس محباً لعمر ، ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل الجنة ، وقد قال رسول الله ﷺ « وإنما الأعمال بالخواتيم » (١) ولهذا قال علماء الصوفية « ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولاً وفعلًا لكن الإيمان جري السمادة في سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عارياً وربما يكون حقيقة » وعلق القرطبي فقال : قلت هذا كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق للصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك حلقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفض فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . فوالله لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينهم إلا ذراعاً (فيأيدون الناس) فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار » (٢) فإن قيل وهي السادسة فقد خرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن سميع المصري من حديث محمد ابن سميع الثامي المصلوب في الزندقة وهو محمد ابن أبي قيس عن سليمان بن موسى وهو الأتدق عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال : قال لي رسول الله ﷺ « لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه » . قال : قلت : كيف يجي الله الموتى ؟ قال : « أما مرت بأرض لك مجذبة ثم مرت بها مخضبة ثم مرت بها مجذبة ثم مرت بها مخضبة » قلت : بلى قال : « كذلك النشور » قال قلت

(١) اخذت حرجه البحري في كتاب الفدر ح ٤ ص ٩٩

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفدر ج ١٦ ص ١٩٠ .

كيف لي أن أهلك أني مؤمن ؟ قال « ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن قيس
أو قال من أمتي — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جزاها بها خيراً أو عمل
سيئة وأن الله جزاها بها شراً أو يفرها إلا مؤمن » .

قال القرطبي : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوي فإن معناه
صحيح ، وليس بعارض لحديث ابن مسعود فإن ذلك موقف على الجماعة كما
قال عليه السلام « وإنما الأعمال بالخواتيم » وهذا إنما يدل على أنه مؤمن في
الحال والله أعلم (١) .

وفي قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (٢) يقول
القرطبي في المسألة الثانية : « في شدة عذاب من هذه صفته روى حماد بن سلمة
عن علي ابن زيد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : ليلة أسري بي مررت
على ناس أقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال
هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون
الكتاب أفلا يعقلون » وروى أبو أمامة قال قال رسول الله ﷺ « إن
الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرّون قصبهم في نار جهنم . فيقال
لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وتنسى أنفسنا » .

واتقد القرطبي هذا الحديث ثم صححه فقال : قلت : وهذا الحديث
وإن كان فيه لبس لأن في سنده الخطيب ابن جحدر ، كان الإمام أحمد
يستضعفه وكذلك ابن معين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة سدي
ابن عجلان الباهلي وأبو غالب هو — فيا حكى يحيى بن معين — جرير المزني .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) آية ٤٤ من سورة البقرة .

مولى خالد بن عبد الله بن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمي . كان يختلف إلى الشام في تجارته . قال يحيى بن معين هو صالح الحديث . فقد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحار بالرحى ، فيجتمعون إليه أهل الأرقية يقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية^(١) . ثم قال القصب بضم القاف — المني وجمعه أقصاب ، والأفتاب الأمعاء وأحدها قِثْبٌ ، ومعنى فتندلق : فتخرج بسرعة^(٢) .

وفي قوله تعالى « وآتى المال على حبه »^(٣) يقول استدلل به من قال إن في المال حقاً سوى الزكاة . . . وقيل : إن المراد الزكاة المفروضة ، والاول أصح . لما روى الدارقطني عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ « إن في المال حقاً سوى الزكاة ، ثم تلا هذه الآية : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » إلى آخر الآية ، وأخرجه بن ماجه في سننه والترمذي في جامعه وقال . هذا حديث ليس إسناده بذلك وأبو حمزة ميمون الأهورى يصفه ، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشَّيْبِيِّ هذا الحديث وهو أصح . ثم هقب القرطبي بقوله قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » فذكر الزكاة

(١) أخرجه مسلم عن أسامة بن زيد في كتابه ليهذ ح ١٨ س ١١٨ .

(٢) عبد القاطبي ج ١ ص ٣٦٥ وما بعده .

(٣) آية ١٧٧ من سورة البقرة

مع الصلاة وذلك دليل على أن المراد بقوله « وآتى المال على حبه » ليس الزكاة المفروضة ، فإن ذلك كان يكون تكراراً والله أعلم (١) .

ولو تساءل مسائل وقال : هل هذا النقد الذى وجهه القرطبي للأحاديث السابقة صحيح ؟ فإننى أقول : لقد تتبعنا القرطبي فى بعض الأحاديث التى انتقدها بكلمات مختصرة ولم يذكر فيها رأى أئمة الجرح والتعديل فوجدته صحيحاً . . فمثلاً يقول القرطبي فى الحديث الأول « قال أبو عيسى هذا حديث ليس إسناده بذلك لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ، وأشعث ابن سعيد أبو الزبيع يضعف فى الحديث » هذا ما قاله القرطبي وهو بهذا النقد يوافق أئمة الجرح والتعديل ولا يخالفهم . فلقد قال ابن الجوزى « قلت كان هشيم يقول : أشعث السمان كذاب . وقال أحمد بن حنبل : حديث مضطرب ليس بذلك وقال يحيى والنسائي وأبو زرعة : ضعيف . وفى لفظ من يحيى ليس بشيء وقال الفلاس والدارقطنى : ضعيف متروك . وقال أبو حاتم بن حبان : يروى عن الأئمة الأحاديث الموضوعة وخصوصاً عن هشام بن هروة . وقال العقلى : لا يروى من هذا الحديث من وجه يثبت وفى سننه هاشم بن عبد الله ، قال ابن معين : هو ضعيف لا يحتاج بحديثه . وقال ابن حبان : كان سيئ الحفظ كثير الوم فأحسن الخطأ فترك (٢) » .

وفى المثال الثالث يقول القرطبي « وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف » ولم يذكر القرطبي ما قاله أئمة الجرح والتعديل . ولقد جمع

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤١ وما بعدها ، والتحديث أخرجه الترمذى فى باب ما جاء أن فى المال حقاً سوى الزكاة — انظر صحيح الترمذى فصرح ابن العسقى ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) ابن الجوزى المحدث رسالة دكتوراه لترميل أبو العلا على أبو الغلام ص ٢٤٠

« الذهبي » أقوالا كثيرة تبين موقف علماء الجرح والتعديل من « ليث بن أبي سليم » يقول الذهبي في ميزان الاعتدال : « قال أحمد : مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس . وقال يحيى والنسائي : ضعيف . وقال ابن معين أيضا : لا بأس به » وقال ابن حبان : اختلط في آخر عمره . وقال الدارقطني : كان صاحب سنة ، إنما أنكروا عليه الجمع بين عطاء وطاوس ومجاهد حسب . وقال عبد الوارث : كان من أوعية العلم . قال أبو بكر بن عباس : كان ليث من أكثر الناس صلاة وصلوا ، وإذا وقع على شيء لم يردده وقال ابن إدريس : ما جلست إلى ليث إلا سمعت منه ما لم أسمع منه . . . وقال عبد الله ابن أحمد حدثنا أبي قال : ما رأيت يحيى بن سميد أسوأ رأيا في أحد منه في ليث ، وعبد بن إسحاق ، وهمام . لا يستطيع أحد أن يراجعهم فيهم . وقال ابن معين : ليث أضعف من عطاء بن السائب . وقال مؤمل بن الفضل : سألت هبسي ابن يونس عن ليث بن أبي سليم فقال : رأيتاه وكان قد اختلط ، وكنت ربما مررت به ارتفاع النهار وهو على المنارة يؤذن (١) . »

وهن « ليث بن أبي سليم » يقول « ابن سعد » : « وكان ليث رجلا صالحا هابدا ، وكان ضعيفا في الحديث . يقال كان يسأل عطاء وطاوسا ، ومجاهدا عن الشيء فيختلفون فيه ، فيروى أنهم اتفقوا من غير تمعّد لذلك (٢) » .

مما تقدم يتبين لنا أنه أكثر علماء الجرح والتعديل يضمفون (ليث بن أبي سليم) ولا يرتضون روايته ، ولقد وافق القرطبي هذه الأكتربة وأفصح

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي ج ٢ ص ٣٦٠ طبع السادة

(٢) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٢٤٣ طبع لندن .

من ذلك في عبارته الموجزة التي قال فيها « وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف » .

وإذا كان القرطبي في المثال الأخير قد ارتضى « غالب بن القطان » وبين أنه عدل ثقة وناصر فريقاً على فريق فيبدو أن الحق معه . فلقد قال الذهبي في ميزان الاعتدال : « غالب بن خُطَّاف القُطَّان البصري صدوق مشهور . روى عن الحسن وابن سيرين ، وهنه . بشر بن الفضل وابن عُليّة . قال أحمد : ثقة ثقة . . . ثم قال الذهبي : ساق ابن هديّ له أحاديث وقال : الضيف على أحاديثه بين . . . وقد روى عن الأعمش عن أبي وائل عن هبدي الله حديث « شهد الله » وهو حديث مفضل ، روى هذا الحديث عنه عمر بن مختار البصري ورواه عنه ولده عمار بن عمر ثم عقب « الذهبي » بقوله : قلت الآفة من عمر ، فإنه متهم بلوضع ، فأأنصف ابن هديّ في إحصائه هذا الحديث في ترجمة غالب وغالب من رجال الصحيحين ، وقد قال فيه أحمد ابن حنبل كما قلنا : ثقة ثقة .

أما موقف القرطبي من تصحيح بعض الأحاديث التي اتفق علماء الجرح على تضعيفها فإنه موقف يبدو أنه سليم . حيث أن القرطبي قد سلم لعلاء الجرح ما قالوه وكشف عن ذلك أولاً . ثم هاد فتوى هذه الأحاديث بقرائن أخرى تشهد لصحتها .

القرطبي بهد بعض الأحاديث الضعيفة وللوضوح في تفسيره :

رغم أن القرطبي كانت له وقفات كثيرة جداً في نقد الأحاديث كما كانت له وقفات في تصحيح بعضها مع ما وجه إليها من نقد . رغم هذا وذاك . فقد

أورد القرطبي في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ولم يعقب
 عليها أو يذكر ما وجه إلها من نقد .

ومن أمثلة ذلك . ما ذكره في قوله تعالى « وإن تصبروا خير لكم » فقد
 قال : « وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : أبا حرة تزوج بأمة فقد أرق^١
 نصفه — بمعنى يصير ولده رقيقاً . فالصبر من ذلك أفضل لكيلا يرق الولد .
 وقال سعيد بن جبير : ما نكاح الأمة من الزنى إلا قريب . قال الله تعالى
 « وإن تصبروا خير لكم » أى عن نكاح الإمام ، وفي من ابن ماجه عن
 الضحاك بن مزاحم قال : سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ
 يقول : من أراد أن يلتقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر^(١) .

ولم يتحدث القرطبي عما وُجّه إلى هذا الحديث من طعن . مع أن ابن الجوزى
 أخرجه من حديث أنس وقال فيه : سلام بن سوار منكر الحديث عن كثير
 بن سليم كذاب . ومن حديث هلى ، وقال فيه : عمرو بن جهم وجوبير كذابان .

وهنى هذا فلا يشفع للحديث أن « ابن ماجه » أخرجه في سننه بل إن
 إخراج « ابن ماجه » لمثل هذا الحديث عن طريق الكذابين — كما يقول
 الدكتور « أبو العلا » أنزل بمكافأة كتابه العلمية إذا قيست بالصحيحين
 أو بقية السنن^(٢) .

وفي قوله تعالى « كلا لا تطعه واسجد واقترب » يقول القرطبي : « وقد
 رويناه من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن نافع عن

(١) نفسه القرطبي ج ٥ ص ٤٧٧ آية ٢٥ من سورة النساء . وأحدث أخرجه ابن

ماجة في سننه ٩٨ / ١ رقم ١٨٦٢ .

(٢) ابن الجوزى المحدث ص ٨٢ ونظر المصنفات لابن حوزى ٢٦١ / ١

ابن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق » قال رسول الله ﷺ لمعاذ « اكتبها يا معاذ » فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي الدواة — فكتبها معاذ فلما بلغ « كلا لا تطعه واسجد واقترب » سجد اللوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللهم ارفع به ذكرك اللهم احطط به وزرك اللهم اغفر به ذنباً ، قال معاذ : سجدت وأخبرت رسول الله ﷺ (١) وسكت القرطبي فلم يعقب هل هذا الحديث ولم يبين ما وجه إليه من نقد .

ولقد انتقده ابن الجوزي وحكم عليه بالوضع . فقال : « هنا حديث موضوع لا شك وأنا أنهم به إسماعيل الأجرى وما أبرد هذا الوضع وما أبعد واضحه من العلم فإن هذه السورة نزلت بمكة . ومعاذ إنما أسلم بالمدينة » ، وناقش الدكتور « أبو العلا » ابن الجوزي ، فقال في تعقيبه على كلام « ابن الجوزي » : « والواقع أن ابن الجوزي قد وفق غاية التوفيق في حكمه على هذا الحديث بالوضع واستدلاله على ذلك بتاريخ نزول القرآن وأن هذه السورة من أول ما نزل بمكة من القرآن الكريم . ومعاذ رضى الله عنه لم يعرف رسول الله ﷺ إلا بعد هجرته إلى المدينة . فإنه مع هذا التوفيق قد جانبه للعباب حين زعم أن الواضع له إسماعيل بن أحمد بن محمد الأجرى والحق أن إسماعيل ثقة وإنما المتهم به شيخه كما قال الذهبي في « الميزان » وأكده في « ترتيبه لل موضوعات حيث يقول : والواضع له إبراهيم بن محمد الخواص . لا كما قال « ابن الجوزي » (٢) .

وفي قوله تعالى « فصل لربك وانحر » يقول القرطبي : « وعن هل رضى

(١) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٢٩ آية ١٩ من سورة الطق .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص ١٦٩ وانظر اللان المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

الله عنه قال : لما نزلت « فصل لربك وانحر » قال النبي ﷺ لجبريل « ما هذه النحرية التي أمرني الله بها » ؟ قال ليست بنحرية ولكنه يأمره إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تسكيرة » (١) .

ولقد حكم « ابن الجوزي » هل هذا الحديث بالوضع فقال : « هذا حديث موضوع وضعه من يريد مقاومة من يكره الوضع وهو في نصرة مذهبنا ، إلا أنه ليس بصحيح وفي الصحيح غثبة من الاستمانة بالباطل وهو يكره وفيه أصح بن نبأته . قال يحيى : لا يساوى شيئاً ، وقال أبو حاتم بن حبان : عمر بن صبح وضع هذا الحديث على مقاتل . فظفر به إسرائيل فحدث به .

أما السيوطي فقد بين أن هذا الحديث ضعيف ولا يصل إلى درجة الموضوع فقال في اللآلئ : « الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في سننه وقال إنه ضعيف . وقال الحافظ ابن حجر في تخريجهم إسناده ضعيف جداً » (٢) .

(١) تفسير النرطبي ج ٢٠ ص ٢٩٩ آية ٢ من سورة الكوثر .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص ١٨٤ وانظر الموضوعات ٢-٩٨ ، ٩٩ واللال ١٠١-٢٠٠ والزميل أبو الملا دفاع عن رأي ابن الجوزي في هذا الحديث ونقد للسيوطي فارجم إليه .

الفصل العاشر

الامراتيليات في تفسير القرطبي

لم يخل تفسير القرطبي من الاسرائيليات بل حوى كثيراً منها . وكان القرطبي يرفضها ويهاجمها أحياناً . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وما أنزل على للملكين يبابل هاروت وماروت » فقد قال : « وقد روى عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحمير والسدي والسكبي ما معناه : أنه لما كثرت الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك في زمن إدريس عليه السلام — عبرتهم لللائكة فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم سكانهم وركبت فيكم ماركت فيهم لعلتم مثل أعمالهم فقالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك قال : فاختاروا ملكين من خياركم فاختاروا هاروت وماروت فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة . فما مر بهما شهر حتى فتننا بإمرأة اسمها بالنبطية « بيدخت » وبالفارسية « ناهيل » وبالعربية « الزهرة » اختصمت إليهما . وراوداهما عن نفسها فأبى إلا أن يدخلها في دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التي حرم الله ، فأجاباهما وشربا الخمر وألما بها ، فرآهما رجل فقتلهما وسألهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فملماها ، فتكلمت به فخرجت ففسخت كوكبا . وقال سالم عن أبيه عن عبد الله بن غنم كعب الخبر أنهما لم يستكبرا يومهما حتى علا بما حرم الله عليهما ، وفي غير هذا الحديث تخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان ببابل في سرب من الأرض ، قيل : بابل بالعراق وقيل بابل تهاوند . وكان ابن جرير يروي عن حماد . أنه كان إذا رأى الزهرة وسهيلاً سيهما وشنهما ويقول إن

سهيلاً كان هشاراً باليمن . بظلم الناس وأن الزهرة كانت صاحبة هاروت
وماروت » .

ولم يرتض القرطبي هذه الروايات والأخبار فرفضها وهقب عليها بقوله :

« قلنا هذا كله ضيف وبسبب من ابن عمر وغيره فإنه قول تدفعه الأصول
في الملائكة الذين هم أناء الله هلى وحيه ، وسفراؤه إلى رسله « لا يصون الله
ما أمرهم ويفعلون (١) ما يؤمرون ، بل هباد مكرمون لا يسبقونه (٢) بالقول
وهم بأمره يعملون ، يسبحون الليل والنهار (٣) لا يعثرون « وأما العقل فلا ينكر
وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ويخلق فيهم الشهوات
إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم . ومن هذا خوف الأنبياء والاولياء الفضلاء
العلماء . اسكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح » .

ثم بين القرطبي أن الزهرة كانت مخلوقة قبل آدم عليه السلام ؛ لأنها
كوكب من جملة الكواكب وأن قول الملائكة لله سبحانه وتعالى « ما كان
يشغى لنا » كفر لأن مناه لا تقدر على فتنتنا وهذا لا يصح لسببه إلى
للملائكة (٤) .

وفى قوله تعالى « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان
بنصب وهناب » ذكر أخباراً خيالية طويلة ، ثم أطلال فى نقدها أيضاً . وأخيراً
قال : « قال ابن العربى القاضى أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب فى

(١) آية ٦ من سورة التحريم

(٢) آية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الانبياء

(٣) آية ٢٠ من سورة الانبياء

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٠١ آية ١٠٢ من سورة البقرة .

أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين الأولى قوله تعالى « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر » (١) والثانية في ص « نى مسنى الشيطان بنصب وهذاب » وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بمجرد واحد إلا قوله « بينا أيوب يقتل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب » (٢) الحديث ، وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه فنأخذ الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره أم على أى لسان سمعه ؟ والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البينات فأعرض عن سطورها بصرك وأصم عن سمعها أذنيك فإتها لاتملى فكرك إلا خبالا ، وفي الصحيح واللفظ البخارى أن ابن عباس قال : يامشر المسلمين (٣) تسألون أهل الكتاب وكتابتكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا « هذا من عند الله ليشتروا به ثمننا قليلا » ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مسألهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألهم عن الذى أنزل عليهم . وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءة التوراة (٤) . وأحيانا أخرى نرى « القرطبي » يذكر الاسرائيليات ويسكت عنها ولا ينتقها بكلمة ففى قوله تعالى « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين » حدد طول « هوج بن عنق » وذكر طرفا من أخباره فقال : « وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين ذراعا قاله ابن عمر .

(١) آية ٨٢ من سورة الانبياء .

(٢) الحديث أخرجه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الفضل ج ١ ص ٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى في كتاب الاعتصام باب قول النبي : لا تألوا أهل الكتاب عن

شئ . ج ١٧ ص ١٠٢ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٠ آية ٤٦ من سورة م والحديث أخرجه أيضا

الامام احمد في مسنده ٣/٣٨٧ .

وكان يمتحن السحاب أى يجذبه بمحجنه ويشرب منه ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله . وحضر طوفان نوح عليه الصلاة والسلام ولم يجاوز ركبته وكان عمره ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى عليه السلام ليرضخهم بها فبعث الله طائرا فنقرها ووقعت في عنقه فصرهته ، وأقبل موسى هابيا السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع فإصاب إلا كبه وهو مصروع فقتله « (١) . ولم يعقب القرطبي بشئ على هذه الأخبار انحرافية ولقد انتقد « ابن كثير » هذه انحرافات فقال وهو يتحدث عن صفة الجبارين في كتابه « البداية والنهاية » وقد ذكر كثير من المفسرين ما هنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل الدليل والنقل على خلافها . من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جدا حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا ويلقهم في أكناه وحجزة سراويله ، وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها . وأن للآل بيت عنيا كل هنية تكفى الرجل . وشيئا من تمارهم ليملوا ضخامة أشكالهم . وهذا ليس صحيحا . ثم قال « ابن كثير » : « يروى هذا عن نوف البكالي ونقله ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات . فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا يميز لهم بين صحيحها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول من قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتية على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم » (٢) .

(١) ضبح القرطبي ج ٦ ص ١٢٦ . ما بعدها آية ٢٢ من سورة اللأفة

(٢) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٧٨ .

وكذلك تعقب ابن كثير هذه الأخبار في تفسيره فقال « وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا — أى في الآية التى معنا — أخباراً من وضع بنى إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن منهم « هوج ابن حنق » بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع تحريير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن »^(١) ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته . وهذا كذب وافتراء فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين . فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »^(٢) وقال تعالى « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون »^(٣) . ثم أغرقنا بعد الباقين ، وقال تعالى « لا علم اليوم من أمر الله »^(٤) إلا من رحم ، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى « هوج بن حنق » وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع . ثم في وجود رجل يقال له : هوج ابن حنق نظر والله أعلم »^(٥) .

ومن أغرب ما أورده القرطبي من الإسرائيليات ما ذكره في قوله تعالى

(١) أخرجه البخارى في كتاب أحاديث الانبياء باب خلق آدم وذريته : ١٥٩ وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نبيها وأهلها .

(٢) آية ٢٦ من سورة نوح .

(٣) آية ١١٩ ، ١٢٠ من سورة الشعراء .

(٤) آية ٤٣ من سورة هود .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨ .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فقد ذكر « أن حلة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش » ، ثم نقل عن كعب الأخبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقاً أعظم مني فاهتز فطوقه الله تعالى بحية ، للحية سبعون ألف جناح في الجناح سبعون ألف ريشة في كل ريشة سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف لسان ، يخرج من أدها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا وعدد الملايكة أجمعين فالتوت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به ^(١) .

ومن العجب أن « القرطبي » يمر على هذه الأخبار وأمثالها دون تامل أو تعقيب . وليت « القرطبي » حين ذكر هذه الأخبار الخرافية التي لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق تعقبها وكشف ما فيها من فساد وبطلان ، أو ليته صان كتابه عنها جملة واحدة . فلم يشغل نفسه بها فإن في البعد عنها خيراً كثيراً . حيث أساءت إلى سمعة الإسلام وفتحت للمستشرقين وأذنانهم مجالاً للطعن في الإسلام وتشويه جماله ووصفه بأنه دين خرافة وجهل .

ولا يشفع « لقرطبي » أن رسول الله ﷺ قد أباح التحدث عن أهل الكتاب فقال « بلغوا عني ولو آية » ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب هلىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » « فإن هذا الحديث مفيد

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٩٤ آية ٧ من سورة غافر .

بما لا يعلم كذبه ، أو بما يحتمل الصدق والكذب لأن رسول الله ﷺ لا يميز
التحدث بالكذب (١) ، والأخبار التي ذكرها « القرطبي » والتي تقدمت
يبدو عليها الكذب والباطلان . وحتى لو كانت هذه الأخبار أو غيرها
مما ذكره « القرطبي » من الأخبار الاسرائيلية التي يحتمل الصدق والكذب
وذكرها القرطبي في مقام التفسير للاستئناس بها أو هبة وهظة فإن ذلك
بخلاف قول رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا (٢) » لأن ذكر هذا النوع من الاسرائيليات في
مقام التفسير تصديق بها مطلقا والحديث يأمر بالتوقف .

وفي ذلك يقول أستاذنا الشيخ « أحمد شاكر » إن إباحة التحدث عنهم
— أي من أهل الكتاب — فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه
شيء وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو في
تعيين ما لم يبين فيها أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر ، لأن في إثبات
مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه
مبين لقول الله سبحانه ومفصل لما أجمل فيه وحاشا لله وليكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ﷺ — إذ اذن بالتحدث عنهم — أمرنا ألا نصدقهم
ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرنها بكتاب

(١) انظر التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي ج ١ ص ١٧٢ والحديث أخرجه
البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكره عن بني إسرائيل ج ٧ ص ٣٠٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قولوا آمنا بالله ج ٩ ص ٢٢٧ .

«...» (١) .

(١) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٦٦ نفلا عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ح ١ ص ١٥ وانظر وجهة نظر بعض المدافعين عن المفسرين في رسالة «الإسرائيليات» للدكتور رمزي نضاعة ص ٣٦١ والحديث والمحدثون لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .
وانظر في معنى الإسرائيليات . كيف أسربت إلى الثقافة الإسلامية وأقسامها وحكم روايتها ومدى خطورتها . مقدمة ابن خلدون ح ١ ص ٤٨١ وما بعدها .
ورسالة الإسرائيليات للدكتور رمزي نضاعة ص ٥٣ ونشأة التفسير في الكتب المقدمة والقرآن للدكتور أحمد خليل ص ٣٧ والإسرائيليات في التفسير والحديث للشيخ محمد حسين الذهبي ص ١٩ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٨ والتفسير والمفسرون ح ١ ص ١٦٥ ، ١٧٩ وما بعدها .

الفصل الحادى عشر

القيمة العلمية لتفسير القرطبي وتأثير المفسرين به

لقد أثنى المؤرخون والملاء على تفسير القرطبي وأبرزوا قيمته العلمية . فقال « الذهبي » فى تاريخ الاسلام « وقد سارت بتفسيره — أى بتفسير القرطبي — العظيم الشأن الركبان ، وهو كامل فى معناه » وقال ابن فرحون وهو يتحدث عن مؤلفاته « جمع القرطبي فى تفسير القرآن كتاباً كبيراً . . . وهو من أجل التفسير وأهمها فمما » وكذلك قال « الداودى » فى طبقاته . وبين « ابن الماد » فى شذراته : إن تفسير القرطبي يحكى مذاهب السلف كلها وأن فوائده كثيرة . وأوضح « ابن خلدون » فى مقدمته أن تفسير القرطبي له شهرة هريضة بالشرق (١) وإذا كان تفسير القرطبي له تلك للسكانة والشهرة . فلا عجب أن يتأثر للفسرون الذين جاءوا بعده بكتابه فينتفعوا به ويعيدوا منه . ومن أشهر هؤلاء : الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير للتوفى سنة ٧٧٤ هـ فلقد تأثر ابن كثير فى تفسيره بالقرطبي ونقل عنه . وكان ابن كثير ينقل عن القرطبي أقواله غالباً . بل لم يأت إلا بالضم . ومن الأمثلة التى توضح تأثر ابن كثير بالقرطبي ما ذكره فى فضل سورة الفاتحة فإنه بعد أن ذكر مجموعة من الأحاديث تدل على ذلك قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم بن عيسى ابن البريد . حدثنا عبد الله بن محمد ابن حنبل عن جابر قال : أنبئت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق للماء فقلت

(١) انظر تاريخ الاسلام للذهبي ج ٢٧ ص ١٦٦ والديباج ص ٣١٧ وضيقات الداودى

ص ٢١٣ ، ومقدمة ابن خلدون طبع القدم ص ٤٨٢ .

السلام عليك يا رسول الله فلم يرد على قال : فانطلق رسول الله ﷺ وبنى وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلت أنا المسجد كثيراً حزينا فخرج على رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : « عليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله » ثم قال : « ألا أخبرك يا عبد الله ابن جابر بأخبر سورة في القرآن » قلت : بلى يا رسول الله قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها « هذا إسناد جيد وابن عقيل يحتاج به الأئمة الكبار ، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي . ذكر ابن الجوزي أنه هو المبدى والله أعلم . ويقال : أنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي في ذكره الحافظ بن عساكر . ثم قال ابن كثير : « واستدلوا بهذا الحديث على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكي عن كثير من العلماء منهم إسحاق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحصار من المالكية . وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك . لأن الجميع كلام الله ، ولثلاث يوم التفضيل تنص المفصل عليه وإن كان الجميع فضلا . قلته القرطبي عن الأشعري وأبي نكر الباقلائي وأبي حاتم بن حبان البستي ومجي بن مجي ورواية عن الإمام مالك (١) . ولقد تصرف ابن كثير في هذا النص ونقله عن القرطبي مختصراً .

وفي قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » يقول ابن كثير : يقول تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » وحكي القرطبي وغيره عن أبي وابن مسعود أنهما كانا يقرآن

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠ وانظر نسخة القرطبي ج ١ ص ١٠٩

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » قلت : - والقائل ابن كثير - ويدل على هذا قولهما بعده « ربنا واجمعنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » الآية فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المسكي عن وهيب بن الورد أنه قرأ « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا » ثم يبكي ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك (١) .

وفي قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يقول « يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا . كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير « إنك هنا ؟ » قال : نعم يا رسول الله أشهد به . قال « أما أنه لا تخفى عليه » (٢) ثم قال ابن كثير قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أنت عرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأيمن في الأرض بنعمته فمرفته ، وأبى لا أدري ما كان من أمه (٣) .

ولقد ناقش ابن كثير القرطبي ونعقبه ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » فقد قال : وليس المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين

(١) صدر ابن كثير ج ١ ص ١٧٥ آية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ٨١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ آية ١٤٦ من سورة البقرة .

وهذا القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل . وفي ذلك نظر ، بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره ، (١) .

وفي قوله تعالى « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » يقول : قوله « ولا تسأل » عن أصحاب الجحيم « قراءة أكثر » ، ولا تسأل بضم التاء على الخبر وفي قراءة أبي بن كعب « وما تسأل » وفي قراءة ابن مسعود « ولن تسأل » نقلها ابن جرير أى لا تسأل عن كفر من كفر بك كقوله « فإنما عليك البلاغ » وعلينا الحساب « (٢) » وكقوله تعالى « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٣) الآية . وكقوله تعالى « نحن أعلم بما يقولون » وما أنت عليهم بجبار فذكر القرآن من يخاف وعيد « (٤) » . وأشبه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حالم كما قال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي قال قال رسول الله ﷺ « ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي ؟ » . فنزلت « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » فاذا ذكر ما حق توفاه الله عز وجل ، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة — وقد تكلموا فيه — عن محمد بن كعب بن مالك ، وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب . قال القرطبي ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ، أى قد بلغ فوق ما تحسب . وقد ذكرنا في « التذكرة » أن الله أحيا له أبويه حتى آتانا به وأجبتنا

(١) ضهير ابن كثير ج ١ ص ٦٩ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤ - من سورة الزمر .

(٣) آية ٢٦ من سورة النازعات .

(٤) آية ٤٥ من سورة ق .

عن قوله « إن أبي وأباك في النار » وخلق ابن كثير بقوله قات : « والحديث للروى في حديث أبيه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم ^(١) ». وفي هذا القدر كفاية ، وأحب أن أقول : إن الطبعة الأخيرة لتفسير ابن كثير والتي يقوم بتحقيقها الأستاذ عبد العزيز هني ، محمد أحمد عاشور ، محمد إبراهيم البنا . لم تثبت في بعض النصوص السابقة أقوال القرطبي التي نقلها ابن كثير عنه ، ويحلل ذلك الأستاذ المحققون فيقولون « وقد كان مستمداً الأول في إخراج هذه الطبعة الجديدة على المخطوطة رقم ١٦٨ تفسير والمخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر . وتمتاز هذه المخطوطة بأنها أقدم النسخ التي اعلمها لهذا الكتاب . فقد فرغ ناسخها وهو : محمد ابن هلى الصوفى . من كتابتها في المائتين من جمادى الأول سنة ٨٢٥ هجرية أى بعد وفاة ابن كثير بخمسين سنة . كما تمتاز بأنها أصح وأدق ما رأينا من النسخ وسوف يبدو — إن شاء الله — مدى صحتها بمقارنة هذه الطبعة بما سبقها من طبعات . وامتياز ثالث . وهو أنها تمثل النسخة الأولى للمؤلف . وأما ما عداها مما طبع من قبل فيمثل مرحلة متأخرة أضاف فيها ابن كثير زيادات أغلبها من الزحشرى والقرطبي والفخر الرازى . ثم ينق المحققون نوم أن ابن كثير لم يعتمد في تصنيفه الأول على هذه التفاسير فيقولون : ولا يعنى هذا أن ابن كثير لم يكن قد اعتمد في تصنيفه الأول على هذه التفاسير ف سوف يبدو للدارس أنه قد رجع إلى بعضها ^(٢) ». وإني أقول إن من هذا البعض ظهر لى « تفسير القرطبي » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٢ آية ١١٩ من سورة البقرة وانظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٩٢ والتذكيرة بالقرطبي ج ١ ص ١٤ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧ كتاب الشعب .

كذلك من أشهر المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي :

الشوكاني : وهو القاضى العلامة محمد بن هلى بن محمد الشراكنى للنوفى سنة ١٣٥٠ هـ . فلقد أعاد الشوكانى من القرطبي ونقل عنه ، ومن الأمثلة التى توضح ذلك : قوله تعالى فى سورة الفاتحة « الرحمن الرحيم » فقد قال الشوكانى فى كتابه « فتح القدير الجامع بين فى الرواية والدراية من علم التفسير » قال القرطبي : « وصف نفسه تعالى بمد « رب العالمين » بأنه « الرحمن الرحيم » لأنه لما كان فى انصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحن الرحيم لما تَصَوَّرَ من الترغيب . ليجسم فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أهون على طاعته وأمنع كما قال « نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن هذابى هو العذاب الأليم »^(١) . وقال « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب »^(٢) وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم اللؤمن ما عند الله من العقوبة ما طعم فى جنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد »^(٣) انتهى^(٤) وفى قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغييب » يقول الشوكانى : « قال القرطبي « اختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية هو الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها »^(٥) .

(١) آية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .

(٢) آية ٣ من سورة مافر .

(٣) رواه الشيخان والترمذى انظر التاج ح ٥ ص ١٦٥ .

(٤) فتح القدير ح ١ ص ١١ .

(٥) فتح القدير ح ١ ص ٢٣ .

وفي قوله تعالى : « فإن لم تكونوا دخلتم بين » يقول الشوكاني :
 واختلف أهل العلم في معنى الدخول للوجوب لتحريم الربائب . فروى عن
 ابن عباس أنه قال : الدخول هو الجماع وهو قول طاوس وعمر بن دينار وغيرهم .
 وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث والزيدية : أن الزوج إذا
 لمس الأم بشهوة حرمت عليه ابنتها ، وهو أحمد قول الشافعي . قال
 ابن جرير الطبري . وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بأمر أنه لا تحرم ابنتها
 عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقيل النظر إلى فرجها بشهوة .
 ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع . انتهى . وهكذا حكم
 الإجماع القرطبي فقال : وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها
 أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له لكاح ابنتها . واختلفوا في النظر . فقال
 مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها لذتة حرمت عليه
 أمها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللبس
 للشهوة وكذا قال الثوري ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبي ليلى لا تحرم بالنظر
 حتى يلبس . وهو قول الشافعي . والذي ينبغي التعميل عليه في مثل هذا الخلاف
 هو النظر في معنى الدخول شرعاً أو لغة فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق
 غيره به من لبس أو نظر أو غيرها . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث
 يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان منوطاً بالتحريم هو ذلك « (١) .

وفي كثير من الآيات ألمح تشابهاً كبيراً بين تفسير الشوكاني وتفسير
 القرطبي فأحسن بمدى تأثير الشوكاني بالقرطبي . ومن الأمثلة على ذلك : قوله
 تعالى « فلما فصل طاووت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه

(١) فتح التفسير ج ٩ ص ٤٠٩ وما بعدها .

عليه من ومن لم يلمه فإنه متى إذا من اغترف غرفة بيده « فقد قال
الشوكاني : « اغترفوا الخبز من الثوب » أي بدأوا بآلة ، والغرف مثل الإغتراف
وانتزع آلة الزمعة - وقد قرئ : « فتح الذين وضعا » فافتح للمرة ، والغفم
اسم الشيء المغترف . وقيل بالفتح : انصرف بالكف الواحدة وبالضم الغرفة
بالكفين . وقيل : « لغتان بمعنى واحد ومنه قول الشاعر :

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الفدران بالراح (١)

وهذه عبارة القرطبي . يقول القرطبي : قوله تعالى « إلا من اغترف
غرفة بيده » ، الاغتراف الأخذ من الشيء باليد وآلة . ومنه للغرفة ، والغرف
مثل الاغتراف وقرئ « غرفة » بفتح الفين وهي مصدر ، ولم يقل اغترافة .
لأن معنى انصرف والاغتراف واحد . والغرفة للمرة الواحدة . وقرئ « غرفة »
بضم الفين وهي الشيء المغترف . وقال بعض المفسرين : الغرفة بالكف
الواحد ، والغرفة بالكفين وقال بعضهم « كلاهما لغتان بمعنى واحد » وقال علي
رضي الله عنه : الأكف أنظف الآنية . ومنه قول الحسن :

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الفدران بالراح

التدليف : المشى الرويد (٢) .

وفي قوله تعالى « ولقد صدقكم الله وهذا إذ تحسبونهم بأذنه » الآية
يقول الشوكاني : والحس : الاستئصال بالقتل ، قاله أبو هبيرة . يقال جراد
محسوس ، إذا قتله البرد وسنة محسوس . أي جبهة نأكل كل شيء . قيل :

(١) فتح القدير ج ١ ص ٢٢٧

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥٩

وأصله من الحيس الذي هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حسة : اذهب حسه بالقتل ،
وتحسونه تقتلونهم وتستأصلونهم . قال الشاعر :

حسنناهم بالسيف حسا فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبددوا

ثم يقول الشوكاني « بإذنه » أى بعمله وقضائه « حتى إذا مثلتم » أى
جبنتم وضعفتم . قبل جواب حتى محذوف تقديره : امتحنتم وقال الفراء :
جواب حتى قوله « وتنازهتم » والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وتلاه
للجبين (١) » . وقال أبو علي : يجوز أن يكون الجواب « صرفكم عنهم » .
وقيل : فيه تقديم وتأخير أى حتى إذا تنازهتم وهصيتم فشلتم . وقيل : إن
الجواب « هصيتم » والواو مقحمة ، وقد جوز الأخفش مثله في قوله تعالى
« حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم » (٢) وقيل :
بمعنى إلى حينئذ لا جواب لها . والتنازع المذكور هو ما وقع من الرامة حين
قال بعضهم : نلحق الفناء وقال بعضهم : ثبت في مكاننا كما أمرنا رسول
الله ﷺ . ولقد نقل الشوكاني ما ذكره في هذه الآية من القرطبي .

(١) سورة الصافات آية ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٨ .

(٣) فتح القدير ج ١ ص ٢٥٦ . وانظر تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٥ ، « حدة » !

الباب الثالث

مدى تأثير القرطبي وابن عطية

ومناقشة ما أثير حول هذه القضية

مدى تأثير القرطبي بآبن عطية

وهو القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية صاحب كتاب
«الوجيز في التفسير»

لقد أفاد القرطبي من آبن عطية وتأثر به ونقل عنه في مجالات كثيرة .
فقل عنه في مجال التفسير المأثور . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » الآية . يقول
القرطبي في المسألة التاسعة : واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي
نهى عنها فأكل منها فقال آبن مسعود وآبن عباس وسعيد بن جبیر وجمعة
بن هبيرة : هي الكرم . ولذلك حرمت علينا الخمر . وقال آبن عباس أيضاً
وأبو مالك وقتادة : هي السنبلة ، والحبة منها ككلى البقر أحلى من العسل
وآبن من الزبد ، قاله وهب بن منبه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه .
وقال آبن جريج عن بعض الصحابة : هي شجرة اللتين . وكذا روى سعيد
عن قتادة ولذلك سمى في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام
على أكلها ، قاله السهيلي قال آبن عطية : وأيسر في شيء من هذا النسيين ما يعضده
خبر وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة نخلاف هو إليها
وعصى في الأكل منها (١) .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من آياتنا والهدى »

(١) ضد القرطبي ج ١ ص ٣٠٥ آية ٣٥ من سورة البقرة .

الآية يقول القرطبي في للسألة السابعة : قوله تعالى « ويلمحهم اللاعنون » قال قتادة والربيع : للراد « باللاعنون » لللائكة وللؤمنون . وقال ابن عطية : وهذا واضح جار على مقتضى الكلام . وقال مجاهد وهكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاذبين ، فيلعنونه . قال الزجاج : والصواب قول من قال « اللاعنون » لللائكة والمؤمنون فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذلك شيئاً (١) .

وفي قوله تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم « الآية . يقول في للسألة الخامسة : قوله تعالى « وابتغوا ما كتب الله لكم » قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن عبيدة وهكرمة والحسن والسدي والربيع والضحاك : ممناه وابتغوا الولد . يدل عليه أنه عقيب قوله « فالآن بأشروهن » وقال ابن عباس ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى ابتغوا القرآن بما أبيع لكم فيه وأمرهم به . وروى عن ابن عباس ومعاذ بن جبل : أن المعنى وابتغوا ليلة الفدر . وقيل للمعنى : اطلبوا الرخصة والتوسعة ، قاله قتادة . قال ابن عطية وهو قول حسن (٢) .

وأفاد القرطبي من ابن عطية في مجال القراءات . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى : « فنحنى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . فقد قال القرطبي :

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٦ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٨ آية ١٨٧ من سورة البقرة .

هذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب . وحسن
القضاء على المؤدى ، وهل ذلك على الوجوب أو الندب . فقراءة الرفع تدل
على الوجوب لأن المعنى فعلية اتباع بالمعروف . قال النحاس : « فن هـى له »
شرط والجواب « فاتباع » وهو رفع بالابتداء والتقدير فعلية اتباع بالمعروف ،
ويجوز فى غير القرآن « فاتباعها وأداء » مجملها مصدرين . قال ابن عطية :
« فاتباعا » بالنصب ، والرفع سبيل للجواب كقوله تعالى « فاسألك
بمعروف » (١) وأما المندوب إليه فيأتى منصوباً كقوله « فضرب » (٢)
الرقاب (٣) .

وفى قوله تعالى « وإذ واحدنا موسى أربعين ليلة » يقول القرطبي : قرأ
أبو على « واحدنا » بغير ألف واختاره أبو عبيدة ورجحه ، وألكر « واحدنا »
لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله عز وجل فإما هو للنفرد بالوحد
والوحد . على هذا وجدنا القرآن كقوله عز وجل « وهدمكم وعد الحق » (٤)
وقوله « وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم » (٥) . . . قال النحاس :
وقراءة « واحدنا » بالألف أجود وأحسن وهى قراءة مجاهد والأعرج وابن
كثير ونافع والأعشى وحزمة والكسائي . وليس قوله عز وجل « وهدمكم الله »
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » (٦) من هذا فى شيء . لأن واحدنا
موسى إنما هو من باب الموافقة وليس هذا من الوحد والوحد فى شيء ، وإنما

(١) آية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤ من سورة القتال .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) آية ٢٢ من سورة المائدة .

(٥) آية ٧ من سورة الأنفال .

(٦) آية ٥٥ من سورة النور .

هو من قولك : موعدك يوم الجمعة وموعدهم موضع كذا ، والضميخ لأن هذا
أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » هاهنا بالالف جيدة
لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة فمن الله جل وهز وهسد ، ومن موسى
قبول والتباعد يجري مجرى المواعدة . ثم قال القرطبي قال ابن عطية : ورجع
أبو هيبته « واعدنا » وليس يصح . لأن قبول موسى لوعده الله والتزامه
وارتقابه يشبه المواعدة (١) .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية في مجال اللغة والنحو . ومن الأمثلة
على ذلك : قوله تعالى « كان الله على كل شيء مقبلاً » فقد قال القرطبي
« مقبلاً » معناه مقتدر . ومنه قول الزبير بن عبد المطلب :

وذى خيبر: كفت النفس منه وكنت على مساهته مقبلاً

أى قدبراً . فالمرى أن الله تعالى يعطى كل إنسان قوته ومنه قوله عليه
السلام « كفى بالمرء إيماناً أن يضيع من يقبى » على من رواه هكذا أى من هو
تحت قدرته وفى قبضته من هيال وغيره . ذكره ابن عطية . يقول منه :
قُتِلَ أَوْ قُوْتُهُ قُوْتًا وَأَقْبَلَتْهُ أَقْبَلَتْهُ إِيَّانَا قَائِمَتْ وَمَقِيتْ (٢) .

وفى قوله تعالى « يسألوك من الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه
كبير » الآية . يقول القرطبي فى المسألة الخامسة .

قوله تعالى « وعد من سبيل الله » ابتداء « وكفر به » عطف على

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٩٤ آية ٥١ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٩٦ آية ٨٥ من سورة النساء .

« صد » و « المسجد الحرام » عطف على سبيل الله « وإخراج أهله منه » عطف على « صد » وخبر الابتداء « أكبر عند الله » أى أعظم إتمام من القتال في الشهر الحرام قاله المبرد وغيره . وهو الصحيح ، لطول منع الناس عن السكبة أن يطاق بها « وكفر به » أى بالله . وقيل : « وكفر به » أى بالحج والمسجد الحرام « وإخراج أهله منه أكبر » أى أعظم عقوبة عند الله من القتال في الشهر الحرام . وقال الفراء : « صد » عطف على « كبير » « والمسجد » عطف على الماء في « به » فيكون السلام لسقما متصلا غير منقطع . قال ابن عطية : وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله « وكفر به » أى بالله عطف أيضاً على « كبير » ويحيى من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله . وهنابين فسادهم ومعنى الآية على قول الجمهور : إنكم يا كفار قريش تستمظفون علينا القتال في الشهر الحرام . وما تفعلون أنتم من الصّد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ومن كفّركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه أكثر جرماً عند الله (١) .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية في مجال البلاغة . بل إن أغلب نصوص القرطبي في هذا المجال منقولة عنه كما تقدم (٢) .

وأفاد القرطبي من ابن عطية في مجال الفقه والأحكام . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى « ولا جناح عليكم فيما هرضتم به من خطبة النساء » الآية فقد قال القرطبي في المسألة الثانية :

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤٥ وما بعدها آية ٢١٧ من سورة البقرة .

(٢) راجع فصل البلاغة في هذه الرسالة .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزوجها وتنبية عليه لا يجوز ، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما دوفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز ، وكذلك ما أشبهه وجوز ما هذا ذلك . ومن أخطاه قرباً إلى التصريح قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس « كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك » (١) ولا يجوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعاً لأنها كالزوجة . وأما من كانت في هذه المينونة ، فالصحيح جواز التعريض لخطبتها والله أعلم .

وروى في تفسير التعريض ألفاظ كثيرة جماعها يرجع إلى قسمين : الأول أن يذكرها لوليها يقول له لا تسبقني بها ، والثاني : أن يشير بذلك إليها دون واسطة فيقول لها : إني أريد التزويج أو إناك جليلة . إنك لصالحة . إن الله لسائق إليك خيراً . إني فيك لأغيب . ومن يرغب منك ، إنك لنايفة . وإن جابقي في النساء . وإن يقدر الله أمراً يكن . هذا هو تمثيل مالك وابن شهاب . وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول لا تسبقني بنفسك ، ولا بأس أن يهدي إليها ، وأن يقوم بشغلها في المدة ، إذا كانت من شأنه ، قاله إبراهيم : وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج . وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن حسين . قالت سكينه بنت حنظلة : استأذن علي محمد بن علي . ولم تنفص هدى من مهلك زوجي فقال : قد هرفت قرابتي من رسول الله ﷺ وقرابتي من علي . وموضي في العرب : قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر ، إنك رجل يؤخذ منك ، تخطبني في هدى . قال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ ومن علي . وقد دخل رسول الله ﷺ على أم مسلمة وهي متأبئة من

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في كتاب السنة من أبي بكر بن أبي الجهم .

أبى سلمة فقال « لقد هلت أنى رسول الله وخيرته وموضى فى قومي ٠٠ »
كانت تلك خطبة . أخرجه الماروطى .

والهدية إلى للعتدة جائزة . وهى من التمريض : قال سحنون
وكثير من العلماء وقاه ابراهيم . وكره مجاهد أن يقول لها لا تسبقينى
بنفسك ورآه من للواحدة سرآ . قال القاضى أبو محمد بن عطية : وهذا عندى
على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة ، إنه على جهة الرأى لها فىمن يتزوجها ،
لا أنه أرادها لنفسه ، وإلا فهو خلاف لقول النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وكان القرطبى ينقل عن ابن عطية ولا يشير إليه . ومن أمثلة ذلك . قوله
تعالى « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » قد قال القرطبى : « واختلف
الناس فى تعيين هذا العهد فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين
استخرجهم من ظهروه . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره بإمام بما
أمرهم به من طاعته وتبعية إمام عما نهام عنه من معصيته فى كتبه على السنة
رسوله وقضيمه » ذلك ترك العمل به « وقيل : بل نعتب الأمة على وحدانيته
بالسوات والأرض وسائر المصنعة هو بمنزلة العهد . وقضيمه ، ترك النظر فى
ذلك . وقيل : هو ما عهد إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوة محمد ﷺ
ولا يكتبوا أمره .

ثم قال القرطبى : قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها فى الكفار (٢)
ويقول ابن عطية فى نفس الآية :

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٨٨ آية ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٤٦ آية ٢٧ من سورة البقرة .

واختلف في تعيين هذا العهد فقال بعض للتأولين : هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عبادته بواسطة رسوله أن يوحده وألا يعبدوا غيره . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وألا يكتبوا أمره . قال القاضي هبة الحق رضي الله عنه . فالآية على هذا في أهل الكتاب . وظاهر ما قيل وما بعد أنه في جمع الكفار (١) .

وفي قوله تعالى « يسألونك عن الحزب ولليسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإنيهما أكبر من نفعهما » يقول القرطبي في للسألة الثامنة :

« وقرأ حنزة والكسائي « كثير » بالناء للثلاثة وحيثما أن للنسبي صلى الله عليه وسلم « لمن الحزب ولعن معها عشرة : بائنها ومبتاعها والشتراة له وعاصرها وللعصورة له وساقياها وشاربها وحاملها والحمولة له وآكل عنها » (٢) . وأيضاً فجميع المنافع يحسن منه جمع الأثام ، وكثير — بالناء للثلاثة — يعطى ذلك . وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالياء الموحدة . وحيثهم : أنه القنب في القمار وشرب الحمر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق : وأيضاً فاتفقهم على « أكبر » حجة لكبير بالياء للوحدة وأجمعوا على رفض أكثر — بالناء للثلاثة — إلا في مصحف هبة الله بن مسعود فإن فيه « قل فيهما إثم كبير » وإنيهما أكثر « بالناء مثلثة في الحرفين (٣) » .

(١) تفسير ابن عطية ج ١ ص ٢٥ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عمر باختلاف يسير ج ٨ ص ٩٠ وأخرجه أيضاً عن ابن عمر بلفظ . لعنت الحزب بيننا ، وشاربها الخ ج ٧ ص ١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٠ آية ٢١٩ من سورة البقرة .

ويقول ابن عطية : وقرأ حمزة والكسائي : « كثير » بالثاء للثلاثة — وحبتهما أن النبي عليه السلام « لمن الحر ولمن معها عشرة : بائعها ومبتاعها وللشترأة له وعاصرها وللمصورة له وساقياها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها » . فهذه آثام كثيرة ، وأيضاً تجمع للنافع يحسن معه جمع الآثام . وكثير — بالثاء المثلثة — يعطى ذلك ، وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء بواحدة . وحبتهما أن الذنب في النهار وشرب الحر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق . وأيضاً فاتفقوا على « أكبر » حجة لكبير الباء بواحدة ، وأجمعوا على رفض « أكثر » — بالثاء للثلاثة — إلا في مصحف ابن مسعود فإن فيه قل فيهما إثم كثير وإثمها أكثر « بالثاء مثله في الحرفين » (١) .

وكان القرطبي ينقل أيضاً عن ابن عطية بعض آرائه الخاصة وينسبها إلى نفسه ، والمثال الأول يكشف هذه الحقيقة ، وفي قوله « إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً » الآية يقول القرطبي : « ويشترون به » أى بالكتموم « ثمناً قليلاً » يعنى أخذ الرشاً وسماء قليلاً . لا تقطاع مدته وسوء عاقبته وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلاً . وعقب القرطبي بقوله : قلت : وهذه الآية وإن كانت في الأجبار فإنها تتناول من هلماء المسلمين من كتم الحق مختاراً كذلك ، بسبب دنيا يصيبها (٢) .

وهذه عبارة ابن عطية في نفس الآية يقول ابن عطية : « والتمن القليل :

(١) تفسير ابن عطية نقلنا عن رسالة منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم

ص ٢٤٩ لداكتور عبد الوهاب فايد .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٤ آية ١٧٤ من سورة البقرة .

الدنيا والمكاسب . ووصف بالقلّة لا تقضائه وفقاده — قال الفقيه أبو محمد :
وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأجبار فإنّها تتناول من هداه المسلمين من
كتم الحق مختاراً كذلك بسبب دنيا يصيبها (١) .

ولقد ناقش القرطبي ابن عطية وتعبه في أحيان كثيرة . ومن أمثلة ذلك
قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » الآية
فقد قال القرطبي : قوله تعالى « وتقدس لك » أى نظمك وتمجيدك ونظير
ذكرك عما لا يليق بك بما نسبك إليه اللحدون . وقال الضحاك وغيره :
المعنى لطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : « تقدس لك »
معناه نعلى ، والتقدير الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، وتعقب
القرطبي ابن عطية فقال « : قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تشمل
على التنظيم والتقدير والتسبيح ، وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه
وسجوده « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » (٢) روته عائشة أخرجه
مسلم ، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير ، ومنه قوله تعالى « ادخلوا
الأرض المقدسة » (٣) أى المطهرة . وقال « الملك القدوس » (٤) « يعنى الطاهر
ومثله « بالواد المقدس طوى » (٥) وبيت المقدس سمى به . لأنه المكان الذى
يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر . ومنه قيل للمحل : قدس لأنه يتوضأ فيه

(١) منجى ابن عطية في تفسير القرآن ص ٢٥١ .

(٢) أخرجه مسلم في حكاية الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ج ٣ ص ١٣١

(٣) آية ٢١ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٤ من سورة الحجر .

(٥) آية ١٢ من سورة طه .

ويظهر . ثم قال القرطبي : فالصلاة طهارة للعبد من الذنوب ، والمصل يدخلها على أكل الأحوال لكونها أفضل الأعمال والله أعلم (١) .

وفي قوله تعالى « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً » الآية ، يقول في المسألة التاسعة : قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » قال ابن عطية : وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فننزل النار على ما يتقبل ، ولا تنزل على ما لا يتقبل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم « وتعقب القرطبي هذا القول فقال : قلت : وهذا يحتاج إلى نقل كما ثبت ذلك في الفناء ، وقد روى ابن عباس أنه قال : الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص (٢) .

وفي قوله تعالى « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . يقول القرطبي : للمعنى أى من الشاكين والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته . يقال : امتارى فلان في كذا إذا اهتمضه اليقين مرة والشك أخرى فدافع إحداها بالأخرى . ومنه المراء لأن كل واحد منهما يشك في قول صاحبه ، والامتراء في الشيء : الشك فيه وكذا التمارى ، وأشد الطبرى شاهداً على أن الممترين الشاكون قول الأحنى :

تُدِر على أسوق الممتري ن ركضاً إذا ما للسراب ارجحن

قال ابن عطية : ووم في هذا لأن أبا عبيدة وغيره قال : للممترون هم الذين يمزنون الخليل بأرجلهم همزاً لتجري كأنهم يحتلبون البحرى منها ، وليس في

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٧ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٧ آية ٨٣ من سورة البقرة .

البيت معنى الشك كما قال الطبري . ولم يرتض القرطبي قول ابن عطية : فقال : « قلت : معنى الشك فيه موجود لأنه يحتمل أن يختبر الفرس صاحبه هل هو على ما عهد منه من الجرى أم لا لئلا يكون أصابه شيء أو يكون هذا عند أول شرائه فيجربه ليعلم مقدار جريه . قال الجوهري ومررت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره ، والاسم المربة بالكسر ، وقد تضم ومررت الناقة مَرِيًّا إذا مسحت ضرعها لنَدر وأمرت هي إذا در لبنها والاسم للمربة بالكسر والضم خلط . والمربة الشك وقد تضم وقرى بهما (١) .

وفي قوله تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » بين القرطبي أن قول الله « وتزودوا » أمر باتخاذ الزاد . ثم قال . . . وقال بعض الناس « وتزودوا الرفيق الصالح » وقال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف . والأولى في معنى الآية : وتزودوا لمادكم من الأعمال الصالحة . ولم يرتض القرطبي هذا الرأي فقال : « قلت : القول الأول أصح فإن للراد : الزاد للتخذ في سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرنا . وكما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يَحْجُونَ ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون . فإذا قدموا مكة سألوها الناس ، فأنزل الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » وهذا نص فيما ذكرناه عليه أكثر المفسرين . وأخذ القرطبي يسرد من الأدلة ما يتناقض مع ما ذكره ابن عطية (٢) .

وإلى جانب تأثير القرطبي بابن عطية في هذه المجالات كلها ، فإننا نرى

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣ آية ١٤٧ من سورة البقرة وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١١١ آية ١٦٧ من سورة البقرة .

القرطبي يتوسع فيذكر أكثر مما ذكره ابن عطية في كثير من المجالات ، في مجال التراءات وفي مجال الآفة والنحو ، وفي توجيه التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « وما رزقناهم ينفقون » فقد قال ابن عطية : « قال ابن عباس : ينفقون . يؤتون الزكاة احتساباً لها . قال غيره : الآية في النفقة في الجهاد . وقال الضحاك : هي نفقات كانوا يتقربون بها إلى الله تعالى هل قدر يُسرم . قال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : هي نفقة الرجل على أهله . قال أبو محمد والآية تم الجميع » (١) .

ويقول القرطبي : « واختلف العلماء في المراد بالنفقة ها هنا . فقيل : الزكاة المفروضة . روى عن ابن عباس : لمقارنتها الصلاة وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظم أجراً لدى أنفقته على أهلك » (٢) وروى عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله » (٣) قال أبو قلابة . وبدأ بالعيال . ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يُعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صدقة التطوع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المخصص بها وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة ، احتسبت الفرض والتطوع . . وقيل

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية مكتبة الأزهر آية ٣ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ج ٧ ص ٨٢ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ج ٧ ص ٨١ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٧٩ .

إنه الحقوق الواجبة المعارضة في الأموال ما هذا الزكاة ، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضاً . ولما عدل عن لفظها كان فرضاً سواها . وقيل : هو هام وهو الصحيح لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وقيرها مما يمين في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليه .

فالتربطى وإن لم يخرج عما قاله ابن عطية ، إلا أنه كان أكثر منه توجيهاً لهذه الآراء . وأحب أن أقول في هذا المكان : إن العلماء والمؤرخين إذا كانوا قد صدوا تفسير ابن عطية من جملة ما كُتب في التفسير المأثور . فإن للتربطى كان يطل في هذا اللون من التفسير ولم يكن يوجز فيه ، ولقد لاحظت أنه كان يطل في توجيها الآراء المأثورة أكثر من ابن عطية . وقد تقدم ما يشهد لذلك .

وفي قوله تعالى « أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » الآية تظهر أيضاً هذه الحقيقة . فقد قال ابن عطية :

« واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية . فقيل : إن كفار قريش قالوا لليهود : إنا نسقي الحبيج ونصمر البيت أفنحن أفضل أم محمد ودينه ؟ فقالت لهم أحبار اليهود : بل أنتم . فنزلت الآية في ذلك . وقيل : إن الكفار افتخروا بهذه الأشياء فنزلت الآية في ذلك . وأسند الطبري إلى الثعلبان بن بشير أنه قال : كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أصحابه فقال أحدهم : ما أتعنى بعد الاسلام إلا أن أكون ساقى الحاج . وقال الآخر : إلا أن أكون خادم البيت وطاصره . وقال الثالث : إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله ، فسمعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : اسكتوا حتى أدخل على النبي

ﷺ فاستغفبه . فدخل عليه فاستغفاه . فنزلت الآية في ذلك . وقال ابن عباس . والضحاك : إن للمسلمين عيورا أخرى . بدر . فقال العباس : بل نحن سقاة الحاج وعمار البيت فنزلت الآية في ذلك . وقال مجاهد : أمروا بالهجرة فقال العباس : أنا أسقى الحاج وقال عثمان بن طلحة : أنا حاجب الكعبة فلا أهاجر : فنزلت « أجعلتم سقاية الحاج وعماراة المسجد الحرام » إلى قوله « حتى يأتي الله بأمره » وذكر ابن عطية غير هذا من الآراء التي لا تخرج عن مضمون ما تقدم (١) .

أما القرطبي فإنه بعد أن ذكر بعض سبب نزول الآية . قال : ويقال إن للشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سقاة الحاج وعمار للمسجد الحرام . فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ . فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله ﷺ : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال وهو ما جاء في تصحيح مسلم عن عثمان بن بشير قال . كنت هند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل ما أبالي ألا أعمل بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألا أعمل بعد الاسلام إلا أن أعمار المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم هند منبر رسول الله ﷺ — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستغفرتي فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل « أجعلتم سقاية الحاج وعماراة المسجد الحرام كن آمن بالله واليوم الآخر (١) » إلى آخر الآية . وهنا المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ٨١ نسخة خطية بدار الكتب .

(٢) الحديث أخرجه مسلم « باب فضل الشهادة في سبيل الله » ج ١٣ ص ٢٥ ، ٢٦

في آخر الآية « والله لا يهدي القوم الظالمين » فتعين الإشكال ، وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله ، فانزل الله الآية . وإنما قرأ النبي ﷺ الآية على عمر حين سأله . فظان الراوى أنها نزلت حينئذ . واستدل بها النبي ﷺ ، على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر فاستغنى لهم ، فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه لأنها نزلت في هؤلاء والله أعلم .

فإن قيل معنى هذا أنه يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين . ومعلوم أن أحكامهم مختلفة ، قيل له : لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقد قال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلاطين (١) وشواة ، وتوضع صحيفة وترفع أخرى ولكننا سمعنا قول الله تعالى « أذهبتم طائفتكم من حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » (٢) . وهذه الآية نص في الكفار ، ومع ذلك فقد فهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة . ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإجماع والله أعلم (٣) .

وفي قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » يتعرض ابن عطية للقراءات فيقول : وأجمع السبعة وجهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » وقال ابن عطية هذا أثناء تأييده لرأى من يقول « إن الحمد يخالف الشكر » ولم

(١) سلائق الجلال للشوية ويروى بالصاد .

(٢) سورة الاحقاف .

(٣) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٩١ وما بعدها آية ١٩ من سورة التوبة . وانظر قوا ، الله تعالى ، ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . الآية . في تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٤٦ . وتفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٠٨ آية ٧٥ من سورة التوبة .

يتعرض ابن عطية للقراءات التي في لفظة « الحمد » بأكثر من هذا^(١) ولكن القرطبي يميل في ذكر ما ورد في هذه اللفظة من قراءات ويطلب في توجيهها فيقول « وأجمع القراء السبعة وجهور الناس على رفع الهال من « الحمد لله » وروى عن سفيان بن هيينة ورؤبة بن المعجاج « الحمد لله » ينصب الهال وهذا على إضمار فعل . ويقال « الحمد لله » بالرفع . مبتدأ وخبر ، وسبيل الخبر أن يفيد ذا الغائبة في هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل « الحمد لله » بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قوله : حمدت الله حمداً . إلا أن الذي يرفع « الحمد » يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله . والذي ينصب « الحمد » يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرضاً لهو الله ومفترقه وتعظيماً له وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . ثم قال القرطبي ٥٠٠ « وروى عن ابن أبي عمير » الحمد لله بضم الهال واللام على إتباع الثاني للأول ، ولينجانس اللفظ ، وطلب التجانس في اللفظ كثير نحو : أجودك وهو منحدر من الجبل بضم الهال والجيم قال :

« اضرب الساقين أمك هابل »

بضم النون لأجل ضم الهمزة ، وفي قراءة لأهل مكة « مردفين » بضم الراء إنباهها للميم . وذكر القرطبي أيضاً غير هذا من القراءات^(٢) .

وفي قوله تعالى « وما رزقناهم ينفقون » يتوسع القرطبي عن ابن عطية في مجال اللغة ، بل إن ابن عطية لا يكاد يذكر شيئاً . إذ يقول : « قوله وما رزقناهم ينفقون » كتبت « مما متصلة » وما بمعنى الذي لئلا تكون منفصلة .

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بكتبة الأزهر مودة الفاتحة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٥ وما بهد ها .

لأن الجار والجارور كثيرون واحد ، وأيضا فلما خفيت نون « من » في اللفظ حذفت في الخط . وبعد أن ذكر ابن عطية معنى الرزق عند أهل السنة وللمعتزلة انتقل إلى بيان للراد من قوله « ينفقون » عند علماء السلف . وقد تقدم ذكر ذلك في اللال الأول .

أما القرطبي فإنه يقول : قوله تعالى « وبما رزقناهم » الرزق مصدر رزق يرزق رزقا ورزقا . فالرزق بالفتح : المصدر وبالكسر : الاسم . وجهه أرزاق . والرزق العطاء . والرزقية : ثياب كتان بيض . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة . هكذا قال أهل اللغة . وقال ابن السكيت : الرزق بلفظة أزد شنوءة : الشكر . وهو قوله عز وجل « ويحملون رزقكم أنكم تكذبون » (١) « أى شكركم التكذيب ويقول : « رزقنى أى شكرنى » ثم بين القرطبي أن معنى قوله « ينفقون » يخرجون . وقال : « والإنفاق : إخراج المال من اليد ، ومنه نفق البيع أى خرج من يد البائع إلى المشتري . ونفقت الحماة خرجت ووحها . ومنه النفاقاء لجمع اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى ، ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان . أو يخرج الإيمان من قلبه . وينفق السراويل معروفة . وهو يخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم فنى زادهم . ومنه قوله تعالى « إذا لم يسكتكم » (٢) خشية الإنفاق (٣) » ومنه قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول ابن عطية : « والزكاة فى هذه الآية هى المفروضة ، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها . والزكاة مأخوذة من زكا الشئ إذا نما

(١) - سورة الواقعة .

(٢) - سورة الاسراء .

(٣) - تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة لاهور آية ٤٣ من سورة البقرة .

وزاد، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه ، من حيث ينمو بالبركة وبالأجر الذي ينسب الله به المزكى . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكى فلان أى طهر من دنس الجرحه أو الإغفال ، فكأن الإخراج من المال يطهره من تبة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبي ﷺ سعى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس (١) .

أما القرطبي فإنه يقول فى المسألة الثالثة من المسائل التى ههنا لشرح هذه الآية : « الزكاة » مأخوذة من زكا الشئ إذا نما وزاد يقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ، ورجل زكى : أى زائد الخير ، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى . ويقال : زرع زالك بين الزكاة ، وزكأت الناقة بولدها تزكأ به : إذا رمت به من بين رجلها . وزكا الفرد إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعاً قال الشاعر :

كانوا خساً أو زكاً من دون أربعة لم يخلقوا وجدود الناس تمنع
جمع جد ، وهو الحظ والبخت . تمنع أى ترفع . احتلجت الأرض :
طال نباتها . نخسا : الفرد ، وزكا : الزوج .

وقيل : أصلها الشاء الجليل ، ومنه : زكى القاضى الشاهد . فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الشاء الجليل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكا فلان أى طهر من دنس الجرحه والإغفال . فكأن الإخراج من المال يطهره من تبة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم سعى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس ، وقد قال تعالى

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر آية ٤٣ من سورة البقرة .

» خذ (١) من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها (٢) .

وفي قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » الآية . يقول ابن عطية « والبر يجمع وجوه الخير والطاعات ، ويقع على كل واحد منها اسم بر . » وتنسون « بمعنى تتركون كما قال الله تعالى « نسوا (٣) الله فأنسيهم » ثم انتقل ابن عطية إلى بيان المقصود بهذه الآية ثم قال : وقوله « وأنتم تنلون الكتاب » معناه تدرسون وتقرأون . ويحتمل أن يكون المعنى : تنبغون أى فى الاقتداء بها ، « والكتاب » التوراة ، وهى تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة ، وقوله « أفلا تعلمون أنفسكم » معناه : أفلا تعلمون أنفسكم من مواضع هذه الحال المردية لكم . والمقل : الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه فقال النبير لأنه يمتنه من التصرف ، ومنه المقل أى موضع الامتناع (٤) .

أما القرطبي فيقول فى تفسير قوله تعالى « بالبر » البر هنا الطاعة والعمل الصالح . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر سوق الغنم ومنه قولهم : لا يعرف هراً من بر أى لا يعرف دماء الغنم من سوقها . فهو مشترك . وقال الشاعر :

لا م رب إن بكرا دونكـا يبركـ الناس ويفجرونـكـا

أراد بقوله « يبرك الناس » أى يطيعونك ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :

(١) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٣ .

(٣) آية ٦٧ من سورة التوبة .

(٤) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر آية ٤٤ من سورة البقرة .

العلم والدين ويكرههما . في قوله « زنتسون أنفسكم » . ذكر القرطبي كثيراً
من للماتى الاغوية لكامة « النفس » واستشهد بكثير من الأضمار : ثم قال
في قوله « وأنتم تنلون الكتاب » وأصل التلاوة الاتباع . ولذلك استعمل
في القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض في حروفه حتى يأتي على نسقه يقال
تلوته إذا تبعته تلوا . وتلوت القرآن تلاوة . وتلوت الرجل تلوا إذا خذله ،
والتلية والتلاوة بضم التاء : البقية . يقال : تليت لى من حق تلاوة وتلية
أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتليت حتى إذا تنبته حتى تستوفيه قال
أبو زيد : لى الرجل إذا كان بآخر رمق . وفي قوله « أفلا تعقلون » يقول
القرطبي والمقل : لنعم ومنه هقال البعير لأنه يمنع من الحركة . ومنه العقول قدية
لأنه يمنع لى للفتول من قتل الجاني . ومنه اهقتال البطن والسان . ومنه يقال
للمحصن : مقل . والمقل : تقيض الجهل . والمقل : ثوب أحمر تتخذة لساء
العرب تفشى به الهوادج . قال حلقمة :

هقلا ورقا تكاد الطير تحطفه كأنه من دم الأجواف مدموم

المدوم بالذال المهملة : الأحمر وهو المراد هنا . والمدوم المتلى وضحاً
من البعير وغيره . ويقال : هماضريان من البرود . قال ابن فارس : والمقل
من شيات الثياب ما كان نقشه طولا . وما كان نقشه مستديراً فهو الرقم .
وقال الزجاج المائل من عمل بما أوجب الله عليه فن لم يعمل فهو جاهل (١) .

(١) شرح القرآن ج ١ ص ٣٦٨ وما بعدها

وفي قوله تعالى « والحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم » كتاب الله عليكم ، تعرض ابن عطية لقراءات في قوله « كتاب الله عليكم » وبين أن قراءة الجمهور « كتاب الله » على المصدر المؤكد . ثم قال : وقرأ أبو حمزة ومحمد بن المسيقع الجاني : « كتب الله عليكم » على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى (١) ، ولم يذكر ابن عطية ما قيل من أوجه الإحراب في قوله تعالى « كتاب الله عليكم » أما القرطبي فذكر ما ذكره ابن عطية من القراءات ، وذكر ما قيل من أوجه الإحراب في قوله تعالى « كتاب الله عليكم » وناقش بعضها . وقد تقدم لنا في فصل « النحر والإحراب » ما قاله القرطبي فلا داعي لإعادته .

أما في مجال الفقه فما لا شك فيه أن القرطبي قد توسع فذكر أضعاف أضعاف ما ذكره ابن عطية في هذا المجال . والنظر في السكتابين يدرك من أول وهلة هذه الحقيقة . بل إن تسمية القرطبي لكتابه « بجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان » يكشف هذه الحقيقة ويوضحها فالقرطبي قد بين بهذه التسمية أنه سيمضي بآي الأحكام وسيطيل في شرحها . أما ابن عطية فإنه — كما يقول الدكتور « عبد الوهاب عابد » في رسالة عنه ليس الفرض من تفسيره استنباط الأحكام الفقهية كما هو الشأن في كتب أحكام القرآن — لهذا نجد ابن عطية لا يسرف في ذكر الأحكام الفقهية ولا يشغل نفسه بها كثيراً (٢) .

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٣٨ نسخة خطية بدار الكتب آية ٢٤ من سورة النساء .

(٢) مهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٦١ يتصرف .

وفي مجال الحديث نرى القرطبي يعنى بتخريج الأحاديث التي يذكرها غالباً، على عكس ابن عطية فإنه في كثير من الأحيان كان يذكر الأحاديث دون تخريج لها . ومن الأدلة التي توضح هذه الحقيقة ما ذكره ابن عطية في مسائل البسلة . فقد قال « وروى أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ : تمس الشيطان . فقال رسول الله ﷺ : لا تغفل ذلك فإنه يتعامل هذه ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يصغر حتى يصير أقل من ذباب » (١) .

أما القرطبي فيقول في المسألة الثانية من مسائل البسلة :

وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال « إذا عثرت بك امرأة فلا تغفل تمس الشيطان فإنه يتعامل حتى يصير مثل البيت . ويقول بقوى صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم . فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب » (٢) .

وهندما ذكر ابن عطية بعض الأحاديث التي تفيد أن البسلة آية من الفاتحة تمسها بأن ذلك مردود بالحديث الصحيح الذي يقول الله فيه « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » (٣) .

أما القرطبي فيقول « والأخبار الصحاح التي لا طعن فيها دالة على أن البسلة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا الغل في وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله عز وجل قسمت الصلاة

(١) تفسير ابن عطية ج ١ صفحة حطية بمكتبة الأزهر .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٣) تفسير ابن عطية ج ١ صفحة حدي بمكتبة الأزهر .

يبقى وبين عبيد نصفين ، ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله : حمدنى عبدى وإذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أنفى على عبدى ، وإذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال مجدنى عبدى — وقد مرة فوض إلى عبدى — فإذا قال « إياك نعبد وإياك نستعين » قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المنضوب عليهم ولا الضالين » قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل (١) .

والأمثلة على هذا كثيرة ونكتفى بهذا القدر .

كما كان القرطبي فى نقد الأحاديث وقفات ، ووقفة وقد مر بنا ما يؤيد هذه الحقيقة . صحيح أن القرطبي أورد فى تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والمروضة ، لكن ذلك كان فى أحيان قليلة لا ينقص كثيرا من دقة القرطبي وتفوقه فى هذا الميدان . يبدو أن ابن عطية لم تكن له دقة القرطبي فى هذا المجال

ولقد أيد كل ما ذهب إليه الدكتور « عبد الوهاب فايد » فى رسالته عن ابن عطية فقد قال وهو يتحدث عن منهجه فى الحديث : « وكان منهج ابن عطية فى ذكر الأحاديث النبوية أنه لا يلتزم دائما بتخريج هذه الأحاديث ونسبتها إلى مصادرهما من مصنفات الحديث بل نجده — أحيانا — يُخرِّج الأحاديث ويذكر روايتها ونجده كذلك — فى كثير من الأحيان — يذكر

(١) غير القرضى ج ١ ص ٩٤ والحديث أخرجه مسلم والبيهقي وأبو داود والترمذي
انظر التاج ج ٤ ص ٣٦ .

الأحاديث دون تخريج لها ، أو ذكر لرواتها فيقول مثلا : وفي الحديث كذا
أو روى عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا .

ومن ناحية أخرى لاحظت أن ابن هطية - في مجال الحديث من تفسيره -
لا يلتزم كذلك ذكر الصحيح من الأحاديث ، بل كان إلى جانب ما أورده
في تفسيره من الأحاديث الصحيحة والكثيرة - يذكر في بعض الأحيان
أحاديث في غاية الضعف ، ثم أخذ الباحث يذكر بعض الأسئلة على ذلك .
وأحب أن أسترخص هذه الأسئلة وأبين موقف القرطبي منها حتى يظهر لنا
الفرق بين اللوقفين . . يقول الباحث :

فمثلا يذكر ابن هطية عند تفسير قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحي
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » هذا الحديث فيقول « روى أبو هريرة
قال سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى هلى للنهر قال : وقع في نفس
موسى هل ينام الله عز وجل فأرسل الله إليه ملكا ، فأرّفه ثلاثا . فأعطاه
فارورتين في كل يد فارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وتكاد
يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة اصطفت
يداه فانكسرت الفارورتان . قال : ضرب الله مثلا أن لو كان ينام
لم تسمك السماء والأرض » .

وإذا كان ابن هطية لم يقب على هذا الحديث بكلمة نقد فإن القرطبي
قد تمقبه وبين فساده وبطلانه وقد تقدم لنا ذلك .

ولقد استدل الباحث في قدمه لابن هطية هنا - بما قاله القرطبي فقال :

والحق أن هذا الحديث غير صحيح بل هو ضعيف أو منكر . ومن ثم يقول
القرطبي عنه « ولا يصح هذا الحديث ، ضعفه غير واحد منهم البيهقي » .

ولم يخالف القرطبي في تقديمه هذا علماء الحديث فقد قال ابن كثير من
هذا الحديث « هذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع والله
أعلم » ووصف الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال هذا الحديث بأنه منكر
فقال « أمية بن شبل يمانى له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن
عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً قال : وقع في نفس موسى هل ينال الله » الحديث .
ويقول الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث « ذكره ابن الجوزي في العمل
للتناهي وقال : يشبه أن يكون عكرمة تلقاه من كتب أهل الكتاب » ثم
يقول الباحث : كما أنه عند تفسير قوله تعالى « إنما وليكم الله ورسوله
والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .

بذكر ابن عطية هذا الحديث فيقول « وروى في ذلك أن النبي ﷺ
خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له : هل أعطاك أحد
شيئاً ؟ قال له نعم . أعطاني ذلك الرجل اتقى يعلى خاتماً من فضة وهو راكع
فخطب النبي ﷺ فإذا الرجل اتقى أشار إليه هو على بن أبي طالب رضي الله
عنه فقال النبي ﷺ : الله أكبر ونلا الآية على الناس » .

وذكر القرطبي أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم
بين أن من قال هذا استدلل بما ورد أن سائلاً سأل في مسجد رسول الله ﷺ
فلم يسطه أحد شيئاً . وكان على في الصلاة في الركوع وفي يمينه خاتم فأشار إلى
السائل بيده حتى أخذه .

ولم ينتقد القرطبي هذا الحديث وسكت عنه كما سكت عنه ابن عطية .

ولقد تعقب هذا الحديث كثير من العلماء ، فقال ابن تيمية هـ « أنه موضوع بانفاق أهل العلم » وقال ابن كثير : « هذا الحديث رواه ابن مردويه عن ابن عباس من طريق محمد بن السائب الكلبي وهو منقول ثم ذكر ابن كثير كذلك أن ابن مردويه رواه من حديث هـ ابن طالب نفسه وعمار ابن ياسر وأبي رافع . قال ابن كثير « وليس يصح شيء منها بالسكينة لضعف أسانيدها وجهالة رجالها (١) » .

لكن القرطبي لم يرفع هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ كما فعل ابن عطية بل أتى به موقوفاً على بعض الصحابة والتابعين .

وبعد أن انضح أماننا أن القرطبي تأثر بابن عطية في مجالات كثيرة . وبعد أن انضح أماننا أن القرطبي توسع عن ابن عطية في كثير من المجالات أيضاً ، بعد هذا نقاسم ما معنى قول ابن خلدون « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصين وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاضير كلها — أي تفاضير المنقول — ونحصر ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنهج . وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالشرق (٢) »

نقاسم ماذا تعني عبارة ابن خلدون ؟ .. قد تفيد عبارة ابن خلدون أن القرطبي قد تأثر بابن عطية من حيث المنهج . ولقد استدلل بعض الباحثين بكلام « ابن خلدون » على هذا . ثم قال الباحث : أستطيع أن أقول إن القرطبي في تفسيره

(١) مسجع ابن عطية ص ١١٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٨ .

تأثر تأراً كبيراً - من حيث المنهج - بتفسير ابن عطية في أمور كثيرة منه
الغاية بالمأثور والرأى . إلا أن القرطبي قد تفوق على ابن عطية في ناحية
هامة ، وهي أنه كانت له جهود موفقة كبيرة في تخريج الأحاديث النبوية التي
أوردناها في تفسيره بخلاف ابن عطية فإنه كانت له جهود قليلة في هذا الميدان .
وأيضاً يتضح لمن يطالع كتاب « الجامع لأحكام القرآن » أن القرطبي تأثر
منهجياً بإبن عطية في أمور أخرى تجمع القراءات وتوجيهها والاكتفاء من
الفقه والنحو والإقلال من القصص الاسرائيلي . وهذا هو القرطبي في مجال
القصص يقول « وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين
إلا ما لا بد منه ولا فنى عنه للبين » وهذا كلام يشبه إلى حد كبير
ما يقوله ابن عطية في مقدمة تفسيره فإنه يقول « لا أذكر من النصص إلا
ما لا تنفك الآية إلا به » (١) .

وتأثر القرطبي بإبن عطية من حيث المنهج مسلم به . ولا عيب على
القرطبي إذا تخير تفسيراً حسن المنهج . فاعتنى مثل ما اعتنى صاحبه بالمأثور
وأكثر مثل ما أكثر من القراءات والفقه والنحو . وأضرب كما أضرب
عن كثير من القصص الاسرائيلي . ونسأله أيضاً ماذا تعنى عبارة الدكتور
« آرثر جفرى » التي يقول فيها « وقد صنف - أى ابن عطية - تفسيره
المسمى « الجامع المحرر للصنيع الوجيز في تفسير القرآن العزيز » في الأندلس
وصدره بمنسة في علوم القرآن وكل تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلاً لكثير
مما اشتهر به القرطبي في كتابه « الجامع لأحكام القرآن » . الذي طبع في مصر
في عشرين مجلداً سنة ١٩٣٣ - ١٩٥٠ . ثم استدل بذلك على القيمة العلمية

لتفسير ابن هبة ، وهي ضرورة نشر مقدمته التي قام بتحقيقها فقال : « هذا
نزه دأبل دألمع على الأعربة المعنى لهذا للؤاف وهى ضرورة نشر رسالته
هذه (١) » ماذا تعنى هذه العبارة ؟ إن كان الدكتور « آرثر جفرى » يريد
أن القرطبي تأثر بابن عطية فى مجالات كثيرة فهذا ما نسله له ، وإن كان
يريد أن القرطبي أخذ ما قاله ابن هبة فجعله أصلاً يبنى عليه كلامه فى أغلب
تفسيره ، فهذا ما نقف عنده ليرى مدى صحتة .

لقد تقدم لنا أن القرطبي توسع من ابن عطية فى كثير من المجالات . . .
وليس معنى هذا أن القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية ثم توسع فيه وزاد عليه
بل كما رأينا فى كثير من التنازع السابقة أن ابن عطية لم يذكر ما قاله القرطبي
ولم يتعرض له . وهل معنى هذا أن ما قاله « آرثر جفرى » غير صحيح ؟ . . .
قد يكون القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية فى بعض الأحيان فجعله أصلاً ثم زاد
عليه . . . ففى قوله تعالى « إياك نعبد » يقول ابن عطية : وقوله تعالى « إياك
نعبد » نطق المؤمن به إقرار بالربوبية ونذال وتحقيق لعبادة الله إذ سائر
الناس يعبدون سواء من الأصنام وغير ذلك . وقدم المفعول على الفعل اهتماماً
وشأن العرب تقديم الأهم ، وبذكر أن أهراً بياً سب آخر فأعرض السبب عنه
فقال له الدأب إياك أهنى . فقال له الآخر : وهنك أهرض . ففدما الأهم .
و « نعبد » نقيم الشرع والأوامر مع نذال واستكانة ، والطريق المنذال يقال
له « نعبد » وكذلك البعير . . . وتكررت إياك بحسب أختلاف الفعلين فأحتاج
كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام (٢) .

(١) مقدمتان فى علوم القرآن للدكتور « آرثر جفرى » ، ص ٤

(٢) تفسير ابن عطية نسخة خطية بمكتبة الأزهر سورة الفاتحة .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « إياك نعبد » رجع من الغيبة إلى الخطاب
على التلويح ، لأن من أول السورة إلى هاهنا ، خبراً عن الله تعالى وثناء عليه
كقوله « وسقاهم دهم شرباً طهوراً » ثم قال « إن هذا كان لكم جزاء »
وعكسه « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم » . « نعبد » معناه نطيع والعبادة
الطاعة والتذلل . وطريق معبد إذا كان مدلاً للسالكين قاله الهروي . ونطق
المسكاف به إقراراً بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى إذ سائر الناس يعبدون
سواه من أصنام وغير ذلك .

ثم قال في المسألة الرابعة والعشرين : إن قيل لم قدم المفعول على الفاعل ؟..
فيل له قسم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم ، يذكر أن أهراًياً سب آخر
فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب : إياك أهني فقال له الآخر : وهناك
أعرض ، فتدما الأهم . وأيضاً لتلا بتقديم ذكر العبد والعبادة على المعبود ،
فلا يجوز نعبدك ونستعينك ولا نعبد إياك ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على
كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . قال المجامع :

إياك أدعو فتقبل ملقي واغفر خطايي وكثر ورق

ويروى « ونمر » وأما قول الشاعر :

إليك حتى بلغت إياكا

فتشاذ لا يقاس عليه ، والذوق بكسر الراء من الدراهم وفتحها الل . وكرر
الاسم لتلا يتوهم « إياك نعبد ونستعين غيرك » (١) .

(١) ضد القرطبي ج ٩ ص ١٤٥ وب يدها .

وذكر قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » يقول ابن عطية « التفسير : حب العجل ، والمعنى جعلت قلوبهم تشربه وهذا تشبيه وبجاز عبارة عن تمكن أمر العبد في قلوبهم » (١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » أى حب العجل والمعنى جعلت قلوبهم تشربه وهو تشبيه وبجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم « وفي الحديث تعرض الفتن على القلوب كالخصير هوداً هوداً فأى قلب أشربها نكت فيه فكنت سوداء » الحديث خرجه مسلم ، يقال أشرب قلبه حب كذا . قال زهير :

فمحوت منها بعد حب داخل والحب تشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء ينقلل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والضماء مجاور لها غير منقلل فيها ، وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال في زوجته هثمة وكان هتب عليها في بعض الأمر فعلقها وكان محباً لها (٢) :

تغلغل حب هثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ مرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيرو لو أن إنساناً بطير (٣)

وفي قوله تعالى « بلى من كسب سيئة » يقول ابن عطية « وبلى رد بعد

(١) تفسير ابن هادي ج ١ ص ١٧٧ آية ٩٤ من سورة الفرقة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم عن حذيفة ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

التي بمنزلة سم بعد الإيجاب « وقتل الكوفيون أصله : بل التي للاضراب
 من الأول ، وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها وضمت الياء . معنى
 الإيجاب والإنعام بما يأتي بعدها . »

وقال سيبويه : هي حرف مثل بل وغيره . وهي في هذه الآية رد لقول
 بني إسرائيل « لن نمسنا النار » فرد الله تعالى عليهم وبين انخلود في النار
 والجنة بحسب الكفر والإيمان ^(١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « بل » أي ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه :
 ليس « بل » و « نعم » استمخ ، وإنما هما حرفان مثل بل وغيره . وهي رد
 لقولهم : لن نمسنا النار . وقال الكوفيون : أصلها . بل التي للاضراب من
 الأول زيدت عليها الياء ليحسن الوقف ، وضمت الياء معنى الإيجاب والإنعام .
 فبل تدل على رد الجحد والياء تدل على الإيجاب لما بعد قالوا : ولو قال قائل :
 ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم لكان للغي لا ، لم آخذ ، لانك حققت النفي
 وما بعده فإذا قلت : بل ، صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل
 لصاحبه : مالك هل شيء فقال الآخر : نعم كان ذلك تصديقا ، لأن لا شيء له
 عليه ، ولو قال « بل » كان ردحا لقوله وتقديره : بل لي عليك . وفي التنزيل
 « أأنت يريكم قالوا بل ^(١) » ولو قالوا نعم الكفروا ^(٢) .

وفي كثير من الأحيان بل وفي أغلبها كانت تظهر شخصية القرطبي قوية

(١) تفسير ابن هبة نسخة مصورة بدار الكتب من ١١٤ آية ٤٢٢ من سورة القرة .

(١) آية ١٢٢ من سورة الاحراف .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢٤ ص ١١ .

مستقلة وقد تقدم اما في أول الفصل ما يؤيد ذلك . ونسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التي توضح هذه الحقيقة .

في قوله تعالى « إياك نعبد » ذكر القرطبي كثيراً من القراءات وناقش بعضها ولم يذكرها ابن عطية ، بل لم يتعرض للقراءات في قوله « إياك » أصلاً (١) .

وفي قوله تعالى « إنا نحن مصلحون » يقول ابن عطية :

« ونحن اسم من ضائر المرفوع مبني على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع لواحد المعظم والاثني والجماعة ، فأعطي أسنى الحركات وأيضاً فلما كان في الأغلب ضمير جماعة وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطى الضمة إذ هي أخت الواو (٢) .

ويقول القرطبي : قوله « نحن » أصل « نحن » نحن قابلت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء قاله هشام بن ماوية النحوي . وقال الزجاج « نحن لجماعة » ومن علامة الجماعة الواو . والضمة من جنس الواو . فلما اضطروا إلى حركة « نحن » لاسقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة قال : فلما ضموا وار الجماعة في قوله عز وجل « أولئك الذين اشتروا الضلالة » وقال محمد بن يزيد : « نحن » مثل قبل وبعد لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر . فأنا لواحد . « ونحن » للتنبيه والجمع . وقد يجزى به المتكلم عن نفسه في قوله : نحن قنا . قال الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم (٣) »

(١) عـد القـطـبـي ج ١ ص ١٤٧ وقد تقدم ذلك في فصل القراءات .

(٢) معجم ابن عطية نسخة مصورة بدار الكتب ص ٣٥ .

(٣) آية ٢٧ من سورة الزحرف .

« والمؤنث في هذا إذا كانت متسككة بمنزلة الذكر . تقول المرأة : قت
وذعبت وقنا وذعبنا . وأنا فالت ذلك ونحن فماننا ، هذا كلام العرب
فأعلم (١) » .

فإذا كان الدكتور « آرثر جفرى » يريد بمبارته أن تفدير ابن هامية كان
أصلاً لأغلب تفسير القرطبي في هذه العبارة شيء من المبالغة .

على أن شخصية القرطبي تظهر قوية في أنه كان — أحياناً — يمزج أقوال
المفسرين ويعرضها في صورة متأسكة لاخال فيها ولا اضطراب . ففي قوله
تعالى « يا بني إسرائيل » يقول القرطبي « قوله تعالى « يا بني إسرائيل » نداء
مضاف علامة التنصب فيه الباء وحذفت منه النون ، للإضافة . الواحد : ابن
والأصل فيه بنى . وقيل : بنو : فمن قال الحذوف منه واو . احتج بقولهم النبوة
وهذا لا حاجة فيه لأنهم قالوا : للفتوة . وأصله الباء . وقال الزجاج : الحذوف
منه هندی ياء كأنه من بنيت . الأخفش : أختار أن يكون الحذوف منه الواو
لأنه حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بين النبوة . والتفسير بنى ، قال الفراء
يقال : يا بني ويا بني لفتان مثل يا أبتَ ويا أبتَ وقرى بهما . وهو مشتق من البناء
وهو وضع الشيء على الشيء . والابن فرع الأب وهو موضوع عليه (٢) .

وهذا النص قد نقله القرطبي عن النحاس والمهدوى .

يقول النحاس في إهراب القرآن :

« يا بني » نداء مضاف علامة التنصب فيه الباء . وحذفت منه النون للإضافة .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) إعراب القرآن ورقة ٦ .

الواحد : ابن والأصل منه بنى وقيل فيه : بنو ولو لم يحذف منه لقبيل بنا .
كما يقال عصا . فمن قال المحذوف منه واو احتج بقولهم البنوة وهذا لاحجة فيه ،
لأنهم قد قالوا : الفتوة ، قال أبو جعفر : سمعت أبا إسحاق يقول : المحذوف منه
هندي ياء . كأنه من بنيت (١) .

ويقول المهدوي : في نفس الآية : «الابن مشتق من البناء وهو وضع الشيء
على الشيء فالابن فرع الأب وهو موضوع عليه . وأصل ابن قيل : بنى وقيل :
بَنُو : وقيل : بَنَى . وقيل : بَنُو . واختيار الأخفش أن يكون المحذوف منه
الواو لأن حذفها أكثر لنقلها (٢) .

فلم لا يقال إن القرطبي قد مزج أقوال ابن عطية — في بعض الأحيان —
بأقوال غير من المفسرين . بدل أن يقال : القرطبي قد أخذ تقدير ابن عطية
وارتكب عليه وجعله أصلاً لأغلب تفسيره أو أكثره . فالقرطبي قد مزج قول
ابن عطية في قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » يقول الماوردي (٣) .
وفي قوله تعالى « بلى من كسب سيئة » مزج ما قاله ابن عطية بما قاله الانحاس .
في إعراب القرآن (٤) .

وهل كل فني عبارة الدكتور « آثر جفري » مبالغة إن كان يريد بها
ما ذكرناه . فإن كان يريد أن القرطبي تأثر بابن عطية فهذا ما نسله له .

(١) إعراب القرآن ورقة ٦ .

(٢) التخصيص ورقة ٥ نسخة خطية بدار الكتب رقم ٨٧ .

(٣) انظر تفسير الماوردي ورقة ١٣ .

(٤) انظر إعراب القرآن ورقة ٩ .

الخاتمة

فقد صاحبت «أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي» أكثر من أربع صدقات حاولت خلالها أن أتعرف على حياته، وعلى نشأته، والبيئة التي أحاطت به. كما حاولت في هذه المدة أن أكتشف عن منهجه في التفسير من خلال كتابه الكبير «الجامع لأحكام القرآن» وكان من نتيجة هذه المصاحبة وهذه الدراسة الطويلة كتابة هذا البحث المتواضع الذي جاء في ثلاثة أبواب ولقد كان الباب الأول دراسة تاريخية للقرطبي، وبيئته التي أحاطت به — ورغم أن المراجع التاريخية أهملت حياة القرطبي الأولى وأسمرته التي عاش فيها، كذلك أهملت هذه المراجع، حياة القرطبي في شبابه وموقفه من أحداث عصره، وحياته عندما قدم إلى مصر واستقر بالصعيد. رغم كل هذا — فإني حاولت أن أقدم للقارئ شيئاً عن حياة هذا الشيخ الجليل، وعن أبيه — وعن نشأته الأولى، وعن قدومه إلى مصر. وهذا الشيء وإن لم يكن كثيراً فإنه قد يكشف بعض القدوس الذي أحاط بالقرطبي.

وعندما تحدث عن أخلاقه وثقافته، توصلت إلى أن زهد القرطبي الذي أجمع المؤرخون عليه لم يكن زهداً في حلال الله، وإنما كان بمعنى أنه لم يجعل الدنيا هدماً له وغاية، وناقشت ما يتصل بذلك من بعض القضايا.

أما التلمذة على القرطبي، فهي سجل مطوي لم أستطع أن أفصح غلافه. حتى التلميذ الوحيد الذي ذكره المؤرخون وهو «شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن فرج» لم أستطع أن أجزم هل هو «شهاب الدين أبو العباس أحمد»

ابن فرح الأشبيلي ، الذي ترجم له كثير من المؤرخين أم لا . ولكن أثره
احتمالاً مؤيداً ببعض القرائن فقلت على ضوءها : قد يكون « ابن فرح » الذي
ذكره للأورخون تلميذاً للقرطبي وولداً له هو « ابن فرح الأشبيلي المحدث »
ولقد حاولت أن أكشف عن عدد مؤلفات القرطبي ، وأن أحدد أما كن
وجودها فتوصلت إلى أغلب ذلك . ولما تناولت عقيدة القرطبي وبيئت أنها
كانت سنية أشعرية ناقشت بعض المؤرخين والباحثين الذين يزعمون أن
الأندلس ، كانت قبل ظهور « ابن تومرت » سنية صليبية .

أما الباب الثاني : فقد كان دراسة لمصادر القرطبي ، وبيان منهجه الذي
سار عليه في تفسيره ، وإبراز القيمة العلمية لهذا التفسير ومن تأثر به من
اللفسرين . ولقد كانت مصادر القرطبي كثيرة ولكنني حاولت أن أبرز
مدى تأثير القرطبي بأهم هذه المصادر . ولقد اقتضى ذلك مني أن أفتش طويلاً
في بطون المخطوطات للقارنة وللراجحة وأن أبحث عن كل مصدر أشار إليه
للأهرف هل هو مطبوع أو مخطوط أو حدث عليه يد الزمن فافتقده الباحثون
والدارسون . وخرجت من هذه الدراسة ، بأن القرطبي كانت له شخصية
مستقلة ينتقد بها ما لا يرتضيه ، ويقر ما يراه الحق والصواب . غير أنني قد
أخذت على القرطبي — إذا جاز لي أن ينتقد مثله — أنه ينقل أحياناً عن
المعلم ويأخذ أقوالهم التي قالوها من قبل أن يعرف القرطبي نفسه ، ولا يشير
إلى ذلك ، وأنه لم يوف بما شرطه على نفسه في مقدمة كتابه حيث قال
« وشرطني في هذا الكتاب إضافة القول إلى قائله . . . فإنه يقال من يركه
المعلم أن يضاف القول إلى قائله » .

أما عن منهجه : فإنني قد بينت مواقف القرطبي من قضية التفسير المأثور
والتفسير بالرأى وأنه سلك مسلكاً محموداً حيث دعا إلى التفسير بالرأى ولم

يهمل التفسير المأثور بل بين أنه الأساس الذي يرتكز عليه المفسر . ثم بينت أنه التزم منهجا موقفا في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، أما من موقفه من التفسير المأثور عن الصحابة فبينت أنه كان لا ينتقل إليه بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، بل كان يجمع بين أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من المفسرين ، ويقارن بين هذه الأقوال جميعا ويختار منها ما تؤيده الأدلة والقرائن . ثم ناقشت ما يمكن أن يوجه إلى القرطبي من نقد حول هذا المسلك . وعندما تناولت موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة ، بينت أن القرطبي قد استخدم القراءات الشاذة في كثير من الأفراض وأنه قد انتقد مسلك من يرد القراءات المتواترة ، لأنها لا توافق قواعد النحويين وآراءهم ، ولقد أجاد القرطبي في دفاعه ووفى هذا النقد حقه .

وفي مجال اللغة بينت أن القرطبي استخدم كثيراً من المباحث اللغوية في توضيح الآيات ، وكان من هذه المباحث : الاشتقاق ، والاشتراك والاطلاق والتقييد . وأنه قد أحسنكم إلى اللغة في كثير من المجالات ، فاحتكم إليها في مهاجمة للمتنزلة ، وفي مناصرته لبعض المذاهب الفقهية ، ولترجيح بعض القراءات . كما أنجبه في تفسيره إلى النحو ، فذكر مذاهب النحويين وآراءهم ، وحاول من خلال ذلك أن يكشف المعنى وأن يوضحه . ولقد توصلت إلى أنه قد رد بعض المذاهب والآراء النحوية ؛ لضعفها أو لإخلالها بالمعنى . وأنه استشهد بالشعر في كثير من الأفراض ورغم هذا لم ينزل في استشهاده إلى طبقة الشعراء محدثين اللهم إلا في مواضع قليلة . ثم بينت أن مسلك القرطبي في ذلك مسلك لا ينتقد فيه ولا يلام عليه ، كذلك توصلت إلى موقف القرطبي من الشعر للصنوع والمجهول الذي لا يعرف قائله وبينت أن موقفه لا يختلف مع ما قاله علماء اللغة والنحو ، ولقد تبين لي أن القرطبي يميز

الاستشهاد بالحديث في مجال القريب والنحو وإن كان الحديث مروياً بالعمى .
وعندما تناولات البلاغة في تفسير القرطبي . بينت أنه كان لا يتوسع في
الأسرار البلاغية ، لأن الأندلسيين لم يهتموا بهذه الدراسة . ورغم أن القرطبي
قد انتقل إلى مصر ، وكانت مصر كغيرها من بلاد المشرق موطناً خصيباً
لدراسة البلاغة . إلا أن القرطبي لم تهتم به هذه الدراسة ، بل ظل على طبيعته
الأندلسية لا يميل إليها ولا يهتم بها .

أما منهج القرطبي في التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية ، فقد كان
يرفضه لأنه لا يوافق الشرع ولا ائمة . أما التفسير الرمزي الذي استعملته
الصوفية فقد كان يقبله أحياناً ويرفضه أحياناً أخرى . كان يقبله إذا لم يتناقض
مع الشرع والائمة . وكان يرفضه إذا تناقض معهما . ومن أشهر مصادر منه
التفسير الصوفي : تفسير القرآن العظيم لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري .
حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي .

ولقد توسع القرطبي في الأحكام الفقهية وذر كثيرًا من اختلافات
المذهبية . وبعد أن استعرضت منهجه في ذلك ، توصلت إلى أنه كان لا يتعمد
لمذهبه المالكي ، وأنه كان عفاً لساناً في مناقشاته ، وأنه كثيراً ما رد
هجوم ابن العربي وتطاوله على العلماء . ولقد تعرض القرطبي لأصول الفقه
في تفسيره ، فذكر كثيراً من أدلته وقواعده وبين أثناء عرضه للأحكام كيف
تبنى الفروع عليها . ومن هذه الأدلة والقواعد : النص ، الظاهر ، العرف ،
والإجماع ، تخصيص عام بقرآن بالاسم المشهورة وثلاثة أركان ،
القرآن يظهر الأحكام ، فليس من أهم القرآن بالقرآن ، الأدلة ، فروع الأحكام ،
الاستحسان والمصابقة . . . الخ .

قواعد الأصول وأدلته ، إلا أنه لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل هرض لها في صورة تساعد على فهم الأحكام وتبين طريقة استنباطها .

ولقد ذكر القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث ، وكان يضيفها غالباً إلى من خرجها من المحدثين ، ولم يكن القرطبي حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره فقط ، بل كان ينتقدها نقداً علمياً فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتمديد فيها من جهة سندها أو من جهة متنها . غير أني أخفت عليه أنه كان — رغم وقافته الموفقة التي تشهد بطول بابه في علم الحديث رواية ودراية — يورد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويسكت عنها ولا يعقب عليها . كما كان يورد بعض الإسرائيليات والأخبار الخرافية التي لا يقبلها عقل ، ولا يليق بمثله أن يوردها في تفسيره . ولقد كان لتفسير القرطبي أثر فيمن جاء بعده من المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي «ابن كثير ، والشوكاني» ولقد بينت ذلك وبينت القيمة العلمية لتفسيره .

وفي الباب الثالث : توصلت إلى أن القرطبي تأثر بابن عطية في كثير من المجالات ولكنه توسع عنه أيضاً في هذه المجالات التي تأثر فيها بابن عطية . ولقد اقتضى ذلك أن أقوم بمقارنة بين التفسيرين ، وأن أقول في النهاية : إن عبارة ابن خلدون التي يقول فيها « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفسير كلها — يعني تفاسير المنقول — وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى ، وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر المشرق » وعبارة الدكتور آرثر جفرى التي يقول فيها « وقد صنف — أي ابن عطية —

تفسيره المسمى «الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير القرآن العزيز» في الأندلس،
ومصدره مقدمة في علوم القرآن . وكان تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلاً
للكثير ممن اشتهر به القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» إن هاتين
المبارتين لا يفهم منهما ، إلا أن القرطبي تأثر بابن عطية ، أما أن القرطبي
نقل تفسير ابن عطية أو توسع في أصوله التي نقلها عنه ولم يأت بأكثر من
ذلك . فهذا مردود من أساسه .

وأخيراً فهذه رسالتى عن «القرطبي ومنهجه في التفسير» أرجو من الله
تبارك وتعالى أن تنال القبول وأن ينفع بها ، إنه سميع الدعاء . والحمد لله
رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف النبيين والمرسلين .

المراجع والمصادر

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) ابن حزم : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٣) ابن تيمية : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٤) ابن تيمية : الدكتور محمد يوسف موسى — سلسلة أعلام العرب .
- (٥) أبو حنيفة : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٦) أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة المربية وآثاره في النحو والقراءات : الدكتور عبد الفتاح شابي — مطبعة نهضة مصر بالقاهرة .
- (٧) الاتقان في علوم القرآن : السيوطي — مطبعة الحلبي .
- (٨) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية : الدكتور عبد المال سالم طبع المجلس الأعلى للشتون الإسلامية .
- (٩) أحكام القرآن : ابن العربي تحقيق الأستاذ محمد البجاوي طبع هيسى الحلبي .
- (١٠) الاحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب — تحقيق الأستاذ محمد هبة الله هنان — دار المعارف .
- (١١) الأدب الأندلسي : الدكتور أحمد هيكل — دار المعارف .
- (١٢) الادب في العصر الايوبي : الدكتور محمد زغلول سلام — دار المعارف .
- (١٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير — جمعية المعارف سنة ١٢٨٩ .

(١٤) الاسرائيليات في التفسير والحديث : الشيخ محمد حسين الذهبي . جمع
البحرث الإسلامية .

(١٥) الاستقصا في أخبار دول المغرب الاقصى : أحمد بن خالد السلاوي —
طبع المصرية .

(١٦) الإسلام والحضارة العربية : الأستاذ محمد كرد علي — مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر .

(١٧) أصول الفقه : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .

(١٨) أصول الفقه : الشيخ محمد الخضرى — المكتبة التجارية الكبرى .

(١٩) أصول السرخسى : بتحقيق الأستاذ أبو الوفا الافغانى .

(٢٠) إيجاز القرآن : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى — طبع الاستقامة .

(٢١) الإعلام : خير الدين الزركلى — طبع الخانجى .

(٢٢) أعلام الإسكندرية : الدكتور جمال الدين الشيال — دار المعارف .

(٢٣) الانصاف في مسائل الخلاف : السكّال بن الانبارى — تحقيق الأستاذ محمد
عفى الدين عبد الحميد — طبع السعادة .

(٢٤) الانصار بواسطة عقد الامصار : ابن دقاق — طبع بولاق .

(٢٥) الاماع : القاضي عياض اليمسبى تحقيق الأستاذ سيد مقرر —
دار التراث .

(٢٦) الأم : الإمام الشافعى — طبع الحلبي .

(٢٧) بين الدين والفلسفة : الدكتور محمد يوسف موسى — دار المعارف .

- (١٨) : آية والهيبة : الحافظ ابن كثير — طبع بيروت .
- (٢٩) : البلاغة والأدب : الشيخ إبراهيم الصباغ — دار التأليف .
- (٣٠) : النجاشي الجامع للأصول في أحاديث الرسول : الشيخ منصور هادي ناصف — طبع هبسي الحلبي .
- (٣١) : نايق اللغة وصحاح العربية : أبو نصر الجوهري — طبع سنة ١٢٨٢ هـ .
- (٣٢) : تاريخ المرابطين والموحدين : المستشرق يوسف أشياخ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- (٣٣) : تاريخ مصر : ابن إياس — الاميرية .
- (٣٤) : تاريخ القرآن : الدكتور عبد الصبور شاهين — طبع دار العلم .
- (٣٥) : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : الدكتور أحمد شلبي .
- (٣٦) : تاريخ علماء الأندلس : ابن الفرضي — دار التراث .
- (٣٧) : تاريخ آداب العرب : الرافعي — طبع سنة ١٩٤٠ م .
- (٣٨) : تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان — دار العلم للملايين بيروت .
- (٣٩) : تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة تحقيق الأستاذ سيد صقر — طبع الحلبي .
- (٤٠) : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي : محمد بن عبد الرحمن المبارك كنفوي — طبع العلمية بالمدينة المنورة .
- (٤١) : تدريب الراوي : السيوطي ، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد العلي — طبع العلمية بالمدينة المنورة .
- تدريب الراوي : السيوطي — طبع الخيرية .

(٤٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة — القرطبي : مطابع
مذكور وأولاده .

(٤٣) تذكرة الحفاظ : الحافظ شمس الدين محمد الذهبي — طبع الهند .

(٤٤) التذكار في أفضل الأذكار : القرطبي — طبع الخانجي .

(٤٥) التفسير والمفسرون : الشيخ محمد حسين الذهبي — طبع دار الكتب
الحديثة .

(٤٦) تفسير التحرير : العلامة الطاهر بن عاشور .

(٤٧) تفسير القرآن العظيم : الحافظ ابن كثير — طبع هبى الحلبي .

د د د : د د د — طبع الشعب

(٤٨) التكملة : ابن الأبار للقضاة — طبع مجريط .

(٤٩) الترميز والاشتقاق : الأستاذ عبد القادر بن مصطفى المغربي — مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٥٠) جامع البيان في تفسير القرآن : ابن جرير الطبري تحقيق الأستاذين
محمود شاكر وأحمد شاكر — دار المعارف .

(٥١) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي — دار الكتب الحديثة .

(٥٢) الحجة في هلال القراءات السبع : أبو هلى الفارسي تحقيق الدكتور
عبد الحليم النجار وزملائه — نشر دار الكتب العربي .

(٥٣) حسن المحاضرة : السيوطي — مطبعة إدارة الرضن .

(٥٤) الحركة الفكرية في مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي : الدكتور عبد القليل حمزة .

(٥٥) خزانة الأدب : البغدادي تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون طبع السلفية .

(٥٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : المستشرق آدم متز :
تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده — مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر .

(٥٧) الحديث والحديثون : الشيخ محمد أبو زهرة — مطبعة مصر .

(٥٨) الخصائص : ابن جني — دار الكتب .

(٥٩) الغلط التوفيقية : علي مبارك — الاميرية .

(٦٠) خطط الشام : الاستاذ محمد كرد علي — المطبعة الحديثة بدمشق .

(٦١) الغلط : المقرئ — طبع بولاق .

(٦٢) دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه —
طبع بيروت .

(٦٣) الدرر السكينة في أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني — طبع الهند .

(٦٤) الدعوة الموحدية : الدكتور عبد الله هلام .

(٦٥) دول الاسلام : الذهبي .

(٦٦) الديباج المذهب : ابن فرحون — طبع السعادة .

(٦٧) الروضتين في أخبار الدولتين : أبو شامة المقدسي — وادي النيل .

(٦٨) زهر الربى على عجتي السائي : السيوطي .

(٦٩) سنن ابن ماجه بإضافة السندی — طبع الميمنية .

- (٧٠) سيرة ابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وزلاؤه - طبع مصطفى الحلبي .
- (٧١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن الصاد - نشر القدسي .
- (٧٢) الشعر والشعراء : ابن قتيبة - طبع الخالجي .
- (٧٣) شرح تنقيح الفصول : التتائي .
- (٧٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : السلامة محمد بن محمد بن مخلوف طبع السلفية .
- (٧٥) صحيح البخاري بمحاشية السندی - طبع الصبانية .
- (٧٦) صحيح مسلم بشرح النووي - طبع محمود توفيق .
- (٧٧) صحيح الترمذي بشرح ابن العربي - المطبعة المصرية .
- (٧٨) الصاحب في فقه الفقه : أحمد بن فارس - طبع السلفية .
- (٧٩) طبقات الشافعية : السبكي - طبع الحسينية .
- (٨٠) الطبقات الكبرى : ابن سعد - طبع لبنان .
- (٨١) طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : ابن سلام - نشر المكتبة المحمودية للتجارية .
- (٨٢) طبقات المفسرين : السيوطي طبع لبنان .
- (٨٣) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : جمال الدين الادفوي - طبع الجالية .
- (٨٤) ظهر الاسلام : الدكتور أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- (٨٥) المعمر المالكي في مصر والشام : الدكتور حسن ابراهيم حسن - دار النهضة المصرية .

(٨٦) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس : الاستاذ محمد عبد الله

هنان - لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٨٧) عصر سلاطين المماليك : الدكتور محمد رزق سليم - مكتبة الآداب

باجنابيز .

(٨٨) الهدية : ابن رشيح القيرواني - تحقيق الاستاذ محمد محي الدين .

(٨٩) في الأدب الأندلسي : الدكتور جودت الركابي - طبع دار المعارف .

(٩٠) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني : الاستاذ

الساهاتي - مطابع الاخوان .

(٩١) فتح القدير : الشوكاني - طبع مصطفى الحلبي .

(٩٢) غزوة الشعراء : الاصمعي - تحقيق الاستاذ محمد عبد للنعم خفاجي .

(٩٣) الفخر الرازي ومنهجه في التفسير : الشيخ علي العمادى - طبع

المجلس الأعلى .

(٩٤) الزرق بين الفرق : عبد القاهر البقداوى - تحقيق الاستاذ محمد محي الدين

عبد الحميد - طبع مصطفى الحلبي .

(٩٥) في فلسفة ابن رشد : الدكتور عبد الرحمن بيسار - دار الكتاب

العربي .

(٩٦) فقه الألفه - الدكتور علي عبد الواحد واني - لجنة البيان العربي .

(٩٧) فهرسة ابن خير : ابن خير الأشبيلي - طبع سرقةطة .

- (٩٨) فوات الوفيات : ابن شاكر السكتي — الأميرية .
- (٩٩) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : الدكتور عبد المال سالم طباعة دار المعارف .
- (١٠٠) القراءات القرآنية : الدكتور عبد المصبور شاهين .
- (١٠١) قرطبة في التاريخ الإسلامي : الدكتور جودة هلال — المكتبة الثقافية .
- (١٠٢) القاموس المحيط : الفيروز آبادي — للمكتبة التجارية الكبرى .
- (١٠٣) الكامل : ابن الاثير .
- (١٠٤) الكافي الشاف في تفريج أحاديث الكشاف : ابن حجر العسقلاني . مطبوع على هامش الكشاف .
- (١٠٥) الكشاف : الزغشري — طبع الاستقامة .
- (١٠٦) كشف الظنون : حاجي خليفة — طبع أمستربول .
- (١٠٧) الآلة للصنوعة في الأحاديث الموضوعة : السيوطي — طبع التجارية .
- (١٠٨) لسان العرب : ابن منظور — طبع الأميرية .
- (١٠٩) اللهجات العربية : الدكتور عبده الراجحي — طبع دار للمعارف .
- (١١٠) منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود : الأستاذ الساعاتي مطابع الأخوان .
- (١١١) مجلة الرسالة عدد رقم ٨٥٨ لسنة ١٩٤٩ م .
- (١١٢) مجلة المجتمع العلمي العربي — المجلد المنشور سنة ١٩٤٥ م .
- (١١٣) مختار الصحاح : الرازي — ضبع الأميرية .

- (١١٤) مرآة الجنان : اليافعي .
- (١١٥) معصر في عصر الايوبيين : الدكتور السيد البابز المري .
- (١١٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب : المراكشي ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد المريان — طبع المجلس الأهلي .
- (١١٧) مجمع المؤلفين : عمر رضا كحالة — طبع الترقى بدمشق .
- (١١٨) مجمع البلدان : ياقوت الحموي — مطبعة السعادة .
- (١١٩) معرفة السنن والآثار : البيهقي تحقيق الأستاذ سيد صقر — طبع المجلس الأهلي .
- (١٢٠) المغني عن حل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار الحافظ العراقي . مطبوع على هاشم الإحياء لغزالي — طبع الاستقامة .
- (١٢١) مفتاح السعادة : طاش كبرى زادة تحقيق كمال بكري — طبع دار الكتب اخدينة .
- (١٢٢) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب : ابن واصل — تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — لجنة التراث .
- (١٢٣) مقدمة في أصول التفسير : ابن تيمية — طبع الترقى .
- (١٢٤) المقدمة : ابن خلدون — طبع التقدم .
- (١٢٥) مقدمتان في علوم القرآن : الدكتور آرثر جفري : نشر الخانجي .
- (١٢٦) الزهر : السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل وزملائه — طبع الخالجي .
- (١٢٧) المدارس النحوية : الدكتور شوقي ضيف — طبع دار المعارف .

- (١٢٨) مالك : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (١٢٩) مناهل العرفان : الشيخ عبدالمعظم الزرقاني — طبع عيسى الحلبي .
- (١٣٠) مقاييس الفقه — ابن فارس — تحقيق عبد السلام هارون — طبع عيسى الحلبي .
- (١٣١) منهج المحدث في تفسير القرآن وبيان إجهازه : الدكتور مصطفى الصادق الجويني — طبع دار المعارف .
- (١٣٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي — طبع السعادة .
- (١٣٣) لذة الألباء في طبقات القنوين والأدباء — أي النحويين — عبد الرحمن ابن محمد الانباري — طبع سنة ١٢٩٤ هـ .
- (١٣٤) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : الشيخ محمد الطنطاوي — وادي الملوكة .
- (١٣٥) ليل الابتهاج بتطريز الهيباج : لبابا التنبكي « وهو مطبوع على هاش الهيباج » .
- (١٣٦) نشأة الفكر الفلسفي : الدكتور علي سامي للنشار — طبع دار المعارف .
- (١٣٧) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن — نشر الوكالة الشرقية للثقافة بالاسكندرية .
- (١٣٨) فقه الطيب : المقرئ — طبع الأزهرية .
- (١٣٩) هدية المارفين : البغدادي .
- (١٤٠) وفيات الأعيان : ابن خلد كان ، تحقيق محمد محي الدين — نشر مكتبة النهضة المصرية .

المخطوطات

- (١٤١) نهج ابن عطية المفسر : الدكتور عبد الوهاب فايد : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٢) ابن الجوزي المحدث : الدكتور أبو الملا هلى أبو الملا : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٣) الاسرائيليات فى كتب التفسير : الدكتور رمزي نمناع : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٤) الحرر الوجيز فى تفسير القرآن العزيز : ابن عطية : نسخة خطية غير كاملة بمكتبة الأزهر رقم ١٦٨ تفسير . ونسخة خطية غير كاملة بدار الكتب برقم ٩٥ تفسير .
- (١٤٥) أحكام القرآن : لـ كيا الطبرى — نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٩٨ تفسير .
- (١٤٦) الاستذكار : ابن عبد البر — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٤ حديث .
- (١٤٧) التمهيد : ابن عبد البر — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٣٩٥ حديث .
- (١٤٨) الأحكام الصغرى : ابن عبد الحق الاشيلي — نسخة خطية بدار الكتب برقم ١٣١٤ حديث .
- (١٤٩) حقائق التفسير : السلى — نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠ تفسير .
- (١٥٠) سير أعلام النبلاء : الذهبي — نسخة مصورة بدار الكتب رقم ١٢١٩٥ تاريخ .

- (١٥١) تاريخ الإسلام : الذهبي — نسخة خطية برقم ٤٢ تاريخ .
- (١٥٢) إعراب القرآن : النحاس — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٤٨ تفسير .
- (١٥٣) التمهيد لفوائد كتاب التمهيد الجامع لعلوم التنزيل : المهدوي —
نسخة خطية بدار الكتب رقم ٧٨ وأخرى برقم ٧٩ تفسير .
- (١٥٤) تفسير الماوردي : نسخة خطية رقم ١٩٦٩٣ تفسير .
- (١٥٥) طبقات المفسرين : المهدوي — نسخة خطية برقم ١٦٨ تاريخ :
- (١٥٦) فهرسة شيوخ ابن عطية — نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٤٦٤٩١ .

مراجع أجنبية

(157) C. Brockelmann,

Geschichte der arabischen Litteratur, Bd I.III, Leiden
1943 — 1946 und Suppl. I.III, Leiden 1937 — 1942

(158) Encyclopaedia Britannica vol. 25, Atlas, map No. 47. (Andalusia)

(159) Grand dictionnaire de Geographie universelle ancienne et moderne. Paris, vol. 3, P. 890.

الفهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة	١
الباب الأول — القرطبي ويثته	٥
الفصل الأول — نشأة القرطبي	٦
الفصل الثاني — أخلاقه وثقافته	٣٣
الفصل الثالث — هفيدة القرطبي	٥١
الفصل الرابع — الحركة العلمية في عصر القرطبي	٦٥
الفصل الخامس — الأصول السياسية في عصر الموحدين والأيوبيين	١٠٥
الباب الثاني — المصادر التي اعتمد عليها القرطبي	١٢١
الفصل الأول — مصادر القرطبي	١٢٣
الفصل الثاني — موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأى	١٨٥
الفصل الثالث — منهج القرطبي في القراءات الشاذة والمتواترة وموقفه منها	٢١٣
الفصل الرابع — اللغة في تفسير القرطبي	٢٣٧
الفصل الخامس — البلاغة في تفسير القرطبي	٢٩٣
الفصل السادس — موقف القرطبي من التفسير الرمزي	٣٠٥

الموضوع	صفحة
الفصل السابع — الأحكام في تفسير القرطبي	٣١٩
— عدم تمصّب القرطبي	٣٤٤
الفصل الثامن — أصول الفقه في تفسير القرطبي	٣٥٨
— العام والخاص	٣٧٠
الفصل التاسع — موقف القرطبي من الأحاديث التي ذكرها في تفسيره	٣٩٥
الفصل العاشر — الاسرائيليات في تفسير القرطبي	٤١٠
الفصل الحادي عشر — القيمة العلمية لتفسير القرطبي	٤١٨
الاب الثالث — مدى تأثير القرطبي بآراء علية	٤٢٧
الخلاصة	٤٦٥
المراجع	٤٧١

رقم الايداع ٥٣٥٠ / ١٩٧٨

التقديم الدولي ١ - ٣٦ - ٧٣٠٨ - ٩٧٧

